

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى • وتحية مباركة طيبة للذين اهتدوا
بهدى الرسل • ونهجوا متبعينهم الى يوم الدين • • •
أما بعد :

فقد وفقني الله تبارك وتعالى الى اختيار موضوع الرسالة بعد اعمال الفكر في اختيار
موضوع تكون له راسته وحته قريب الى الله • وذخرا لي في الآخرة • وغيرها ونفعا للناس
في حياتهم الدنيا • • •

وكان في موضوع " عصمة الأنبياء " والقرآن الكريم " ما تمنيته وقصدت اليه
فان الدفاع عن انبياء الله تعالى • وتزويدهم ما ناسب اليهم • وهم منه براء •
فيه تقرب الى الله باظهار فضل من فضله على الناس اجمعين • ودفع التهجم والتطاول
على من اصطفاهم على العالمين •

وفيه نفع للناس باحقاق الحق لهم • وابطال الباطل امامهم • وايضاح الحقائق التي
بخبا بها عنهم بضلون في شهاب الشوايخ • وتحريرون في اودية الجهالة • • •

وفيه قيام بالواجب تجاه اصناف من البشر تباينت عقائدهم • وتفاوتت مذهبهم • واختلفت
منازعتهم انا نرى فريقا من الناس لا يرون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عصمة • ولا لعدامتهم حرمة
فتراهم يكيلون لهم النقائص • ويفترون عليهم المعائب • • • يحسبون ذلك ديانة وشرا وخروج عن
وما هو الا من تزويج الشيطان • " فزين لهم الشيطان اعمالهم فصد هم عن السبيل فهم لا يهتدون " •
ويعدونه نبوفا فهم يتوهون به عجا • وما هو الا محض الجهل • وبين الضمائم
" لهم قدوب لا يفتقرون بها • ولهم أعين لا يبصرون بها • ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك
كالاغنام بل هياض أولئك هم الغافلون " •

وتجد فريقا آخر يؤمنون بالأنبياء وخصتهم • ويشعرون في قرارة أنفسهم بفساد
الرسول ونزاهة ساحتهم • ولكنهم في خيرة من جراه ما يسمعون من زيف • وعقولهم في لبس
من بعض ما يقرءون ما اختلط فيه الحق بالباطل • فتصب فيه للأنبياء المعاصي • وأستد اليهم
فعل المهذبات وان حقا علمنا أن تصدى لهؤلاء وأولئك • فتكشف عن باطل الباطل •
وتزيل اللبس عن عقل التحيرين • لا تترك الأولين يتعادون في غيهم ولا الآخرين تصف بهم
حياتهم

فتستحسن الأَبصار ؛ المناظر الجميلة ، وتكره المناظر القبيحة ، وتستمذب الأسماع
تناسق الأصوات وانتظامها وهدوؤها ، وتشمئز من ناشزها وتهفو الأنوف للروائح العطرية ،
وتستاء من الروائح الكريهة ، وهكذا ، وهذا الإدراك والتمييز من الحواس لا يفتى للتخلي بالمكالم
والتخلي عن النقائص ، لأن الإنسان قد يحجبه منظر امرأة شابة رائحة الجمال ، فيدبر النظر
إليها بما يحرك فريزته الحيوانية ، وشبه شهوته البهيمية فيرتكب - على أثر ذلك - الفاحشة
معها فيكون ما استحصنته الحواس مؤدبا إلى هال في الدنيا وشقا في الآخرة

كما أن الحواس وحدها لا توصلنا إلى مخبتنا من معرفة الله ، وصفاته ، وما يجب له ، وتستحيل
عليه ، ولا إلى إدراك الهمم الآخرة وما يكون فيه ، وإنما هي قاصرة عن هذا وذاك قصورا فاحصا
ليبر مصدره في نظري عدم الثقة بالمحسوسات وحده كما يرى حجة الاسلام الغزالي الذي قال :

من أين الثقة بالمحسوسات ، بأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير
متحرك وتحكم بنفس الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك
دفعه بخفة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكواكب فستراه
صغيرا في مقدار الدنيا ثم الأدلة الهندسية تدل على أنها أكبر من الأرض في المقدار ، وهذا
وأشاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذب حاكم العقل ويخونه تكف بهنسا
لا سهل التي أنها تتحجج قلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا (١)

وإنما مصدره أيضا أن الحواس لا تدرك إلا عالم الشهادة وحده ، أما عالم الغيب الذي هو أعظم وأرحب
وأرحب من عالم الشهادة فلا سهل للمحسوس إليه " عالم الغيب والشهادة الكبر المتعال " عالم
الغيب فلا يظهر على غيره أحدا إلا من ارتضى من رسول "

ونحن البشر تمجز حواسنا كل المجر عن إدراك الله عز وجل وصفاته فلم نره سبحانه " ولما جاء
موسى لهيئاتنا وكلمه به قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني " فكيف من طريقها تعرف الله
وتعبده حتى عباده " كما أننا - نحن البشر - لم نسمع كلمة منه مباشرة

كذلك لا نتق الملائكة والجن في دائرة الإدراك بحواسنا ، إلا ما جاء من الملائكة في صورة بشر
أو من الجن في شكل من الأشكال فحيثما ناله حواسنا ، أما الطبيعة الأصلية لكل منهما فلا
تخرج لإدراك حواسنا - نحن عامة البشر

وأمر البحث بعد الموت ، وما يليه من حشر ونشر وعرض وحساب وجزاء من جنات ونار

وان واجبا على كل من منحهم الله الايمان الخالص ، والفهم الصحيح ، ان يدفهمهم
صادق ايمانهم وان ينطلقوا من صحيح فهمهم الى احقاق الحق وابطال الباطل ، وازالة اللبس
الذي عرى بعض العقول ، بقولها ضعف ، وهزيمة لا يعتد بها وعن ولا تصور ان للباطل
والأوهام في دنيانا اقواما جمعوا جمعهم ، وشحذوا حشيمهم ، وأعدوا مخططهم ، وحسدوا
هد فهمهم الآن يسهون لهم ، ويصلون نهارهم ، ويذلون قناري جهدهم ، وهم يهينوا
سيطون بأبيهم ، ويحققون عد فهم ان لم يكن اليوم ففسدا وان لم يكن العام فالذي بهمسده
فكثرة الخطى تبلغ الانسان نهاية الطريق ، ومد اومة القرع على الأبواب يفتحها .

فان لم يكن للحق أنصار أوفياء ، ووجد أقباء بذودون عن بيضته ، ويحسون حماه ويقسسون
في وجه الباطل وأهله بما يفسد مخططهم ، وينقض تده بهرهم ، ويصلح أمضى من مسلاهم
ويقتله أوى من يفتنهم تمكن الباطل واستحكم الشر ، وكثر في الأرض الفساد ، وانتشر الزيف
والأوهام بين الصفاء

بعد قد يشتد غضب الله على من يرون الحق ضيما ولا ينصروه ، والباطل متكنا في الأرض
ولا يحاربوه ، واللهم يحير العقول ولا يزيلوه " ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات واليهدي
من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ، وليمعنهم الذين ، الا الذين تسابوا
وأصلحوا وهمنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم "

ما بطل الباطل ، وازالة اللبس من جانبا - معاشر العلماء - انما ينون بالبراهين الساطعة
والحجج الدامنة " بل نقذف بالحق على الباطل فهد منه فاذا هو زاغ "

وقد رأيت - في معالجة هذا البحث - أن يتكون من :

مقدمة وأهمية أبواب وخاتمة

أما المقدمة فتتناول ثلاث مسائل :

الأولى : الغاية من خلق الجن والانس

الثانية : قصور الحواس والعقول عن تحقيق الغاية من خلق البشر

الثالثة : النبوة هي السبيل لهيمنة البشر وصلاحيهم

وقد أطلت في المقدمة وخاصة فيما يتعلق بالنبوة ، والحاجة اليها ، وحكم الا رسال ، والوحي
وإمكانه ، ووقوعه ، والمجزئة ، وصفات الرسل حتى اذا تحدثت - بعد - عن " عصمة الأنبياء "
والقرآن " كما قد عرفنا شيئا عن " الأنبياء " والوحي " يتوخ لنا الحكم لهم بالعصمة .

وأما الباب الأول ففي معنى العصمة وأقسامها

ويتناول الباب الثاني الذم في البراهيسن على العصمة

والباب الثالث مناقشة كتب العهدين - القديم والجديد (التوراة والانجيل) فهما
نسب فيهما لأئمة من القبائح والذنوب ، وتفقد ذلك بما يدحضه ، وكشف عن زيفه

وفي الباب الرابع عرض للاشبهات التي ترونها البص من ظواهر بعض آيات القرآن الكريم
والاجابة عنها بما يبطالها ، ويطيح بها

وخصت بالذكر عشرة أئمة هم الذين وجهت اليهم شبه أكثر من غيرهم ، وجعلت الكلام عنهم
على هذا الترتيب :

أدم - نوح - ابراهيم - لوط - يوسف - موسى - داود - سليمان
يونس - محمدا عليهم الصلاة والسلام جميعا

وجعلت الخاتمة في أبطال شبه موجهة الى عموم الأئمة لا الى نبي معين

والله أسأل أن يجعل على هذا خالصا لوجهه الكريم ، نافعا للناس أجمعين مرضيا
عنى النبيين ، وأن يلهمني فيه السداد ويرفقني للصواب ، ويحفظني الزلل والاضطراب ، وأنه
أعز مسئل ، وأكرم مأمول ، ومنه وحده التوفيق ، والهتدي الى سواء المسبيل

وصل اللهم وسلم على أنبيائه ورسله أجمعين ، وارزق عن صحابتهم ، وتابعيهم باحسان
الى يوم الدين ..

السؤال الأولي :

(المقدمة)

الفاية من خلق الانسان

ان العاقل النصف لا يد أن يسأل نفسه : أي شيء خيره في حياته ، وأبقى إيمانه بعد معاناته ؟ وما الذي يجب أن يكسبه له عمره ، فيبذل من أجله قصارى جهده ؟
والاجابة عليهم هذا السؤال ليست بعيدة ، انها قريبة ، لكن ليست من كل انسان ، والحمد لله
" لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " .
لقد تكفل بها رب العالمين ، وضمنها كتابه الكريم الذي نزله تهبانا لكل شيء .
ونزلنا عليك الكتاب تهبانا لكل شيء ، وهدى رحمة وشرى للمسلمين " (١)
فقد بين سبحانه منافع الحياة الدنيا حتى لا نفتن بها ، وبين ما هو خير من منافع الدنيا حتى نصل له ، ونحرض عليه ، ولم يتركنا نجهد أنفسنا في البحث عن الطيب الموصول الى ما هو خير لنا ، فقد حدد ، وأوضح معالمه ، وذلك في قوله تعالى :
" زين للناس حب الشهوات من النساء ، والبنين ، والقناطر المقطورة من الذهب والفضة والخمير المسومة والأعنام والحرف ذلت منافع الحياة الدنيا والله عنده حسن العاقب - قل أولئك هم الخاسرون
من ذلكم الذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أزواج مطهرة يرضون من الله والله بصير بالصالحين " (٢)

بفسر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ولا الأموال فبدأ بالنساء ، لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما تركت بعدى فتنة أضرت على الرجال من النساء " (٣)

فأما اذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب اليه في البخاري عن عبد الله قال : قال صلى الله عليه وسلم " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج " . . " (٤)
وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل ، وتقوية الأمة الاسلامية فهذا محمود مندوح كما ثبت في الحديث :
" تزوجوا الودود الولود فاني مكاثركم الأمم يوم القيامة "

(١) سورة النحل الآية ٨٩
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٤ - ١٥
(٣) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٥٨
(٤) صحيح البخاري : ج ٣ ص ١٥٥

وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخير ، والتجبر على الضعفاء ، والتكبر على الفقراء
فهذا مذموم وتارة يكون للثقة في القرابت ، ووجه الأرحام والقرارات ، ووجه الهر والطاعات
فهذا مدح محمود شوعا ، والقفاطير المقنطرة ، قد اختلف المفسرون فيها على أقوال
حاصلها : أمه المال التبر كما قاله الضحاك وفيه :
" والخيل المسومة " الراعية والطهجة الحسان
" والأنعام " الأهل والبقر والغنم
" والحيت " الأثر المتخذة للقياس والزراعة
ثم قال تعالى " ذلك معاج الحياة الدنيا " أي إذا عدا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية
الزائلة "

" والله عند حسن العآب " حسن المرجع والثواب (١)

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس بما هو خير لهم مما زين لهم في هذه الدنيا
وهو الجنة ورضوان الله " قل أولئككم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من
تحتها الأنهار خالدون فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد "

فخبروا " لئلا يظنوا أن الله يفتنهم ، والذي يوصل إلى هذا إنما هو تقوى الله عز
وجل والذي يبلخ بالانسان منزلة التقوى هو عبادة الله سبحانه - قال تعالى :

" يا أيها الناس أهدوا بهكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " (٢)

فقد أمر الله تعالى الناس جميعا بعبادته - الكفار والمؤمنين - أما الكفار فمأمورون أن ينشروا
المصداقة وأما المؤمنون فمأمورون بالثبات عليها والزيادة فيها

ولا يمتنع : بأن المصداقة شرطها الإيمان ، وهو متفق في غير المؤمنين : لأن الأمر بالمصداقة
متضمن الأمر بالاعتقاد بالله

وقد قيل : المراد بالمصداقة ما يصرف أفعال القلب أيضا ، لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخروج
وقبول : معنى " اعبدوا " وحسدوا وأطيعوا

" لعلكم تتقون " مطلقا منكم التقوى ، أو خلقكم لتتقوا ، فالله خلق المصداق لأجل التقوى

قال أم السعدي : وإيثار " تتقون " على " تعبدون " مع موافقته لقوله تعالى " وما خلقت

الجن والانس إلا ليعبدون " للمخالفة في إيجاب المصداقة ، والتشديد في التزامها ، لما

أن التقوى قصارى أمر العابد وينتهي جهده ، فإذا ألزمهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم

والإتيان به أهون (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢١

(٣) تفسير أبو السعود ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨

وقد أخبر سبحانه أنه إنما خلق الجن والإنس لعبادته فقال تعالى :

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموا - إن الله هو العزيز المتين "

والمعنى : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني . وتفسير العبادة بها التوحيد هو مذهب

ابن عباس رضي الله عنهما اختاره النسفي قائلًا : (والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد فقصد

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل عبادة في القرآن فهي توحيد)

ولكننا نرى في الدنيا كثيرين فهم مجرد بنوع ما وجه هذا القول إذن :

يقول الخازن : فأما المؤمن فيجده اختياراً في الشدة والرخاء . وأما الكافر فيجده اضطراراً

في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء (١)

قال تعالى " وإذا فشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم

مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور " (٢)

الظلل : الجبال ، وقول الصحاب

المقتصد : العدل السوي في البر بما عاهد عليه الله في البحر من التوحيد والثبوت على الإيمان

الختار : الضدار ، والكفور : الجحود لأنهم لم يعبده

قال الخازن : معناه : أن الإنسان إذا وقع في شدة ابتس إلى الله بالدهاء وثبت كل من

عده ، ونسى جميع ما سواه فإذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد

وهو قوله تعالى " فمنهم مقتصد " ومنهم من لم يعبدهما عاهد وهو المراد بقوله " وما يجحد

بآياتنا إلا كل ختار كفور "

وقيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل ، وذلك أنه هرب عام الشح إلى البحر فجاهم بهسبح

عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأضمن يدي

في يده فسكتت الريح ورجح عكرمة السمسمة وأسلم وحسن إسلامه (٣)

وقد أخبر الله تعالى عن المشركين به أنهم يعرفون أنه خالق السموات والأرض وحدة لا شريك

له قال تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " فإذا سئلوا : لمساذا

تعبدون الأصنام ؟ يقولون : لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده " والذين اتخذوا من

دونه أولياء ما نعبدهم " أى قالوا " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى "

وهي آخرون أن المعنى :

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني ، وحسنه الخازن فقال : وهذا حسن ، لأنه لو لم

يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل ج ٤ ص ١٩٥

(٢) سورة لقمان الآية ٣٢

(٣) لباب التأويل ج ٤ ص ٤٦٥

وقيل المعنى : الا لهضعو الى ويتذللوا

ويؤيده : أن معنى العبادة في اللغة : التذلل والخضوع ، وكل مخلوق من الجن والانس
خاضع لقضاء الله بتذلل المشبهة لا يملك أحد لنفسه خروجا عما خلق له
وقال علي بن أبي طالب : الا لأمرهم أن يعبدوني وأمرهم الى عبادتي ، أي انما خلقتهم لأمرهم
بعبادتي لا لاحتياجي اليهم

وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون

فالمعنى : وما خلقت الجن والانس من المؤمنين الا ليعبدون ، قال النضمي : العبادة ان
حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة ، بل المراد بها المؤمنون من الفريقين دليله السجدة
أعني " وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين "

وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما : وما خلقت الجن والانس من المؤمنين ، وهذا لأنه لا يجوز
أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة ، لأنه اذا خلقهم للعبادة ، وأراد منهم
العبادة فلا بد أن توجد منهم ، فاذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال " ولقد رأينا
لجهنم كثيرا من الجن والانس " (1) وقول :

المعنى : أن الله خلق الجن والانس مستعدين لعبادته متمكين منها أتم استعداد وأكمل
تمكن مع كونها مطلوبة منهم

وفي قوله تعالى " ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " بيان لكون شأنه تعالى مسبح
عباده متعاليا على أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يذكروهم ليعتصموا بهم في تحصيل
معاشهم وشهواتهم ، أي ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا يرزقهم ، بل أنفصل
عليهم يرزقهم وما يصلحهم ويصبرهم من عندي ، فلهشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي

" ان الله هو الرزاق " الذي يرزق كل ما يشاء الى الرزق ، وفيه تلويح بأنه فني عنهم

" ذو القوة المتين " الشد يد القوة

فالآن قد وضع لنا أن البشر انما خلقوا للحياة الماقية ، وما حياتهم الدنيا الا امتحان ينسب
بمقتضاه توزيعهم في الآخرة ، وذهاب قلوبهم الى الجنة وفيه الى السعير - وأن رضوان
الله وحننه خير لنا من غضبه وتأريه ، والوصول الى رضوانه وحننه انما هو بتقواه وطاعته " تسبيل
أو نيتكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أزواج
مطهرة ورضوان من الله "

ووسيلة لتقوى عبادة الله وحده " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم

تتقون "

وهل تعرف عبادة الله وتم على وجهها الصحيح من معرفته ، والخضوع له ، وتوحيده
الوجه اليه وحده ، واسلم النفوس له دون سواه ، والالتزام بأوامره ، والكف عن نواهيه والتخلي
بالفضائل واجتناب الرذائل ، من طريق الحواس ، أو من طريق العقل ؟
كلا : فليمت الحواس وعدها بعوضة أصحابها إلى الخير فزاجره لهم عن الشر ، كما أن
العقل بعفدها ليسب بهادبة أصحابها إلى الطريق الأقوم والسعادة المثلى .

المقالة الثانية

قصور الحواس والعقل عن تحقيق الغاية
من خلق البشر

حتى يتبين لنا عجز الحواس والعقل عن الوصول بالبشر إلى ما خلقوا من أجله ، فانه ينبغي
أن نتحدث - بإيجاز - عن الحواس وقد رأتها - باعتبارها سببا من أسباب العلم - وعن العقل
وأمكاناته - باعتباره سببا آخر للعلم ، فإذا ما ظهر عجز الحواس وقصور العقل عن أن يبلغنا
بالبشر الغاية التي لها خلقوا - ومن أجلها وجدوا - تعيين السبب الثالث للعلم وهو
" وحى الله إلى أنبيائه ورسله " سبباً موصلاً لهذه الهداية البشرية وتحقيق الحياة الطيبة لهم في الدنيا
والحياة الأفضل والأبعد لهم في الآخرة .

(١) الحواس :

الحواس : جمع حاسة بمعنى القوة الحساسة ، وهي خمس :
السمع : وتدرك بها الأصوات ، والبصر : وتدرك بها الأضواء والألوان والأشكال والمقادير والحركات
والجمال والنهج ، وفير ذلك ما يخلق الله تعالى إذ رآه في النفس عند استعمال الحسد تلك القوة
والشم : وتدرك بها الروائح - والذوق : وتدرك بها الطعم ، واللمس : وتدرك بها الحرارة
والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، وفير ذلك من الخشونة والنعومة والصلابة ونكسها .
وقد خلق الله كلاً من تلك الحواس لادراك أشياء مخصوصة كالسمع للأصوات ، والشم للروائح
لا يدرك بحاسة منها ما يدرك بالأخرى ، فاللمس مثلاً قاصو عن ادراك الألوان والأصوات قطباً
فهى كالمعدومة في حى اللمس - والعلم الثابت بالحواس هو الذى أى حاصل بدون الاستدلال
وقيل : اكتسابى أى حاصل مباشرة الأسباب بالاختيار (١) والادراك بالحواس لا يحمل أصحابه
على الاتصاف بالفضائل ، والحمد عن الرذائل بل قصاراه أن يميز بين الجميل من البدركسات
والقبيح ، فهتحن الأول ويفر من الثانى

(١) المقامك النفسوة وشرحها لك فتازانى من ع ٢٦ - ٢٨

كل ذلك لا سبيل إليه بحواسنا ، لأن موعده الآخرة ، قد علم لنا به الاعن طرفه الوحسسي
 وعلى هذا فالحواس لا تكفي لتحقيق الحياة الأمل في الدنيا ، والأسمه في الآخرة .

العقل

عرفه قوم بأنه قوة للتفكير بها تستمد للعلوم والآراء
 وعرفه آخرون : بأنه فريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات
 وقبيل : هو جوهر يدرك به الثابتهات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة
 والذي يدينها هنا : أن العقل سبب للعلم ، ودوره وثيقته في صلاح حال الانسان ، أما
 تعريفات العقل ، والموازنة بينها ، واختيار أدقها وأرجحها محلا يفتننا هنا
 والعلم الثابت عن طريق العقل بالمهد بهة ضروري كالعلم بأن كل شيء أعظم من جزئها الثابته
 بالاستدلال ، أي النظر في الدليل الكسبي (١)
 والمقل لا يكفي بمفرده ، فبصلا في الخير والشر ، ولا يستطيع وحده ، أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته
 في عاجل أمر ، وأجله ، وإنما السبيل لهداية البشر هو رسالات الله .
 رسالا للسنن - السبيل لهداية البشر ،
 وذلك لأصحاب الآمة ؛

الأول : ان العقل يستطيع أن يميز بين الحسن والقبيح في بعض الأحيان ، ولكنه في أحيان
 أخرى تحت تأثير عوامل خارجية - وما أكثرها - يستحسن القبيح ، ويرى الاستسكان به ، ويستقبح
 الحسن ويفضل التخلي عنه ، ولا ينفذ الانسان في مثل هذه المواقف إلا الصبر الحى ، والسوانج
 الصينى الذى اكتسبه من تعاليم الدين ، وقومه ، كالمدين مثلا يستحسنه العقل ، ولكن عند ما
 يرى فيه منبهة لمختم عاجل ، أو جليها لخسارة مؤلمة فان عقولا كثيرة - لا يراقب أصحابها وهم
 ترى الاستغناء عنه واستبداله بالكذب الذى ينجى من عقاب عادل ، أو يحقق لذة فانية .
 فالعقل - وهذا حاله - يستحسن الكذب - أحيانا - وهو قبيح ، وهدو صاحبه لا يتسكاب
 الذنب وهو ضار به في الآخرة .

الثاني : من الأعمال ما يستطيع العقل أن يدرك وجه الفائدة منها ، وهي الأعمال المعقولة
 المعنى كالوضوء والغسل ، وطهارة البدن والثوب ، إذ فيها حفظ الصحة ، وتجنب الأمراض
 ومن العبادات ما لا يستطيع العقل أن يدرك أسرارها ، والحكمة فيها تكون الظهور أيسر
 والمخرب مثلا ، وتكون الصيام شهرا ، من الزيادة عليه أو النقص منه ، وهنا يقرر الشرح :
 أن فائدة ذلك تعبدية ، وهي محض امتثال أمر الله تعالى ، ومن ملاحظة معنى خاص في هذا
 التحديد (٢)

(١) العقائد النسفية وشرحها للفتنازاني ص ٣٦ - ٤٠

(٢) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٧٩

الثالث : ان الانسان مركب من مادة وروح ، ولكن منهما غذاءه والذي لا يستغنى عنه ، ومقوماته التي لا يصلح شأنه الا بها ، وهذا بالنسبة للمعصر الماء في الاطعمة والاشربة - وكل ما لا يستغنى عنه الجسم ، والنسبة للروح في محنوياته لا تغنى بها المعنوي والافكار ، وانما تغنيها هدايات الله - عن طريق رسالة - التي تهيب البشر تهيبا كاملة لا تعد لها تهيبه غيرها ، فتسعدهم في اولاهم وفي آخرهم (١) .

الرابع : فطر الله الانسان على معرفته ، والاتجاه اليه ، ما من مولود الا يولد على الفطرة فاعلم ان الله يهودانه او ينصرانه (٢) ولكن الانسان ينحرف عن الفطرة السليمة بتأثير عوامل متعددة .

منها الشياطين : كما ورد " اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " (٣) ومنها : تقليد الآباء والاجداد والمنحرفين ، هدى على هذا قوله تعالى " واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا على آباءنا " .

ومنها : مصاحبة الاشوار المنمقة بين وشهر الى هذا قوله تعالى " ويوم يعض الضال على يده يقسمون بالعتى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ولتني لم اتخذ فدا خيلا - لقد اعلنت عن الذكر بعد ان جاءني " كما ان القلوب تقسم والشهوات تتحكم في البشر كلما بعد العهد بهم عن ازيمة نزول الوحي ، وارسل الرسل " ألم بأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما انزل من الحق ولا يكونوا كالذي يفترون آيات الكتاب من قبل فطام عليهم الامم فقست قلوبهم وشقوا منهم فاسفون " حتى قول ان الله انزل الفرتناجون لهذا فاقضت حكما لله تعالى ان هو الى يوم الرسل لهمدوا الضالين الى الهدى والمنحرفين الى جاد الصواب وقد بين الحق سبحانه : ان الناس كانوا على الهدى فضلوا ، فأرسل الرسل لاعادتهم الى الهدى ، واصبح ما بعد من اوضاعهم ، ورد هم الى ما ركز في فطرتهم من معرفته .

قال تعالى " فان النار أمقواحدة نعمت الله النبيين مبشرين ومنذرين "

أى كانوا أمقواحدة في الهداية ، فضلوا فأرسل الله الرسل لاعادتهم الى الهدى .

الخامس : المقول البشرية تتفاوت في ادراكاتها ، والحكم على الاشياء من حولها ، فقد يستحسن عقل عملا من الاعمال ، بينما يستقبحه عقل آخر ، فالاحتكام الى المقول - وغذا شأنها - احتكام الى قاصر فلا بد من فصل ، يطلع كل امور في موضعه الصحيح حتى لا يضل انسان ويشق .

وحتى أرقى المقول ادراكا وأكثرنا تفتحا ونسوجا لا يهتدي بنفسه في كل مناحي الحياه ، ولا يستقيم حكمه على جميع امورها ، وانما يهتدي بعدد من شئون الحياه وأوضاعها لغزا محيرا للعقول عسيها .

(١) دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن والمنظور شورع الفنى الراجح ج ٢ ص ٤٨

(٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ٩٨

(٣) صحيح مسلم .

ادراكه على الوجه الصحيح ، ويهدا تفضل المنقون حتى ارقاها وأنضجها بحورية من كسالات كثيرة وأسوار الهيبة ، وما وافق هائية فوى الحمولات لها الا عن طريق الرسل والرسالات ولهذا لا تثبت الحجة على الصباه الا بالرسل .

قال تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا "

وقال " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل "

وقال تعالى " ولو انا اهلكناهم بعد ادب من قبله لقالوا ولنا لولا ارسلت اليك رسولا فتبسع

آياتك من قبل ان نذل ونخزي "

وقال تعالى أيضا " وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون - ذكرى وما كنا ظالمين "

فالله تعالى لا يهلك قوما الا بعد الاعذار الهيم ، والاعذار ولهم بهمة الرسل الهيم ، وقبيلهم

الحجة عليهم .

وقد قرر شمس الدين الاصفهاني الحجة من وجوه ثلاثة :

الاول : ان يقولوا ان الله تعالى ان خلقنا لنمجه ، فقد كان يجب ان يبين لنا الصباه عالتى يريد هبنا منا ، وكم هي ، وكيف هي ، وان يجب أصل الطاعة في العقل ، ولكن كيفيتها غير معلومة لنا فهمت الله الرسل لقطع هذا المذرفانهم اذا بينوا الشوايح مفصلة زالت اعذارهم .

الثاني : ان يقولوا انك يا رب ربنا تركيب سهوة وخفة وسلطت علينا الهوى والشهوات فهذا امدد تنسنا يا الهنا بمن اذا سهونا نهينا ، وانما ما بنا الهوى منعنا ، ولتلك لما تركنا مغفوسنا وأجوائننا فان ذلك امراء لنا على تلك القبايح .

الثالث : ان يقولوا : هبانا بمقولنا علمنا حسن الايمان وقبح الكفر ، ولكن لم تعلم بمقولنا ان من نصل القبح عذب خالد ، ولا سيما ونعلم ان لنا في فعل القبح لذة ، ولقد سله فيه مضسرة ولم نعلم ان من آمن وعمل صالحا استحق الثواب لاسبابا وكنا قد علمنا انه لا منقذك في شيء ، فلا جسر لم يثن مجود العلم بالحسن والقبح داعيا ولا اوعزا اما بعد الهمشقة انه قدمت هذه الاعذار (١)

السادس : ان بعض الافذية والادب يقضار بالانسان - وقد يوهى الى هلكه ويمضها الاخر نافع للانسان ويفيد له ، فلو انتظر الانسان انكشاف النافع منها من الضار بالتجربته بطلون به الانتظار ، وقد يهلك الانسان أثناء التجربة ، وقد تسر أحبسال قبل ان تتكشف

(١) مطالع الاناس وطولح الانوار ص ٢٠٧ - ٢٠٨

التجربتين شي * *

ولكن الرسل بما ينزل عليهم من شرائع الله يفصلون كل هذا تفصيلا بيننا نفي شريعة
الاسلام تمييز الطيب منها من الخبيث ، والنافع من الضار ، في آيات وأحاديث متعددة * ونحن لهم
الطيبات وحرم عليهم الخبائث * * وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررت اليه * وقد فصل الله
الخبائث الضارة في مواضع كثيرة منها * حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به
والمتخنة والموقودة والمطرقة والمنطحة وما أكل السبع الا ما ذكركم وما ذبح على النصب وان استقدمتم
بالا زلام ذلكم فس * ومنها * قل لا أجد فيها أرحى الى محرما على طاعم يشمه الا أن يكون ميتة
او دما مسفوحا او لحم خنزير فانه رجس او فسقا أسن لغير الله لله وحرم الشراب المسكر ضرورة للعقل
والجسم * يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
لعلكم تفلحون * *

وحتى الاطعمة والاشربة الحلال تدعو الشرائع الى الاعتدال في تناولها بما يحفظ الصحة
ويقى من الهلكة * وكلوا واشربوا ولا تسرعوا انه لا يحب المسرفين * *

وفي التداوي بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتداوي ونهي عن التداوي بحرم في قوله
لم يجز الله شفاء امي فيما حرم عليها * وقوله * ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء تداواوا (رواه
البخاري) *

السابع : رشح الله الانسان ليكون خليفته في الارض ولما أخبر بهذا ملائكته ، سأله عن الخليفة
في استخلاف بني آدم ومنهم من يفسد في الارض ويسفك الدماء بينما هم يسبحون بحمد الله ويقدمون
له ، فأجابهم الله حين سألهم بأنه في بني آدم خصائص توهبهم للخلافة في الارض * وان قال عليك للملائكة
انني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك قال اني اعلم ما لا تعلمون وطم آدم الاسماء كلها * * *

فبنوا آدم ليسوا جميعا أشرا وانفسد بن في الارض ، بل منهم المصومون عن المصيان وهم
الرسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم المشركون هدى الرسل فهم لا يضلون ولا يشقون ولا خوف عليهم
ولا هم يحزنون * *

قال تعالى * قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم من هدى فمن
اتبع هدى اي فلا يحمل ولا يشقى * *

فالرسالات وليست العقول ولا أفكارها حلت من هدايات * انما تجنب الانسان خطر الضلال
والشقاء وتحقق له شرف الخلافة عن الله في أرضه (٢)

(١) التحقيق التام في علم الدائم الشيخ محمد الحسيني الطواغوري عن ١٥٣

(٢) دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن الكريم والسنة للشيخ عبد الله الرازي ج ٢ عن ٥٣

الثامن : خلق الله في الانسان قوتين الشر والخير ، وقوى الخير ، وقوى الشر كالشهوة والغضب لو اسحكمت في الانسان اهلكته وجعلته يذل ويخزي ، وينحط الى مرتبة الحيوان او أدنى " ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لانهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اثلثك هم الغافلون "

وقوى الخير كالعدل والرحمة وما الى ذلك لو حكمت تصرفات الانسان وتغلبت على قوتها الشرية فانها تسده في الدنيا وتنجيه في الآخرة ، كما ان قوى الشر لو تغلبت لشقى الانسان في العاجل والاجل " فاما من طغى - وأثر الحياة الدنيا - فان الجحيم هي المأوى - واما من خاب مقام به ونهسى النفس عن الهوى - فان الجنة هي المأوى "

واعذر قوى الخير على قوتها الشر في الانسان انما يكون بالايه بان والرسول " لقد أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " وقال في تعالي ايضا " فامنا بأعينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضر ولا يشقى "

فالرسول وليست العقول هي التي تسمى بقوى الخير ، وتعملها على قوى الشر ، وبهذا يحيا الانسان في الدنيا بحياة طيبة وينان في الآخرة الحسنى وزيادة .

قال شمس الدين الاصفهاني : واستعمال الشرع نافع في أمور ثلاثة :-

الاول : رياضة القوى النفسانية بمنعها عن متاهة الشهوة وعن التخيلات والتوهيمات والاحساسات والافاعيل الشهيرة للشهوة والغضب المانعة عن توجه النفس الناطقة الى جناب القدس .

الثاني : اقامة النظر في الامور المأجلة المقدسة عن الحوارض المادية والفواض الحية لئلا يحسب الملكوت .

الثالث : تذكر انذارات الشارع ووعده للمحسن ووعده للعاصي المستلزم لاقامة العدل بزيادة الاجر الجزيل والثواب العظيم في الآخرة (١) .

التاسع :

ان الانسان لا يمكن أن يكون قد خلق للحياة الدنيا فحسب ، لان عمر الانسان محدود وقد يقضيه او يمرضه في تلعبو الآم ومماناة لامراض واسقام ومقاساة لشدائد وحرمان وقد يعرضه بشهوات الانسان مظلوما مهضوم الحق من قوى متسلط عليهم فتى يورج الظلم عنه وينان حقه وقد يحيا حسرا المرء طالما غشوما مغتصبا لحقوق الآخرين فتى يجازى على ظلمه .

ان الراحة من العطاء ، وأخذ الظلم حقه ، والظلم جزاءه ، لا بد أن يتم من حيثية
 أخرى يتوفر فيها الراحة والتعويض لمن هو أهل لها ، والشقاء والمذابيل من يستحقها
 ولكن كيف تكون المحاسبة على الأعمال وتحدد الثواب أو العقاب لكل منهما ، وتفصيل
 ألوان التعويض وأنواع العقاب في حياة دائمة حاله ما دامت السموات والأرض .
 ان المقول الهنسي لا يمكن أن يصل وحده الى معرفة كل هذا عن الحياة الأخسرى
 فلا بد ان من معرفتها عن طريق الآلهة ان والى يصل (١)

الماشور :

الانسان مدني - اجتماعي - بطبعه ، وهو يحتاج في مجتمعه الى غذاء ولهاس يمكن
 وغير ذلك من سائر ما يحتاجه ، ولا يمكنه القيام بتلك الأمور جميعها بمفرده ، وانما
 بمشاركة ومعاونة مع الآخرين ، وخلال ذلك يرضى الانسان في الامتثال لنفسه بشكل
 محبور بما يفرضه على غيره فيحدث التصادم المودى الى الغضب ، المستبح لاجور
 والظلم ، فيختل أمر الاجتماع ، ولا يتدفع هذا الا بالقرامير قواعد وقوانين
 للمحافظة والمعدل تتناول شتى نواحي حياتهم
 ولا تصح هذه القوانين وفيها بالخير منها ان كانت من وضع البشر ، لان الواضعين
 لها - وان كانوا ناهضين ناهضين - لا يقفون على حقائق الأمور على وجهها الصحيح
 لا لغيره والجماعات في الأزمنة المختلفة ، والأمكنة المتعددة مع اختلاف المسادات
 والآهات والشذافات

ولهذا يخذلف البشر ويتنازعون في وضع قوانينهم مما يؤدي الى الفساد والاضطراب
 ولا مدعى من هذا كله ولا حاصر الا أن تكون القوانين من خارج البشر المتنازعين
 أي من وضع الآله الحكيم الذي يرعى طرق الصفة المتأثرة من عباده ، فيحكمون بين
 آل بشرهما أنزل الله اليهم ، يهتدون ما اختلفوا فيه الناس .
 وقد جاءت في القرآن الكريم آيات متعددة تأمر الرسل عليهم الصلاة والسلام أن -
 يحكموا بين الناس بما اختلفوا فيه بما أنزل الله عليهم .
 قال تعالى : " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأُنزل
 معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه " .
 أي : كان الناس أمة واحدة على الدين الحق فاختلوا وضلوا فبعث الله الرسل
 النبيين مبشرين بالثواب لمن يؤمن ، ومنذرين بالعقاب للكافرين ، وأنزل

(١) رسالة الى محمد بن ابي طالب في معرفة الله ص ٩٠

بالتواب للمؤمنين ، ومنذرين للعقاب للكافرين ، وانزل الى كل واحد منهم كتابا
بتبيان الحسنى ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

كذلك اخبر الحق سبحانه انه انزل الكتاب على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لكي يحكم
بين الناس بما عرفه الله ووحى به اليه ، ان الرسل يطلقها الله عز وجل بوحيه على ما لا يطلع عليه
غيرهم ولذا فتحكمهم اعدل وأوفق .

وحتى اذا اجتهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام عند عدم النص فان اعابوا كان حكمهم من
الله وان اخطأوا تداركهم الله بالتصحيح والبيان ، ولا يقوهم على خطأ في الاجتهاد قال تعالى
" انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله .

كذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم اذا حكم بين أهل الكتاب ان يحكم بما أنزل
الله عليه في القرآن قال تعالى " وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيننا
عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله .

ان انزلنا اليك القرآن بتبيين الصواب من الخطأ مصدقا لما تقدمه من التنبؤ ، وموافقا
لها في التوحيد والعبادة ، وشاعدها بالصححة والنباتة ، فاحكم بينهم بما أنزل الله في القرآن ،
ولا تحكم بما عرفوه هدى لوه ، لان ما وقف به التحريف والتبديل صادر من عند عم لا من عند الله .

ومن لم يرض بحكم الله المنزل في كتابه فانه يرتكب ذنبا كبيرا سيهلكه الله به قال
تعالى " وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهوائهم وأخذ وهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل
الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس والفاسقون .
ان القرآن الكريم يهدي للتي هي اقرب ، ويبين ما استهيم من الاحكام ، فهو الصالح
للحكم به بين أهل الكتاب

ولقد نالت التوراه والانجيل صالحين للحكم ، فبيها فيما اختلف فيه أهلها وقيلين ببيان
ما استهيم على اليهود والنصارى كما قال تعالى " . . انا انزلنا التوراه فيها هدى ونور يحتم بها النبيون
الذين اسلموا للذين هادوا واليهانيم والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله " . .

وكما قال تعالى " وثقفنا على آثارهم يعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراه

وآتيناهم الانجيل فيه هدى ونور يصدقا لما بين يديه من التوراه وهدى وموعظة
للمتقين وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه

ولكن لما اوقفوا فيهما التبدلين والتحويل عاروا لا يصح الحكم بغيرهم الا بما في القسرات
الكريم - ولما كان بعض الناس يقدمون على مخالفة الشئ لذا فقد وجب ان يكون للمطبخ وواب -
وللمعاصي عقاب ، ليحملهم الرجاء والخوب على فممس الطاعة وتترك المعصية .

ولما كان المشبه والمضاد عوالمه وحده فقد وجهت معرفته ، وأنه المتصف لكل كمال
والمنزّه عن كل نقص ، وأنه ليس كمثل شئ ، والاتصال به بمجاهدات تذكر به ، وتكرر في اوقاسات
متتالية كالصلاة وغيرها من المجاهدات .

وارضاؤه بالالتزام بمعاملات قائمة على العدل .

والتقرب اليها التحلي بأخلاق فاضلة بحبها ، والتخلي عن نقائص مردولة يهبطها -
وهذا من شأنه أن يقيم نظام النعم الانساني على أكمل وجه ، ويجنبه الفساد والاضطراب
وهو - كما اسلفنا - لا يتم عن طريق المعنى البشري ، بل هو فوق طاقته ، وإنما عن طريق
الانبياء الذين يجب ان يكونوا في نظر المعنى والشرح قوة طبيعية ، وأسوة حسنة حتى يتم
الانتفاع بهم والافتخار بدعوتهم .

ولزينا قبل بيان خصم الوصل عليهم الصلاة والسلام من كل ما يقدم فيهم كهدية من الحسن
الى الخلق واتصافهم بكل كمال بشري كانوا به أسس البشر فطورا ، وأصحابهم عقولا ، وأصدقهم
أقوالا وأعظمهم أمانة ، وأعلمهم اهدانا من كل ما ينفسر منهم .

ان تقدم تصريفا بالنبوة والرسالة وحكم ارسال الرسل ، والرحى وامكانه ووقوعه
والمعجزة ، والصفات الواجب على رسل .

بعد أن تقول له بنا ان الخواص وحدها غير قادرة على ايقان لانسان ، واضعاً
حياته بنور الايمان بالله وملائكته والهمم الاخر وغير كافيه في حمل اصحابها على التخلي بالفتائل
والتخلي عن الرزائل وان العقل - بدون هداية الرسل - ليس في وسعه ان يعرف من الله ما يجزى
ان يعرف ، ولا ان يدرك من الحياة الا حوتها بنهض ان يدرك - ولا ان يصل بصاحبه الى الحياة
الامل في الدنيا والاسعد في الآخرة فقد تأكد عندنا ان الرسل والانبياء هم الذين يخرجون البشر
من ظلمات القهر والمصيان الى نور الايمان والطاعة ، وانهم الاسوة الحسنة والقوة والطيبانة ،
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذبح الله ثبوتاً .

ولزمنا قبل بيان استقامة فطرهم وصدق عقولهم ، وسو نفوسهم وبراءة ما احتسبهم
عما يصيبهم ان تقدم تصريفاً بالنبي والرسول عندنا وعند غيرنا من اليهود والنصارى وحكم الايمان .
النبي : اما من النبأ لانه ينهى عن الله تعالى ان يخبر فترك همزة . ناله الغراء ، وهو فمبطل
بمعنى فاعل تركوا همزة كالذوية ، والهمزة ، والجابية الا أهل مكة فانهم همهميون الاربعة ، ولا يهزمون
غيرها وبخالفون العرب في ذلك فيقولون : النبي - قال ابن بري : صوابه ان يقول : فمبطل بمعنى
مفعل مثل تدير بمعنى منذر ، فالنبي والنبي : المشبه عن الله عز وجل .

وجمع النبي : أنبياء ، ونبأ قال المباسي بن مرداس

يا خاتم النبأ انك موسى : بالخبر كل عدى السبيل هداكا

قال الجوهري : ويجمع على أنبياء ، لان الهمزة تليها اهدال والزم الابدال جمع جمع ما أصل لانه حركات
الملة كعيد وأعباد .

واما من النبوة ، والنبوة ، وهي ما ارتفعن الارض وحينئذ يكون معناه : الذي شرف على ما تسمى
الخلق فأصله بنحير الهمزة ، وهو فمبطل بمعنى مفعل ، والجمع انبياء .
ويقال : نبأت من الارض الى ارض اخرى ، اذا خرجت منها اليها ، ومن هنا قال الاعرابي لنبينا صلى
الله عليه وسلم : يا نبي الله ، فهمز . يريد بامن خرج من مكة الى المدينة ، فأكثر عليه الهمز
لانه ليس من لغة قريش .

ونبأ عليهم نبأ نبأ ونهزة : هجس وطلع

وقيل : النبي : الطوبى الواض ، ومنه قيل للرسول أنبياء لكونهم طرق الهداية الواضحة الى الله (١)

(١) مختار الصحاح ، ولسان العرب ج ١ ص ١٦٦ وما بعد ذلك .

والرسول في اللغة : الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم / جاءت الابل رسلاً أي متتابعة
والرسول ايضاً : بمعنى الرسالة فيوشيد كره فمن انتم جمدوا رسلاً قال الشاعر : قد انتهت
ارسلت والرسول الرسالة والمرس ، وفي التنزيل العزيز * فقولا انا رسول رب العالمين * ولم يقبل
رسلاً لان رسلاً ومعنى لا يتولى فيهما المذكور والمؤنث ، والواحد والجمع مثل عدو وعديق ، والجمع
ارسل ورسلاً - الاخيوة عن ابن الاعراب .

وقال ابو اسحاق النحوي في قوله عز وجل حكايه عن موسى وأخيه * فقولا انا رسول
رب العالمين *

معناه : انا رسالة رب العالمين أي ذوا رسالة رب العالمين .
وسمى الرسول رسلاً لانه ذو رسول اي ذوا رسالة ، والرسول : اسم من أرسلت وكذلك الرسالة
وارس الشئ اطلقه واسلمه .

بالارسال التوجيه ، ومن معاني الارسال ايضاً التسليط كما في قوله تعالى * الم ترانا ارسلنا الشياطين
على الكافرين توهمهم ارسلاً *

وارسال الله الانبياء ارسلاً هو وحده اليهم ان اندروا عبادي (١)
وقال المصام : الرسول مختص في لسان الشئ بالانسان والاطلاقات الواقعة على الملك في القرآن وغيره
اطلاقاً لغوي (٢) .

وعرف التفازني الرسول بأنه انسان بعثه الله تعالى الى الخلق لتبليح الاحكام . وقد
بشروط فيه الكتاب بخلاف النبي فانه اعم .

وعرف الرسالة بأنها : سفارة المهد بين الله تعالى وبين ذوى الالهاب من خلقه ليزيح بها ظلمهم
فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة (٣) .

وقد اختلف علماء الكلام في النسبة بين الرسول والنبي فقال جمهور المعتزلة وهم
التأخرين من الاشاعرة : ان النبي والرسول متساويان فالرسول : هو انسان بعثه الله تعالى الى
الخلق لتبليح الاحكام . مثله النبي .

وحتى لا يحتض على هذا التصريف بخروج من يدعوا انى شريعة من قبله كأنبياء بنى اسرائيل
فانه ليس لتبليح الاحكام ، بل لتقرير حكم بعث غيره لتبليغه ، لان الحكم قد بلغه غيره ، فليس
يتأتى منه التبليغ فقد توسع في التبليغ ليشمل ايضاً ما يكون بالنسبة الى قوم آخرين ، وهذا شمل التصريف
الانبياء الذين جاءوا مقررين لشرائع من قبلهم حيث يكونون مقررين بالنسبة لمن سبق تبليغهم
وبلغهم بالنسبة لآخرين لم يسبق تبليغهم .

(١) لسان المصوب ج ١١ ص ٢٨١ وما بعدها .

(٢) في هامشة على شرح التفازني على العقائد النسبية ص ٣١

(٣) في شرح على العقائد النسبية ص ١٢٢

اما جمهور اهل السنة فقد اتفقوا على ان النبي اعم من الرسول ، فالنبي هو الذي يوحى اليه سواء امر بتبليغ غيره ام لا ، بخلاف الرسول فانه لا يهد فيه من التبليغ .
ويؤيده مذهب الجمهور :

- أولا - في قول الله تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي " فقد دلت الآية على ان للرسول ليس مساويا للنبي والا لما حصل هذا العطف .

- وثانيا - ان عدد الانبياء ازيد من عدد الرسل " فقد مثل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الانبياء فقال : ما تألف وأربعة وعشرون ألفا . عقيل فكم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جبا فقبروا أخرجه الحاكم - فلا مساواة إذن .

وعلى الرسول أخص من النبي - والاخص يشترط فيه مالا يشترط في الاعم فقد اشترط بعضهم في الرسول الشريعة المجردة فيكون الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعون الناس اليها والنبي يحميه ومن بعثه لتقرير شرع من قبله كأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

واعترض عليه بأن اسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يبعث له شريعة جديدة .
ويمكن دفع هذا الاعتراض بأنه يحتمل ان تكون شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام شريعة له بطريقين
وحي جديدة اليه .

واعترض البعض في الرسول ان يجمع الى السجزة كتابا منزلا عليه ، والنبي غير الرسول لا كتاب له واعترض على اشتراط الكتاب بزيادة عدد الرسل عن الكتب ، فان عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثين وعشر وعدد الكتب مائة وأربعة .

وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه يحتمل شركة اكثر من رسول في كتاب واحد ، الا ترى ان هارون كان رسولا مع موسى ولهما كتاب واحد .

ومنهم من أجاب باحتمال تكرار نزول بعض الكتب كالفاتحة .

وقد ورد على هذا الجواب انه اذا تكرر نزول الكتاب الواحد على اكثر من رسول فما وجه تخصيص ما تكرر نزوله ببعض الرسل دون بعض ؟ والجواب عنه . ان المرجح للتخصيص بالبعث هو نزوله عليهما ولا (١) وأميل الى مذهب الجمهور ، وعنوان النبي اعم من الرسول لاية السابقة وازيادة عدد الانبياء عن عدد الرسل وانه يشترط في الرسول الكتاب ، ويدفع الاعتراض بزيادة عدد الرسل عن الكتب بالدفع السابق او بما ذكره الخيالي بأنه يتكفى بالكون معه ولا يشترط النزول عليه (٢)

ولا بأس بتعميق العصام على قول التفتازاني : بأن الرسول : انسان بعثه الله

تعالى الى الخلق

(١) حاشيتنا العصام والخيالي على شرح التفتازاني على العقائد النسبية ص ٣١

(٢) في حاشية على شرح التفتازاني ص ٣١

لتبليغ الاحكام ، وقد يشترط فيه الكتاب بخلاف النهى فانه اعم ، بقوله يمكن جمع سئل
 ما ذكره الشارح تعريفا للرسول المعنى الاخص بان يقال الرسول انسان بعثه الله تعالى الى الخلق
 لمجرد تبليغ الاحكام كما هو المتبادر ، ومن بحث لتقرير شيء من قبله لم يبحث لمجرد تبليغ الحكم
 بل لتبليغه الى من لم يبلغه وتقريره لمن بلغه (١) .

والخلاصة : ان للعلماء في النسبة بين الرسول والنهى مذاهب ثلاثة :

الاول : مذهب اهل السنة : المصوم والخصوص المدلى : اي يجتمعان في شيء وينفرد الاعم فسي
 شيء آخر فيجتمع الرسول والنهى فيمن بلغ ، وينفرد النهى فيمن لم يبلغ .

الثاني : مذهب ابي منصور النابتري : المصوم والخصوص الوجيهي : اي يجتمعان في شيء وينفرد
 كل منهما في شيء حيث يجوز كون الرسول ملئاً * الله بصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس * اما النهي
 فلا يكون الا انساناً ، فعلى هذا يجتمعان في الانسان المأمور بالتبليغ ، وينفرد الرسول في الملئ
 والنهى في غير المبلغ .

الثالث : مذهب جمهور المعتزلة : المساواة بين الرسول والنهى وسأجرى في تمهيري خذل البحث
 على مذهب المساواة بين الرسول والنهى .

— ارمان الرسول وحكمته —

ارسل الرسل : وهو بعث الله من اصطفاهم من البشر الى الملئ ليهلغوهم عن عبادة
 تعالى ما اراد تبليغهم .

قد اختلفت طوائف البشر في نظرتهم اليه ، واكثر هذه الطوائف قد انحرفت افكارهم
 عن جاد الصواب والمنطق ما دعا الى عرض هذه الافكار بايجاز حتى ان انتهينا الى الفكرة المائبة
 السديدة - فكرة جمهور المسلمين - وجدناها حرة بالاقناع بها ، والاعتقاد الجازم محتواها
 يرى اليهود : ان اكثر انبياء بني اسرائيل كانوا يخرجون في مدارس خاصتهم يتعلمون فيها تفسير
 شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وانهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وايضا
 في كل ما يوتسرو في الانفس ، ويحرك الشعر والوجدان فلا غرو ان يكون عزرا ونحميا من اعظم انبيائهم
 سابقين من سقاء الخمول ملك بابل (ارتحششتا) ومغنين له وان يكونا قد استمانا بتأثير غنائهم
 في نفسه على ساحة لهما بالسودة بقومهما الى وطنهما واقامة بينهما فيه - فالنبوة على هذا كانت
 صناعة تعلم موارد في المدارس وصحمان على الاقناع بها بالتخيلات الشعرية والالهامات الكلامية
 والمؤثرات الغنائية والموسيقية والمعلومات المتسبة .

وان كثيرا من هؤلاء الانبياء كانوا متصكين او طوافين على الناس يمدشون ضيوفا عند الاتقياء
 المحبين لرجال الدين ، كما هو المفهوم من بعض المتصوفة اهل الطرق في المسلمين .
 وبين الانبياء من تقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كهائن المعاصي وان من اخبار الصوفية والسياح عن
 المسلمين من تفضل سيوتهم سورة هؤلاء الانبياء في كتبهم (٢)

(١) حاشية المصام على شرح التفازاني على العقائد النفسية ص ٢١

(٢) الوحي المحمدي لرشيد رضا ص ٥٤ - ٥٥

جاء في تفسير " نبي " و " أنبياء " من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :

النبوة : لفظه - تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدنيوية لا سيما عما سيحدث فيما بعد ، وسمي هرون نبيا لانه ثاني المخبر المتكلم عن موسى نشورا لفصاحته (خروج ٧ :) اما انبياء العهد القديم فكانوا ينادونه بالشريعة الموسوية ، وينبئون بمجىء المسيح - ولما قلت رغبة الكهنة به ، وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل اقام مدرسة في الرامة ، واطلق على تلامذتها اسم نبي الانبياء فاشتبهوا من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهرون في مواضع كثيرة من الكتاب .

وتأسست ايضا مدارس اخرى لانبياء في بيت اهل واريحا والجلجال واماكن اخرى ، وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا او سيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء ، واغلبهم كانوا يرهقون ويلعبون على آلات الطرب وكانت العناية من هذه المدارس ان يروى الطلبة فيها لتعليم الشعب ، اما مديشة الانبياء ونبي الانبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين او طوائف يضافون عند الاتقياء (١)

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد في صدره الموازنة بين عقيدة النبوة في الاسلام وبينها عند اتنياس الدبانات الاخرى وثنية وشامية :

نمت في الاسلام فكرة النبوة ، كما نمت الفكرة الالهية فبرئت هذه الرسالت السماوية من شوائبها الفليطية التي لصقت بها في عقائد الاقدمين من اتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية ، وخلصت من بقايا السحر والكهانة ، كما خلصت من شعورهم قالا بهام الخيالي ، ودوات الجنون الذي كانوا يسمونه قد بما بالجنون المقدس لا اعتقادهم ان المصابين يخلطون هذيانهم بحجى الارواح الملوية التي تمتلئ عليهم ، ونمت نبوة الاسلام ناءها الا وفي حين خلصت من دعوى الخوارق والمفجيات وهي آية النبوة الكبرى في عرف الاقدمين .

ولم تكن براءة النبوة من هذه الشوائب عرضا مسوقا في اطوار العقيدة بغير قصد ولا بهينة بل كان وصف النبوة على هذه الصفا المظهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ويؤمن بها ايمانه برسالة النبي ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يقطع الساحرون ، وما النبي بكاهن ولا مجنون .

يقول : وقد عرفت قبائل المهريين نبوات السحر والكهانة والتنجيم كما عرفتها الشعوب الهدائية والمطلع على الكتب المأثورة بين بني اسرائيل يتبين منها ، انهم آمنوا بهذه النبوات جميعا وانهم بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية مازالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية

ويجملون الاطماع على المعقبات امتحانا لصدى النهى في دعواه اصدى والزم من كسر
امتحان ولم يرتفع انبثاقهم ورسلمهم عن مغالب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشغاب
في التنجيم ففي اخبار صموئيل : انهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة ، وينقدون
اجسه على ردها

" خذ معك واحدا من الثلمان وهم اذهب وفتش عن الاتن . . . فقال شاول للغلام . . . فماذا
نقدم للرجل ؟ لان الخبز قد نفذ من اوعيتنا وليس من هديفة تقدمها لرجل اللئيم . . . ماذا معنا ؟
فماذ الغلام يقول : هوذا يوجد بيدي ربيع شاقل فضضة " . . .

وقد كثر عدد الانبياء في قبائل بني اسرائيل كثرة يفهم منها انهم كانوا في ازمته
المتعاقبة يشبهون في الحضور الحدبثة اصحاب الازكار ، وداويش الطون الصوفية ، لانهم جازوا
المثاق في بعض اليهود واصطفوا من الرياضة في جماعتهم ما يصطنعه هؤلاء الذاويش من التوسل
الى حالة الجذب تارة بتعديب الجسد ، وتارة بالاستماع الى آلات الطرب .

ويقول ايضا وما يكون للفهم ان يفهموا من النبوة معنى غير معناها هذا ، لانهم
قد تعلموا من احبارهم وشبه اسفارهم ان انبياءهم قد حلوا في محل المرافين المعانفين والسحرة
والرقاة الذين ينقلون اقوال الالهية في غير بني اسرائيل ، فهؤلاء جميعا لا يصدقون لانهم ينقلون المعرفة
من ارباب غير " يهوا " رب اسرائيل

ويقول ايضا . . . وهم ستة قرون من آخر رسالة في بني اسرائيل يستمع العالم الى صوت
بني من جانب الجريرة المريبة ينادي كل من يمد اليه انه لا يعلم الشيب ولا يملك خزائن الاوغر ولا يدفع
السوء عن نفسه فضلا عن قومه ، ولا يعلم ان الخوارق والممجوزات تنفع احدا لا يتفهم بعقله
ولا يتفكر فيما يسمح من بني او رسول .

صوت نهي بشبه يهدي الى الحق والرشد تدبير يحذر من الباطل والضلال (١)

والرسالة والنهوض عند العساسة : صفاً وتجل للنفس بحدوث لها من العبادة والرياضة بالتخلي عن الرزائل والتخلي بالفضائل * فالنهي والرسالة على هذا استحقاق يستحقه المعبود بكسبه واختياره وجهه في العبادة ، وجهه في نفسه ، والتخلي بالفضائل والتخلي عن الرزائل ، حتى تنجلي النفس وتصفو صفاء تاماً ، وتنص بالمد الأعلى ، وقد رت ما لا يد رنه غيرها فتطلع على المغيبيات وترى الملائكة على صور محسوسة ، وتمتع بدمهم بالوحى .

والرسول أو النبي عند هم من اجتمع في ثلاث خواص ذكرها صاحب بطالع الانتظار عنهم بقوله :
ان الرسالة ليست برسالة ، بل بخواص ثلاث :

الاولى : ان يكون مظلماً على السبب بصفاء جوهر نفسه ، وشدة اتصاله بالعبادة والمالية من غير سوس سابقة كسب وتعليم .

الثانية : القدوة على التصرف في هيولى المناصر ، وانظهار خواص العبادات

الثالثة : ان يشاهد الملائكة على صور متخيلة ، وسمع كلام الله بالوحى .

وقول العساسة باكتساب النهوض من المسائل التي كثروا بها ، ان يلزم عليه تجوز نبي بعد نبينا صلوات الله عليه وسلم او معه ، وذلك مستلزم لتدبير القرآن والحنفة فقد كان تعالى * وكان محمد اياً احده من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين * وكان عليه الصلاة والسلام * لانهم بعدى *

ولذا فانه يرد على الديالفة : عن الخاصة الاولى : بأن الاطلاع ان ارادوا به الاطلاع على جميع المسائل فهو ليس بشرط في كون الشخص فيها بالاتفاق ، وان ارادوا به الاطلاع على بعضها فلا يكون ذلك خاصة للنبي ، ان يجوز لاي احد ان يطلع على بعض الفاشات من دون ساهبة تعليمهم وتمتع بل بالانهاج من الله .

وعن الخاصة الثانية : بأنها ليست مختصة بالنبي فانهم مقترون بأن مادة المناصر مطوقة لغير الانبياء ، وعن الخاصة الثالثة : بأنها غير متحققة لانهم ممنون للملائكة (١) .

والممترزة والفلاسفة وجهوا الارسال ، واتفقت الطائفتان على الوجوب وزادت الفلاسفة الارجاب
وهنى كلام الممترزة على قاعدة وجوب الصلاح والاصح على الله فيقولون : ان النظام المسمى
الى صلاح حال النعم الانساني على الضمير في المعاش والمعاد لا يتم الا بهمه الارسال
وكل ما هو كذلك واجب على الله تعالى ويورد على الممترزة بأن الله تعالى ليس عليه واجب ممن
فعل اتركه ، لانه تعالى فاعل بالاختيار " وريك يخلق ما يشاء ويختار " ولو وجب عليه
تعالى فعل اتركه ، لما كان مختاراً ، لان المختار هو الذي ان شاء فعل وان شاء تركه ،
ولانه لو وجب عليه تعالى الصلاح والاصح لمعاد ، لما خلق الكافر الفقير المذنب ففسس
الدينها بالنقص ، وفي الآخرة بالمذاب الاليم المخلد ، لان الصلاح والاصح له عدم خلقه
وان خلق فالاصح له اماتته صغبروا او سلب عقله قبل التكليف .

واما الآيات الدالة على الوجوب عليه تعالى مثل " وما من دابة في الارض الا على الله
رزقها " فمحمولة على ان المراد بها الوعد تفصيلاً - وكذلك الاحاديث الدالة على ذلك (١)
وهنى الكلام للفلاسفة على قاعدة التعليل او الطبيعة فيقولون يلزم من وجود الله تعالى
وجود العالم بالتعليل او الطبع ويلزم من وجود العالم وجود من يخلقه (٢)

ويورد عليهم بأن الله تعالى فاعل بالاختيار لا بطريق الاجبار " وريك يخلق ما يشاء
ويختار " .
ولانه لو كان فاعلاً بالارجاب - بناء على قاعدة التعليل - للزم عدم العالم ، وقد ثبت عدمه
اذ هو اعيان واعراض ، وكل منهما محدث ، فالعالم محدث .

فمطلب قاعدة التعليل ، والقول بالارجاب ، وثبت انه تعالى فاعل بالاختيار
والسمنية وبعض البراهمة : (٣) المنذورون لنبوة ان نبي - بخلاف ما عليه بعض منهم قالوا بنبوة
ابراهيم عليه السلام فقط ، وبعض آخرون بان نبوة آدم عليه السلام فقط (٤) - احوالوا الارسال وزعموا :
ان ارسال الرسل عهد لا يلحق بالحكيم لان العقل يفتنى عن الرسل ، فان الشئى
ان كان حسناً عند المفسر فعله ، وان لم تأت به الرسل ، وان كان قبيحاً عنده تركه ، وان لم
تأت به الرسل وان لم يكن عنده حسناً ولا قبيحاً فان احتاج اليه فعله ، والا تركه (٥) .

ويدفع هذا الزعم : بان العقل لا يفتنى عن الرسل - كما سبق توضيحه -

- (١) تحفة المرید على جوهر التوحيد للبيجورى ص ٩٨ - ٩٩
- (٢) تحفة المرید على جوهر التوحيد ص ١٠٨
- (٣) السمنية : نسبة الى سونات قوم من عبدة الاوثان بالتناسخ ، وانه لا طريق الى الملسم
سوى الحسن .
- (٤) والبراهمة : طائفة من الهند ينسبون الى براهم - صنم كانوا يعبدونه او الى " برهام"
حكيم من حكماء الهند يمتنقون مذنبه .
- (٥) حاشية العصام على شرح التفازانى ص ١٣٣
- (٥) تحفة المرید على جوهر التوحيد ص ١٠٨

مذهب جمهور المسلمين : ان ارسال الرسل ممكن عظمى في حق الله تعالى ، لانه فعل من أفعاله
والله تعالى فاعل بالاختيار ، وقد وقع هذا الممكن فان الحكمة - التي هي المصلح لا رجحان
جانب الوقوع ، واخرجته عن حد استواء طرفيه .

فليس الا ارسال بالتعليم لنا يرى كثير من اليهود ، وليس بواجب كما يرى المعتزلة
وليس بخواص ثلاث كما قال الفلاسفة ، وليس بمحال كما هو مذهب السمنية وجمهور البراهمة .

وان ارسال الرسل هبة من الله تعالى ، ونعمة منه على من ارسله لقوله تعالى - في
حق الرسل " ذلك هدى الله بهدي به من يشاء من عباده " وقوله في الآية بعد ما " أولئك
الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة " وقوله تعالى " أولئك الذين أنعم الله عليهم
من النبيين من ذرية آدم ومن حطفا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هد ينسبنا
واجتبنا " .

وقوله سبحانه في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وما كنت بجانب الطور إذ نادى بنا ولكن
رحمة ربك لتذرقوا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون " .
وابنا " وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك " .
وعلى هذا فالنبوة عند المسلمين لا تنال بالكسب والاجتهاد - كما زعم الفلاسفة - وإنما هي :
اختصاص العهد بسطع وحى من الله بحكم شرعى تكلفى سواء أوتى بخلق أم لا ، وهكذا الرسائل
لكن مع التلخيص (١) .

الوحى



يطلق الوحى لغة على عدة اشياء : ففي القاموس المحيط : الوحى : الاشارة والتأهبة
والمكتوب ، والرسالة والالهام ، والذلام الخفى ، وكل ما ألقته لشريك " .
وقال الرافى : اصل الوحى : الاشارة السوية ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض
وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة ، ومنه قوله تعالى عسى
زرينا عليه السلام " فخرج على فوه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وشبا " اى اشبهوا
اليهم ومنه : الالهام الفرزى ، كالوحى الى النحل " وأوحى الي النحل " والهام الخواطر
بما يلقى الله في روع الانسان السليم الفطرة ، الطاهر الروح كالوحى الى أم موسى " وأوحى
الى أم موسى أن أرضعيه " ومنه : غده ، وهو وسوسه الشيطان قال تعالى " وإن الشياطين
ليوحون الى أولئكم ليجادلوكم " .
فالخلاصة في معنى الوحى اللغوى : انه الاعلام الخفى السويح ، وهو أعم من أن يكون بإشارة او كتابة
او رسالة ، او الالهام الفرزى ، او غير فرزى ، وهو بهذا المعنى لا يختص بالانبياء ولا بالمرسلين
من عند الله .

وأما في الشيء فيطلق ويراد به المعنى المصدري ويطلق ويراد به المعنى الحاصل بالمصدر ويطلق ويراد به الموحى به .

ويعرف من الجهة الأولى : بأنه اعلم الله أنبياءه بما يريد أن يلهيه اليهم من شيء أو كتاب بواسطة أو بغير واسطه " فهو اخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره وجوده .
ويعرف من الجهة الثانية بأنه : " فإن يجده الشخص من نفسه مع اليقون بأنه من عند الله منسبواً ألقا بالروح بواسطة أو بغير واسطه .

ويعرف من الجهة الثالثة : بأنه : ما أنزله الله على أنبيائه وهم منهم به من أنباء النبي والشرائع والحكم ومنهم من أعطاه كتابا ومنهم من لم يمطه (١)

اقسام الروح الشورى

ينقسم الروح باعتبار معناه المصدرى الى أربعة اقسام :

احدها : تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب : أما في الحقيقة كما حدث لموسى وكلم الله موسى تكليماً وكما حدث لنبينا ليلة الاسراء والمعراج - عليهما الصلاة والسلام - وأما في المنام - كما فتوت الحديث الذي رواه احمد في مسنده والترمذي في سننه وقال : حسن صحيح عن معاذ بن عمرو بن الجموح

" أتاني ربي فقال : فهم يختص الملائكة ؟ "

ثانيها : الالهام ، أو القذف في القلب بأن يلقى الله أو جهيريل بالروح في قلب نبيه لم يريد مع تيقنه ان ما تلقى اليه من قبل الله تعالى كما في حديث " ان روح القدس نفث في روعي ان تموت نفسي حتى تستكمل رزقيها فاتقوا الله واجعلوا في الطلب .

ثالثها : الرؤيا في المنام ، ورواها الانبياء وحى ، كرواها الخليل ان يذبح ابنه ، ورواها نبينا انسه وأصحابه سيد خلون الحرام . عليهم الصلاة والسلام .

رابعها : تعلم الله أنبياءه بواسطة ملك هو جهيريل ، ويعرف بالروح الجلى " (٢)

وقد بين الله اقسام الروح في قوله " وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيرعى باذنه ما يشاء انه على حديم "

كيفات الروح

الروح بواسطة جهيريل له حالات ثلاث

احدها : ان يأتي جهيريل على عبوته التي خلقه الله عليها ، وهي كما روى الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها لم تحدث الامويين : مرة في الاضواء وهو نازل من غار حراء ، ومرة في السماء فتمسك سدرة المنتهى "

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ج ٢ ص ٢٣ - ٢٤ للدكتور محمد ابو شهبة

(٢) مناقب الصوفى في علم القرآن للشيوخ محمد الزرقاني ج ١ ص ٥٧

ثانيتها : ان يأتي جهيرل عليه السلام في صورة رجل كدحية النخعي ، او اعرابي ويراها الحاضرون
ويسمعون قوله ، ولا يعرفون انه جهيرل ، وانما يكون النبي صلى الله عليه وسلم على يقين انه جهيرل .
ثالثها : ان يأتي جهيرل على صورته المثلثة ، وفي هذه الحالة لا يرى ، ولكن يصحب بجيشه
صوت صلصلة الجرس ، او دوى ك دوى النحل

روي البخاري بسند عن عائشة رضي الله عنها : ان الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : * أحبانا يأتيني مثل صلصلة الجرس
وهو أشد علي فينصم على فقه وعبت عنه ما قال ، وأحبانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعسى
ما يقول (١)

والوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يفهم ضروري لكي الوحي اليه بأن ما ألقى اليه حق من عند الله
ليس من خطلات النفس ولا نزعات الشيطان (٢)

امنان الوحي

مدار الوحي على أمرين :

الاول : وجود روح وعوالمه سبحانه وتعالى ، والملك الذي يبلغ الوحي وينقله من الله الى الرسول
اما الله فقد قام على وجوده وكماله وحقيقته الادلة العقلية والعملية .
واما الملائكة فقد اخبر بوجودهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والكتب السماوية * والانبياء
محمديون من النبذ فيها يتصلق بالدين ، والقوران - وهو أحد الكتب السماوية - اخبر بوجودهم
وعو حق حفظه الله من كل زيف .

الثاني : وجود نفس بشرية عاقية صالحة لتلقى الوحي من الله اومن الملك ، وهذا لا يعد فيسنة
ان الانبياء عليهم السلام لهم من سمو فطرتهم ، وصفاء أرواحهم ، واعداد الله لهم ما يوزع عليهم
للتلقى عن الله وعن الملك واذا كانت قد ظهرت براعته لانسان وقد ربه في ابتكار وسائل لتتصق
والرؤية من مسافات بعيدة كالتلفون والاسلكي والراديو والتلغرافيون ، فهل بمجرد خالص
الانسان عن ان يوحى اليه من عباده ، ما شاء من طريق الملك او غير الملك .

ومن الحيوانات الدنيا كالثمل والنحل تأتي باعمال منظمة دقيقة ، ليست صاد رقتن عقول
عندها ، وانما عن توجيه علوي يلهمها ذلك ، واذا صح هذا في عالم الحيوان ، فأولى ان يلهم
الانسان وأن يوجه من قبل الله ان هو مستعد للاتصال بالافق الاعلى والاخذ عنه بطريق الوحي (٣) .

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٣

(٢) المدخل له راسخة القرآن ج ١ ص ٢٦

(٣) مناقش العرفان في علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقاني ج ١ ص ٥٨ - ٦٥

ودلالة المعجزة على صدق الرسول في دعواه يقينيه سواء في هذا الموجود مع الرسول
والغائب عنه اما الموجود معه فالساعة تدفيه في اليقين ، واما الغائب عنفكفيه التواتر في ثبوت
المخبر به ومد اتفاني الجمهور على دلالة المعجزة على صدق الرسول اختلفوا في وجه الدلالة .
ف قيل : انها عقلية : لان خلق الله لاسر الخايرى للمادة مقاونا لدعوى الرسالة وتحدى الرسول
لقومه مع المعجز عن معارضته ، وتخصيص الله الرسول بذلك يدل على صدق الرسول .
وقيل : وضعية ، لان المعجزة منزلة من قون اللغزالي : عدى عدى في كل ما يبلغنى ودلالة
الكلام وضعية .

وقيل : دلالتها عادية ، فقد جرت عادة الله بخلق العلم بعدى الرسول ، فب ظهور المعجزة
ولم تجر عادة بخلق المعجزة على يد غير الرسول ، بل جرت عادته بفضح الغداهين كما حصل
لمسلمة واشباعه ويرى التفاضل : ان الدلالة عادية ، وهو اختيار الاشاعرة (١) واختار انهما
عقلية ومعجزة كل بنى تكون مناسبة لحال القوم الذين يبعث اليهم ، ومن جنس ما يعرفونه لكونوا اكتسرو
تقديرا وفيها لها ، وليكون عجزهم عن الاتيان بمثلها ، لئلا يظن على صدق من ظهور المعجزة على يد غيره
ان لوجاء المعجزة بحيدة عما يصره القوم ، ويحتاجونه لما كان هناك مجال لطلب الاتيان بمثلها .
فجيب الاموال الخايرى للمادة من جنس ما عرفوه ويروا فيه ، وعجزهم عن الاتيان بمثلها ، لئلا يظن على انه ليس
من صنع البشر ، وانما من صنع خلاق القون والقدر .

قال القاضي عبد الجبار بن احمد : جمل الله سبحانه وتعالى معجزة كل نبى ما يتعاطاه اعلم
واما فجمع معجزة موسى عليه السلام قلب المصاحبة ، لما كان الغالب على اهل ذلك الزمان
السحر ، وجعل معجزة عيسى عليه السلام ابراء الاكف والارضي لما كان الغالب على اهل زمانه الطب ،
وجعل معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم جملته في اهل طبقات الفصاحتما كانت
الفلبية للفصاحة والفصحاء في ذلك الزمن ، وهما كان يفاخر أهله (٢)

وهو المعجزة تثبت الرسالة ، فالرسالة دعوى ، والمعجزة دليلها ، وكل دعوى لابد لها من
دليل حتى يقتنع بها ، وانما لم تقم الادلة على الدعوى ، كان اصحابها مجرد ادعاء ، لا يقبل
الناس منهم قولا ان طبع الناس على طلب الدليل

(١) شرح التفاضل على المقائد النسفية ص ١٣٤

(٢) شرح الاموى الخمسة ص ٥٢٢

ولهذا فقد طلب الافواه من انبيائهم بهذا على مد عاشر
حتى الله عن قوم هو عليه السلام انهم قالوا له " يا عود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى الهتنا
عن قولك وما نحن لك بمؤمنين "

وحكى عن قوم صالح عليه السلام انهم قالوا له " ما انت الا بشر مثلنا فأت باية ان كنت
من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم "

وحكى عن فرعون انه قال لموسى عليه السلام " ان كنت جئت باية فأت بها ان كنت من الصادقين
فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين - ونزع يده فاذا هي بضء نفاغرين " (١)

وروى الشيخان عن ابي هريرة رضى الله عنه - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
" ما من انبياء نبي الا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشره وانما كان الذى اوتيتسسه
وحيا اوحاه الله فأرجوا ان تكون انتمس تابعها يوم القيامة " (٢)

والمعجزة لها شرائط امتوافها العلماء ، لاداعى لاطالة بذكرها ، فانها تعرف من
تعريف المعجزة وقد يزعم البعض ان المعجزات من قبيل الحين والشعونة ولذا فهي لا تدل على
نبوة من ظهرت على يد له هذا ينمى توضح الفرق بين المعجزة وبين ما يتوصل اليه بالسهولة والشعونة
عالمعجزتكون من جهة الله تعالى ، وليس كذلك الحيلة

وتكون غاية للمادة ، وليس عندا سهل ما يتوصل اليه بالحيلة وخفة اليد
وكذلك : فان الحيلة ما يبدن ان تتعلم وتعلم ، وعندا غير ثابتة المعجزة ،
وايضا : فان الحول ما يقع فيها الاشتراك ، وليس كذلك المعجزة .
وكذلك : فان الحيلة تقتصر الى آلات وأدوات لو فقدت واحدة منها لم تنفذ وليس كذلك المعجزة .
ثم يقول الفاضل عبد الجبار بن احمد : وأقوى ما يدنو منها ههنا : ان المشعونة والمحتال انما يفسد
حيلته على من لم يكن من أهل صناعته ، ولا يكون له بها دأية ومعرفة ، وليس هذا حال المعجزة

فقد جسد الله سبحانه وتعالى معجزة كل نبي ما يتماظاه أهل زمانه (٣)

(١) د راسات موضوعية للدكتور عبد الغنى الراجحي ج ١ ص ٦٠
(٢) صحيح مسلم ص ٦٧ وصحيح البخارى ج ٤ ص ١٢٢
(٣) شرح الاصول الخمسة ص ٥٧٦

الصفات الواجبة للرسل

عرفنا ما تقدم أن المعجزة ثبتت بها صدق الرسل في دعواه الرسالة ، وفي كل ما يبلغه
عزله تعالى ، وليس الرسل عليهم الصلاة والسلام صادقين في هذا المطلب وحده ، وإنما صادقون
في كل شيء ، فإن الصدق في كل الأمور ثابت لهم ، وهو أحد الصفات الواجبة للرسل وثانيتها
التبليغ والثبات ، الفطنة وإيضاها : الأمانة ، ومتحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام أضداد هذه
الصفات الأربعة تقيمت عليهم الكذب ، وتيمان شيء ، ما أمرها بتبليغهم ، والغدلة وعدم الفطنة
والخيانة ، لما علم من الكتاب والسنة والاجماع .

الصدق :

هو مطابقة الخبر للواقع ، ولو بحسب الاعتقاد ، وأقسام الصدق ثلاثة

أحدها : الصدق في دعوى الرسالة

ثانيها : الصدق في الاحتمام الشرعية ، والصدق في هذين القسمين هو : مطابقة الخبر للواقع في نفس الأمر
ثالثها : الصدق في غير ذلك من الأخبار ، وهذا القسم يكفي فيه مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب
الاعتقاد مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لذي الدين * كل ذلك لم يكن * حين سأل الرسول
وقد سلم من ركعتين في صلاة بها عمة * أصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله * (١)
والصلاة لم تقصير ، فيكون الرسول ناسبا ، فلما نفي الرسول النسيان كان ذلك بحسب اعتقاد ، فقصد
كان يعتقد انه صلى أربع ركعات - قوله صدق

ومثل قوله عليه الصلاة والسلام لقوم يومه من النخل * لو لم تفعلوا الصلح فتركوه ، فخرج شيئا فهو بهيم
فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت ؛ كذا كذا ، قال : انتم اعلم بأمور دنياكم * (٢)

فقول الرسول صلى الله عليه وسلم * لو لم تفعلوا الصلح * مطابقة للواقع بحسب اعتقاد ، فهو صدق
وقد أجيب عنه بجواب آخر هو : انه رجا ، والرجاء لا يوجب صدق ولا كذب

ويستدل على وجوب الصدق في دنياهم الصلح والصلح بأولية عقلية وعقلية ، اما الفعلية فتأنيدي
في عصمة الانبياء عن الكذب في التبليغ ودعوى الرسالة *

والدليل العقلي هو : أنهم لم يصدقوا للزم الكذب في خبره تعالى ، لكن كذب خبره محال ، فما أدى
اليه وهو عدم صدقهم ، وإذا استحال عدم صدقهم ، وجب صدقهم وهو المطلوب

دليل الملازمة : ان الله صدقهم بالمعجزة النازلة منزل لقوله * صدق عدي في كل ما يبلغ غنى
وتصدق الكاذب كذب - والكذب محال على الله تعالى ، فقد صدقهم محال فثبت صدقهم

وهذا الدليل يدل على الصدق في التبليغ ودعوى الرسالة ، اما الصدق في مساعد ذلك فعدل عليه
دليل الأمانة

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٢١٥

(٢) صحيح مسلم ج ١٥ ص ١١٨

(٣) شئ البجوري على الجوهرة ص ١١ - ١١١



التبليغ

من الصفات الواجبة للرسول التبليغ .

وهو : إيصال ما أمرهم الله بتبليغه إلى الخلق .

الدليل عليه

انهم لو كانوا شيئاً ما أمروا بتبليغه لكانا مأمورين بتكتمان العلم ولكن التالي باطل فما أدى إليه وهو تكتمانهم باطل - وإذا بطل التكتمان بقيضه وهو التبليغ

دليل بطلان التالي : ان كاتم العلم يلحق به فلا يكون التكتمان مأموراً به قال تعالى * ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله يلعنهم اللاعنون * .

وانه لو جاز عليهم تكتمان شيء لقتل نبينا صلى الله عليه وسلم آيات الكتاب له كقوله تعالى * وان تقول للذي يأنس بالله عليه وأسلمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديها وتخفى الناس والله أحق ان تخشاه * لقتله عليه السلام لم يكتم منها آية واحدة .

دليل المنزومة : اننا انما بالاعتقاد بهم في أقوالهم وأفعالهم * لقد أرسلنا رسلك بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط * و * لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة و * ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله * .

فلو كتموا شيئاً ما أمروا بتبليغه لكانا مأمورين بالتكتمان .

وايضاً لو كتموا شيئاً ما أمروا بتبليغه لضاعت الفائدة من إرسالهم (١)

وقد أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أنزل إليه - وما ثبت لغيره ثبت لمحمد - سواء من الانبياء -

قال تعالى * يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي الكافرين * (٢)

والمعنى : يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل اليك * وايش * أنزل اليك فهو مراقب في تبليغه - احداً * ولا خائف ان ينالك مكروه * وان لم تبلغ جميعه أهل بلدك بعضهم وكتبت بعضهم فأنت مستلم لم تبلغ ان ما كلفت بتبليغه * ولم تؤده الرسالة وذلك ان بعضها ليس بأولى بالاداء من بعض - فسانا لم تؤده بعضها فكأنك أهملت ادائها جميعاً * كما أن لمن لم يؤده من بعضها كان كمن لم يؤده كلها لكونها في حكم شيء واحد * له خطيبها تحت خطاب واحد والشئ الواحد لا يكون مطلقاً غير مهلي مؤمناً به غير مؤمن (٣) .

(١) تحفة المرید علی جوهر التوحید ص ١١١

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧

(٣) تفسير النصف ج ١ ص ٢٩١

وقد امثل نبينا صلى الله عليه وسلم امره بالتطهير ، وقام به اتم فهم
وروى البخاري بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : من حدثك ان محمدا صلى الله عليه وسلم كلم شيئا
ما انزل عليه فقد كذب والله يقول * يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك * الآية (١)
وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم فاتنا شيئا من القرآن
لكتم هذه الآية * وتخفى في نفسك ما الله مبدي به وتخشى الناس واللعنوا حتى ان تخشاه * (٢)
وروى ابن ابي حاتم بسنده عن عنترة قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له : ان ناسنا
ياتوننا فيخبرونا ان عندكم شيئا لم يبد به رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس . فقال ابن عباس :
الم تعلم ان الله تعالى قال * يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك * والله ما وثنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم سوادا في بيضاء * ثم يقول ابن كثير - محمد ان ذكر هذا الحديث - وهذا
اسناد جليده (٣)

وروى البخاري بسنده عن ابي جحيفة وهم يهدون عبد الله السوائي - قال : سألت عليا رضى الله عنه
عن عندكم شيء من الرحي ما ليس في القرآن ؟ وقال مرة - لم ير عند الناس . فقال : والذي نفسي
الحيه ههنا النمسمة ما عندنا الا ما في القرآن الا فها يحطبه الله رجلا في القرآن وما في ههنا
الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال العقل . وكان الأسير وان لا يقتل مسلم بكافر * (٤)
وقد شهدت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بأمته - وهم المدول * وكذلك جعلناكم امة وسطا *
بأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة . حين خطبهم في حجة الوداع . وقد كان هناك من أصحابه
كما قال ابن كثير - نحو من أربعين ألفا :

وروى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته
هوئذ : * انتم تسألون عنى فما انتم قائلون ؟ قالوا : نعمند انك قد بلغت وأديت ونصحت
فقال : بأصعبه السهابة برغمها الى السماء ونكبتها الى الناس : اللهم اشهد . اللهم اشهد
ثلاث مرات (٥)

فهذا يقطع ولا يبقى مجال للريب - بأن نبينا صلى الله عليه وسلم بلغ ما أمره الله بتطهيره مما انزل
اليه ولم يترك شيئا . واليه ثبت لسائر الانبياء عليهم الصلوة والسلام

- (١) صحيح البخارى ج ٣ ص ٨٢
- (٢) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٢١
- (٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٧
- (٤) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٢٠
- (٥) صحيح مسلم ج ٣ ص ٢٤٥ لغير كتاب الشرب

فجاء النصر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش
فكلم رسول الله فعرزله النصر بن الحارث فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه " انكسب
وماتهدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون " الايات ثم ثاب رسول الله ، واثبت
عبد الله بن الزبير حتى جلس فقال الوليد بن المشيكة : والله ما قام النصر بن الحارث لاهل
عبد المطلب وما قصد ، وقد زعم محمد انا وما نهد من الهشما عذ ، حصب جهنم : فقال ابن الزبير
اما والله لو وجدته لخدمته . سوا محمد اهل ما يهدون من دون الله في جهنم مع من عده .
فنحن نهد الملائكة ، واليهود نهد عزيرا ، والنصارى نهد المسيح عيسى بن مريم ، فحصب
الوليد ومن كان معه في المجلس من قريش عبد الله بن الزبير ، وراوا انه قد احتج وخصم
فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" كن من احب ان يهد من دون الله فهو محمده فانهم انا يهدون والشيطان ومن
امره بمهادته "

فأنزل الله عز وجل " ان الذين سبقوا لهيئتنا الحسنى اولئك عنها يهدون " اي عيسى
وعزير ومن عده معهم من الاخبار والرهبان الذين ضوا على طاعة المعز وجل فأتخذهم من يهدون
من اهل الضلالة اهلها من دون الله

ونزل فيما يذكر من امر عيسى عليه الصلاة والسلام وانه يهد من دون الله ، وعجيب
الوليد ومن حضره من حجه وخسوته " ولما ضرب ابن مريم مثا اذا قولك منه يصدون " اي
يصدون عن امرت بذلك من قوله ، ثم ذكر عيسى عليه السلام فقال " ان هو الا عهد انتم
عليه وبعثناه مثا لهنى اسرائيل " (١)

وقد أمر الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ان يجادل الناس بالتي هي احسن ، وحاولهم بالتي هي
هي احسن " والله لا يأمر نبيه بهذا الا وهو يعلم انقاد رضى جده ان فوبه وافحامهم " والتي هي
احسن " الطريق التي تشتت على نوح اركان بهم اقتصرهم والزهيم بالحجة برفق ولين وحسن
خطاب ، لما أمر به موسى وطورون عليهما السلام حين يحشهما الى فرعون في قوله " فقولا قولنا
لعلهم يتذكروا ويخشى " .

ولا يقال : هذه الايات انما وردت في خصمهم ، فلا تدل على تهوت الطغاة عليهم
لانا نقول : ما تهت عليهم من الكمال البشرى يثبت لشبهه ، فتهت الطغاة عليهم ان اللائع
بمنصب النبوة ان يكون عند الانبياء من الفطنة ما يردون به الخصم على تقوى وقوع جدال معهم (٢)

(١) تفسير ابن كثير ج ٤

(٢) تحفة المرشد على جوهرة التوحيد ص ١١١

السبب الاول

في معنى العصمة واقسامها من حيث العصم منه وتحتة فصول خمسة

الفصل الاول : معنى العصمة

=====

من الصفات الواجب تطلس الامانة * وهو العصمة هنا لفظان مدلولهما واحد * وسأختار التمهيد بالعصمة *

العصمة لغة : المنع والحفظ

قال الفهرزادى : عصم بعصم : اتسب * ومنع * ووقى * وعصم الطعام : منعه من الجسسى واحصمها لله : امتنع بلطفه من العصمة (١)
وقى لسا العرب

العصمة في كلام العرب المنع * عصمة بعصم * منعه ووقاه

وقال الزجاج في قول الله تعالى " ما ورى جهل بعصمى من الماء " أى يمنعنى من الماء * والمعنى من تخرين الماء * واعصم فلان بالله : اذا امتنع وانصم : الحفظ بقان : عصمته فانعصم

واعصمت بالله اذا اجتمعت بلطفه من العصمة * واعصم بعصم : امتنع وأبى

ذان اللعز وجل حكاية عن امرأ قالعزير حين راودت يوسف عليه السلام عن نفسه * فاستعصم * أى تأسى عليها ولم يجبهها الى ما طلبت (٢)

العصم في اصطلاح أهل الشرح :

عرف المتكلمون العصمة بتعريفات متعددة

منها : ما ذكره الجلال الدوانى بقوله : والعصمة عندنا : ان لا يخلن الله تعالى فيهم ذنبا (٣)

وذكر هذا التعريف عند الدان بن الايجى في كتابه (المواقف) وعلق عليه شارحا * السيد الجرجانى *

بقوله : هذا على ما يقتضيه اعلمنا من استناد الاشياء كلها الى القائل المختار ابتداء (٤)

ومنها : تعريف الكمال بن الهمام بأنها : عدم اقله وتعلق العصمة (٥)

وتعريف الكمال بن الهمام هذا * والتعريف الذى قبله يضمنها ان الانبياء طيبر الصلاة والسلام

صهرون مجبورين على الطاعة * وواجزين عن العصية * ولا يكون لهم اختيار * فلا يستحقون مدحا وثوابا

على فعل الخير ولا ذما وعقابا على فعل الشر وشبهه بهذه بين التعريفين في الضعف * التعريف السندى

ذكره آخرون * ونظمه القاضى

(١) القاموس المحيط ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦

(٢) لسان العرب ج ١٢ ص ٤٠٢ وما بعدها

(٣) شرح الدوانى على المفاتيح المعتمدة ص ٩٢

(٤) شرح المواقف - المقصد الخامس ص ١٥٩

(٥) تيسير التحرير ج ٣ ص ٣٠

عهد الله اليها وهو

كون الشخص بحيث يستمتع الذنب عن طواعية في نفسه او يد نسه (١)

فهذا التعريف يتوجه عليه اعتراضات ثلاث :

اولها : انه لو كان صدور الذنب ممتنعاً عن الانبياء ، لما استحقوا المدح بترك الذنب ، اذ لا مدح بترك ما هو ممتنع ، لانه ليس مقدوراً ، اذ تحت الاختيار ، وعم استحقوا المدح بترك الذنب بسبب فلهن ممتنعاً عنهم

ثانيها : أن الاجماع منقاد على انهم مذكرون بترك الذنوب ، مشاهير به ولو كان المدح بسبب ممتنعاً عنهم لما كان الامر كذلك ، اذ لا تكليف بترك الممتنع ولا ثواب عليه .

ثالثها : قوله تعالى " قل انما انا بشر مثلكم " يدس على انهم يماثلون سائر الناس فيما يوجد من صفات البشرية وامتنياز الانبياء عن سائر البشر انما هو بالوحي لا غير ، وعلى هذا لا يمتنع صدور الذنب عنهم كما لا يمتنع سائر البشر

قال شمس الدين الاصفهاني : من ذلك - التعريف - بالعقل والنقل

اما العقل : فلاكه لو كان كذلك لطلما استحق صاحبها المدح على عصيته ، ولا امتنع تكليفه بترك الامر والنهي والثواب والعقاب

واما النقل فلقوله تعالى " قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي " وقوله تعالى " ولولا ان همتنا ان لقد كدت تتركن اليهم شيئاً قليلاً " فان الايقال ولو تدل على ان النبي ^{مثل} الامة في حق جسمه سوا صدور المعصية منه ، والاية الثانية تدس على ان الله تعالى هتمه على عدم التكون اليهم ، والا لو كان اليهم ، فيكون التكون اليهم الذي هو ذنب غير ممتنع (٢)

وهرف الحكماء المعصية منها : ملذذ نفسانية تمنع عن الفجور ، وتتوقف على العلم بهت السبب المماضي وضاقب الدواعي ، وتتأكد في الانبياء بتناهي الوحي على التدبر والاعتراض على ما يفسد عنهم سهواً والعقاب على ترك الاولي

(١) طوالمح الانوار ص ٢١١

(٢) مطالع الانظار على طوالمح الانوار ص ٢١٢

وقد ذكر هذا التعريف صاحب المواقف كما ذكره أيضا صاحب طوابع الانوار وشرح

شهرالدین الاعفانی شرحا مستفيها بقوله :

ان الهبة النسانية ان لوكن راسخة سميت حالا ، وان كانت راسخة سميت ملكة

والهبة النسانية التي تمنع صاحبها عن الفجور الذي هو ارتكاب المعاصي ، واجتناب الطاعات

انما تصير ملكة بان يعلم صاحبها مثالب المعاصي اي معاصيها ، ومناقب الطاعات ، لان

الهبة العائنة من الفجور اذا تحققت في النفس وطغ صاحبها ما يرتب على المعاصي من المضار

وعلى الطاعات من المنافع تصير راسخة ، لانه اذا طغ مثالب المعاصي ، ومناقب الطاعات يورث

في الطاعات ، ويرغب عن المعاصي - فيطبع ولا يمضي ، فتصير هذه الهبة راسخة وتؤكد

هذه الملكة الانبياء بتناهي الرجز على تذكري ذلك المعلم ، والافتراغ على ما يصد رغبته

سهوا ، والمتاب على ترك الاولى فانه من يصد رغبته شيئا سها او تركوا تلك الملكة (هـ) ما هو الا

لم يتروكوا مهملات وهبل بما اتوا وينهوا عليه ، ويشيق الامر فيه عليهم بتأكيد تلك الملكة (١)

وتعريف الحكماء هذا باطل ، لانه ينسب على باطل ، وهو : قولهم بالايجاب ، وقد تقدم بطمس لان

القول بالايجاب فبطل كل ما ترتب عليه

وقولهم بان الرسالة استحقاق من المهد ، والصحة ايضا تكون من جهة المهد ، بطلانها وان

اذ الرسالة تفضل من الله الذي لا يجيب عليه شيئا ، فقال لنا يهود ، وكذلك العصية ؛ لطيف

من الله تعالى ايضا

وتفادها للافتراضات الواردة على التعريفات السابقة ذكر الكمان بن الهمام في كتابه انه

تعريفها آخر للعصية يمنع ان يكون الثمن مضطرا الي ترك العصية فقال : بعد ان ذكر تعريفه

السابق :

العصية ؛ خلق مانع غير ملجئ .

وظلق عليه شارح التحرير بقوله ؛ خلق مانع من التصية غير ملجئ ، الى ترتيبها ، والا يلزم الاضطراب

المنافي للابتداء والاختيار (٢)

(١) مطالع الانظار على طوابع الانوار ص ٢١٢

(٢) تفسير التحرير لمحمد امين ج ٣ ص ٢٠

وذكر * محمد الكاهلي * ان هذا التصريف هو الذي اختاره الجمهور فقال : والمختار عند الجمهور انها : عبارة عن غلب ما نحن اوثق به المصنفين وملجئ * حتى لا يكون المصوم مضطورا فوترنا المصيبة وفصل الواجب (١)

فذلك على طيه : الشهاب الخفاجي بقوله : وهو مناسب لقول الماتريدي : المصيبة لا تنزل المحنسة : ان الابتلاء المقضى لبقاء الاختيار ، ومعنى : انها لا تجبره على الطاعة ولا تنجزه عن المصيبة (٢) فقلد يجمال هذا التصريف مقبولا انه لا يجعل المصوم مضطورا فوترنا المصيبة ونعمل الطاعة لكن أوضح منه وأصرح القوم بأن

السعة : لطيف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ، ويرزقه عن الشوائب بقاء الاختيار تحقيقا للاقتداء
ذكر هذا الشهاب الخفاجي (٣)

فهذا التصريف - بالاعتناء الى أن لا تترك عليه الاعتراضات التي وجهت الى التصريف السابقة - واضح في الدلالة على المقصود منه ، وتؤيد قولهم من اللغمة فان الفيروز أهدى اختصاصهم بالله : ابتغى بلطفه من المصيبة (٤)

(١) تحفة الأخلاء في عصمة الأنبياء ص ١٥

(٢) نسيم الرياض ج ٤ ص ٣٩

(٣) نسيم الرياض ج ٤ ص ٣٩

(٤) القاموس المحيّد ج ٤ ص ١٢٦

عصمة الانبياء من الشرك والشرك

الكلام عن "عصمة الانبياء من الشرك والشرك" بعد النبوة فنحن ان نتحدث عن عصمتهم من الشرك والشرك قبل النبوة فان الايمان بمسأل نفسه ؛ عن هذه الصفو الممتازة من البشر قد وقع عليهم قبل ان يصطفيهم الله كقوله او شرك ؟
وعلى يجوز الصق هذا منهم ؟

وما موقفنا من النصوص القرآنية التي تدل على انهم قبل بعثتهم لم يتوبوا على التوحيد والايمان .
لهذا فقد جعلت سد المسب من قسمين : الاول "عصمة الانبياء من الكفر والشرك قبل النبوة" .
والثاني "عصمة الانبياء من الشرك والشرك والجهن بالله بعد النبوة" .

القسم الاول :

عصمة الانبياء من الشرك والشرك قبل النبوة

=====

ان الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين معصومون منذ ولدوا من الشرك بالله تعالى . فقد فطرهم الله تعالى على معرفته ، والاتجاه اليه وحده ، ولم يعرف عن واحد منهم كفرا او شرك قبل ان ينه الله ويصطفىه .

ويستند هذا العقل والنقل

فان العقول السليمة ان تظلمه لداعي التوحيد والايمان ان كان قد عرف عنقبل دعوتهم كفرا او شرك كما ان كفرا لا م قد روي انبياءهم بالسحر والجنون وغير ذلك من النقائص ولم يكن الكفر او الشرك ضمن ما روي به الانبياء قبل بعثتهم . في حين ان كفارهم اذ كانوا حريصين على ترويج نبوتهم بوصفه بمسببا ينقص من قدره ، ويحط من شأنه ، لتغيير الناس منه ، وواحد دعوتهم ولو انهم اثبتوا كفره لكان كافيا في خنود دعوتهم ، وانقاص الناس من حوله لان النفرة من اتباع من كان كافرا - قبل بعثته - بركيزة في سببها هتاج البشر ، ولنتهم لم يجدوا سبيلا اليه حيث ما ذهبهم نقي من عبادة غير الله ، وظلواهم منذ ولدوا وسليمة من اعداء الكفر والشرك فسدت القلوب عن تقبل انبيائهم بالكفر لصرف الناس عنهم والقضاء على دعواتهم ليل يهن على انه ما كفر بالله مني قط منذ الولاة تحت نهاية العصور .

فان كفار مكة وسفها المد ينتمن المنافقين واليهود لم يسكروا عن تحويل القبلة عن بهيست
المقدس الى النخبة ه فقد شنعوا وقالوا ما ولا هم عن نعتهم التي كانوا عليها *

وقد نقل الشهاب الخفاجي عن الامام عبد الرحيم القسيري صاحب الرسالة : ان استدلال
على تنزيه الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن النكر والاشراك بالله قبل النبوة بقول الله تعالى
* واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنعنا نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقنا
عظيما * (١)

* الميثاق * العهد و * الخليط * المصنوع

والميثاق الذي أخذ الله تعالى الانبياء عليهم الصلاة والسلام هو : تهللهم بالرسالة ه والدعوة الى
الدين الحق ه وان يصدي بعضهم بعضا ه ويشيرون بهو كان هذا حين كتب وقد رتل ما عر كائس
وقال مجاهد : ان كان في عالم الذر

ويوجه الاستدلال : انه اذا عهد اليهم قبل ظهورهم بتهللهم به ه وتوحيده فكيف يصح وعندهم
ما يخالفه قبل النبوة او بعد ها ه

واستدلال ايضا بقول الله تعالى * واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم
رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذت على ذلکم اصرى قالوا أقررنا قال
التصريح : عظمه فاشهدوا وانامحكم من الشاهد بن *

قال القسيري : فظهره اللفظ الميثاقى - أى حين أخذ الميثاق عليهم في عالم الازل ه وعبد ان يأخذ
الله الميثاق من النبي قبل خلقه ه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالايان بحمد على النعطي وسلم
ونصره على أنه ان ادرك زمانه بأن يتعهد ويكون من أمته ه قبل مولده ه بدعوته ه ويجوز عليه
الشرك او غيره من الذنوب ه

انصلى الله عليه وسلم لا يجوز عليه ولا على غيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام المشرك
ولا غيره من الذنوب بعد أخذ الميثاق عليهم في خلقهم بالايان واقامة له بين القوم ه

قال : وكيف يكون ذلك ه وقد أتاه جهين عليهما الصلاة والسلام - كما رواه مسلم عن انس - وشق
قلبه صغيرا واستخرج منه علقه وقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله بماء حكمة وایمانا * (٣)

(١) سورة الاحزاب الاية ٢

(٢) سورة آل عمران الاية ٨١

(٣) نسيم الروايع ج ٤ ص ٤١ - ٤٢

وقد أجمعت الاقطر عصمتهم من الذنوب والشرك قبل النبوة بعد ما عني " المواقف " وشرحها
للسيد الجرجاني (واما الذنوب فأجمعت الامة على عصمتهم منه) قبل النبوة بعد ما ولا خلاف لاحد
منهم في ذلك (١) فوق الكفر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام متنها اتفاق قبل النبوة بعد ما
ولم يحدث ان الله تعالى بعث نبيا قط اشرك بالله لحظة واحدة .

اما جواز الذنوب عليهم عقلا قبل البعثة فقد اختلف فيه

فذهب الروافض والمعتزلة الى امتناعه

وحجتهم

اولا : ان الكفر نكروا في الانسان ، والنبوة تكلم بسرى تام ولا يحصل الكلام التام بعد التقسيم
التام

وثانيا : ان من ما يؤيد الى الكفر من الانبياء بعد البعثة ، بمنعه العقل ، والا تصح فائدة البعثة .

وذهب القاضي ابوبكر الباقلاني ومن معه الى ان لا يمنع عقلا ارسال من اسلم وآمن بعد تفرده
وحجتهم : ان لا مانع في نظو العقل من حصول الكلام التام بعد النقص التام ، بعد رفع المانع من
حصوله

قال الشهاب الخفافى : انهم من خالف في ذلك فجزوه عن عصمتهم عن الكفر قبل النبوة الا انسه
ليس بصواب ، وقد نقل عن الباقلاني : انه جزوه عقلا ، وان لم يقع ان اللممت كانوا ولا فاسقا (٢)

ومع هذا نجد من يرجح مذهب القاضي ابي بطون مذهب الروافض والمعتزلة مستندا الى امرين

الاول : انه لا سمح قبل البعثة يدل على عصمتهم عن الكفر

الثاني : ان دلالة العقل بمنتهى التحسين والتقييد العقلي ، وهو باطن عند الجمهور .

ومن هؤلاء الامدى الذى يقول :

والحق ما ذكره القاضي لانه لا سمح قبل البعثة يدل على عصمتهم من ذلك ، والمقل دلالة بمنتهى العقلي

التحسين والتقييد العقلي ، ووجوب رعاية الخدمة في افعال الله تعالى ، وذلك

(١) شرح المواقف للجرجاني - المقصد الخامس ص ١٣٤

(٢) نسيم الريان ج ٤ ص ٤٠

كله ما ابطالناه في كتابنا الكلامية (١)

وثلكمان بن الهمام سواهم باه شاه اللذان قالا : في التحرير وشرحه :-

(الحق ان لا يمنع من البهثة كبرية ولو كره قولا) اي امتناعا عقليا - كما هو قول

القاضي واكثر المحققين (واما الواقع) في نفس الامر (قال توارث) اي الخبر المتوارث

(و انه لم يبعث بنى قط اشركها للطرفه عين) (٢)

وأميل الى القول بانتناع صدق القومين الانبياء قبل النبوة عقلا - الذي ذهب اليه الشيعة

والمعتولة - حيث ان في العقل مانعا من ذلك - وهو انطواءه الى النفوة منهم بعد البهثية

واما الاحتجاج على بطلانه - باهتائه على باطل وهو : التحسين والتقيح العقلي - كما ذهب الآمدي

فصرده عليه بأن معرفته انه تدعو اليها الفطر المستقيمة - والعقول السليمة - والانبياء عليهم

الصلوة والسلام كانوا اصح الناس فطورا وأرجحهم عقولا .

دفع ما يوهم القوم قبل النبوة

لا يمكن علينا ظاهرا قول الله تعالى * وكان الذين كفروا لرسولهم لئذ يخرجكم من ارضنا اولتمودن

في ملتنا * (٣) بأن التمود يقتضين انهم كانوا من الرسل التي ما عليه اقوامهم من القوم والصلوات

وساها قول الله تعالى ايضا * قال المرء الذين استنبوا من قومه لئذ يخرجك يا شعيب والذين

آمنوا معك من قومتنا اولتمودن في ملتنا قال اولو كما كانوا هم - قد افترضنا على الله كذبنا

ان عدنا في ملتكم بعد ان نجانا الله منها * (٤) بأن شعيبا عليها السلام كان قس بمقتضى

على ملتقومه

كان عدنا الظاهر مد في وجهه اربعة :

الاول : ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد نشأوا بين اقوامهم - ولم يظهرها المخالفة

لهم قبل بعثتهم - فظن القوم لهذا ان الرسل كانوا على دينهم فقالوا * اولتمودن في ملتنا *

ولم يكن الرسل في حقيقة الامر من دين اقوامهم

الثاني : ان قول القوم القائل لرسولهم * اولتمودن في ملتنا * يقصدون به : اولتمودن الى ما كنتم

عليه قبل ادعاء الرسل من السكوت عن تمهيد ديننا - وعدم التمرن له بالطمع والقبح (٥)

(١) الاحكام في اصول الاحكام ص ٢٤

(٢) تفسير التحرير ج ٣ ص ٢٥

(٣) سور تاهرا غير الآية ١٣

(٤) سور تالاعراف في الاتيان ٨٨ - ٨٩

(٥) مفاتيح الغيب للرازي ج ١١ ص ١٥

الثالث : ان العود في جانب الريح عليها الباردة والسلام ليس بمعنى الرجى الى التفسر
المقتضى اتصافهم به اولا ليس بمعنى : الصبورة ه وهى : وجود الشئ بعد ان لم يكن ه
اي ليكون لاحد الامرين : اخراجكم او غيرورتكم في ملتنا ه وقد جاء العود بهذا المعنى في :
اولا : كلام المسرب

قال الشاعر ، وقد اختلف في قائله ه وتمثل به عمرو بن عبد العزيز

تلك المكارم لا قصبان من لبن ه ه ه ه ه شها بما ه فعاد ا بعد ا والا

أى ما انت عظيم من رضى الفمان ه وتريم الخصال هو المناقب الجميلة ه لا قد حان من لبسن
خلط بما ه صار بعد شبهه بولا

وما كان لبن القصيون قس شبهه بولا (١)

وقال صاحب الكشاف : العود بمعنى الصبورة كثيرا في كلام المسرب

وثانيا : الحد يث الشريف

تقد روى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انقال :

ه يقض الله ه قبضة من النار ه فيخرج منها قومالم يمسكوا خيراقط قد عاد واحميا فبلغهم نفس

نهر في اقواء الجنة يقال له : نهرالحياة ه فيخرجون كما تخرج الحبة في جميع السيل ه ه ه ه ه (٢)

فمعنى : عادوا : صاروا ه والحرم : الفحرم ه الواحدة حمسة

اي صاروا فحما سودا ه اذ لم يكن الجهنميون قبيل ذلك حميا

قال النووي : وليس يلزم في " عاد " ان يصير الى حالة ثان عليها قبل ذلك ه بل معناه صار (٣)

الرباع : ان القفار من الامم خاطبوا بهذا من رسول ه ومن آمن معه فظفروا في الخطيب

الجماع على الواحد ه ذكره النسفي (٤)

وعلى هذا فالذي يطمع فيه القفار هو : رجوع المؤمنين اتباع الريح الى ما كانوا عليه من التفسر

بعد اتباعهم ورسولهم

ولا يتوهم متوهم من قول اللطفا الى " قامن من له لوط وقال انى مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم (٥)

ان لوطا عليه السلام كان متصفا قبل ذلك الوقت بنقض الايمان وهو التفسر

(١) تفسير الرباع ج ٤ ص ٤٦

(٢) صحيح مسلم شرح النووي ج ١ ص ٤٤٠ طبعة كتاب الشعب

(٣) صحيح مسلم شرح النووي ج ١ ص ٤٤٠

(٤) تفسير النسفي ج ٢ ص ٤٥٧

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢٦

فان الايمان عبار عن التصديق به ، والمصدق به - هنا - هو نبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام
 دون ما دعا اليه التوحيد ، حيث كان لوط عليه السلام موحدا منزها عن الكفر والشرك قبل ذلك
 وعلى تند يوان التصديق هو نبوة ابراهيم عليه السلام مع ما دعا اليه التوحيد - فهو ايضا
 لا يقتضى ان لوطا كان قبل ذلك موحدا ، بل ان صدقنا بالهوى وهو التوحيد وخالى الذهن
 عن الهوى الاخر وهو نبوة ابراهيم - عليهما السلام - فاذا رأى معجزته صار مصدقا فى الجميع .
 فان الخازن فى معنى الآية : صدق لوط برسالة ابراهيم - عليهما السلام - لما رأى معجزاته ، وهو
 اول من صدق ابراهيم ، واما فى اس التوحيد ، فانه كان مؤمنا ، فانه كان مؤمنا لان الانبياء لا يتصور
 فيهم الكفر (١)

كما لا يصح ان يفهم - ان كلم الله موسى على الله عليه وسلم كان على يده لقتل البعثة وحين وكسر
 القبطى فمات - من قوله فيما حكاه عنه القرآن الكريم " قال فعلتها اذا وانا من الضالين " (٢) .
 فان المعنى الصحيح الذى ينهض ان يفهم عليه هو : فعلت الوكر وانا ذاعل عن كونه مؤدبا الى
 القتل ، لان الوكر لا يؤدى اليه فالها ، فان الضال عن الشئ هو الفاهل عن معرفته او فعلت الوكر
 وانا من الضالين الى ما يقضى اليه الوكر قصدنا من الشاه يبا
 او : فعلت ذلك وانا من المخطئين القاطنين شيئا بخير قصدنا وقصدنا لقتل النفس التى قتلنا
 لان الضلال بمعنى الخطأ ، وهذا المعنى أوضح .

قال الشهاب الخفاجى : ويخ فرعون . موسى عليه السلام - على فعلته التى فعلها ، وعلى قتله قهطيا
 من اتباع فرعون بمصر قبل نهوته - لما دعاه ، وعد له نعمه عليه بقوله " ألم نريك فينا وليدا
 الى قوله " وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين " أى ينهى - فأجابه بقوله " فعلتم
 اذ وانا من الضالين " فوصف نفسه بالضلال وهو معصم منه ، فأجاب بان الضلال بمعنى الخطأ
 وعدم قصد لقتله ، وانا أراد بوجهه ففوزه فمات من وكزه ، وطلبه لا يعرفه لانه خطأ
 مدفوعه (٣)

وقيل ان السمنى : فعلت ذلك وانا من الناسين ، وقد جاء الضلال بمعنى انسياق فى قوله تعالى
 " ان تض احدا عما فتذكر احدا عما الاخرى " أى ان تنسى احداهما فتذكرها الاخرى (٤)

(١) الباب التأويل فى معانى التنزيل ج ٣ ص ٤١
 (٢) سورة الشعراء الآية ٢٠
 (٣) نسيم الرياض ج ٤ ص ٥
 (٤) تفسير النفس ج ٣ ص ٣٢٨

وقول الله عز وجل لنهينا على الله عليه وسلم "كذلك أوحينا اليك روحا من أمونا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان" (١)

يشكل ظاهرة عند البعض بأنه ينفي عن النبي صلى الله عليه وسلم معرفته القرآن المنزل عليه وبالايمان ، وللاول صحيح - لان عدم معرفته بالقرآن قبل الوحي امر مقدر - والمشكل انما هو الثاني ، لانه يقتضى انه صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمنا قبله .
ويدفع هذا الاشكال : بأن الايمان في قوله " ولا الايمان " مصدر بمعنى المفعول أى ما يجب بالايمان به من الفرائض ، والاحكام الشرعية التى كتبت بها علماء وعلماء فكان على الله عليه وسلم قبل نزول الوحي ومجيء الملك له ، رافضا الشركاء متجها الى اله واحد ثم نزلت الفرائض والاحكام الشريعة التى لم يكسبها يد ربه قبل الوحي فأمن بها ويشير ابن كثير الى ان الايمان المنفى عن الرسول على الله عليه وسلم هو الايمان التفصيلى ، لا الاجمالى بقوله :

" ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان " على التفسير الذى شرع لك فى القرآن (٢)
ويقول الخازن فى تفسير الآية :

اختلص العلماء فى هذه الآية مع اتفاقهم على ان الانبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين ،
فقيل : معناه : ما كنت تدري قبل الوحي شرايع الايمان ومعالمه

رقاب محمد بن اسحاق : عن ابي خزيمة : الايمان فى هذا الموضع الصلاة دليله : وما كان الله ليضيق ايمانكم " بمعنى صلاحهم ، ولم يره به الايمان الذى هو الاقرار بالله تعالى ، لان النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة يوحى الله تعالى . . . ولم تشبه له شرايعه بانه لا بعد الوحي اليه (٣)
ويذكر النسفى : ان الايمان المنفى هو : الايمان الذى طريقه السمع والعقل

فيقول : الايمان يتناول اشياء بعضها الطريق الى العقل ، وبعضها الطريق اليه السمع
فمعنى به ما الطريق اليه السمع والعقل ، وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي (٤)

ولا يضح ان يفهم : ان نهينا على الله عليه وسلم لان على ضلال قبل البعثه توهمنا من قول الله تعالى " ووجدك ضالا فهدى "

قال النسفى : ولا يجوز ان يفهم به عدول عن حق ، ووقوع فى غي فقد كان عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الشورى الآية ٥٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢١

(٣) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٠٦

(٤) تفسير النسفى ج ٤ ص ١١٢

وان للآية معاني صحیحة تلزمه نهيها صلى الله عليه وسلم عن تسبته الى الضلال قبل البعثة
نقتصر منها على ما هلى :

- أولا - ووجدك بين أهل الضلال فعصمتك عن أن تنهج منهمجهم ، وتوافقهم فيه وهتلك
الى الابحان .

- ثانيا - ووجدك ضالا عن شريعتك التي أوحاها الله اليك لا تعرفها قبل الوحي بها
اليك فهداك اليها

- ثالثا - ووجدك متحيرا في البحث عن طريقة تخرج بها قومك مما هم فيه فهداك المسنى
الطريقة المثلى في ذلك

- رابعا - أنه قد يخاطب السيد ويكون المراد قومه " فقله " ووجدك ضالا " ووجد قومك
ضالا فهداهم بك وشريك

- خامسا - أن الرسول وان كان عارفا بالله بقلبه الا أنه كان في الظاهر لا يظهر لهم
خلافا فعبر عن ذلك بالضلال

- سادسا - ووجدك ضالا في طريق الشام حين خرجت مع عمك أبي طالب فردك الى القافلة
سابعيا - ووجدك ضالا في صفرتك عن جدك في شهاب مكة فردك اليه

- ثامنا - ووجدك ضالا عن مرضعتك حليلة حين جاءت بك لتتركك الى جدك عهد المطلب

والأقوال الثلاثة الأخيرة ؛ جعلت الضلال حسيا ، وهو سلوك طريق محسوس غير موصلة
للمقصد ما يجعل ضعفها ظاهرا ، فان الهداية الى الطريق الحصى ، وان كانت
نعمة الا أنها نعمة صغيرة بالنسبة الى النعمة الأعظم ، وهى : نعمة انزال شريعة
اليه ، أو هدايته الى الطريق المثلى التي بها يخرج قومه مما هم فيه ، أو هدايته
الى الاتجاه الى الله وحده وهو بين أهل الضلال

والآيات قبلها وعددها تعدد النعم العظيمة عليه صلى الله عليه وسلم
وللامام الشيخ محمد عده كلمة قيمة في هذا الصدد أقتطف منها ما يلى :

أعظم أنواع الضلال كانت الحيرة في أمر العرب أنفسهم ، براهم صلى الله عليه وسلم
في سخافة عقائدهم وضعف بصائرهم ، باستيلاء الأوهام عليهم ، وفساد أعمالهم . . . فوما
العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم ، وأى طريق ينهض أن
تسلط في ابقائهم من سباتهم ما أشدها حيرة على الصد يقين . الى أن يكشفها الله
بالنور السبين

(١) تفسير الألويس ج ٩ ص ٣٩٦ - ٣٩٧

والفخر الرازى ج ٨ ص ٤٢٤ - ٤٢٥

فهذا هو الذي عناه الله بالضلال في هذه الآية الكريمة ، وما أعظم الهداية من ذلك الضلال
من اشتد إلى الله ، وعرف أنه خالق الخلق كلهم ، وأنه وحده المستحق للمهادنة دون أحد
منهم ، هل يدعي بنفسه بغير وحى الهى ، كيف يعبد ، وأى الوسائل يطلب قومه وللخساسة
من هذه الحيرة كان يطلب الخلوة بفارح حراء ، يتلمس الهداية به العان سطح عليه نور الوحى
فاتشله من هذا كله ، وعلمه كيف يرشد قومه ، ويخلص العالم من فساد العقل وسوء العمل
وأى نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة هذا هو معنى قوله " ووجدت أمثالاً فهدى " (١)
أما قول من قال : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة على دين قومه فهو خطأ فاحش
وقد رده الزمخشري بقوله : ومن قال : كان على أمر قومه أهيمن سنة ، فان أراد أنه كان على
خلوهم عن العلم السمعية فنعم ، وان أراد أنه كان على كفرهم ودينهم فمصاد الله ، والأنبياء
يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وعدوا عن الكبائر والصفات الشائنة فما بال الكفسر
والجهل بالصانع " ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء " وكفى بالنهى نقيضه عند الكفار أن يسبق
له كفر (٢)

وبما هو قريب من هذا وصف نبينا صلى الله عليه وسلم بالغفلة قبل أن يوحى إليه في قوله
" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين " (٣)
فالغفلة هنا إنما هي عن قصة يوسف مع أبيه وأخوته ، وهي وأمثالها لا تعلم إلا من الوحى ،
فلهذا لا يلحقه نقص بسببها ، قال الفخر الرازى : " وان كنت من قبله " يريد من قبل أن
يوحى إليك " لمن الغافلين " عن قصة يوسف وأخوته لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحى
ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشرعية قبل ذلك كما قال تعالى
" ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " (٤)

وبما يوهم ما لا يليق بعصمة صلى الله عليه وسلم عن الكفر قبل النبوة الحديث الذي رواه عثمان
بن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله ورواه أبو يعلى الموصلى في مسنده عن طريق عثمان هذا ،
ورواه البيهقي في " دلائل النبوة " أن النبي قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم فسبح
ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : أذهب حتى تقوم خلفه فقال الآخر : كيف أقوم خلفه
وعنده باستنم الأصنام ، فلم يشهدهم بعد " (٥)
ويندفع الوهم إذ عرفنا أن هذا الحديث موضوع ، أو شديد الضعف ، فقد أنكره الامام احمد
بن حنبل انكاراً شديداً وقال : هو موضوع ، أى لم يثبت ، أو شبهه بالموضوع بشدة ضعفه
وليس من الفضائل حتى يتعذر روايته وقد طعن في هذا الحديث من جهة السند ومن جهة
المعنى ، أما من جهة السند فقال الدارقطنى : يقال : ان عثمان وهم - غلط في أسناده

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبد ص ١١١ - ١١٢ (٤) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٥٥
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٦١٢ - ٦١٣
(٣) سورة يوسف الآية ٣
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ١٥٥

وذكر القاضي هياض : أن هذا الحديث ما أنكر على عثمان ، وقد أنكر عليه أحاديث أخرى رواها مع أن الشيخين قد رواها عنه بعض الأحاديث

وقال الشهاب الخفاجي : وقد ضعفه إلا أن ابن معين قال انه ثقة مأمون وقد أنكره الذهبي وغيره من العلماء ، كما أنه ليس من واحد من الكتب الستة

وأما من جهة المعنى : فإنه يخالف ما يعرف عن نبينا صلى الله عليه وسلم من أنه لم يكن على شيء مما كان عليه المشركون من ولادته الى وفاته وخاصة في أمر الاصنام فهو الذي قال عن نفسه لما نشأت بغضت الى الاصنام " فمقتضى أن يجهل على عدم حبها أنه لم يشهد مشاهدتها ، ولم يوافق قومه في أمرها (١)

وعو الذي قال : لبحير الراهب لما استخلفه باللات والعزى أن يخبره عما يسأله عنه : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا أبغضهما " قال : فبالله الا أخبرتنى عما أسألك عنه قال : سلني عما بهالك "

وعو الذي قال : لرجل في سوي يموني اختلف معه على شيء وقال له : احلف باللات والعزى - ما حلفت بهما قط واتي لأمر فأعرض عنهما " (٢)

وما يدل على اجتنابه صلى الله عليه وسلم لاصنام وعدم حضور مشاهد المشركين عندها ما رواه ابن سعد عن ابن عباس عن أم أيمن أن عمه أبا طالب وعماته طلبوا منه يوما بالحاج أن يحضر معهم عيد الصنم تعظمه قريش ، ولم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ماشاء الله قالت عماته : ثم رجع اليها فزعا فقلن له ما دهالك ؟ قال : اتى أخشأن يكون بي لم " فقلن : ما كان الله ليهتلك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت قال " اتى كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبرز طول بصيح بي : ورائك يا محمد لا تمسه " قالت : فما عاد الى عيد لهم حتى تنها (٣)

فهذا الحديث يورد حديث جابر بن عبد الله

كما يرفعه أيضا ما عرف من سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم قبل نبوته من مخالفة المشركين من قبيلة قريش في وقوفهم عشية عرقة بمزدلفة في الحج معللين ذلك ، بأنهم خواص الحرم فلا يخرجون بالكلية منه خلافا لغيرهم الذين كانوا يقفون بعرفات - فكان صلى الله عليه وسلم اذا حج يقف بعرفات وكان موقف بعض الأنبياء كآدم وإبراهيم وغيرهما ، فهده الله لاتباع شرائعهم ومخالفة أهل الجاهلية فيما كانوا عليه

(١) الشفا ونسيم الرياض ج ٤ ص ٥٢ - ٥٣

(٢) للطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٦

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٠

(٤) الشفا وشرحها نسيم الرياض ج ٤ ص ٥٢ - ٥٣

القسم الثاني :

١ عصمة الأنبياء من الكفر والجهل والشك بعد النبوة ١

أرسل الله عز وجل رسوله الى عباده ليدعوهم الى الايمان به وحده . وعبادته دون سواه
واختيار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهذه المهمة يدل على أنهم قد وصلوا الى الغاية
التي لم يصب اليها من سواهم من البشر في معرفته الله تعالى والايمان به . وأنهم بمنزلة
عن الكفر به . وعن الجهل به وصفاته وعن الشك فيه . ان لا يعقل أن يدعو الى شيء هم
يفتقدونه

ثم انهم قد نجحوا في دعوتهم . وعرفوا الخلق بخالقهم . والانسان لا ينجح في دعوته ان
كانت الى شيء لا يعتقد . . فدعوتهم أولا . ونجاحهم فيها ثانيا يدل على أنهم أكمل الناس
ايمانا بالله . ومعرفته به . وعلى أنه لم يتطرق الى أحدهم كفر بالله أو جهل به . أو شك
فيه

وأيا : قد رمت قريش نبينا صلى الله عليه وسلم بمقتريات كثيرة . وفعل ذلك كفار الأسم
مع أنبيائهم ولم ينقض اليها اتهام واحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأنه وافق الكفار
في تعظيم آلهتهم وعبادتها

وقد قال الله تعالى في شأن نبينا صلى الله عليه وسلم " ما جعل صاحبكم وما غوى " أي ما
ضل عن طريق الهدى وما جهل . فقد نفى الله عنه الكفر ونفى الكفر عنه نفى له عن الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام جميعا . ان لا فرق بين نبي وآخر .

ثم انه قد توارث من لدن آدم أبي البشر الى نبينا عليهم الصلاة والسلام أنه لم يبعث نبي
قط أشرك بالله طريقة عين

وقد انعقد الاجماع على عصمة الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام من الكفر والجهل والشك
قال سعد الدين التفتازاني : وهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وحده . بالاجماع (١)
ولم يخالف فيه الا من لا يعتقد بخالقهم

كألزارة من الخوارج . فقد نفى عنهم أنهم قالوا / بجواز بعثة نبي علم الله أنه يكفر بعد
نبوته (٢)

وذكر الامام أبو محمد علي بن احمد بن حزم الظاهري أنه رأى في كتاب " أبي جعفر محمد بن
السمناني " قاضي الموصل صاحب الماقلان أنه كان يقول : ان كل دين أدق أو جل فانه
جائز على الرسل حاشا الكذب في التبليغ فقط . والواجب عليهم أن يكفروا (٣)

(١) شرح التفتازاني على المعقائد النسفية ص ١٣٦

(٢) الاحكام في أصول الاحكام ج ١ ص ٢٤٣

(٣) الفصل في المطلب والأهواء والنحل ج ٤ ص ٢

حاشا الكذب في التبليغ فقط : ودائر عليهم ان يتقوا (١)
والتفضيلة من الخواص فانهم يجوزون الكفر على الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذلك لانهم يجوزون
صدور الذنوب عن الانبياء ، ولكن ذنب الكفر عند عدم ، فهذا يجوزوا صدور الكفر عنهم (٢)
وإذا ان المذهبان باطرين : مذهب الازارقة لقيام الأدلة السابقة وغيرها على عصمت الانبياء
عن الكفر ، ومذهب الفضيلة للفرق بين الذنب والكفر
والروافض من الشيعة جوزوا على الانبياء اظهار الكفر على سبيل التوبة عند خلاف الهلال بل قد
شمس الدين الاصفهانى : انهم اوجبوه
وحجتهم : ان اظهار الاسلام ان كان مفضيا الى القتل كان القاء للنفس في التهلكة ، والقسا
النفس في التهلكة حرام لقوله تعالى " ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة " واذا كان اظهار الاسلام
حراما كان اظهار الكفر واجبا (٣)
ومذهب الروافض هذا باطل لامسور
احدها : انه لو جاز اظهار الكفر توبة لكان اولى الاوقات به وقت ظهور الدعوة لظلة الموافقين للنبي
بعد مهمهم ، وكثرة المخالفين له ، وعلى هذا لا يجوز لاحد من الانبياء اظهار دعوتهم وذلك
يؤدى الى اخفاء الدين تماما .
ثانيها : ان بعض الانبياء قد دعوا الى الله عما تجبهون من ما لو فهم ايقاع الهلاك بمن يخالفهم
كابراهيم الذي دعا نمرودا ، وموسى الذي دعا فرعون ، فهذا يدل على فساد مذهب الروافض
قال السيد الجرجاني : وما ذكره منقوض بدعوة ابراهيم وموسى عليهما السلام في زمن نمرود وفرعون
مشدة خوفا للهلال (٤)
ثالثها : ان بعض الانبياء قد قتل في سبيل تبليغ الدعوة كزكريا وحيى عليهما السلام ، فلو كانت
التوبة جائزة لانبيا لما عرضوا انفسهم للقتل والتعذيب .
فالانبياء عليهم الصلاة والسلام محصومون من الكفر بالله بعد التوبة باتفاق الا ممن لا يمتنع
بخلافهم وما ورد من النصوص التي يوعم ظاهرها صدور الكفر او الجهل او الشك من بعض الانبياء
فيجب ان يصر عن ظاهره الى ما يلقى بمقامهم من التوحيد الخالص ، والعلم الجازم
واليقين القاطع احتقا للحسن ، ودفعاً للباطل

(١) الفصل في الملل والاعواء والنحل ج ٤ ص ٢

(٢) عصم الانبياء للفخر الرازى ع ٣

(٣) مطالع الانظار ع ٢٠٩

(٤) شرح المواقف - المقصد الخامس ع ١٢٥

دفع ما يؤمن الشرك

ما نسب الى آدم عليه السلام من وقوع الشرك منه أخذنا من ظاهر قول الله تعالى " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما انفصلنا حملت حملا غافيا فمرت به فلما انزلت دعا الله وهما لكن آتينا صالحا لتكونين من المشركين - فلما آتاها صالحا جعل له شركا - " فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون (١)

مورد عليه

بأن الكلام على حذف مضاف والتقدير : جعل اولادها له شركاء فهما أتى اولادها والتثنية باعتبار ان ولده قسمان : ذكر واثني ، فليس الشرك اذن من آدم وحواء وانما من اولادها او ان الخطاب لجميع الناس ، وتثنية الضمير لعودة على النفس وزوجها من ولد آدم لا الى آدم وحواء او ان المراد : جنس الذكر والانثى . دون قصد الي معنى او ان الخطاب لقريش خاصة ، والنفس الواحدة وزوجها : قصي وزوجته وبناء على أي من هذه الاقوال وغيرها التي سنمرورها بالتفصيل في الفصل الخاص بآدم عليه السلام فان آدم وحواء بريهان من الشرك وانما الذي أشرك فيهما وما نسب الى الخليل عليه الصلاة والسلام من صدور الشرك من أخذنا من ظاهر قوله عن الكوكب " هذا ربي "

مدفوع : بأن الخليل عليه السلام قال عذا القول في معرض المناظر تلقومه اما على سبيل الفرض ليتوصل الى ابطال عقيدة قومه بربوبية الكواكب . واما على سبيل الاستدراج لقومه حتى يستمدوا حجته التي يقرر بها الدليل على بطلان مذهبهم وجاء في القرآن الكريم آيات تحمل وعيد الله وتهديد يده لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء بالعقاب ان أشرك واحد منهم بالله . فتوهم منها البعض جواز وقوع الاشراك من نبينا او من غيرهم من الانبياء لان الوعيد على شيء انما يتوجه لمن يمكن صدوره منه غالبا لا للمعصوم منه

لكن الفهم الصحيح لهذه الآيات يحيل صدور الشرك من أي نبي من هذه الآيات قوله تعالى " ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحططن علك ولتكونن من الخاسرين (٢) " اي لقد أوحى اليك لئن أشركت ليحططن علك ، وإلى الذين قبلك من الانبياء مثله وانما صح هذا الكلام مع علم الله تعالى بأن الانبياء لا يشركون ، لاى الخطاب للنبي والمراد غيره من أمته او أنه على سبيل الفرض ، والمحالات يصح فرضها ، وجاء الكلام هنا على سبيل الفرض لتبسيط المخاطب والاشعار بققح الاشراك وكونه في الشناعة بحيث ينهي عنه من غير معصوم منه فكيف ينهي

(١) سورة الاعراف الايتان ١٨٦ - ١٩٠

(٢) سورة الزمر الآية ٦٥

وقوله تعالى " ولا تدع من دون الله مالا ينفعت ولا يضر " فان فعلت فانك اذا من الظالمين (١) *
والذي في هذا الآية كذلك في سبقتها من أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمواد أمته
أو أنه على سبيل النفي والمحال يصح فرعها .

لقد ما يوهم الجهل

وما نسب الى نوح عليه السلام من الجهل بأن وعد الله حقا أخذنا من ظاهر قوله تعالى له

" فلاتسألن ما ليس لدي به علم اني اعظمان تكون من الجهل (٢) *"

وما نسب الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجهل بأن اللطوشاء لهدى الكفار جميعا
أخذنا من ظاهر قوله تعالى " وان كان ثبوتها عنهم فان استطعت ان تبغض نفعا فبغض

الارضوا ولما في السماء فأتيتهم بالبين والبرهان الله لجمعهم على الهدى فز تكون من الجاهل (٣) *"

مد فوج : بأن المعنى الصحيح للآيتين بخلاف هذا

قآية نوح عليه السلام : تغيب نهيهم عن سؤال ما ليس لهم علم من نجاة قلوبهم بدون الله تعالى
لا نصبحانه هو الذي يعلم حقيقة ما بين نوح ان كان يستحق النجاة أولا يستحقها ، ولو كان

يستحقها لنجاة من غير توقف على سؤاله بل لنعنا على وعد الله تعالى وآية نبينا صلى الله عليه وسلم

ولم تغيب نهيهم عن الحزن الذي يد على نفسهم ، والحزن الباطن على إيمانهم ، لان
إيمانهم جميعا على الهدى يرجع الى مشيئة وقدرة الله تعالى وحده ، وهما لم يتعلق بذلك ، إذ لو
تعلق به لكان ووقفا .

وان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمواد المسلمون من أمته ، فقد كانت صد وأصحابه
تسبب بكفر الكافرين وايداهم .

قال القرطبي في معنى الآية : وان كان عليهم علم انهم لو لم يؤمنوا فافعل .
سرها في الاثر تخلص منه الى الملائكة آخر او سبها الى السماء فأتيتهم بآية لهم فافعل .

والمقصود : ان لا يشهد حزنه عليهم ، ان كانوا يؤمنون لانهم يستطيعون ان كفروا
بمشيئة الله تعالى ، ولو شاء لخلقهم مؤمنين ، وطههم عليه .

وقيل في المعنى : ولو شاء الله لا راعى اية تضطرهم الى الايمان ولكنه عز وجل أراد ان

(١) سورة يونس الآية ١٠٦

(٢) سورة قهول الآية ٤٦

(٣) سورة الانعام الآية ٣٥

يثبت منهم من آمن ومن أحسن

فلا تكونين من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى البرج الشديد فالله ~~سود~~
ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن على كفر قومه فيقارب رجال الجاهلين
وقيل : الغطاب لمصلى المعطية وسلم والمراد أمته فان قلوب المسلمين كانت تنهمر من كفرهم ~~سود~~
وايدائهم (١)

ومن المعلوم ان النهي عن شيء لا يستلزم سبق وقوعه من النهي او اتصافه به ، فقد يقصد بالنهي
عن شيء الثبات على تركه ، والاستمرار على عدم الاتصاف به وما هنا من عند القيس
قال على القارى : لا يلزم من نهيه عن نوصن الخلبسوين فان المراد به التمهيج والتشبيست
على تحقيق ذلك المرام ، والتعمير بأن من كان على خلاف ذلك الاعتقاد فهو جاعل بالرشاد ~~سود~~
عن طريق السداد (٢)

وقد اخذنا من فهم ان يؤتى عليه الصلوة والسلام فقد جهس ان قد وه الله لا يمجزعا شيء حيث
ظن حين ترك قومه ، وذنب عنهم مفاعبا لهم ان الله لن يقدر عليه اخذا من ظاهر قول الله
تعالى " وذاللون ان ذهب مفاعضا فظن ان لن نقدر عليه . . " (٣)

وهذا الفهم الغاطي قد سبق الى ذهن معلومة حتى ازاله ابن عباس رضي الله عنهم
نقا ، روى ان ابن عباس دخل على معاوية فقال : يا ابن عباس : لقد ضربتني امواج القرآن الهارحة
فشرفت ، فما اجد للنفس خلاصا الا بك ثم قرأ الآية ثم قال : او ظن بنى الله ان لا يقدر الله
عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدر (يسكون انك ال او فتحها) لان القدرة وجواب ابن عباس
هذا يبين ان معنى " لن نقدر عليه " لن نضيق عليه . وهذا مروى عن جماعة من أئمة التفسير
واللغة ، وهو قول تعالى " الله يهبط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر " اي يضيق
وقوله " ومن قدر عليه رزقه " اي ضيقه ، وهذا التأويل يمنع ان يكون يؤتى عليه السلام
قد خرج متعمدا المصيبة ، وانما لظنه ان الامر في شروبه موسع يجوز ان يقدر وان يؤخر
وان به لن يضيق عليه في اختياره

ويجوز ان يكون هذا من باب التمثيل بمعنى : فانت حاله مثل حاله من ظن ان لن نقدر عليه
في شروبه عن فومسه من غير انتظار الاذن .

(١) الجامع الاحكام القرآن ج ٧٧ ص ٢٤١٤ - ٢٤١٥

(٢) شرح الشفا على عايش من نسيم الريان ج ٤ ص ٢٢

(٣) سورة الانبياء الآية ٨٧

وقيل : القدرة هنا بمعنى القضاء فالمعنى : فمن ان لن نقضى عليه بشدة وعقوبة ونجازية
على ذهابه وعدم صبره معهم ، وشوق قول مجاهد وقتاده ، والصحاح والكلي ورواية السوفي عن
ابن عباس

وقيل : ان المعنى : فقلن ان لن نقدر (بضم اوله وتمت يد ثالثة) عليه ما اعماه من الابهت
باعتلاج الحوت له (١)
دفع ما يؤتم الشك

نعب الى الخليل عليه الصلوة والسلام أنه شك في قدره الله تعالى على احياء الموتى اخبرنا
من ظاهر قوله تعالى " وان قال ابراهيم رب انى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال بلى . ولكن
ليعلمن قلبي . . . " (٢)

فان تعلمين طالب ابراهيم عليه السلام من ربه ان يريه كيفية احياء الموتى ، بانه ليعلمن قلبي
بمشاهدة كيفية احياء يقضى ان عنده شفا فيه
والحق : ان الخليل عليه السلام لا يتوجه اليه هذا الطعن عند التاهل واعمال الفكر فانه لم يشك
عليه السلام فيما اذبحه الله به من أنه هو الذى يحيى ويميت ، ولكنه اراد بما قاله ضمانته القلوب
بمشاهدة كيفية صدور الاحياء عن القدرة ، ان ليعر الخبير كالمعاينة ، فالعلم الاول يتيقن وقوع الاحياء
من الله تعالى اجمالا حاصل للخليل من غير شبهة فيه ، وانما اراد بمرواه ربه العلم الثانى بكيفية
ومشاهدة صدور ربه عن اللغاتى تفصيلا ليزيد علمه واطمئنانه .

فابراهيم عليه السلام لم يشك في قدره الله تعالى على احياء الموتى ، وانما اراد الاتقان من علم
اليمين الى عين اليقين ، وهذا امر لا ضير فيه (٣)

وهناك وجوه اخرى في دفع الاعتراض متأتى في النصل انخاض ابراهيم عليه السلام واقتصر هنسنا
على هذا الوجه لوجهه على غيره من الوجوه

(١) تفسير المخر الرازى ج ٦ ص ١٥٠ والانسى ج ٥ ص ٣٨٤
(٢) سورة البقرة الاية ١٦٠
(٣) نسيم الرياض شرح على القابى على الشفا ج ٤ ص ٣

وقد يفهم المحدث من قول نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري " نحن احق بالشك من ابراهيم ان قال : وب ارضي كيف تسمى الموتى قال اطم تومن فان هلى ولدن ليظنن قلهي " (١)

ان نبينا صلى الله عليه وسلم قد اثبت الشك لخلين دليه السهم في هذا الحديث ، ووجه نفسه احدى بالشك منه ولكن هذا الفهم غير مد يد ، فليس في الحديث اعتراف منه بالشك لهما هبل هسو نفى لان يكون ابراهيم شك ، واهداه للخواطر الضعيفة ان تنسب الشك لابراهيم عليه السلام لان مقامه يجز عن مثله .

ونبينا صلى الله عليه وسلم قصد نفى الشك عن الخليلين بخياس منطقي هو :

لو شك ابراهيم كنت انا شاكاً أيضاً ، من احق به ، وقد علم اني لم يقع شك فكذلك ابراهيم فنفساه بنفسي لازمه (٢)

وقد ذكر ابن حجر الحسقلاني عدة معان للحديث اقتصر منها على ثلاثة ، هي ارجحها في تفسيرى الاول : ان الم تشك نحن فابراهيم اولى ان لا يشك ان لو كان الشك متطرقا الى الانبياء لكنت انا احق به منهم ، وقد علمت اني لم اشك ، فاعلموا انه لم يشك ، وانما قال ذلك تواضعا منه ، او قهرا

ان يعلم الله بأنه أفضل من ابراهيم .
ان سبب هذا الحديث ان الآية لما نزلت قال بعض الناصب : شك ابراهيم ولم يشك نبينا الثاني : فلهذا ذلك فقال : نحن احق بالشك من ابراهيم ، واران ماجرت به الادة في المخاطبة لمن اراد ان يدفع عن آخر شيئا . قال : مهما اردت ان تقول لغلان فقله لي ، ومقصود لا تثقل ذلك الثالث : ان بعض علماء السلفية حتى ان " افعل " هما ^{جاءت} الخس المعنى عن الشيبين نحو قولهم تعالى " اهم خير يوم تهب " اي لا خير في الفريقين . فعلى هذا فمعنى قوله : نحن احق بالشك من ابراهيم : لا شك عندنا جميعا (٣)

كذلك من الخطأ البين ان يظن ان نبينا صلى الله عليه وسلم قد شك فيما ارجاه الله اليه اخذا من ظاهر قول الله تعالى خطاها له .

" فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من المقتوين - ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فليسوا من الخاسرين (٤)

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٥٦

(١) تفسير ابراهيم ج ٤ ص ٥

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ٢٩٤ - ٢١٥

(٤) سورتيونس الايتان ٩٤ - ٦٥

لان الشك فيما انزله الله تعالى انما يترتب بتأثير الوساوس الشيطانية ، والانبياء عليهم الصلاة والسلام لا سلطان للشيطان عليهم ، فلا تتأثر عقيدتهم ، ولا يتزعزع يقينهم ، ولا يندحر ملوكهم بفعل الوساوس والخواطر الشيطانية .

فان ارواح الانبياء الصافية ونفوسهم المطمئنة ، وعقولهم المنتطة ، وقلوبهم المتلثة ايماناً وحكمة ، والحنانية الالهية الحارستهم . من ذلك جعلهم بمأمن ومنجى من تسلط الشيطان عليهم بالخواطر الضارة والمشككتهم في دينهم ، وذلك حتى يستطيعوا تأدية رسالات ربهم على الوجه الاكمل .

روى مسلم بسندة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : ما منكم من احد الا وقد وذل به قهرين من الجن . قالو : وياك يا رسول الله ؟ قال : وياي : الا ان الله اعاننى عليه أسلم ، فلا يأمرنى الا بخير (١)

ولهذا فنبينا صلى الله عليه وسلم لم يشك فيما انزله الله اليه ، ولم يسأل اهل الكتاب عنه : حتى قتاده - فيما رواه ابن جرير - ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما نزلت الآية " لا أشك ولا أسأل "

وقال ابن عباس - فيما صح عنه - كلما قاله ابن ابي حاتم في تفسيره : لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل (٢)

وقد اتفق عامة المفسرين على انه لم يشك ان نبينا صلى الله عليه وسلم شك او سأل احدا من أهل الكتاب عما أنزله الله اليه ، ثم اختلفوا في المقصود بالآية على اقوال

احدها : ان المعنى : ان كنت شككت في ذلك على سبب القرض والتقدير فاسأل الذين يقسمون الكتاب من قبلك فان ذلك محقق عندهم ثابت في قلوبهم حسبما انزلناه اليك ، لان الشك لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام ، ولذا وقع التعبير بان اننى تستعمل قالها فيما لا يتحقق له حتى تستعمل في المستحيل عقلاً وهادة ، كما في قوله سبحانه " قل ان كان للرحمن ولد وقوله تعالى " فاستبان استطعت ان تهنى نفقا في الارض " ومدى الشرعية لا يتوقف على وقوعها

ذكر هذا الالوسى (٣)

وللامام الفخر الرازى تقرير في هذا قال فيه : ان قوله " فان كنت في شك " الآية قضيبة شرطية ، والقضية الشرطية لا اشعار فيها اليك بان الشرط لم يقع او لم يقع

- (١) صحيح مسلم
- (٢) المشفا وشرحها ج ٤ ص ٦
- (٣) روح المعاني ج ٣ ص ٤٩٥

ويضا على وجوه الثلاثة السابقة

وجه رابع؛ هو : ان اللطعمالى نهى عن اللطعم عليه وسلم - فعلا يقال بعد ما وهو قوله **ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين** * عن أن يكون من المكذبين بآيات الله ، وانهى صلى الله عليه وسلم كان نحو المكذب فيما يدعو اليه وليس من الذين كذبوا بآيات الله ، فالمراد ان بالخطاب غير الرسول صلى الله عليه وسلم

وعلى هذا يكون معنى الآية قر : يا محمد لمن يشك في الوحي المنزل عليك : ان كنت في شك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك

ومثل ما ذكر من الخطاب المقصود به غير الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

فلاتك في مريم مما يمهد هؤلاء ... (١) اي لا تشك في ان ما يمهد المشركون ضلالها طمس موهب الى العذاب الشديد ، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يشك في أن ما عليه المشركون ضلالها طمس ، ولكن غيره هو الذي يجوز عليه هذا الشك

ومن هذا القهين قوله تعالى **الحق من ربك فلا تكونن من المتبين** * (٢)

وقوله تعالى **ولئن اتهمت اعداءهم بعد انذى جاءك من العلم مالك من ^{ولس} ولا نصبر** (٣)

وقوله تعالى : **ولئن اتهمت اعداءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين** * (٤)

فلى الخطاب في هذه الآيات مقصود به غير الرسول صلى الله عليه وسلم ، لانه لا يصد منه المنهى عنهم ، والمتوعد عليه في هذه الآيات

قال ابن كثير : قال الله تعالى مخاطبا الرسول والمراد به الامة **ولئن اتهمت اعداءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين** * (٥)

وقوله تعالى **وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبينوا الا الظن وان هم الا بخروصون** * (٦)
 بمن في الارض الناس واكثرهم النصارى وقيل : اهل مكة والارض ارضها اي ان المراد بهم تطعهم بان جعلت منهم حكما يضلوك عن الطريق الموصل الى الله ، اوعن الشريعة

التي شرعها الصباه ، لن يتبينوا الا الظن ان اباهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون

اوجهالاتهم وآراءهم الباطلة - على ان المراد بالظن ما يقابل العلم

فلا يصح ان يفهم من كون الخطاب للرسول انه يميز عليه ان يضل عن الصواب والطريق المستقيم باطاعتهم غير الله لا ارتفاع قدره صلى الله عليه وسلم عن ارتباب هذا ، وانما المراد غير الرسول ، بطريق التمويه زجرا للعصاة وابقائهم من غفلتهم ، وقد صرح تعالى بالمراد في قوله **يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يولدونهم على اعقابهم فتنقلبوا خاسرين** *

(١) سورة عبود الآية ١٠٩

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٧

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٥

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤٤

(٦) سورة الانعام الآية ١١٦

حكمة الانبياء من انذبت في التبليغ ودعوى الرسالة

ان الذين الذي يهتدي به البشر للشي هي اقوم اعتقادا او عملا انها يعرفه الناس عن طريق
رسول الله .

وهؤلاء الرسل لو نذروا فيما انزله اللعليهم لتبليغهم الى عباده ، فنقضوا منه اوزادوا عليه شيئا
من علوا نفسهم ، او بدلوا فيه ، وغيروا لثابت عقيدة الناس وشراعتهم على وجه غير صحيح ، واللهم
لا يرضى ان يعرف ويشهد بدين فاسد ، وشرايع مزيفة ، وانما بقى هذا وخزي من يقترى عليه
الذنب ، ويمد به عندها لا يمد به احدا من الالهيين " ولولا ان تهلك لقد كدت تركن اليهم
شيئا قليلا - اذ الاذقان ضعف الحياة وضمف السمات "

وحيث ان الله تعالى لم يخزطهم بمدب ، ولم يهلك احدا من رسله عقابا له ، فقد دل هذا
على انه لم يندب احد منهم على وجه في دعوى الرسالة ، والتبليغ عنه تعالى وهذا هو مضمون ما تفيضه
الادلة التي يستدل بها على صدق الانبياء من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى

فانه يستدل على ذلك بدليل عقلي - هو المعجزة - وادلة نظمت في القرآن الكريم اما المعجزة
والاستدلال بها على هذا فقد سبق الكلام فيه في مبحثي " المعجزة " و " صفات الرسل " بمسما
يخفى عن اعادته .

واما الآيات القرآنية فهي :

اولا : قول الله تعالى " ولو تفوق علينا بعض الاقارب - لاخذنا منه باليمين - ثم لقططنا منسسه
الوتين - فما منكم من احد عنه حاجزين " (١)

والنصفي : لو اقمى علينا محمد مالا يصح نسبه اليه ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لاهلكتنا بعد بنسائه ،
وهذا تصوير لقتلة صبرا بانقطع ما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام . فيؤخذ
بهميته ، فيضرب عنقه ، وينقطع وتينه ، وشورعوى يقال له حبل الوريد مناط القطب اذا قطع سمات
صاحبه . وما منكم احد يستطيع ان يدفع القتل عن محمد (٢)

وحيث ان الرسول على الله عليه وسلم لم يهلكه الله ولم يمد به ، فهو وان لم يقل على الله
بالم يقله الله تعالى .

(١) صورة الحاقة الآيات من ٤٤ - ٤٧

(٢) تفسير النمنى ج ٤ ص ٢٨٩

(٣) شرح الشفا لمولى القارى ج ٤ ص ٢٦

ثانيا : قول الله تعالى في شأن نبينا صلى الله عليه وسلم " وما ينطق عن الهوى - ان هو الا وحى
يوحى " (١)

المعنى : وما اتاكم به محمد من القرآن ليس ينطق بصدور عن هواه وواهه ، وانما هو وحى من عند
الله يوحى اليه (٢)

ثالثا : قول الله تعالى " وان تادوا ليقنتونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، وان اذا لا
تخذوك خليلا - ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا - اذا لا ذقتك نصف الحياة -
وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيرا " (٣)

سبب نزول الآيات :

ان ثقيفا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لاندخل من امرنا حتى تمتدنا خصالا نفتخر بها على
العرب لانهم لا يمشرون ولا يحشرون ، ولا نجس في صلاتنا ، وكل ربنا فبولنا ، وكل ربنا علينا فهو موضوع ،
وان يمتدنا باللات سنة ، وان تحرم وادينا وجا ، كما حرمت مكة ، فاذا قالت العرب لم فعلت
فقل : ان الله امرني بذلك . (٤)

وضيف الفخر الرازي - الى هذا - : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عنهم عند ذلك
فدخلهم انطمح ، فصاح عليهم عمر وقال : اما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امسك
عن الكلام كراهية لما تذكرونه ، فانزل الله هذه الآية

ويقول : ان هذه القصة انما وقعت بالمدينة - فلهذا السبب قالوا : ان هذه الآيات مدنيية
وقيل : ان سبب النزول : ان قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل اية رحمة آية
عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك ، فنزلت هذه الآية

وقال الحسن : اخذ النصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فقالوا : كف يا محمد
عن ذم آل بيتنا وشتمها فلو كان ذلك حقا ، كان فلان وفلان بهذا الامرا حتى منك ، فوقع في قلب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكف عن شتم آل بيتهم وظل هذا فلا آية مكية (٥)
وهناك روايات اخرى تركتها لضعفها

وايضا هذه الاقوال - عندي - القول بانها نزلت في ثقيف ، ان هذه الآيات مدنية وكسبيون
امسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدلم عند ما طلبت ثقيف خصالا يفتخرون بها - كراهية
لما يذكرونه هو الذي اطمعهم - وعليه تحمل الآيات

- (١) سورة النجم الايات ٣ ، ٤ ، ٥
- (٢) تفسير النصف ج ٤ ص ١٩٤
- (٣) سورة الاسواء الايات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
- (٤) تفسير ابوالسود ج ٣ ص ٢٢٧
- (٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج ٥ ص ٤٣٦

معنى الآيات :

لقد ظن الكفار - ثقيف او قريش - عند ما طلبوا منك ما طلبوا * انهم قارها ان يصرفوك عن السندي
اوحينا اليك لتقول علينا غير الذي اوحينا اليك ما اقترحوا عليك *
ولو فعلت ذلك لاتخذوك صدقا لهم ووليا * ولخرجت من ولايتي
والولا تثبتنا اليك على ما انت عليه من الحق بعصمتنا لك لقاربت ان تميل اليهم ميلا بسيما -
قال ابن عباس : يريد حيث سكنت عن جوابهم - لقوة خداعهم * وشدة احتيالهم * لكن ادركت
الخصمة فنعمت من ذلك * وهذا صريح في أنه على الله عليه وسلم لم يهم باجابتهم * وهم يسرد
على من زعم انه عليه الصلاة والسلام هم باجابتهم فمنه نزول الآيات

ولو قاربت يا محمد ان تميل اليهم ادنى ميل لادفناك عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا * وعذابا ضعفا
في القبر بعد الموت
او : لو قاربت الميل البسيط اليهم لنضاعفن لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا والمسكناب
المؤجل لهم بعد الموت

او : لو قاربت الميل البسيط اليهم لنضاعفن لك عذاب القبر * وعذاب يوم القيامة المذخورين للعصاة
ومضاعفة عذاب الخطير الشأن على خطئه - لانه يكون سببا لا يتمك اب غيره مثله والاحتجاج به
فكأنه من ذلك و " من سن سنة سيئة فعلية ^{وزرها} من عمل بها الى يوم القيامة *
" ثم لاتجد لك علينا نصير * اي لاتجد لك يا محمد - ان فعلت ذلك فعد بنائك من يدفع
العذاب او يرفقه عنك (١)

وذكر صاحب " الشفا " و " شارحا " ان هذا العذاب المضاعف في الدنيا والاخرة جزاء من يفعل
هذا الاثم على الله * والميل الى عدم الاعداء * وجزاءك لو كنت - فرضا وتقديرا - ممن يدمر
وهو لا يفعله * وفي هذا الهزيمة للزجر عما ذكر لغيره ممن يتصورونه فعل * لانه اذا همد
به من لا يصد عنه فما بالك بغيره (٢)

وما تقدم بتضح ان نهيينا صلى الله عليه وسلم لم يصرف عما اوحاه الله اليه * ولم يفتقر على الله غيره * ولم
يميل الى الاعداء * شيئا يسيرا من الميل * لعصمة الله له وتثبته اياه على ما عو عليه من الحق

(١) روح المفلح ج ٤ ص ٥٦٢ - ٥٦٣

(٢) نصيب الرهاضي ج ٤ ص ٣٧

رأيما : قول الله تعالى " أم يقولون افتري على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ومع الله
الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور " (١)
فقد حكي الله تعالى عن الكفار في قوله " أم يقولون افتري على الله كذبا " أنهم نسبوا
الرسول صلى الله عليه وسلم الى الافتراء ، بل الى الافتراء على الله الذي هو اعظم القوي وانحسها
بإدعائه النبوة والقرآن .

وهذا الزعم من الكفار باطل - لاشك في بطلانه ، ولكن هل هذه الآية نفسها هي التي
تكفلت بالرد عليه في قوله تعالى فيها " فان يشأ الله يختم على قلبك " ؟
أم أن هذه الآية لم تتعرض لابطال هذا الزعم - أكفأ بابطاله في مواضع آخر - وانما اعتدت
بتصوير الرسول صلى الله عليه وسلم عن الذي قوه ونسبتهم اليه الى الكذب ؟
بالتاني قال مجاهد : والمعنى عليه :

فان يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على اذاهم ، وعلى قلوبهم : " افتري على الله كذبا "
لكلادخله مشقة بتكذيبهم (٢)

والاول : قال آخرون : على أقوال ثلاثة تتفق جميعها في نفي أن يفترى الرسول صلى الله عليه
وسلم على ربه الكذب بدعوى النبوة والقرآن ودليل منطقي هو :
لو كان الرسول مفتريا الكذب على ربه لنعمه الله منه ، ولكنه لم ينعمه منه فهو غير مفتر
وثبت أنه صادق

القول الاول :

يقول أبو السعود : وقوله تعالى " فان يشأ الله يختم على قلبك " استشهاد على بطلان
ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افتري على الله تعالى لنعمه من ذلك قطعا .
وحقيقته : أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لا يشأ صدور القرآن
عن النبي صلى الله عليه وسلم فهل يشأ عدم صدوره منه ، ومن ضرورته منه قطعا فكأنه قيل :
لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك ، وان يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر
ببالك معنى من معانيه ، ولم تتطرق بحرف من حروفه ، وحيث لم يكن الامر كذلك بل تواتر الوحي حينما
فحيث تبين أنه من عند الله تعالى .

القول الثاني : أن المعنى : ان يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترئ على الافتراء
عليه تعالى الا من كان كذلك ، وهو داء : استبعاد الافتراء عن مثله صلى الله عليه وسلم وأنه نفي
البعد مثل الشرك بالله ، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم .

(١) سورة الشورى الآية ٢٤

(٢) تفسير النسي ج ٤ ص ١٠٦

الثالث : قال قتادة : معنى " فان يشأ الله يختم على قلبك " يمسك القرآن ويقطع عنك الرجى
يمنى لو أنفرد النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب على الله لفعل به ذلك ، وهذا معنى ما قيل :
لو كذب على الله لأثمنا القرآن (١) هوى المحض : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم
والمراد غيره ومنهم القاضى عياض الذى يقول : قوله " فان يشأ الله يختم على قلبك " و " لئن
أشركت ليجنبن منك " وما أشبهه فالمراد غيره وأن هذه حال من أشرك ، والنبي صلى الله عليه
وسلم لا يجوز عليه هذا (٢) .

وقوله " صرح الله الباطل وصدق الحق بكلماته " وقد من الله تعالى أن يحو الشرك ويظهر
الاسلام ويثبت به ما أنزل من كتابه على لسان نبيه طوبقائه وقد خلق الله ذلك فصحا باطلهم
وأظهر الاسلام " انه عليهم بذات الصدور " عليهم بما فى صدورهم من الرقبة فى أحقاق الحق ، ويحس
الباطل ، وما فى صدورهم من محبة الباطل وكراهية الحق ومعاداته ، وسيجازى كل على حسب هذا
واذا كان هذا قد ثبت فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم فهو فى حق الأنبياء عليهم السلام كذلك
اذ لا فرق بين واحد منهم والآخر ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام تجب لهم جميعا المصحة من
الكذب فى دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى عما هدالة المعجزة والآيات القرآنية السابقة .
وأما السهو والنسيان فى ذلك فأختلف فيه منهم قوم وأجازوه آخرون ، والذين ضمنوا
منه كالسفرائين وكثير من العلماء أحتجوا .

أولا : بأن تجوز به يرفع الثقة فيما يبلغه الأنبياء عن الله تعالى ، اذ يحتمل أنهم نسوا شيئا
من الدين أو غلطوا فى بعضها بلغوه .
وثانيا : أن دلالة المعجزة على صدق الأنبياء فى ذلك تشمل السمد وغيره ، ولا موجب للفرقة بين
السمد وغيره والذين نسوا الى جواز السهو والنسيان على الأنبياء فى ذلك كالقاضى أبو بكر
الهاقلانى ومن معه يرون أن دلالة المعجزة على الصدق فى ذلك انما هى فى السمد ، أما ما كان
من النسيان وثقات اللسان فلا دلالة للمعجزة على الصدق فيه ، فلا يلزم من الكذب فيه تنقضى
لدلالة المعجزة .

وأن : تجوز على الأنبياء لا يورث الى القدح فى الثقة بتبليغهم ، لأن ذلك انما يكون لو قروا
عليه ولكنهم لا يقرون عليه
وقال الشهاب الخفاجى عن الهاقلانى قوله : فى كتاب الانتصار : المعجزة تدل على صدق
النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفكر فيه وهو عامد له ، وذهول النفس وطريان النسيان ، هو ادر
اللسان لا يدخل تحت الصدق الذى هو مدلول المعجزة .

(١) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ٢٤

(٢) السفا ج ٢ ص ١٠١

ومن زعم أنه في تجوز ذلك القدح في الثقة بتبليغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس بشيء
فإنما يكون ذلك لو جوز تقريرهم عليه وهو متنع (١) .

وقد حكى هذا الخلاف دون ترجيح بعض العلماء كعضد الدين الأريحي في "المواقف"
بينما حكاه البعض بترجيح كالأمدى الذي رجح مذعب القاضى أبى بكر في قوله :

فالإتفاق من أهل الشرائع قاطبة على محبتهم عن تسمد كل ما يخل بصدقهم فيما دلت المعجزة
القاطمة على صدقهم فيه من دعوى الرسالة ، والتبليغ عن الله تعالى ، وأختلفوا في جواز ذلك
عليهم بطريق الغلط والنسيان ، فنصح منه الأستاذ أبو إسحاق وكثير من الأئمة ، لما فيه من مناقضة
دلالة المعجزة القاطمة ، وجوزه القاضى أبو بكر صبراً منه إلى أن ما كان من النسيان وفلتات
اللسان غير داخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة ، وهو الأشبه (٢) .

وع أن مقصد القاضى أبى بكر واضح من كلامه ، إلا أن القاضى عياض يرى : أن أبى بكر يقصد
من كلامه أنه لا يجوز على الأنبياء الكذب في ذلك قطاً ونسياناً ، وعدم الجواز ليس من دليل المعجزة
وإنما من دليل آخر هو الإجماع .

قال القاضى عياض : وأما أقواله صلى الله عليه وسلم فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة
المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقة البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها
بخلاف ما عوبه لا قسداً ولا عنداً ولا سهواً ولا غلطاً ، أما تصد الخلف في ذلك فمتفق بدليل المعجزة
القائمة مقام قوله تعالى : صدق عهدي فيما قال اتفاقاً وطباقاً أهل اللغة إجماعاً .

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فهذه السبيل عند الأستاذ أبى إسحاق الأسترايى ومن
قال بقوله ومن جهة الإجماع فقط ، وورود الشرع باتتفاً ذلك ، وحصه النبي ، لا من مقتضى المعجزة
نفسها عند القاضى أبى بكر الباقلانى ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة (٣)
وهيما يكن مقصد القاضى أبى بكر فإني أرجح مذعب الأستاذ أبى إسحاق الأسترايى لهذه

الرجسوة .

الأول : أن صدور ذلك سهواً يؤدى إلى رفع الثقة فيما يبليغه الأنبياء عن الله ، وذلك يفتقر الفرض
من محبتهم .

الثانى : أنه لا موجب للتفرقة بين المصد والسهو ، فلتكن المعجزة دالة على صدق الأنبياء في
الجميع

الثالث : أن الله تعالى قال : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وهذا أمر مطلق

(١) نسيم الرياض ج ٤ ص ١١٧
(٢) الأحكام في أصول الأحكام ج ١ ص ٢٢٣
(٣) الشفا ج ٢ ص ١١٥

لا تفرقة فيه .

وإن فسرت : إنما أعطاكم من الذي أخذوه وما نهاكم عنه من الذي فلا تأخذوه : فهي دالة على
المراد أيضا على هذا التفسير بطريق الفحوى والقياس ، فإنه يحظى ويمنع بأمر الله تعالى .
وابعا : أن الآيات القرآنية السابقة وغيرها كقوله تعالى " يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق
من ربكم " تفيد عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الكذب في دعوى الرسالة ، وعن الكذب في
التبليغ عن الله تعالى مطلقا من غير تفرقة بين الممد والممدوب ولا وجه لهذه التفرقة .
خاصا : روى الامام أحمد وأبو داود والحاكم وصححوه عن عبد الله بن عمر قال : قلت يا رسول
الله أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال نعم : قلت : في الرضا والفضب ؟ قال : نعم فاني لا أقول نسي
ذلك كله الا حقا .

فهذا الحديث يفيد أنه صلى الله عليه وسلم لا يصدر منه ما يخالف الواقع لا عمدا ولا غيره ،
لعصمة الله تعالى له في أقواله وأفعاله كلها قال القاضي عياض : فلتعتمد على ما وقع عليه اجماع
المسلمين أنه لا يجوز عليه خلف في القول في ابلاغ الشريعة والاعلام عن ربه ، وما أوجاه اليه من
وجه لا وجه الممد ولا غير الممد ، ولا في حالي الرضا والسخط والصحة والمرض (١) .
فحطل المرض أيضا عن الله عز وجل فيها أنبياء ، عن الخلف في القول في ابلاغ الشريعة
حتى لا يتوهم انمان أن وطأة المرض وأشداد الالم على نبي من الأنبياء قد تجعله يهذى ويخلط
في القول ويخبر في دين الله بما لم يوح به اليه .

ولهذا فاني أسوق الحديث الذي فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن يكتب لاصحابه
كتابا - عندما أشتد وجعه لا يضلون بعده فلما اختلفوا في ذلك أعرض عن الكتاب ووسرهم - وتحاول
بإذن الله توجيه هذا الحديث ، روى مسلم في صحيحه بسنده عن سعيد بن جبير قال : قال ابن
عباس : يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى بل دمه الحصى فقلت : يا ابن عباس وما يوم الخميس ؟
قال : أشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه فقال : أحتضن أكتب لكم كتابا لا تضلوا بهدى
فتنازعوا وما ينهض عند نبي تنازع وقالوا : ما شأنه أعجز ؟ استقموه قال : دعوني فالذي أنا
فيه خير ، أوصيكم بثلاث : أخرجوا الشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم
قال : وسكت عن الثالثة أو قال : فأنسيتها (٢) .

ورواه البخاري أيضا مع زيادة في قوله " فالذي أنا فيه خير ما تدعوني اليه " (٣)

(١) الشفا ج ٢ ص ١١٥

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧١ ، كتاب الوصية حديث ١٦

(٣) صحيح البخاري ج ٢ ص ٦١ = ٦١

وفي حديث آخر رواه مسلم أيضا في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده فقال عمر : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الرجوع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فأختلف أهل البيت فأختصموا فمنهم من يقول : قهوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والأختلاف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوسوا (١) رواه البخاري أيضا في صحيحه (٢) .

فهذا الحديث يلقي على الذهن أسئلة متعددة :

- ١- ما هو الكتاب الذي هم الرسول صلى الله عليه وسلم يكتبه ؟
 - ٢- ولماذا عدل الرسول عن كتابته ؟ وهل يمكن الاستغناء عنه ؟
 - ٣- وهل الرسول في حال مرضه يجوز عليه الخطأ في الأحكام الشرعية ؟ أو ترك بيان ما أمر ببيانه ؟
- جواب عن هذه الأسئلة :

عن الاول : بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن ينصر على الخلافة في انسان معين ، لكلا يقع نزاع وقتن فقد حكى عن سلمان بن عبيدة عن أهل العلم قبله ، أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب استخلاف أبي بكر رضي الله عنه .

وقيل : أراد أن يكتب كتابا يبين فيه مهمات الأحكام ملخصة ، ليرتفع النزاع فيها ويجمد الاجتهاد على المنصوص عليه (٣) .
وعن الثاني : بما ذكره النووي :

من أن الرسول صلى الله عليه وسلم هم بالكتاب حين ظهر له أنه مصلحة أو أوحى اليه بذلك ثم ظهر أن المصلحة تركه ، أو أوحى اليه بذلك ، ونسخ ذلك الأمر الاول .
فعلى أن الرسول أراد أن ينصر على خلافة أبي بكر ، فقد عدل عن ذلك اعتمادا على ما علمه من تقدير الله تعالى ذلك ، ثم نهى الله على استخلاف أبي بكر بتقديره أي في المصلحة .
وعلى أن الرسول أراد كتابة مهمات الأحكام ليرتفع النزاع فيها ، فقد عدل عند ذلك لئلا يفسد باب الاجتهاد على أهل العلم والاستنباط والحاق الذرع بالاصول ، فان المسلمين آنا وحدنا كل مسأ هم بحاجة اليه منصوبا عليه صريحا لم يحتاجوا الى الاجتهاد ، واستنباط الاحكام ، اما اذا تركوا لاستخراج أحكام للوقائع التي تقع لهم ، من الكتاب والسنة سواء من النص أو الدلالة فانهم يجتهدون في ذلك

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٦

(٢) صحيح البخاري ج ٣ ص ٦١

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم للحديث السابق

وقد قال صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم عن عمرو بن العاص : اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم اصاب فله اجران ، واذا حكم فاجتهد ثم اخطأ فله اجر * (١) .

وفي تركه صلى الله عليه وسلم الانتكار على عمر رضي الله عنه دليل على استصوابه .

فالذي هم الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابه ثم عدل عنه فانما لانه يمكن الاستغناء عنه ، ولم يمكن الاستغناء عنه لما تركه لمجرد اختلاف اصحابه حوله .

قال الامام ابو بكر البيهقي : انما قصد عمر التخفيف على رسول الله حين غلبه الوجع ولو كان

مراده صلى الله عليه وسلم ان يكتب ما لا يستفتون عنه لم يتركه لأختلافهم ولا لغيره لقوله تعالى :

" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك " كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه ، ومجاناً :

من عاداه ، وكما أمر في ذلك الحال باخراج اليهود من جزيرة العرب وغير ذلك ما ذكره في الحديث (٢)

وجاب عن الثالث :

بأن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الكذب ومن تغيير شيء من الاحكام الشرعية في

حال صحته وحال مرضه ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه ، وترك تبليغ ما أوجب الله عليه تهيئته

لأن النبي صلى الله عليه وسلم يجوز عليه من الامراض والامقام المارضة لجملة ما لا تصرفه لنزول

وما لا يوردى الى تنفير الناس عنه ، فلو جاز عليه حال المرض تغيير شيء من الاحكام الشرعية أو ترك

بيان ما أمر ببيانه لكان الدين والشرائع عرضة للخلط فيها ، وعدم الثقة بمضمونها والأدلة قامت على

عصمة الأنبياء من ذلك .

وقد ذكر البهز أن عمر عارض في كتابة الكتاب لأنه يرى أن قصد الرسول للكتابة كان غير جازم ،

وللخوف من أن يجد المنافقون بذلك سبيلاً الى الطعن في الدين ، لا لأنه توهم الغلط على رسول

الله قال الخطابي : ولا يجوز أن يحمل قول عمر على أنه توهم الغلط على رسول الله صلى الله

عليه وسلم أو ظن به غير ذلك ما لا يليق به بحال ، لكنه لما رأى ما غلب على رسول الله صلى

الله عليه وسلم من الوجع وقرب الوفاة مع ما أراه من الكرب خاف أن يكون ذلك القول ما يقوله المريض

ما لا عزيمة له فيه فيجد المنافقون بذلك سبيلاً الى الكلام في الدين وقد كان اصحابه صلى الله

عليه وسلم يراجعونه في بعض الامور قبل أن يجزم نبيها بتحتيم كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف

وفي كتاب الصلح بينه وبين قريش ، فاما اذا أمر بالشئ أمر عزيمة فلا يراجع فيه أحد منهم .

قال : وأكثر العلماء على أنه يجوز عليه الخطأ فيما لم ينزل عليه ، وقد أجمعوا كلهم على

أنه لا يقر عليه (٣)

و " أهجر " على الاستفهام ومعنى عجر " هذى " .

وجاء هذا من قائله استفهماً للانتكار على من قال : لا تكبوا : أي لا تتركوا أمر رسول الله صلى

الله عليه وسلم وجعلوه كأم من هجر في كلامه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يهجر .

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ٣١٠

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٢

(٣) المرجع السابق

وقوله صلى الله عليه وسلم " دعوى فالذى أنا فيه خير " معناه : دعوى من النزاع واللفظ الذى شرعتم فيه فالذى أنا فيه من مراقبة الله تعالى ، والتأهب للقائه والفكر فى ذلك ، ونحوه أفضل مما أنتم فيه .

دفع ما يوهم كذب الأنبياء على الله

تمسك الطاعتون فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى هذا المجال بشبه واعية ظنوها ترويد مدعاهم وتخدم غرضهم الخبيث ، وتحقق ما ربههم الشيطانى ، ولكن خاب ظنهم فقد حمل أنصار الحق على هذه الشبه حملة صادقة عرتها من جلبابها وكشفت عن زينها ، وأطاحت بها فتم ظهر الحق ، وزعوى الباطل " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " .
من هذه الشبه : أن يونس عليه الصلوة والسلام أخبر بأن شيئا من عند الله سيقع ، فلم يقع ما أخبر به وذلك أنه وعد قومه المذاب من ربه - لما لم يؤمنوا - وخرج من عندهم ، فلما رأوا مقدمة العذاب آمنوا فلم ينزل الله بهم المذاب قال تعالى " فلولا كانت قرية آمنت فنقمها لآمنوا إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتنهم الى حين " (١) .
وجاب عن هذه الشبه بأحد هذه الأجوبة :

الأول : منع أن ذلك كان خيرا من يونس عليه السلام محتملا للصدق والكذب فهو لم يقل لهم : أن الله يهلكهم ، حتى يكون عدم أعمالهم كذبا فى خبره ، وإنما هو انشاء وطلب من الله أن يهلكهم ان أصروا على الشرك .

ذكر الشهاب الشفاجى : أنه عليه السلام لما دعا عليهم قيل له : ما أسخ ما فعلت ؟ أرجع اليهم وأدعهم أربعين ليلة فان لم يحييها حل بهم المذاب ، فدعاهم سبعاً وثلاثين ليلة وقام بهم خطيباً وقال : ان لم ترجعوا الى ثلاثة أيام حل بكم المذاب ، وعلمته تفسير الوانكم ، فلما رأوا التفسير ، وعلم يونس بالمذاب خرج من بينهم وطلبوه فلم يجدوه ، وألهمهم الله تعالى التوبة ، فخرجوا الى الصحراء بأعاليهم وأولادهم ، وداوبهم ونجوا الى الله تعالى وقالوا : آمنا بيونس ، فقبل الله نبيتهم وكشف عنهم المذاب بمد ما عابنوه فى صحابة على رؤسهم كما قال الله تعالى " فلولا كانت قرية آمنت ١٠٠٠ الآية " (٢) .

الثانى :

تعليم أنه خير ، ومع هذا ليس كذبا ، لأنه على تقدير شرط هو : ان لم تؤمنوا ، كما يعلم من قوله " الا قوم يونس لما آمنوا ١٠٠٠ الآية " .

(١) سورة يونس الآية ٩٨

(٢) نسيم الرهاض ج ٤ ص ١٠٤

الثاني : ان خبر يونس عليه السلام لم يكن عن اهلاك العذاب لهم ، وانما مجيء العذاب لهم وقد جاء اسم العذاب كما أخبر يونس عليه السلام فهو قد قال لهم : ان العذاب صبيحكم وقت كذا ، ولم يقل : مهلككم : وتحقق خبر يونس عليه السلام بجيء العذاب لهم في الوقت المسمى ، بان دنت الارض سبحانه فيها عذاب ودخان أسود فأضوا فداركهم الله ، ورفع عنهم العذاب الذي تيقنوه .

ومن غده الشبه :

ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم زاد في القرآن من عند نفسه كلاما يمدح فيه الاستقام ارضا للمشركين وذلك اخذا مما رواه ابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم عن سعيد بن جبير : ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة " والنجم " وبلغ من قراءته الى قوله " أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى " قال : تلك الفرائيق الملى ، وان شفاعتها لترتجى ، ويروى : لترتنى . فلما ختم قراءته هذه السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار أيضا لما سمعوه أيشى على آلهتهم فجاؤا جبيل عليه السلام ، فمرغز عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له : ما جئتكم بهاتين فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى تسلية له " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم " (١) .

الجواب :

يجاب عن مشكل هذا الحديث بواحد من اثنين :

اما بتضعيف روايته ، اذ لم يخرجها أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة يستند سالم من الطائفة والملة والجرح متصل الى قائله ومن نقل عنه .
كما أنه يمارض من حيث المعنى ما قامت عليه الحجة وأجمعت عليه الأمة من عصمة نبينا صلى الله عليه وسلم عن أمثال هذا ، ونزاهته عن أن يتنمى أن ينزل عليه ما فيه مدح للأصنام ، ومن أن يتسلط عليه الشيطان ويشبه عليه في القرآن ، حتى يجعل فيه ما ليس منه ، وعن أن يقول صلى الله عليه وسلم ذلك من قبل نفسه عبدا - وهو كفر - أو سهوا - وهو معصوم منه -
كما أنه على فرض صحة هذه الرواية يكون الكلام متناقضا ، فيه المدح لآلهتهم بجعلها عليه مرجسة الشفاعة ، والذم لها ، بان ليس لها عند الله شأن ومنزلة في قوله " ان على الاأساء سبيتموها انتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان " ثم ان تخاذل هذا الكلام تأليفا ونظما لا يخفى

على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، والمشركين أيضا ، فليس في باب البيان ومعرفة
فصيح الكلام فطيرة وقادة ، وسيرة نقادة .
كذلك من المعروف عن معاندة المشركين أن يستغلوا مثل هذا الحديث - لوروق - في الطعن
على النبي صلى الله عليه وسلم بأتباع اليهود وندح آلهة غير الله تعالى .
والصروف أيضا عن المنافقين واليهود - بعد ذلك - أن لا يمكنوا عن مثل هذا الحديث
- لوروق - وإنما يشتمون به على الرسول ، بل ويقيمون من ندح الأضنام ، والاعتراف بها - وسيلة
الى الله - حجة على أن ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون غير الطريقة المحجة .
ولكن ما ورد عن معاندة المشركين ، وسعدهم المنافقون واليهود ضجة تشنيع أو مكذب تعيب
ولا كلمة واحدة في هذا الشأن ، فدل هذا على أنه لم تنجح روايته .
وأما أن يرد عليه : بتسليم صحته وتأوله بواحد من أتتبه أيضا :
الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان - كما أمره به - يوتل القرآن ترتيلا ، ويصل الآي
تفصيلا في قراءته كما روى عنه فيكون الشيطان قد ترصد سكرة من سكاته صلى الله عليه وسلم
ودس فيها ما أخلفه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنس
اليه من الكفار نظنوها من قول النبي وأشاعوها .
الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر اللات والعزى وبتاة
الثالثة الأخرى حاث الكفار بأن يأتي بشيء من فمها فسبقوا الى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا
في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم وشتعوا عليه على عادتهم وقولهم " لا تسمعوا لهذا القرآن
واخفوا فيه لعلمكم تغلبون " .
وتنصب غذا القمل الى الشيطان لحمله لهم عليه ، وأشاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم
قاله فحزن الرسول من كذبهم وأقترائهم عليه فساله الله تعالى بقوله " وما أرسلنا من قبلك من
رسول ولا نبي . . . الآية " ، وبين سبحانه للناس الحق في ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن
وأحكم آياته ودفع ما ليس فيه المد والتحقير لبعده بحفظه في قوله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر
وانا له لحاقسون " .
وسياتي مزيد بيان لقصة الترانيم هذه في الفصل الخامس من هذا الكتاب صلى الله عليه وسلم

ومن هذه الشبه :

أن بعضا من كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ارتدوا ثم أخبروا أنهم كانوا يريدون ما يمليه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي . فقد وقع اذن فيما يلفه الرسول عن الله تحريف يقدم فيه . فقد روى ابن جبير عن عكرمة مولى ابن عباس أن عبد الله بن أبي حرج ، وكان أسلم قبل الفتح وعاجر وكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ارتد مشركا وصار الى قريش فقال لهم : انى كنت أصرف محمدا حيث أريد . أى أهدل ما يمليه على . كان يلى على : عزيز حكيم . فاقول : أو عليم حكيم " فيقول : نعم . كل صواب .

وروى البخارى وسلم عن أنس رضى الله عنه : أن نصرانيا كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم بعد ما أسلم . ثم ارتد وكان يقول " ما يدري محمد الا ما كتبت له : يعنى أنه كان يكتب من نفسه . وزعم أن ما يقروه النبي صلى الله عليه وسلم كلامه (١) .

ويجاب :

عما قاله : ابن أبي حرج ، والكتاب النصرانى : بأن قولها هذا لا يقع شكاً فيما أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ؟

أجدها : أن هذا قول من ارتد وكفر بعد ايمانه فليقبل قوله . وهو كافر . ومن المعروف أن علماء الحديث لا يقبلون خبرا لسلم الشهم فى عدائه بالكذب والمصيبة . فكيف يقبل خبر كافر أفترى على الله ورسوله أعظم الفرى . حيث أشرك بالله وسب الى رسوله ما لا يليق به .

ثانيها : لوصح قول هذا النصرانى لما أقر جبريل نبينا عليها السلام عليه . فكان يعارضه النبي بالقرآن كل عام مرة . وفى المام الذى توشى فيه طارعه به مرتين . فكيف يحدث هذا التحريف ولا يتكره جبريل . ولا يتكشفه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما وقع .

وأين ضمان الحفظ للوحي اذن وقد وعد الله بحفظ وحيه فى قوله " انا نحن نزلنا الذكر واننا له لحافظون " فلوصح ما قلناه الكتاب النصرانى . ولم يثبت له الرسول . ولم يثبت له جبريل لما كان القرآن محفوظا من العبث به والتحريف فيه . والله قد تكفل بحفظه فلم يقع ما زعمه النصرانى ثالثها : لوصح ما قاله لشنع به قوم هذا النصرانى . وكذلك مشركوا مكة والمناققون واليهود على الرسول والمسلمين لكن لم يثبت تشنيعهم به . وهم حريصون على الطمئن فى الرسول . فدل على أنه لم يقع تحريف وانما كذب ابن أبي السرح والنصرانى .

رابعها : يحمل قول ابن أبي السرح السابق . على تقدير صحته وسدقه . على ما فيه وجهان قرآن . فكان يلى الرسول احدى القرائين على الكاتب . فيماله الكاتب عن الثانية وهل يصح كتابتها فيقره الرسول على هذا . لانه لا ضمير فيه .

خامسها : يحتمل : أن ما وقع فى قصة الكاتبين انما كان فيما يكتبانه من كتب الرسول الى الناس . ما رواه وغيرهم . يدعوهم فيها الى الاسلام . ولا حرج فى تغيير بعض أسماء الله بالبعث الاخرى هذه الكتب لا من القرآن

- حفظ الوحى من التأثير بالسحر -

لا يقدر في عصمة نبيها صلى الله عليه وسلم في التبليغ ما ورد في حديث السحر الذي أخرجه
جمع من أئمة الحديث * ومنهم البخارى الذي رواه بسند * عن عائمة رضى الله عنها قالت :
سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انه لهخيل فيه أنه يفعل الشيء إلا يفعله * (١)
فقد توهم البعض : أن الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر - كما يفيد الحديث -
يقدر في شى الرسول * وما يهلكه عن يده * ان يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم بتخيل أنه يرى
جهنم عليه السلام وهو لا يراه وأنه يسمع منه ما لا حقيقة له * والجملة : بتخيل : أنه يوحى اليه
شى * وهو لا يوحى اليه ويدفع هذا الوهم

بأن المعجزات التي أجراها الله على يد الرسول دالة على صدقه فيما يهلكه عن الله عز وجل
وكذا ما خالف الدليل القاطع على عصمته في التبليغ فهو باطل
وعلى هذا فالذى خيل الى الرسول صلى الله عليه وسلم - عند ما سحر - عوفعل أشياء من أمور
الدنيا خاصة والحال أنه لم يفعلها

أما الأمور الشرعية والتبليغ عن الله فلا يدخل فيه في ذلك شى * لأن الله تعالى عصم
أنبياءه جميعا فيها يدل لهذا التصريح الرواية الأخرى بما كان يقع فيه التخيل وهو :
النساء : ينصها :

" سحر رسول الله حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن " أى يتوهم أنه جامع زوجاته
والحال أنه لم يجامعهن

ولم ينقل في خبر صحيح عنه على الله عليه وسلم أنه قال : حال محوه - : فعلت كذا * والحال
أنه لم يفعل له عصمته من الخلف في الأخبار لأتمه

وهذا هو معنى ما ذكره القاضى عياض : من أن السحر انما سلط على ظاهره من الرسول
وجوارحه * لا على قلبه واعتقاده وعقله * وأنه انما أثر في بصره * وحسه عن وط * نساءه وعن
أشياء من طعامه وشرابه حتى أعرف جسمه فأمره

وذكر : أن عهد الرلات قال : حين رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عائمة خاصة سنة حتى
أنكر بصره وأن البهيق روى عن محمد بن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما :

مرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن عن النساء * والطعام والشراب - لا يشتبه شيئا

منهما لتغير مزاجه كسائر العربى - وعلى هذا يكون معنى قوله : يخيل اليه أنه يأتى الله ولا يأتيهن ، أنه يظهر له من نشاطه ومقدم عادته النقدية على النساء فإذا أدنا منهن أصابته أخذة السحر فلم يقد ر على اتيانهن (١) - ويكون السحر قد أثر في بصره ، وأضعف رغبته في الطعام ، فأضعف جسمه

والخلاصة :

أن السحر يجوز أن يتأثر به الأنبياء عليهم السلام والنسب في غير أمور الدين والوحى ، لأنه حينئذ كثيره من الأعرار البشرية التي يجوز وقوعها بالأنبياء لحكمة على : أن لا يفتتن بهم اسم الناس ويسوونهم بالاله

ومع هذا لا يستمر تأثيره عليهم ، وإنما يزول وينتهي ، والذي حدث لنبينا صلى الله عليه وسلم كان كذلك فقد أعلمه به بموجعه ، وأنزل عليه سورتي " المعوذتين " فبطل بهذا " السحر " وشفى الرسول صلى الله عليه وسلم

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ذات ليلة وهو عندى دعا ودعا ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه . أتاني رجلان فقدم - أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي . فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب - مسحور - قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصر . قال : في أي شيء ؟ قال في مشط ومشاطة ، ودعى طلع نخله ذكره . قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذروان فأتاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه . فجاء فقال : يا عائشة : كأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن رؤس نخلها رؤس الشياطين ، قلت : يا رسول الله : هذا أخرجته ؟ فقال : أما أنا فقد عافاني الله وشفاني ، وكرهت أن أشهر على الناس منه شراً فأمر بها فدفت (٢) وروى : أنه كانت تحت صخرة في البئر فرفضوا الصخرة ، وأخرجوا جف الطلعة ، وإذا فيه مشاطة رأسه ، وأسنان مشطه

أخرج النسائي عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود قتلوه فاشتكى لذلك أباهما . قال : فأتاه جبرين عليه السلام . فقال : رجل من اليهود سحره وعقد لك عقداً ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، فاستخرجها فجاء بها فجعل

(١) الشفا ج ٢ ص ١٧٧

(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٥

لما حل عقدة وجد لذلك خطة فقام رسول الله على الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهودى ولا راءى وجهه قط (١)

ولا يتوهمه الفول بأنطولوجا ان يتغير بالبريق واقفا على غيراً موارك بن لجأ ^{الله} في امور الدين .
لانه قياسه الفانين ، فالرسول على الله عليه وسلم بالتمهلا عو الدين مصوم من الذأ والنسيان والتغيير والتبديل ، وبالنسبة لا موارك نيا يبرز عليها يبرز على سائر البشر من الخطأ والنسيان وان يتأثر بالسحر وقد اخأ د اود عليه الصلاة والسلام في الحنوة في الغنم التي تفتت في الحرثه ، وخيل لموسى عليه الصلاة والسلام ان الحبال والعصى تسمى وقتل بحرا لا نبيا ، وغرب النحاس ، وذلك ليعلم النام انهم يمشرو ، فلا يفرصونهم الى موتة لا لونية .

وليزداد ثواب الانبياء بما يقاسون من سبيل تليق الدين

والنبي على المنطقه وسلم يبرح انبوه وقتان سحر ، لان الحنوة تنقص عدم الا يحاه في ذلك الوقت ، فلا مجال ان للتشكيت في الرحي وانقأ سحر بححر الرسول على الله عليه وسلم ولا موضع ايضا للشبهة القائلة : بأن عند الحد يث يث من المشركين في عليهم ان تنهمسسون الا رجلا مسحورا ، وهم كان يحن في عليهم ، وتعد بين الذائب تدب

لانا نمنع الصغرى ، فان النبي على الله عليه وسلم وان سحر حتى تشير اياما ، فقد شفاء اللسان تعالى كما يدل على ذلك الروايات السابقة ، وليس هذا هو الذي يذنبونه بمقاتلتهم ، انما يذنبون بمقاتلتهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصد عن خيال في ش ما يقول ويفعل ، وان حسده حاله المستورة وان لا يوحى اليه ، فالغرض من مقاتلتهم هذه انكسار رسالته أصلا (٢)

(١) شرح الشفا لعلى القارى ج ٤ ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) الاسلوب بالحد يث في دلوم الحد يث للشيخ امين الشيخ ج ٢ ص ٩٤ وما بعده .

عصاة الانبياء من المعاصي والذنوب قبل النبوة وبدءها

الكبيرة والصغيرة

رأيت - قبل ذلك غول في عهد المومنين - ان اقدم الصلحة موزن عن النبوة والصغيرة * حتى يكسبون الحكم بعدم جواز النباير والصغائر على الانبياء عليهم الصلحة والسلام مسبقا بمعرفة النباير والصغائر فالحكم على الشيء في عن تصويره - كما يقولون

والذنوب عند جمهور اهل السنة قسمان : نباير وصغائر

خلاقا للمرحلة الذين ذهبوا الى انها كلها صغائر ، ولا يتصور تركبها ما دام على الاسلام . قال شاعرهم

مت مسلما ومن الذنوب فلا تخب . . . حاشا المهين ان يرى تنديرا

لورام ان يصليتك نار جهنم . . . ما ان الهيم قلبك التوحيد ا

وخلاقا للخواج حيث ذهبوا الى انها كلها نباير ، وان كل كبيرة تقصر

وخلاقا لمن ذهب الى انها كلها نباير نورا لعظم من عصي بها ، ولذن لا يتصور تركبها الا بما

شوكر منها ، كسجود لصنم ، او القاء مصحف في قارة ، او ما الى ذلك (١)

وهذه هي جمهورنا عن السنة هو الا يرجح

ان يشعر الانسان بالفرق بين النظر تالي المرأة الا بتبقيت بين الزناهيها ، وبالفرق ايضا بين

كلمة ناهية في خصومه ، وبين قتل الخصم وازهاى روحه .

والصغيرة : ما عدا الكبيرة

والكبيرة : منهم من عينها بالمد - ومنهم من كينها بالمد

وفي تبينها بالمد ، ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما انكسئل عن النباير : اسبح هل ؟ قال : عني

الى السبعين اقرب ، وفي رواية تالي سبائة اقرب واقربها الشرك بالله لقوله تعالى * ان الشرك

لظلم عظيم * ثم قتل النفس التي حرم الله قتلها بخير الحق ، وما سون عذب من منها كالزنا ، واللواط

وعقون الوالد ين والسحر ، والقذف ، والفرار يوم الزحف ، واذن الربا وشهادت الزور ، وغير ذلك

فهو من اكب النباير ، وان جاء في بعض المواضع انها : اكب النباير . فالمراد منه انها : من اكب

الناير والذنوب عرنا الكبيرة بالحد اختلفوا ، وما عو الخازن ينقل لنا اقوال العلماء في

الكبيرة على النحو التالي :

اختلف في ضبط الكبيرة : فهى عن ابن عباس انه قال : الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار او قضب

او غدا ب اولهنة .

وقيل : على ما وعد الله عليه بنار في الآخرة ، او حد في الدنيا

(١) شرح البيهقي على جوهر التوحيد ص (١٨١)

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه " القواعد " اذا أردت معرفة الفرق بين المشبهة
والكبيرة ، فاعرف مفسدة الذنب على مفاصل الكبائر المنصوَر عليها ، فان نقصت عن اقسام
مفاصل الكبائر فهي من الصغائر ، وان ساوت ادنى مفاصل الكبائر ، او زادت عليه
فهى من الكبائر : فمن امس امرأة محصنة لمن يزنى بها ، او امس مسلما لمن يقتله ، فلا شك
ان مفسدة ذلك اعظم ممن أكل دهما من ما ان يتيم مخونه من الكبائر ، وكذلك لو بدل الفسار
على عورة المسلمين من طمسه بأنهم يستأعدونهم بدلاته ، فان تشبه الى هذه المفسدة اعظم من تولي
يوم الزحف بنير عذر مخونه من الكبائر وذلك لو كذب على انسان كذبا يعلم انه يقتل بسببه
اما لو كذب على انسان كذبا يعلم انه يموت عند منه ثمرة بسبب كذبه لم يكن ذلك من الكبائر
وقال الشيخ ابو عمرو بن السلاج في فتاويه " الكبير لكل ذنب عظيم عما بحيث يصح معه انه يطلق
عليه اسم الكبيرة ، ويوصف بكونه عتيلا على الاخرى فهذا احد الكبيرة ، ولها امارات
منها : انحد ، ومنها : الابعاد عليها بانحداب بالنار ونحوها في التاب والسنة ، ومنها : ما وصف
فاعلمها بالفسى او بضاف اليها اللعن " كلعن الله من غير نار الاخر " ونحو ذلك (١)
ومن ما خرج عن حد الكبيرة وضابطها فهو صغيرة
وقد تعطى حكم الكبيرة لانها تنقلب كبيرة
ونكر البعض ان الصغير تنقلب كبيرتها لا سوار عليها وهو : تكبير الذنب ، سواء نزم على العود اولا والتهان
بها ، وشوالا مستخفاف ، وعدم المبالاة بها
وبالفح ، والافتخار بها ، وصدورها من عالم يقتدى به فيها (٢)
والصغائر كالكبائر في توقف العفو عنها على مشيئة الله تعالى وكون اجتناب الكبائر مكرها لها كما قال تعالى
" ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نلفر عنكم سيئاتكم " لا ينافى التوقف على المشيئة

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(٢) تحفة المرشد ص ١٨

المصنفين المعاصي قبل البعثثة

=====

في عصمة الانبياء عن المعاصي قبل البعثثة اقوال ثلاثة

الاول : لا يمتنع عقلا على الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل البعثثة معصية - كعبرة كانت او صغيرة وهو لا تثر الاشاعة وجمع من المعتزلة ، والناهي ابو بكر .
قال الامدي :

اما قبل النبوة . فقد ذهب القاسمي ابو بكر واكثر اصحابنا وثبير من المعتزلة الى ان لا يمتنع عليهم ~~معصية~~
المعصية كبيرة كانت او صغيرة . بل لا يمتنع عملا ارسال من اسلم وآمن بحده تفسيره (١)

عجة اصحاب هذا القول

انه كدليل على امتناع صدور الكعبرة قال الجلال الدواني :

واما قهلا (الرحي - فلا دليل على امتناع صدور الكعبرة (٢)

ويشرح هذا اكثر صاحب " المواقف " وشارحه اللدان قالا :

(واما قهلا - الرحي فقال الجمهور) اكثر اصحابنا ، وجميع المعتزلة (لا يمتنع ان يذم ^{عصية} عنهم كعبرة
اذ لا دلالة للمعجزة عليه) على امتناع الكعبرة قبل البعثثة (ولا حتم للمقل) باشتاعها ^{ولا لالسة} ،
سمعية عليه ايضا (٣)

الثاني : تمتنع الكعبرة والصغيرة مطلقا على الانبياء عليهم الصلاة والسلام عدا وسبوا وخطا في التأويل
قبل الرحي وحده ، وهو للروافض .

قال صاحب " المواقف " وشارحه : (وقال شارواض : لا يجوز عليهم صغيرة ولا كبيرة) لا عدا ولا سبوا
ولا خطا في التأويل (بل هم مهراون عنها قبل الرحي (فكيف يهد الرحي))

الثالث : تمتنع الذنائر والصفائر الحسية ، وهي التي تزيى بها وتخط منزلته ، وتسقط مروءته
كسر قنطرة - دون غير الحسية ، على الانبياء ، عقدا قبل البعثثة ، وهو لاكثر المعتزلة حجة
الروافض واكثر المعتزلة :

ان صدور المعصية عنهم يولد الى احتقارهم ، وانفورة عن اتباعهم ، وهو خلاف مقتضى الحكمة
من بعثت الرسل .

والتقبيح العقلي الذي استند اليه - هنا - الروافض واكثر المعتزلة فهو مسلم لدى الجمهور

قال ابو محمد اللد محمد بن يوسف بن عمر السنوسي : وذهب الروافض الى امتثال ذلك كلع عليهم ~~معصية~~

(١) الاحكام في اصول الاحكام ج ١ ص ٢٤

(٢) شريح الجلال الدواني على المعناك المعصية ج ص ٩٢

(٣) شرح المواقف - المقصد الخامس ص ١٣١

(٤) المرجع السابق

عقلا قس البعثة ، ووافقهم اكثر العتلة في امتناع وقوع الكائن منهم عقلا قس البعثة ومعتصم
الفرغين التقيح المقل لان عدو المعصية منهم مما يحقروهم في النفوس ، وينفسر الطيب
عن اتباعهم ، وهو خلاف ما اقتضته الحكمة من بعث الرسول ، فكيف فيكون قبيحا عقلا ، وقد نهى الكثر
على فساد وأصل التحسين والتقيح المقلبين (١)

وقد رجع بعض العلماء مذهب اكثر الاشاعرة والقاضي مستندا في ترويح بحسه له ، وتضيف مذهب
الروافض وهم من المعتزلة الى امرين

الاول : ان دليل الروافض معتزلة - وهو : ان عدو المعصية منهم يحقروهم في النفوس
وينفروا عن اتباعهم على باطل ، وهو التحسين والتقيح للمقلبان ، والمبنى على باطل يكون باطلا

الثاني : ان العقل لا يمنع من حصول الكمال التام بعد النقص التام ، صده زوال الموانع حصول
هذا الكمال

فانه لا مانع لكي للعقل من ارسال من عدوت عن المعصية قس البعثة عند ما يتحولون عن المعصية
الى استقامة السلوك وحسن الاخلاق ، فانهم وقتها يمشون في نفوس الناصر ولا ينفرون من اتباعهم
قال صاحب التحرير وشارحه : (الحق ان لا يمنع قس البعثة كبرية بلو) كانت (كقرا عقلا) امتناعا
عقليا كما هو قول القاضي واكثر المحققين (خلافهم) المعتزلة (ومنعت الشبهة الصغيرة انفسا
جوازها ووقوعها)

(لنا) في عدم امتناع ما ذكر عقلا (لا مانع) في نظر (العقل من) حصول (الكمال) التام (بعد
النقص) التام (و) بعد (وقع المانع) من حصوله

ثم ابطال دليل المعتزلة والروافض باثباته على باطل - عند الجمهور - وهو التحسين والتقيح المقلبان
او يمنع الملازمين عدو المعصية ، والافضاء الى التنفير عنهم بعد البعثة فقالا :
(قولهم) المعتزلة والشبهة (بل فيه) من العقل مانع من ذلك (وهو) المانع (افضاؤه) صده
المعصية (الى التنفير عنهم واحتقارهم) بعد البعثة (فينا في) صدها عنهم (حكمة الا ارسال)
وهي اهتداء الخلق بهم (مبنى على التحسين والتقيح المقلبين)

ان لو لم يقلوا : ان ارسال من ينفسر عنه المرسل اليه قبيح لم يتم له ليلهم (فان بطل) القول بهما

(١)

(كدعوى الاشعرية) عن ان القوم بهما باطن (بطل) قولهم المبنى عليهما (ولا) وان لم يهطل القوم بهما مطلقا (منعت المألومة) بين صدر المعصية والافشاء الى التنفير عنهم بعد البعثثة واحتقارهم (كالحنفية) كدعوى الحنفية من ان القوم بهما لهم باطلا مطلقا ، وان المألومة المذكورة ممنوعة (بل بعد صفاء السيرة) الباطن (وعمن السيرة) الاخرى (بنعكس حالهم) الذين صدر عنهم المعصية في البداية (في الطوب) من تلك الحال انى التعظيم والاجلال (٢) ورجح فريق آخر من العلماء مذهب الروافض واكثر المعتزلة القائل بامتناع الذبائر والصنائع على الانبياء قبل البعثثة

ومن هؤلاء القاضي عياض الذي قال في " الشفا " وقد اختلف في عصمتهم من المذموم قبل النبوة فمنعها قوم ، وبيوزها آخرون ، والصحيح ان شاء الله تنزيههم من كل عيب ، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب (٢)

وقيل ان اعراض رايي - لا يفوتني ان اشير الى قول : يرى : ان الامتناع : انما هو بالسمع لا بالعقل قال ابن عبد الله السنوسى : وقال بعض اصحابنا : الامتناع بالسمع ، ان لا مجال للعقل في ذلك لكن بدل السمع بعد ورود الشرح على انهم كانوا معصومين قبل البعثثة (٢) والذي اذهب اليه

هو : التفرقة بين الجواز العقلى ، وبين الوقوع العملى .

فاما الجواز العقلى ، فانى لا اقول بتجوير العقل الذنب منهم قبل البعثثة - كما قام قوم - ولا بعد تجويره - كما قال آخرون - وانما اميل الى :

تقسيم الذنوب الى قسمين :

الاول : قسم يستقل العقل باذرائه ، فيظهر صاحبه من ارتكابه كالزنا ، والقتل اعدا ونحوهما

فهذا لا يجوز - عقلا - على الانبياء قبل البعثثة لا من

احدهما : ان عقولهم السليمة تنفر عنه ، فعقل الانسان العاقل والصحيح ينفر عنه ، والانبياء

اصح الناس عقولا ، فهم اولى بالامتناع والنفسر عنه .

ثانيهما : ان صدر هذا النوع من الذنوب منهم : يكون وصفا عارضا عن الثقتهم - بعد النبوة

وتنفسر اتباعهم

(١) بتفسير التحرير لا مبر باد شاه ج ٢ ص ٢٠

(٢) الشفا ج ٢ ص ١٤٠

(٣) عدة اهل التوفيق الشهد يد ص ٢٥١

الثالث : ما يتوقع معرفته انه ذنب على الشرح ، كالتعامل بالرها مثلا ، فهذا النوع لا ينفر من اتباع الانبياء بعد البهشة .

لانه لا مانع لدى المقل من فصله

ولانه لا تشريع قبل البهشة بمنعنه

واما الوقوع بالفعل : فاني اختار امتناع ارتكابهم الكبائر قبل البهشة ، وكذلك الصفات الخسيسة عدا اوسهوا لامرين

احدهما : ان اختيار الله لهم للنبوة يقتضى اعداءهم منذ نشأتهم لضعفها السامى بالتأديب بسبب الحسن ، والحفظ من قبح الخلق وسوء السيرة .

روى ابن سعد عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر سنة خرج به ابو طالب الى الشام في المبر التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرا . فقال لاهب طالب في النبي صلى الله عليه وسلم ما قتال : وامره ان يحتفظ به ، فرد به ابو طالب مديا الى مكة ، وشيخ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابي طالب يكلوه الله ، ويحفظه ويحيطه من امور الجاهلية ومدايبها لما يريد به من كرامته حتى بلغ ان كان وحدا افضل قومه مودة ، واحسنهم خلقا ، وانورهم مخالطة واحسنهم جوارا ، واعظمهم حلما وامانة ، واصدقهم حديثا ، وابعد هم من الفحش والاذى ، وما رثي ملاحها - منازعا ومخاسما - ولا ما ربا - مجادلا - احدا حتى سماه قومه الامون ، ولما جمع الله له من الامور الصالحة فيه (١)

ونقل صاحب السير الطحطبية عن علي بن ابي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ما سمعت بشيء مما هم بمأهل الجاهلية - اى ويفعلونه - الا مرتين من الدهر . كلناهما عصي الله عز وجل منهما اى من فعلهما

قلت لفتى كان من قريش باطلى مكة في غم لاهله برعاها : ابصر لى غنى حتى اسره هذه اللبسة بكة كنا بسم الغتيان . قال : نعم ، فخرجت فلما جئت ادنى دار من مكة سمعت غناء وصوت دقوف ومزامير . فقلت ما هذا ؟ فقالوا فلان قد تزوج بغلانة لرجل من قريش تزوج المرأة من قريش فلهوت بذلك الصوت ففلبتني عناي ، فميت فما ايقظني الا امر الشمر فوجدت الى عا حبي فقال : ما فعلت فأخبرته - ثم فعلت الليلة الاخرى مثل ذلك - فمصنئ الله

ثم قال صلى الله عليه وسلم " والله ما هممت بحد ما يسموه مما عمله اهل الجاهلية حتى اكرمني الله
تعالى بهنوته (١)

غير نهينا - من سائر الانبياء - مثله لانه لا فرق بين نبي والاخر *

الثاني : انه لم ينقل البنا ان احدا من الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد ارتكب كبريئة او صغيرة
خسبة قبل البعثة *

وما وقع من موسى عليه السلام في قتله قبطيا بمصر - قبل البعثة - فليس من هذا القبيل لانه لسم
يقصد قتل القبطي * وانما قصد (دفع ظلمه عن الاسير واعلى ، فوكزه على سبيل التأديب * ودفع
عدوانه فكان فيها حتفه وانما الاعمال بالنيات " وسيأتي مزيد توضيح لفضي الفصل الخاص بموسى
عليه السلام *

وما وقع من آدم عليه السلام من الاكل من الشجرة - على الثوب بأنه كان منه قبل النبوة - فليس من
هذا القبيل ايضا ورأى انها صغيرة تغير خسية * وسيأتي مزيد بيانها في الكلام عن آدم
فتثبت من هذا ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يقع منهم ذنب قبل النبوة *

وقد ذكر الشهاب الخفاجي ان الخلاف السابق انما هو في الجواز المطلق ، اما الوقوع الفعلي فالكمل
متفقون على عدمه * فقال : ولما كان الله لم يهين الى خلقه الا من هو اعقل اهل زمانه واقواهم
فطوره * واحسنهم خلقا وخلقوا كانوا معصومين قبل النبوة وبعدها * ولم يقع منهم أصلا وان اختلف
في جوازه عقلا فعلى منعه لا يبقى شيء * وعند من جوزه قبل البعثة نالها قلاني لم يقع بموقعه كذلك *
فالكل متفقون على ان الله لم يهين فاسقا زهولا معروفا بالظلم والفجور * وعدم الانصاف * ولم يهين
الا تقيا ذكيا * محبا للطلوب * وهيبا في عيونهم * له وقع عند كل أحد (٢)

وقال صاحب التحرير وشارحه :

(وأما الواقع) في تفسير الامور (فالتوارث) اي الخبر المتوارث (انه لم يهين قط اشرك بالله
طرفه عين * ولا من نشأ (فحاشا) متظما بحتا يستقيم ذكره عند أهل المعرفة * فضلا عن ان يفعله
(سفها) في امور الدنيا والاخرة : وهو عند الرشيد (٣)

وقبل ان انتقل الى عصمة الانبياء بحد النبوة أشير الى رأى ارتأه فريق من المعتزلة هو :

منع كل ما ينفس الطباع عن متابعتهم سواء كان ذنبا لهم او لم يكن كزنا الامهات وهو نامة الائمة
قال عضد الدين الاحمدي : ومنهم من منعها ينفس مطلقا - سواء كان ذنبا لهم او لم يكن -
كسائر الامهات * والنجس في الائمة (٤)

واما صدور الصغائر غير الخسبة قبل البعثة فدعا نهيها عند الرواية - * لعدم قيام دليل على المنع *

(١) السيرة الجليلة للامام علي بن ابي طالب الدين الحلبي ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦

(٢) تفسير اليربوع ج ٤ ص ١٤٨

(٣) تفسير التحرير لا نبي بعد شاه ج ٣ ص ٢٥

(٤) شرح المواقف ص ١٣٦

عصمة الانبياء من المعاصي بعد النبوة

الكلام عن عصمة الانبياء عليهم الصلوة والسلام عن المعاصي بعد النبوة بسبب طي الخصال التالي :

١ - الذمائم والصفات الخسيسة

مستفاد من اجتماع لم يشد عنه الا من لا يعتد بخلافهم ، كالأزارقة من الخواج والحشوية وهل الامتناع مستفاد من السمع ، او بالعقل ؟ خلاف

بذم سب القاضى واكثر المحققين ان الامتناع مستفاد من السمع ، واجماع الامة ، وليس العقل

عالم عصمة فيها عدا التبليغ من الله تعالى غير واجبه عقلا ، اذ لا دلالة للمعجزة عليها -

وبذم سب المعتزلة : ان امتناع ذلك بالعقل لان عدا الذمائم - والصفات الخسيسة - منهم عدا

يوه الى سقوط هيبته من القلوب ، والتنفير عنهم ، وعدم الانقياد لهم ، وهو خلاف مقتضى الحكمة

من الهداية وذلك بناء على اصلهم في التحسين والتقيح المقلبين ، ووجوب رعاية الصالح والاصح .

ففي "المواقف وشرحها" : (اما الذمائم) اي عدا ورها عنهم عدا - ومنها الصفات الخسيسة -

(فتمده الجمهور من المحققين والائمة ، ولم يخالف فيه الا الحشوية - والازارقة من الخواج -

(والاكثر) من المانحين (على امتناعه سما) قال القاضى والمحققون من الاشاعرة : ان العصمة

فيما رواه التبليغ غير واجبه فقد ، اذ لا دلالة في المعجزة عليه ، فامتناع الذمائم عنهم عدا مستفاد

من السمع ، واجماع الامة في شهر المخالفين في ذلك (وقالت المعتزلة بناء على اصولهم) الفاسدة

في التحسين والتقيح المقلبين ، ووجوب رعاية الصالح والاصح (يمتنع ذلك عقلا) لان عدا والذمائم

عنهم عدا بوجوب سقوط هيبته عن القلوب ، وانحطاط رتبته في اعين الناس فيوه الى النفرة عنهم ،

وعدم الانقياد لهم ، ويلزم منه افساد الخلق ، وترك استصلاحهم وهو خلاف مقتضى العقل

والحكمة (٢)

واختار البعض ان الامتناع بدليل العقل مع السمع

نقل الشيخ شاذر محمود عطية في رسالته " موقف القرآن من عصمة الانبياء " عن ابن اسحاق

الاسفراينى انه اختار : ان الامتناع بدليل العقل مع السمع ، لان منزلتهم ووجوبتهم في عدا ايسرة

الخلق بنا في عدا والذمائم عنهم - وعدم دلالة المعجزة على امتناع الذمائم عنهم لا ينافى وجوب

دليل عقلى آخر كالذى ذكرنا .

٢ - وأما صدور الكنائس والصفائر الخسية سهوا أو على سبيل الخطأ في التأويل ، فاختلف فيه بين الجواز والمنع .

قال صاحب المواقف : انه جزؤه الاثرون ، وقان شارح المواقف : المختار خلافه (١) وحكى بعض العلماء الاجماع على تجوز الكنائس والصفائر للخسية سهوا أو خطأ في التأويل من الانبياء نلكمان بن الهمام : الذي قال في (التحرير) " وأما الكنائس والصفائر الخسية فالاجماع على عصمتهم عن تمسدها سوى الحسوة وبعض الخواج وتجوزها - وهو مطوف على عصمتهم - قطبا وتأويل خطأ - بناء على تجوز اجتهاد النبي وخطئه فيه الا الشيعية (٢) وكالاتي الذي قال : وأما ان كان فعل النبوة عن نسيان ، وتأويل خطأ ، فقد اتفق الكل على جوازه سوى الروافضة (٣)

ولكننا نرى فريقا آخر من العلماء يحكى اتفاق الكل على الامتناع كالمسألة ابي عبد الله السنوسي الذي لم يصحح اتفاق الكل على الجواز بل صحح الاتفاق على الامتناع ثم ذكر الخلاف في دليل الامتناع هل هو السمع ؟ او السمع المعقل ايضا ؟ بالاول قال القاضي والمحققون والثاني قال الاستاذ ابو اسحاق وبعض المعتزلة

قال السنوسي : وأما غير المذكور من المعاصي القولية والفعلية ، فالاجماع على عصمتهم من تمسده الكنائس وصفائر الخسة ، خلافا لبعض الخواج ، وأما اثبات ذلك نسيانا أو غلطا ، فقال الآسدي اتفق الكل على جوازه سوى الروافض ، وهذا الذي ذكره لا يصح ، بل اتفقوا على امتناعه ، فقاسم القاضي والمحققون بدليل السمع ، وقال الاستاذ وطائفة كثيرة منا ومن المعتزلة ، ودليل المعقل ايضا (٤) حيث ان الله امرنا باتباعهم ، فلو صدقت عنهم هذا لكنا مأمورين بفعله ، لان الله امرنا بالاعتداهم

والله لا يأمر بالنجس .

واختار عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من ذلك

واناقش مذهب القائلين بالجواز على النحو الثاني :

ان صدور الكنائس والصفائر الخسية من الانبياء سهوا ممنوع ، لانه يدل على عدم مراقبتهم للسمعة التي لا يخلعون منه ، فيقومون في عصيانه ، والانبياء عليهم الصلاة والسلام ، اكثر الناس مراقبة لله ، واستحسانا والمظنة ، وخوفا منه ، ويحسد من هذا شأنه ان يسهو ويغفل حتى يرتكب المعصية

(١) شرح المواقف ص ١٣٥

(٢) التحرير ج ٣ ص ٢١

(٣) الاحكام في اصول الاحكام ج ١ ص ٢٤٤

(٤) عمدة اهل التوفيق والتسد يد ص ٢٥١

حتى ان الانبياء بعد من انشغل لهم عن مدامة ذكر الله تعالى في بعض الاوقات ~~بمتصرون~~
امور امهم تقصيرا * ويستغفرون الله اللعنه

روي مسلم بسند صحيح من الاغر المزني - وكانت لصحبة - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انه ليغان
على قلبى * وانى لا استغفر الله في اليوم مائة (١)

وفي طريق الطريق عن ابي هريرة روى الله عنه * فاستغفر الله في اليوم اكثر من سبعين مرة *
والعيب : الستر والتغطية * وهو قريب من التغير ويكون بمعناه

والمعنى : انه يعرض للرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الاحيان ما يصرفه عن دوام ملازمة ذكر الله تعالى
على وجه اتمام بسبب اشتغاله بامور الله ، ولهذا فانه يستغفر به كثيرا - في اليوم - ان يتجسس او
استغفاره السبعين ويبلغ المائة *

وهذا المعنى يندفع ما توهمه البعض من الحديث - من ان هذا الاستغفار الكثير انما كان من اجل
الخواطر الدورية التي تحتاج للدفع عنها - لا بسوسة والشك في امور الدين *
بوجه ما نقله ان الذين في اللغة : سى * ينشى القلب ، ولا يغطيه كل التغطية ، كالقبح الرقيق السدى
يسرع في الهواء ، فلا يمنع من الشمس لرقته -

ولا حيل على الرسول صلى الله عليه وسلم في شغله ، هذا عن ذكره ، لانه لم يكن لحظوظ نفسه ، وانما
لمصلحته ، فهو على كل حال في طاعة الله ، وعبادة خالقه ، والطريق في الله تعالى له رجات بعضها
فوق بعض ، والانبياء يستغفرون من الحالة الادنى بالنسبة للحال الاعلى ، وبلاهما في طاعة الله تعالى (٢)
فانما كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون الله تعالى من انشغالهم بمصالح امهم عس
دوام ملازمة ذكر الله تعالى - وهو ليس بدني - فهم يخفون عن الله تعالى حتى تغيب عنهم الكيسرة
والصغيرة الخسيسة هو ؟ كلا *

وسهو نهينا صلى الله عليه وسلم في الصلاة حتى سلم من ركعتين في صلاة يعامية قلبه عن غفلة
عن الله وانما للتشريع * انى لانسى لاراسي * وشو صبين في موضعه

وما قيل من ان النبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام غفل عن صلاة العصر بسبب استعراغ الخيول
حتى غابت الشمس اخذ من فوله تعالى * ان عرس عليه بالعش الصاففات الجهاد - فقال انسى
اعيت حسب الخير عن ذكره حتى توارت بالحجاب * فمد فوع : بان الذي شغل عنه سليمان
عليه السلام هو * ورد من الذكر كان له في هذا الوقت ولم صلاة مفروضة

او : ان الذي توارى بالحجاب هو الخيل وليس الشمس ، فليمان عليه السلام لم يفته صلاة - ولا ورد له

(١) صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣

(٢) الشفا ج ٢ ص ٩٢ وشروحه

وانما عند ما استعرض الخليل لشرانه لا يجهها للدنيا وانما لا امر الله لها لئلا
حيث بدأ فتح بها عن دونه ، ويخزي بها اعداءه ، وسيأتي مزيد بيان لذلك في الفصل الخاص بسليمان
عليه السلام سليمان عليه السلام لم يشغل بأمره بنوى عن فريضة له - حتى يقان انه سها وفعل
حتى وقعت منه المصيبة

والقول بجواز صدور التنبه والصغيرة الخسية من الانبياء على سبيل الخطأ في التأويل
بناء على تجويز اجتهاد الانبياء وخطئهم في الاجتهاد - كلام يحتمل المناقشة ايضا .

فان ما يجتهد فيه الرسول - لعدم وجود نص محدد فيه - ويتأدى به اجتهاده
الى رأى فيه ، فانه - حتى ولو كان في واقع الامر مخطئا فيه - لا يوصف بأنه ارتكب تهورا وخطيئة
خسبة ، لانه بدل وسعه وظافته في الاجتهاد حتى أداه الحق الحكم الذي اختاره ، وهو
لا يطالب بأثر من هذا اذا امر ليس عنده من الله فيه بيان . " ولا يملك الله نفسا الا وسعها " .
بويده هذا ان المجتهد مأجور حتى وان أخطأ في اجتهاده

روي البخاري بسنده عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : انسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر (١)
فصرف الرسول بناء على اجتهاده - حتى ولو أخطأ فيه - لا يحتم عليه ، ولا يوصف بأنه كبيسة
او صغيرة خسية

(١) صحيح البخاري على هامش فتح الباري ج ١٣ ص ٢٧١

وفيهما مذاهب ثلاثة

الاول : تجوز عدا وسهوا ، وهو للجمهور ، ولاكثر الشافعية والمعتزلة

الثاني : تمتنع عدا وسهوا ، وهو للروافض من الشيعة

الثالث : تمتنع عدا وسهوا ، او عدا في التأويل ، وهو للجهاشي ولجاحظ بشرط ان يشبهوه عليه

فبنتهوا عنه ، وللنظام ، وللاصم ، ولجعفر بن بشر ولعاشر الاشاعرة

وللحنفية الذين جوزوا الزلة في الكبيرة والصغيرة بأن يكون القصد الى مباح فيلزمه معصية

قال الامدي :

واما ما لم يكن بكبيرة : فاما ان يكون من قبيل ما يوجب الحتم على فاعله بالخسة ، وادناء القهمة ، ومقسود

المبروءة ، كسرقة خبث او كسرة ، فالحتم فيها للحتم في الكبيرة

واما ما لا يكون من هذا القبيل كخطرة او كلمة سفة نادرة في حال غضب ، فقد اتفق اكثر اصحابنا واكثر

المعتزلة على جواز عدا وسهوا ، خلافا للشيعة تطلقا ، وخلافا للجهاشي والنظام ، وجعفر بن بشر

في العمدة (١)

وحجة القائلين بالجواز عدا وسهوا : شواهد القرآن والاخبار ، فان الله قد اخبر بوقوع ذنوب مسن

بعضهم ونسبها اليهم ، وعاتبهم عليها ، واخبروا بها عن نفوسهم ، واشفقوا منها وتابوا

وخجعة القائلين بالمنع عدا

اولا : ان منصب النبوة يجل عن مقاومتها وعن مخالفة الله تعالى عدا

وثانيا : ان الله امرنا باتباعهم ، واقعد اليهم يجب الاقتداء بها ، فلو جازت منهم هذه الصفات

عدا لكانا مأمورين بفعلها ، والله لا يأمر بها .

نقل النووي عن القاضي قوله :

لا خلاف انهم معصومون من الصفات التي تزيى بفعلها ، وتحط منزلته ، وتمسك مروته

واختلفوا في وقوع غيرها من الصفات منهم ، فذهب معظم الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من السلف

والخلف الى جواز وقوعها منهم : وجبتهم شواهد القرآن والاخبار

وذهب جماعت من اهل التحقيق والنظر من الفقهاء ، والمتكلمين من ائمتنا الى عصمتهم من الصفات

كعصمتهم من الكبائر ، وان منصب النبوة يجب عن مقاومتها ، وعن مخالفة الله تعالى عدا

(١) الاحكام في اصول الاحكام ج ١ ص ٢٤٤

وتكلموا عن الآيات والأحاديث الواردة في ذلك وتأولوها ، وإن ما ذكر عنهم من ذلك إنما هو ، بما
كان منهم على التأويل ، أو سهواً ، أو من أدن من الله تعالى في أشياء اشفقوا من المؤاخفة بهيئتها
وأشياء منهم قبل التوبة ، وهذا المذهب هو الحق لما قدمناه ، ولأنه لو صح ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء
بأفعالهم وأقوالهم ، وكتبوا من أقوالهم ، ولا خلاف في الاقتداء بذلك (١)

واختار هذا المذهب الأخير وهو :

عصمة الأنبياء عليهم الصفة والسلام من الصفات غير الخمسة عمداً ، وجوازها عليهم سهواً أو خطأ في
التأويل لأميرين :

الأول : أن ارتكاب هذه الصفات عمداً فيه تجرؤ على الله ، وعدم الخوف من جنابه ، وهذا لا يليق
بمن اصطفاهم الله ليخرسوا في الناس الهيبة من ربهم والخوف منه

الثاني : أننا مأمورون بالتطامن بالأنبياء عليهم الصفة والسلام فلو صدرت منهم الصفات عمداً لكانت
مأمورين بها والله لا يأمر بالفحشاء ، " قل إن الله لا يأمر بالفحشاء " وإنما ينهى عنها ، وينهى عن الفحشاء
والمنكر والنهي "

وهذا الذي اخترته هو مختار محقق الأشاعرة

ومختار صاحب طوابع الأنوار ، وصاحب مطالع الأنظار اللذين قالا : وأصحابنا منحوا الصفات مطلقاً
سواء كان عمداً أو سهواً ، وجوزوا الصفات سهواً وعمداً (٢)

ومختار الدكتور شاكور محمود عطية في رسالته " موقف القرآن من عصمة الأنبياء "

والسابقون بالخبرات من المؤمنين ، المنتهون عن مناهي الله قد بلغ بهم الخوف من الله إلى حد أنه
لا يفقد هم حيث أمرهم ، ولا يواهم حيث نهاهم ، فالأنبياء عليهم الصلة والسلام ، من شك - اكتسب
خوفاً من الله وأسرع امتثالاً له ، وأحرص على إرشائه فلا يتعمد أن يترك ما أمر به أو فعل منه عنسه
وإن كان صغيرة .

وقال أبو عبد الله محمد السنوسي : وإذا كان أهل المراقبة من أولياء الله تعالى بلغوا في الخوف
منه تعالى ، ورسوخ المعرفة ما منحهم إن تصدر منهم حركة أو سكن في غير رضاه تعالى ، فكيف
بأنبيائه تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه على جميعهم (٣)

والصفات الخمسة تجوز على الأنبياء سهواً أو خطأ في التأويل ، وعلى هذا يحمل نسب إلى بعضهم
من ذنوب في القرآن والحديث - عوتبوا عليها ، واشفقوا منها ، واستغفروا وتابوا

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج (١) ص ٤٥٩ - ٤٦٠

(٢) مطالع الأنظار على طوابع الأنوار ص ٢١٠

(٣) عمدة أهل التوفيق والتسديد (ص ٢٥٢)

الكذب على الناس ثم الكذب على الله تعالى

وهذا القياس العقلي قد استخدمه ملك الروم وهو يسأل ابا سفيان بن حرب - اثناء رحلة تجارية بالشام عن احوال النبي صلى الله عليه وسلم

فقد روى الطبراني بسنده عن ابن عباس : ان ابا سفيان بن حرب اخبره : ان هرقل ارسل اليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام في العدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيها ابا سفيان وكفار قريش . . . فكان مما سألته عنه . . . " فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ قلت بئلا فاستخلص هرقل النتيجة المنطقية لهذا . . . وهي : ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق فسي دعواه الرسالة وفي كل ما يخبر به عن الله تعالى قائلا : انه لم يكن لهذا الكذب على الناس ويكذب على الله (١)

ثالثها : ان تعدد الكذب في امور الدنيا معدود نكبة ، يذم به الانسان في العاجل ويعد سبب عليه في الاجل ان لم يخفر الله تعالى ، ولا نبيا عليهم الصلاة والسلام معصومين من المعاصي ، فهم اذن لا يكذبون ولا في امور الدنيا ، ومقامهم اسمى من ان يشوه بشي من هذا

رابعتها : ان اخبار نبينا صلى الله عليه وسلم وآثاره وسيرة ، وشماله معتنى بها مستوفاة تفاصيلها ، ولم يرد في شي منها تداركه صلى الله عليه وسلم لما فرط منه رجوعا عن كذبه ، واعترافا بجهلهم في خبر اخبر به ، ولو وقعته شي من ذلك لنقض البينة .

وان الصحابة رضوان الله عليهم قد اتفقوا على انه لم يصد عن نبينا صلى الله عليه وسلم خبر بخلاف الواقع في اي امر من الامور ، ولم يثبتوا عن حالة عند ذلك هل وقع فيها سهوا ام لا ، ولم يتوقفوا حتى يتأكدوا ان كان ذلك جدا او هزلا ، لان الرسول صلى الله عليه وسلم صادق في كل ذلك عندهم كل الصدى

قال القاضي عياض : ودليل ذلك اتفاق السلف واجماعهم عليه ، وذلك اننا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادئهم التي تصدق جميع احواله ، والثقة بجميع اخباره ، في اي باب كانت ، وعين ان شي وقعت ، وانه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شي منها ، ولا استثناء عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهوا ام لا (٢)

وقد استدل عمر رضي الله عنه في اخراج اليهود من خيبر بقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فلما احتج عليه احد اليهود بان هذا القول كان هزلا من الرسول - اي انه لا يصح الاستدلال به

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٤

(٢) الشفا ج ٢ ص ١٢٨

كذبه عمرو بن عبد الله عليه بأن الرسول لم يقل ما قاله مزحج ، وعلى تسليم انه مزج فهمهم لا يمزج الا بحق وهذه الواقعة قد رواها البخاري وخبرتها ؛ ان النبي صلى الله عليه وسلم كان قد اقر يهود خيبر بها على ان يكون ثمارها بينهم وبينهم ، ثم اقرها ابو بكر رضي الله عنه على ما اقرهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اقرهم عمرو بن عبد الله عليه في اول خلافته على ذلك ، ثم لما ظهر عدوهم باين عمر - فهو عمر اجسادهم منها ، واعطاهم قيمتها من الثمار والاموال - فذهبوا للثمن ، وارجعوا من بلاد الشام للحدوث ، لا يجتمع بجزيرة العرب ، بنان .

فمنذئذ احتج ابن ابي الحقيق اليهودي على عمرو باقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم فيها فاحتج عليه عمرو بقول الرسول لابن ابي الحقيق : " كيف بك اذا اخرجت من خيبر " فهذا يدل على عدم دوام اقراره لهم ان سويتهم لخبر صاهي منه ، بان بعاهتم فيها مؤقت ، ففسال اليهودي لعمرو : كانت هزيمة من ابي القاسم . اي انما قال هذا على سبيل الهزل والمزح فلا دليل فيه . فقال له عمرو : كذبت باعد والله . اي لم يقل صلى الله عليه وسلم ذلك هزلا ، ولو كان مزحجا ايضا فهو حقي ، لان الرسول لا يمزج الا بحق (١)

واما ما رواه مسلم بسنده عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بمقم بلقحون - النخل - فمشوا لولم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيئا فمر بهم فقال : **والتخلفم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا** فقال : **انت اعظم بأمر دينكم (٢)**

فلا يصح ان يفهم منه انه خلف في خبر الرسول صلى الله عليه وسلم وانما هو جده ، والجداء لا يوصف بصدق ولا كذب

وانه من باب الظن ، والرأي في امور المعاش . قال النووي : قال العلماء : لم يكن هذا القسوس خيرا ، وانما كان ظنا ورأيه صلى الله عليه وسلم في امور المعاش ، وظنه كغيره ، فلا يمنع وقوع مثل هذا ولا نقص في ذلك ، وسببه تعلق همهم بالآخرة وبعادتها (٣)

وعلى هذا فأقول ان الرسول صلى الله عليه وسلم التي من باب الاجتهاد ، واعمال الرأي - في امور المعاش لا توصف بصدق ولا كذب

وايضا : ما اجاب به الرسول صلى الله عليه وسلم - وسطا من الاشهر بين استخلافه في غسوة تبوك في قوله : **والله لا احطكم وما عندى ما احطكم عليه** ثم اتى باين بعد ذلك فحلمهم عليهم

(١) نسيم الرباض ج ٤ ص ١١٦
 (٢) صحيح مسلم ج ١٥ ص ١١٨
 (٣) شرح النووي على صحيح مسلم للحدوث السابق

فانه لم يكذب في هذا - ان لم يكن عند صلى الله عليه وسلم وقت الطلب • ما يحملهم عليه فهو خير
عن شىء في زمن الطلب هو صادق في نفسه

اما ما سيحدث في المستقبل فهو لا يتحدث عنه • لانه لا يعلم ما يكون عيه بدلين قوله بعد • ولكن
الله حليم •

روى مسلم بسنده عن ابن موسى الاشعري رضى الله عنه قال : اثبت النبي صلى الله عليه وسلم في وسط
من الاشعريين نستحمله فقال : ولله ما احلکم • وما عندي ما احلکم عليه • قال : قلبتنا ما شاء الله
ثم أتى باهل فأمولنا بثلاث ذره فرالذرى • فلما انطلقنا قلنا • • اوقال بعضهم لا يبارت
الله لنا أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم نستحمله • فحلف الا يحلنا ثم حلنا • فأتوه فأخبروه
فقال : ما انا حلکم • ولكن الله حلکم • واتى والله ان شاء الله لا يحلف على يمين ثم ارى خيرا
مها الا كفرت عن يميني • واثبت الذي هو خير • (١) فرالذرى • بعض الاسنة

وكذلك قضاء النبي صلى الله عليه وسلم بين الخصم على نحو ما يسمعونهم • وقد يكون احدهم اقدر على
اظهار حجته من الآخر • واخرى على اقتطاع ما خصه • بغير حق • فيكون قضاء النبي صلى الله
عليه وسلم بناء على ما يسمعون المتخاصمين ان كان غير مطابق للواقع • ليس يكذب وانما هو صادق
بحسب اعتقاده • ان الصدق هو مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب الاعتقاد

روى مسلم بسنده عن ام مسلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكسب
تختصمون الى • ولعل بغيركم ان يكون الحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ما سمع منه •
فمن قطعت له من حق اخيه شيئا فلا يأخذه • فانما اقطع به قطعتن النار • (٢)

وايضا : اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في حال غضبه • حتى • وصدي لا خلف فيها كأقواله صلى الله
عليه وسلم في حال الرضا • فان الغضب متهما اشدد بالرسول لا يخرج عن الصدق في أقواله والحسن
في احسانه بين الناس يتبين هذا مما رواه احمد وابوداود والحاكم وصححه

عن عبد الله بن عمرو قال : قلت : يا رسول الله : اكتب كى ما اسمحك ؟ قال : نعم : قلت :
في الرضا والغضب ؟ قال : نعم • فاني لا اقول في ذلك كله الا حقا •

ولقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم في خصوصية بين الزهري واحد الانصار بحكم • فلما اغضبه الانصارى
حكم بحكم آخر • فقد يتوهم متوهم ان غضب الرسول جعله بغير الحكم • ويشهد فيه على من اغضبه
وذلك فيما رواه البخارى بسنده عن عمرو قال : خاصم الزهري رجلا من الانصار في شىء

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩ - ١٩٠

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٣٠٦

الحرية ه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسئ يا زبير ه ثم ارسل الماء الى جارك ه فقال الانصارى
بارسول الله ان بان ابن عمك ه فقلون وديعه ه ثم قال : اسئ يا زبير ثم احسن الماء حتى يورسح
الى الجدر ه ثم ارسل الماء الى جارك (١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم قضى ان يسقى الزبير اولا ه لان الماء يمر من جهته ه و اشار على
المتخاصمين بأمر لهما فيه سمه ه فلما احفظه الانصارى استوعى للزبير حقه ه فاغضب الانصارى
للرسول صلى الله عليه وسلم لم يحمل الرسول على خصم حتى له ه وانما حمله على ان يقضى للزبير
بحقه كاملا ه ولا ضمير على من يقضى بالحق مستوفى لمصاحبه ه بعد ان يكون قد وسع الامر على
المتخاصمين فلم يقبله احدهما

ولهذا لا يؤمن احد حتى يقبل ما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الامور فما علم به فهو
الحق الذي يجب الاتقياء له ظاهرا وباطنا

قال الزبير ه فما احب هذه الآيات الا نزلت في ذلك " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحتملوا فيما
شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت وسلموا تسليما (٢)

دفع ما يوهم كذب الانبياء في غير الوحي والتبليغ

وردت احاديث صحيحة عن نبينا صلى الله عليه وسلم يوهم ظاهرا وواقعا كذب من بعض الانبياء
في اموره نبوية ه وانى ه بان اللغو توفيقه ه سابقا ثم تزججها لهذه الاحاد بث دفع الوهم
قوتها ه ويؤكد ان كلام الرسول عليهم الصلاة والسلام فيها صدق لا كذب فيه
منها : احد بث الصحيح الذي رواه البخارى بسند عن ابن هزيمة رضى الله عنه : ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال " لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات : كنتين منهن في ذات الله قوله (انسى
سقيم) وقوله " بل فعله كبيرهم هذا " وقوله للطلح عن زوجته : انها اختى " (٣)

فهذه الاتوال من ابراهيم عليه السلام ليس فيها كذب ه واطلق عليها انها كذبات بحسب الصورة
فان السامع لها يعتقدها كذبا لكنه اذا حقق لم يكن كذبا ه وانما من باب المعارضه " ان نفسى
معارض الكلام لمنه وجه عن الكذب " اى سمه يتخلص بها من الكذب

والمعارض : ان يذكر ما يدل على معنى قريب ومعنى بعيد ه فيراد البعيد ه وهو ضم مخاطبة نفسه
اراد القريب

فمعنى قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام " انى سقيم " انى ساقم في المستقبل ه ان كسى

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٥

(٢) فتح البارى ج ٨ ص ١٩١

(٣) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٥٢

مخلوق معرض للمسقم والمورس

وهذا اعتد ابراهيم عليه الصلوة والسلام عن عدم خروجه معهم لموضع اجتماعهم في اعيادهم
عند اصنامهم - لما ارادوا وطلبوا خروجه معهم اليها

وقيل المعنى : اني سيقبها قد وعلى من الموت . وهذا انزلهم بان من كان هدا فاللنايا ، وغرضها
للبلايا سقيم بما قد وعليه من الموت

وقيل المعنى : اني سقيم القلب بما شاهدته من كفركم وعتادكم

وقد القول اقوى من اقواله لان من الامراض ما هو عضوي ومنها ما هو عصبي ومنها ما هو ضيق نفس
وما عند الخلق عليه السلام من هذا القبيل . فهو مهمهم النفس لكفرهم ، ضيق الصد رحمتهم
واما قوله " بل فعله كبيرهم هذا " فلعلما في بيان معناه - بما يدفعانه كذب وجوه

احدهم : انه من المعارض التي يقصد بها الزام الخصم وتبديته

فانه علق خبره بشرط نطقه مخبره في قوله " فاسألوه ان دانوا بنطقون " كانه قال : ان كان ينطقون
فهو فعله ، وانما قاله مجمله بأنه لا ينطق على طريقه التفریح والتمويه لهم ، بأنهم كفوا بمسندون
جماد لا ينطق ولا يقدر على شيء . فلو قد روا له فدعوا عن انفسهم ، فعليه تجهيل لهم ، واستهزاء
بهم لتعظيمهم مالا ينور ولا ينفع

ثانيها : ان ابراهيم عليه الصلوة والسلام غائبه تلك الاصلح حين ابصرها مصطنعة مزينة
وكان فيض كبيرها اشد ، لما رأى من زياد تعظيمهم له ، فأسند الفعل اليه ، لانه هو الذي تسبب
فيه

الثالث : ان يكون ذلك حدثا بقلوبهم يعني اليه مذمهمهم كانه قال ما تنكرون ان يفعله كبيرهم
فان من حتى من يعبد ويدعي اليها ان يقدر على امثال هذه الاعمال .

واما قوله عليه السلام للجها والذى اراد أخذ زوجته حين سأله عنها " هي اختي " فليس بكذب ايضا
ان يقصد عليه الصلوة والسلام : اخوه الاسم لا النسب كما قال تعالى " انما المؤمنون اخوة " فان
الاخوة تطلق على المشاركة في الصفات مجازا مرسلا ، او استعارية من المشاركة في النسب
وحاصل قصة " سارة " كما روى البخاري

: نبينا هودات يوم وسارة ان اتى على جها ومن الجاهرة فقيل له : ان هذا رجل معه امرأة مسن
احسن الناس ، فأرسل اليه فسأله عنها : فقال : من هذه ؟ فقال : اختي . فأتى سارة فقسال
: يا سارة : ليس على وجه الارض مؤمن غيري وفيرك ، وان هذا سألتني عند فأخبرتني انك اختي
فلا تكذبيني ، فأرسل اليها . فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعي اللبس

نى ولا أضرك وقدعت الله فأطلق - ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد : فقال ادع الله لى ولا أضرك وقدعت الله فأطلق فدعا به عن حجبته فقال : انك لم تأتى بانسان فانا آتيتنسى شيطان فأخذهما هاجر فأنته وشوقائم صلى : فأوبأبهده مهيم : فقالت : رد الله كبيد الكافر أو الناجر فى نحوه • وأخذهما هاجر مهيم : ما الخير

فأطلق نهبنا صلى الله عليه وسلم على هذه اللغات انها كذبات بحسب الصورة • فقصرتها صسورة انذب ايا حقيقتها فحسق وصدى

والخليل عليه الصلاة والسلام بسميها كذبات يوم القيامة عند ما يطلب الناس منه ان يشفع

لهم عند الله ليبرحهم من موقف الحساب المسيب

روى مسلم بسنده عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بلحيم فوفح اليه الزراع وكانت تحبسه • فنهس منها نهسة فقال : انا سيد الناس يوم القيامة ••••• الى قوله " اذهبوا الى ابراهيم على الله عليه وسلم فهأتين ابراهيم فيقولون : انت نبى الله وخليته من أهل الارض اشفح لنا الى ربك • الا ترى الى ما نحن فيه • الا ترى الى ما قد بلغنا • فيقول لهيهم ابراهيم :

ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله • ولا يغضب بعده مثله • وذكر كذباته

نفسى نفس اذ هبوا الى فيرى " (١)

وفى بعض الطرق " وانى قد كنت كذبت ثلاث كذبات • • • وذكرهن • اذهبوا الى فيرى " (٢)

وذلك لالكونها كذبا حقيقة • وانما لان شاعر اللغات المذكورة يعطى - قبل النظر لما قصده منها -

خلاف باطنها المقصود منها • لهذا خاب عليه الصلاة والسلام من مؤاخذته بها

والخلاصة : انه على اللطيف وسلم لم يصد عنه كذب • وانما سعى كذبا باعتبار ظاهر العبارة

تبين التأمل فيها من ساعدها • وانما خاف ابراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك لجلالته قسده

لا لانها معصية صدرت منه

سبأتى يزيد بيان فى الفصل الخاص بابراهيم عليه الصلاة والسلام

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٧

(٢) تفسير الرياض ج ٤ ص ١٣٠

كذلك ليس من الكذب في عيسى * هـ قون موسى عليه الصلاة والسلام - وقد مثل عن اعلم الناس -
" انا " فأوحى الله اليه ان عبدا يصعب البحرين اعلم منه .

وذلك فيما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس قال : حدثني ابي بن كعب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فمثل : ان الناس اعلم مني فقال : انا . فعتب الله عليه ان لم يورد العلم اليه . فأوحى الله اليه : ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك . . . (١)

ففيهم من قول موسى " انا " اعلم . بينما اخبر الله ان عبده الذي بمجمع البحرين اعلم من موسى ان قول موسى هذا قد جاء على خلاف الواقع فيكون خلفا

ويجاب عنه بأحد اوجه ثلاثة

الاول : انه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرق الصحاح عن ابن عباس رضي الله عنه * هل تعلم احدا اعلم منك ؟ (٢) فالسؤال عما يحلمه ولا عما في الواقع فيكون جوابه بقوله * انا اعلم على حسب علمه فكانه قال : لا اعلم ان احدا اعلم مني . وعوض في لا خلف فيه .

الثاني : ان قول موسى عليه السلام - على رواية : اي الناس اعلم * محمولة على ظنه الفالسيب فقوله " انا " مقيد بهذا فقد بوا ، والمقدّر من حكم المذكور كأنه قال : انا اعلم في حق او اعتقادي ونحوه ، ولا في نفس الامر ، لان حان موسى عليه الصلاة والسلام في النبوة ، واختيار الله له - دون غيره من الناس في ذلك الوقت - يقتضي انه اعلم اهل عصره ، انه لو لم يكن كذلك لم يلغزه لتبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، ويحتمل اليه في حق امورهم ، فيكون اخباره بذلك عن اعتقاده وحسابه صدقا لا خلف فيه .

الثالث : ان يكون قصده موسى عليه السلام من قوله " انا " اعلم بما تقتضيه النبوة من عناء علوم التوحيد المتعلقة بالله تعالى وصفاته ، واجكام الشريعة ، ونظم سياسة الامة والحكم بين الناس ، وهو لا ينافي ان يكون غيره اعلم منه في غيرها كما ورد " انتم اعلم بامور دينكم " ونسبا جاء في قضية الهدى من قوله " احطت بما لم تحط به " ، والسرور في قوله " انتم اعلم بامور دينكم " ونسبا وكما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في موافقته .

انما قد يكون في المصنوع بالايكون في الفاضل مما لا ينقص من فضله ، ولا ضرر ان يكون بمصنوع افراد الامة اعرف من صاحب الرسالة بامور غير الدين والدنيا ، كبحر الامور الدينية وشيئين المعيشية .

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٢٤

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ١٧

وهنا الخضر اعلم من موسى باطنيه ونشفيه لا يعلمها احد الا باعلم الله تعالى له اياها
كقصية السفينة والسلام والبدار وروى غير الامور الشرعية والحكم بين الناس بما انزله الله
التي هي من اختصاص الرسل به وموسى بها اعلم

فكان موسى على السلام اعلم - على المصوم بالتوحيد - والشريعة السياسية وللخضر اعلم
على الخصوص يعلم لدني يختص به من الامور الغيبية والكشفية ، ويدن عليه قوله تعالى
" وعلما من لدنا علما " اي من علم السبب الذي لا يعلمه الا الله تعالى ، ومن اراد ممن
ارتضاه للعلم به وانما كان موسى عليه الصلاة والسلام اعلم من وجه فهو صادق في قوله انا اعلم
فلماذا عاتبه الله عليه ، وولد له على عهد له اعلم منه

والجواب : ان انكار الله على موسى عليه السلام

- لانه لم يرد العلم الى الله تعالى ويقول : الله اعلم باعلم الناس ، والتكذب مع الله يقتضي ان يرد
اليه العلم ، كما قالت الملائكة لما قال لهم الله انهنون باسماء هؤلاء - : لا علم لنا الا ما علمتنا
فموسى عليه السلام مع انصاف في مقاله هذا ترك الاولي ، فعتب الله عليه لهذا وحتى لا يقتضى
بموسى عليه السلام من امته في هذا القول من لم يصل النبي مرتبة في طهارته ونفسه ، وعلو درجاته
فيهلك

فعتاب الله تعالى لموسى عليه السلام انما كان عن تركه الاولي - وليحترز من يقتدى به من المجيب
والافتخار - وان كان الانبياء منزهين عن ذلك -

ولكن التحفظ اولي لمن يقتدى به قال نبينا صلى الله عليه وسلم - تحفظا من مثل هذا المجيب
" انا سيد ولد آدم ولا فخر " اي لم اقل هذا افتخارا وعجبا ، وانما هو تحدث بنعمة ربي على (٢)
توريه نبينا في النزو

ليس من الكذب في شيء ، توريه نبينا صلى الله عليه وسلم في النزو ، روى البخاري بسنده عن كعب بن
ابن مالك رضى الله عنه قال : بان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها الا -
ورى بخبرها الا غزوة تبوك " (١)

وهو صحيح معنى الحديث يتأكد انه لا كذب من نبينا صلى الله عليه وسلم عن التوريه في النزو
فقد جرت عادة صلى الله عليه وسلم انما اراد سفرا لغزوة معينة ، ان يقول ما يظهر منه
في خلاف مراده ، ويحتمل مراده ، حتما لا يعبد ، بان يخفى مقصده ووجهته ويسأل عن موضوع

(١) تفسير الرياض ج ٤ ص ١٣٦ - ١٣٦

(٢) صحيح البخاري على هامش فتح الباري ج ٥ ص ٨٥

عصمة الانبياء من الامراض والصيوب المنفسرة

=====

عصم الله تعالى انبياءه جميعا عليهم الصلاة والسلام من الشر ومن المصاحبي ومن الكسبي
على الله تعالى وعلى الناس فان هذه الامور لو صدرت منهم ، فانها تنفسر الناس عنهم ، وتمسح
من متابعتهم ، وههنا تمسح الفائد من ارسالهم ، وهى اشتداد الخلق بهم .

فان الله عز وجل بعثهم لقيادة الجنس البشرى فى طريق الهداية والرشاد فالحكمة الالهية
تقتضى ان يعصموا من كل ملينغ من الاقدام بهم ، ويحول دون متابعتهم
وان يحفظوا من كل ما يفسد الناس منهم ، ويمنع من مصاحبتهم والتعلم منهم من الامراض المنفسرة
والصيوب الجسمانية المعقزة منهم ، والمزوية عنهم . حتى يستطبعوا تادية مهمهم علمسى
الوجه الانسل ، وتعلم رسالاتهم ، كما لو لم يبعثهم .

ان لو ابتلوا بامراض منفرة ، او اصبوا بصيوب جسمانية تجعل البعض يتقزز منهم ، لتباعد الناس
عنهم وعجزوا مجالسهم ، فبقوتهم للناس بهم ، والتعلم منهم ، والاعتقاد بهم فتمسح
الفائدة من ارسالهم ، ولا يتحقق الشرى من بعثتهم ، فيكون ارسالهم الى الناس عشمسا
والله سبحانه ينزه عن العبث .

فالرسل ان لا يجوز ان يصابوا بالامراض العقلية ، كالجنون ، فانه يمتنع عليهم قلبية وكثيرة
وما روى فى انفسار الرسل عليهم الصلاة والسلام من الجنون فكذب واقتراء . ربه عليهم الله سبحانه
فقوم نوح عليه الصلاة والسلام وصفوه بالجنون عند ما رآوه يصنع السفينة وليس عند هم ما تسير عليه
كذبت قلوبهم قوم فذبحوا عبدنا وقالوا مجنون وازدهر .

وما روى ان السفينة تصنع تسير على مياه غزيرة ، وتجرى فى منج كالجبال ، فينجوا عليها نوح
والمؤمنون ، ويغرقى - حيث لا يحتمل فيها - الكافرون الصاندين

وكفار مكة نهبنا صلى الله عليه وسلم بالجنون كذبا واقتراء . وقالوا يا ايها الذى نزل عليه
الذكر انك لمجنون . واقسم الحق سبحانه ان نبيى على الله عليه وسلم لم يمجنوننا ، وانما الذى به
رحمة من الله وفضل ونعمة . ن - والقلم وما يسطرون - ما انت بنعمة ربك بمجنون .

وكذلك الامراض النفسية ، والامراض العصبية ، لانه لا يصلح لقيادة الالسانية فى طريق الهيمسى
الا من كل عطف ، وصحت نفسه ، وسلمت اعصابه .

لما لا يجوز ان يصابوا بما فيه نقص العصى فلم يحم نبيى قط ، ولم يثبت ان شربها عليه الصلاة
والسلام كان ضرورا .

وما كان يجذوب عليه الصلاة والسلام فهو حجاب على الصبين من شد فالحزن ، وظلمة البكاء وكثرة الدموع ، ولذلك لما جاءه المشير عاه بصيرا فان تعالى * وابيض عيناه من الحزن * فلم يكن ما يجذوب على قانا ، وانما غشاوة مؤقتة - اخذت شكلا ابيض - بسبب الحزن وكثرة البكاء - فلما زال السبب زالت الغشاوة فأبصر كما كان قبلها .

ويجوز للنهي ان يهله الحزن ذلك المبلغ ، لان الحزن شيء في طبع الانسان - عند ما توجه له اسبابا يقدر ويشعر على نفسه عن نفسه ، ولما كان نبيا

ولقد حزن نبينا صلى الله عليه وسلم على فقد ولد ابراهيم ودمت عيناه ، ولما قيل له : وانست يا رسول الله : قال : انها رحمة . وقال : ان العيون تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، وانا لفراقك يا ابراهيم لحزونون * (١)

فالحزن لا يقدر وانسان - مهما كانت منزلته عند الله - على نفسه . ولذلك لا عقاب عليه ، وقد وقع لذنبها عليهم الصلاة والسلام ، فلم يحط من اقدارهم ، لان نتائجه لم تنزه عن دموع تروسلها عيونهم ، اما افعال الجرز وتلمات السخط على قضاء الله فلم تصد منهم * ان الصبر تد مسع والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا .

ولم يشكواهمومهم واحزانهم الى مخلوق ، وانما الى الله عز وجل وحده * وقال انما اشكو بنسى وحزنى الى الله .

وقد منح الله تعالى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ان تصيهم الامراض المعدية بوقتها : الامراض الجلدية الصبيحة كالبرص والجزام والجرب ، ولم يكن ما يوجب عليه الصلاة والسلام من الهلاك من هذا القبيل

وما شاح بين العامة من أن ابتداء ايوب عليه السلام ومن ان احد ان تمزق لحمه ، وتناثر الدود من جسمه فمهاطل ، والمرهات التي حدث هذا ، كذهبة مفتواه على نبي الله صلى الله عليه وسلم وما يوسفاله : ان بعضا من المفسرين ، كالحازن (٢) ، ولا ابن كثير (٣) على سبيل المثال لا الحصر قد نقلها بما حوت من زيف واقراء بتلخيص في :

ان ايوب عليه السلام كان في نعمته وقاهنة يملك من الدواب ولا تصامها يهبط عليه من محبيسه ويحسد عليه من شائكيه ، وكان له اولاد كثيرون - منازل متعددة ، فاهتلى بذهاب ذلك كله ثم اهتلى بالجذام في جسده فلم يبق منه سليم سوى قلبه ولعانه يذكر بهما الله تعالى فعاداه الناس

(١)

(٢) تفسير الخازن ج ٣ ص ٢٨٢

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٨

واقروه في ناحية من البلد ، ولم يهن احد من الناس حتى طوى روضه التي كانت تقسم
بأموره وتخدم الناس لتحصيل على ما بطعما نه . . . التي غير ذلك من الاباطيل التي لا تتفق ومهمته
التخليع عن الله تعالى ، وقياد الناس على طريق الهدى
وهذا الزيف والافتراء يجب اطراحه :

١ - لانه يناقض قاعدة قطعية من قواعد الدين

٢ - لانه من الامم رائليات المسمومة فحقن وهب بن منبه وكعب الاحبار وليس شي منها صحبها

مرفوعا الى نبينا صلى الله عليه وسلم

ولهذا فلا يصح الاخذ بها في بيان ما اجمله القرآن الكريم

فقد جاء في القرآن ان ايوب عليه السلام قد مسه الضر وذلك في قوله تعالى " وايوب ان يسقادي
به انى مسى الضر وانت ارحم الراحمين - فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه اهله
ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين "

ولقد السر : جاء مجمل ، ولم يهن في موضع آخر من القرآن ولا في الاحاد بها الصحيحة

وكل ما ورد في هذه القصة اخبار مصدرها وهب بن منبه وكعب الاحبار ، واخبارها لا يعتمد عليها
في بيان المراء بين الآفة الكريمة .

وكل ما تدل عليه الآفة الكريمة " فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه اهله . . . ان الذي مس
الذى مسه مرض اصاب جسمه ، وان الله كشفه عنه بدائه ، وآتاه اهله ومثلهم معهم ، وكسبان
كشف الضر عنه ، بأن يركض الارض يرحله - بأمر من الله - فعمل فانبع الله تعالى له عينا وأمره
أن يفتسل منها ، فأذهب ذلك المرض الذي كان يهد نه ، وأن يشرى ايضا فتكاملت له العافية
قال تعالى " واذكروهدنا ايوب ان نادى به انى مسى الشيطان بنصيه انى - اركض يرحلك
هذا مفتسل بارد وشراب - ووهبنا له اهله ومثلهم معهم ^{رحمة} منا " وذكرى لاولى الالباب "

فانواع المرض الذي اصاب ايوب عليه السلام لم يهنه الله تعالى ولا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
ولذا فلا يصح ان نحمله الا على نوع من المرض غير معد ، وغير منفسر ، فالانبياء عليهم الصلوة
والسلام لا يجوز عليهم من الامراض الا ما لا يهدى الى نقص في مواهبهم العملية . والا يناقض الشرع
من يمتهمه كالمصداق غير المزمق ، وما هو على شاكلته

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : وأرأساه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات لوكان وأنا حتى فاستخفرتك وادعوك • فقالت عائشة : وانكلباه ، والله اني لا اظنبت
تحب موتي • ولو كان ذاك لظلمت آخر يومك معرسا ببعض ازواجك فقال النبي صلى الله
عليه وسلم بل رانا واراساه ••• (١)

كذلك مرض نهيما صلى الله عليه وسلم في اخريات حياته بنوع من الحمى غير معدة وكانت
تؤلمه لما شديدا •

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو يوعك وعكا شديدا فمسسته يدي فقلت يا رسول الله : انك توعك وعكا شديدا • فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : اجل ثم قال رسول الله • ما من مسلم بصيبه اذى مرض فما سواه
الا حظ الله سبحانه كما تحط الشجرة ووقسا (٢)

وابتداء الله عز وجل رانها عليهم الصلوة والسلام في اموالهم وفي اولادهم
وفي اجسامهم بالايداء من اعدائهم ، وبالا مراض الخير منقوتهم ليزيد قربا منه ، ومنزلة منسده
واجبا

وايضا : ليهنوا قدوة للناس في تحميس الشدائد ، والعبور على المحن ، كما جعلهم الله قسدا
لهم في الدين والهداية

فانما ما اشتدت الهوى من واعتصمه الالم ، فتذكر ما لاقاه انبياء الله من المحن الشديدة
والآلام المبرحسة ، فانه يهون له الخطب ويخفف وقع المحنة عليه ، ويحمل ما يصيبه محتسبا
تأسيا بالانبياء عليهم الصلوة والسلام

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٥

(٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ٤

الادلة على عصمة الانبياء

سأعرض - بمشقة الله تعالى - في هذا الباب الادلة على عصمة الانبياء عليهم السلام الصلاة والسلام . . . وهذه الادلة قسم منها يدل على عصمة جميع الانبياء والرسل لا فرق بين واحد منهم والاخر من آدم الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وهو : الادلة العقلية * وحملتها الفصل الاو والقسر الثاني : بولائه بالنسبة الى رسل معينين اقتضت قسمة التهجيم عليهم وحذف الاثراء والتشويه الموجه اليهم أن يخلصوا بالذكر ، وأن يقال انهم من عصمة الله من التفضيل والافاضة بما يتناسب والجهود المستوية التي يبذلها مواطني الانس ، ويجسدوا لها جنودهم وحشدوا فيها قد رانهم بإمكاناتهم .

لذا - عرضت لبيان حيد سلوك هؤلاء الرسل ، وكبرم اخلاقهم ، لا يحدود ذلك بالنقض والابطال لمزام العطلين ، وهذا من واقع كلام اصدق الناقلين ، وشهادة اعدل الحاكمين وحملت ذلك " الفصل الثاني .

الادلة العقلية على عصمة جميع الانبياء

الفصل الاو

سبق القيل في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن الكفر وعن الكذب في التبليغ ممن الله تعالى ودهوى الرسالة ، وعن الكذب فيما عدا ذلك ، وعن عصيتهم عن المعاصي والذنوب والكبائر والصفائير وأخذت عصيتهم عن الكبائر والصفائير الحسية عدا وسهوا وخطأ في التأويل ، وعن الصفائير الغير حسية عدا ، وعوارضا عليهم سهوا أو خطأ في التأويل ، وهما هي الادلة على هذا الدليل الاو :

لرصد الذنوب عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلا والمقاب آجلا أشد من حال صاقلالة ، وهذا باطل ، فقد ورد الذنوب عنهم باطل بوسيلة الملازمة : ان أعظم نعم الله على العباد نعمتال رسالة والنبوة ، وكل من كانت نعم الله عليه أكثر كان صدور الذنوب عنه أخف ، وصريح العقل يدل عليه ثم يؤكد من النقل ثلاثة وجوه الاو : قوله تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) وقوله تعالى (يا نساء النبي من أأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) .

الثاني : لمن المحض برحمة وظهره بجسد .

الثالث : أن العهد بعد تصفحه الحسر .

فثبت بهذا أنه لرصد الذنوب عنهم لكان حالهم في استحقاق الذم العاجل والمقاب الآجل .

فوق حال جميع صاقلامة الا أن هذا باطل بالاجماع فان الله قد اثبت عليهم
ورفع عنه دوزخهم * ولا يفتل ان يكونوا أحسن حالا عند الله وأقل منزلة من كل أحد * وهذا يدل
على عدم صدور الذنب عنهم *

الدليل الثاني

طاعة الانبياء واجبة فلو صدرت منهم المعصية وهي حرام للزم ان تكون المعصية واجبة
حراما وهما باطل في المعصية لم تصدر عنهم *

اما ان طاعتهم واجبة فقلوبهم تعالى * وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله
فهذه الآية تدل على وجوب طاعتهم مطلقا *

واما ان المعصية لو صدرت عنهم للزم أن تكون واجبة حراما - وهما باطل - فلأنه بحسب

علمنا الاقضاء بهم في تلك المعصية * فتصير تلك المعصية واجبة علينا * وكونها ^{معصية} واجب كونها محرمة

علينا فيلزم توارد الايجاب والتحریم على الشيء الواحد في آن واحد وهو باطل * فالانبياء لم تصدر

منهم معصية وأيضا * * اتباع نبيها صلى الله عليه وسلم ^{واجب} فلو صدرت منه المعصية للزم أن يكسبون

اتباعه واجبه حراما وهذا باطل * فما يؤدي اليه وهو صدور المعصية منه باطل * وثبتت أنس

لبيعضى الله تعالى * اما ان اتباعه واجب لاجماع عليه * وقلوبهم تعالى * قل أي كتم تحبسون

الله فاتبعوني بحسبكم الله * فالاتباع واجب اتباعه *

واما انه لو صدرت منه المعصية لكان اتباعه واجبا حراما - وهو باطل - فلأنه لو صدرت

منه المعصية لحرم اتباعه فيما صدر عنه ضرورتان المعصية حرام * فيكون اتباعه لو صدرت منه المعصية

واجبا حراما - وهذا باطل فما يؤدي اليه من صدور المعصية منه متنع *

ومن المعلوم : ان ما ثبت في حق نبي ثبت في حق سائر الانبياء * ضرورة انه لا فسوق

بين نبي وآخر *

بين نبي وآخر *

الثالث :

لو صدر عنهم ذنب لا استوجبهوا الايذاء * وايذاء النبي حرام * فصدور الذنب عنهم متنع

اما أن يرد الذنب عنهم بوجوب ايذاءهم * فلأن الذنب منكر * وانكار المنكر واجب والانكسار

على النبي فيه ايذائه *

واما ان ايذاء النبي حرام فقلوبهم تعالى * ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله

في الدنيا والاخرة *

ثبت أن صدور الذنب عنهم متنع *

الرابع :

لو أقره النبي على الفسق لوجب أن لا يكون مقبول الشهادة ، لكنه مقبول الشهادة .
فالنبي لم يقهه على الفسق .

أما أنه لو أقره على الفسق لكان غير مقبول الشهادة فلقوله تعالى " أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " وأما أنه مقبول الشهادة ، فلائه لورود شهادته لكان أقل حالا من عدول الأمة وهذا لا يقبل به انمان ، فكيف يصطلح بهم الله على العالمين ، ثم يكون حال فهورهم أحسن منهم .
ثم أن معنى التوبة والرسالة يشهد على الله تعالى بأنه شرع هذا الحكم وذلك ، وكيف يشهد على الله ولا تقبل شهادته على الناس .

وأيا : فتبينوا صلى الله عليه وسلم شاعده على الكل يوم القيامة لقوله تعالى " لتكونوا شهودا على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " ومن كان شهيدا على الجميع يوم القيامة كيف يكون بحسب حال تقبل شهادته في الدنيا .

الخامس : لو صدرت المعصية من الأنبياء لا مستحقوا العذاب واللعن ، لكن اجتمعت الأمة على أنه لم يكن أحد منهم مستحقا العذاب واللعن ، فالمعصية لم تصدر من أحد منهم .

أما أن صدر المعصية منهم يجعلهم مستحقين العذاب فلقوله تعالى " ومن يعصني للموصول وتعد حد وده به خله تارا خالدا فيها وله عذاب جهنم " ومستحقين اللعن فذلك وليس له إلا لعنة الله على الظالمين " والمعصية ظلم .

وأما اجتمع الاقوال أنه لم يكن أحد منهم مستحقا العذاب واللعن فمستندة ما جسا في الكتاب والسنة ما يدل على امتداحهم ورفع درجاتهم ، وفوزهم بمعادتي الدنيا والاخرة فثبت بهذا عدم صدر المعصية منهم .

السادس : أنهم كانوا يأمرين بالطاعات ، ونهيون عن المعاصي ، فلو تركوا الطاعة ، وفعلوا المعصية لكان هذا منهم في غاية القبح ، لكنهم منزهون عن القبح ، فهم لذن لم يتركوا الطاعات ولم يفعلوا المعاصي أما أنهم كانوا يأمرين بالطاعات ونهيون عن المعاصي ، فيشهد بذلك ما سجله القرآن عنهم في ذلك مع اقترابهم .

وأما أن تركهم الطاعة ، وفعلهم المعصية فيه قبح ، فلا أنهم بهذا يدخلون تحت قوله " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون - كبر مقتدا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون "
وتحت قوله تعالى :

• أنامون الناس بالبر ونسبون أنفسكم •

ولان الانسان يستفهم من يدعو الى الخير تركه الطاعة ، وفعله للمعصية ، والانهيها
عليهم الصلاة والسلام منزهون عن هذا القبح ، فان نبى الله شريفا عليه السلام برأ نفسه من ذلك
فقال " وما اريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه " فالانبياء اذن لم يتركوا الطاعة ، ولم يفعلوا المعصية

المابح : ان الله تعالى وصفهم بالاصطفاة والخيرية في كل الامور ، ومن كان موصوفا

بالاصطفاة والخيرية على هذا النحو لا تصد المعصية عنه ، فالانبياء لم تصد عنهم المعصية

اما ان الله تعالى وصفهم بالاصطفاة والخيرية في قوله تعالى " الله يصطف سبي

من الملائكة رسلا ومن الناس " وقوله تعالى " ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران

على الصالحين " وقال تعالى في حق ابراهيم " ولقد اصطفيناك في الدنيا وانه في الآخرة

لن الصالحين " وقال تعالى في حق موسى " اتى اصطفيناك على الناس برسالاتي وكلامى •

واختيار الله لهم لتبليغ شرائعه الى الناس لا يكون الا من صلاحية منهم للقيام بما كلفوا به على اكتمل

وجه صدق قول الله تعالى " الله اعلم حيث يجعل رسالته •

وقال تعالى عن ابراهيم واسحاق ويعقوب " واتهم عندنا لمن المصطفين الاخبار •

واللفظان " المصطفين - والاخبار " يتناولان جميع الاله مال - المأمور بها - والتروك - المنهى

عنها - بدليل جواز الاستثناء فبذلك فلان من المصطفين الاخبار - الا في كذا • والاستثناء

يخرج من الكلام بالولاء لدخل تحته ، فثبت أنهم كانوا من المصطفين الاخبار في كل الامور •

واما ان من كان موصوفا بالاصطفاة والخيرية في كل الامور لا تصد عنه المعصية

فلاسه لا معنى لاصطفاةهم وخيرتهم في كل الامور الا هذا ، فثبت ان المعصية لم تصد عنهم

عن أحد منهم •

ولا يمتري على هذا بأن الاصطفاة لا يمنع من فعل المعصية بدليل قوله تعالى " نسم

أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات

بإذن الله " فقسم المصطفين الى الظالم والمقتصد ، والسابق •

لانا نقول : الضمير في قوله " فمنهم " عائد الى قوله " من عبادنا " لا الى قوله

" الذين اصطفينا " لان عود الضمير الى اقرب المذكورين أولى •

الثامن

اخبر الله تعالى عن الانبياء بانهم ساروا في الخيرات ، والمساير في الخبيرات
هو القفل كل ما ينهى فصلة والتارك كل ما ينهى تركه . فلا تبيها فاعطون كل ما ينهى فصلة
من الطاعات ، وتاركون كل ما ينهى تركه من المعاصي .
اما ان الله اخبر عنهم بالمسيرة في الخيرات في قوله تعالى عنهم " انهم كانوا يسارعون
في الخيرات واما ان المساير في الخيرات . هو الفاعل كل ما ينهى فعله التارك كل ما ينهى
تركه ، فلان لفظ " الخيرات " جمع محلى بالالف والهم فهو للمصوم ، ويتناول جميع الخبيرات
من الافعال والتروك فبدخل فيه فعل ما ينهى ، وترك ما لا ينهى .

التاسع : لو اذنب الانبياء لكانوا غير مخلصين ، وكونهم غير مخلصين باطل ، فمثل الملزم
وهو كونهم مذنبين وثبت تقضه ، وهو عصمتهم من الذنوب .
اما انهم لو اذنبوا لكانوا غير مخلصين ، فلان الذنوب باعواء الشيطان وهو لا يفسد سوى
المخلصين لقوله تعالى حكاية عنه " قال ربما اغويتني لاني لست لهم في الارض ولا فيهم اجمعين
الا عبادك منهم المخلصون " .
واما ان كونهم غير مخلصين باطل فللقوله تعالى في حق ابراهيم واسحاق وموسى
" انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " وفي حق يوسف " انه من عبادنا المخلصين " .
واذا ثبت وجوب المصمة في حق البعض ثبت وجوبها في حق الكل ، لانه لا فرق بين
واحد منهم والاخر .

العاشر : لو صد ر الذنوب عن ابراهيم عليه السلام لوجب على الناس ان ياتموا به في ذلك الذنوب
لكن اللازم وهو وجوب اقتداء الناس بابراهيم في الذنوب باطل ، فمثل الملزم وهو صدور الذنوب
عنه ، وثبت تقضه وهو عدم صدور الذنوب عنه .
اما انه لو صد ر الذنوب عن ابراهيم لوجب على الناس ان ياتموا به في ذلك الذنوب ، فلان
الله جعله اماما للناس " اني جعلتك للناس اماما " والامام هو الذي يوحى به .
واما بطلان اللازم وهو وجوب اقتداء الناس به في الذنوب فلازمين :
الاول : ان وجوب الاقتداء به في الذنوب امر بذلك الذنوب ، والله لا يأمر بالفحشاء " ان الله
لا يأمر بالفحشاء " .

الثاني : أن الله لا يمظي ولا يجعس للناس اماما من يكون قدوة في فعل الذنوب - لان الاصغاء انما يكون لاجل القدوة في الهداية ، فثبت ان الخليل عليه السلام لم يذنب ، والانبيا جميعا مطه .

الحادي عشر : عهد النبوة لا يمظيه الله تعالى الظالمين ، والمذنب ظالم ، فالنبي لا يكون مذنباً - اما ان عهد النبوة لا يمظيه اللطالظالمين ، فلقول الله تعالى " لا ينال عهد الظالمين " والمهد ، في الآية عهد النبوة .

واما ان المذنب ظالم ، فلان الظلم وضع المعنى في غير موضعه ، والمذنب ^{وضع الذنب} موضع الطاعة الواجب تطلبه لخالقه ورازقه .

ولا يمتري على هذا ، بأن النزاه بالمهد في الآية عهد الامامة لا النبوة دليل مستدل في الآية حيث خاطب الله تعالى ابراهيم بقوله " اني جاظك للناس اماما قال ومن ذريتي فسئال لا ينال عهد الظالمين " لانا نقول : عهد الامامة في الآية هو عهد النبوة ، لان اللبس في تعالى جعل ابراهيم نبيا ، فأراد بقوله " اني جاظك للناس اماما " جاظك للناس نبيا .

ولكن سلم : ان المراد بالامامة في الآية عهد النبوة ، فعهد النبوة أولى بان لا ينال الظالمين لان من لا يستحق الا ان لا يستحق الاطى ، فاذا لم تثبت الامامة للظالمين ، وجب ان لا تثبت النبوة للظالمين لان كل نبي لابد وان يكون اماما يؤتمر بقدي به ، وهذا تثبت ان الانبياء لا يذنبون .

الثاني عشر : ان الله تعالى قسم الخلق الى قسمين : حزب الشيطان ، وحزب الله فقال " اولئك حزب الشيطان الا أن حزب الشيطان هم الخاسرون " وقال " اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون " وحزب الشيطان هو الذي يعمل ما يرتضيه الشيطان . المصيبة فكر من عصى الله تعالى كان من حزب الشيطان .

فلو صدرت المصيبة من الرسول لصدق طوبه انه من حزب الشيطان ، ولصدق طوبه ان من الخاسرين . ولصدق طوبه صالحى المؤمنين الذين هم من حزب الله وهم المفلحون ان الواحد منهم افضل عند الله من ذلك الرسول ، وذلك في قابله بالاطلاق .

الثالث عشر :

ان الناس منهم المتبع بلوس ومنهم غير المتبع ، قال تعالى * ولقد صدق عليهم ابليس
ظنه فاتهموه الا فريقا من المؤمنين * . . . وهو المتبعين له هم الذين لم تصد رغبهم المعصية ،
ولا كانوا متبعين له ، واذ ثبت في هذا الفريق انهم لم يتصوا ، فهم اما الانبياء ، واما غيرهم ،
فان كانوا هم الانبياء فقد ثبت عدم عصيانهم وان كانوا غير الانبياء ، فلو ثبت عصيان الانبياء
لكانوا اقل درجة عند الله من هذا الفريق لقوله تعالى * ان اذركم عند اللغاتاكم * فيكون
غير النهي افضل من النهي ، وهذا باطل بالاتفاق ، فثبت ان الانبياء ماصد رغبهم المعصية .

الرابع عشر :

لو جد رتب المعصية الرسل لو جبت مشاقته ، وشاق الرسل محربة ، فالرسل لا تصد رتب
المعصية . . . اما ان صدور المعصية بوجوب مشاقته ، فلانه يجب منع من يرتكب المعصية
ومن يمنع غيره من فعل بفعله يكون مشاققا له ، لان كل واحد منهما يكون في شئ ^{منه} الذي يكمن الاخر
فيه واما ان مشاقه الرسل محربة فلعله تعالى * ومن يشاقق الرسل من بعد ما تبين له الهدى
وتبع غير سبيل للمؤمنين تولى ما تولى وضله جهنم وما مات صبورا * فثبت ان الرسل لا تصد
منه المعصية (١) .

يحدد - فهذه الادلة قد ذكرها الفخر الرازي في بعض تصانيفه ، وهو في الدين الايجي
في المواقيف ، والقاض عبد الله البهاري في " طوابع الانوار " وغيرهم واستدلوا بها على التذهب ^{بالتنزيه}
وهو : عصية الانبياء في زمان نبوتهم عن الكبائر عدا وسبوا ، ومن الصفات عدا ، ولكن امتداد
المضد الايجي في " المواقيف " عليها - بان دلالتها على المعصية من الكهيرة سبوا وسب
الصفيرة عدا . ليست قوة . في المواقيف وشرحه للسيد الجرجاني : (ان دلالتها على
محل النزاع هي : عصيتهم عن الكهيرة سبوا وعن الصفيرة عدا ليست بالقوة) فان الاتساع
انما يجب فيما بعد رتب عدا لا سبوا ، وشروط في القيد ان لا ينهانا عنه ، ورد الشهادة ،
منى الى الفسق الذي لا يثبت له في الصفيرة عدا وسبوا الكهيرة سبوا ، واما الزجر فانما يجب نفس
حق التعمد للكبائر دون الصاهي والصفيرة التادية عدا معفوة عن مجتنب الكبائر (٢)

وحتى لو سلمنا لصاحب المواقيف وشارحه هذا الامتداد على معنى الادلة ، فانفسه
يكتفي دلالة على ما اخترناه باقى الادلة .

- (١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩
- (٢) عصية الانبياء للرازي ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٠
- ج - شرح المواقيف - المقصد الخامس ص ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩
- د - مطالع الانظار على طوابع الانوار ص ٢١٠
- هـ - تحفة الاخلاء في عصية الانبياء ل محمد الكاهلي ص ٢٣
- و - موقف القرآن من عصية الانبياء للدكتور شاكور محمود عطية
- (٢) شرح المواقيف ص ١٢٩ - ١٣٠

الأدلة النقطية على عصمة الأنبياء

.....

حد ثنا آيات القرآن الكريم ، وأعاد بحث عن النبي الخاتم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حد بثاستغنيا جلا حياتهم من جوانبها المختلفة ، ومنها الجانب الاخلاقي فهم ، وهو السخى يميننا هنا والقول فيه على الاجمال - ان تربيتهم طيبة واحسانهم أصيلة ، وعادتهم نقية ، واصلاب آباءهم ، وأرحام أمهاتهم ظاهرة ، ومواطنهم صافية ، وظواهرهم صادقة ، ونشأتهم قومية .

منهجهم في طفولتهم وشبابهم رشيد ، وسلوكهم بعد ان بلغوا الاشد حميد ، وقولهم مد يد خالصة لله دعوتهم ، وصلاح البشرى وللحق والخير رسالتهم . . .
فهم في القعة من الفضائل ، وفي الذروة من الكمال البشري الذي يشهد بهرائتهم من كل ما رماهم به الافاكون المبطون ، ونطق بنزاعتهم من كل ما نقله عليهم المتقولون الاثمن الذين لا يرضى نفسهم المريرة الا الطمن في الابهاء ، والنيل من صفوة الله من عباده .

ان الفضائل والحكام يفسرها الانبياء الجاعلون ، والاعداء الحاقدين تفسيرات ملتوية تخرج بها عن طبعها وتصورها بأضدادها من النقيض والمثالب .
وان من واجبتنا ان نتمسك لهولاء وأولئك الذين يمشون الحقائق ، وصورونها بخبر صورتها بما يحسن هذه الحقائق يحفظ لها جوهرها وقوامها ، وما يقطع الالسنه الحداد التسي تتأت عنها وتحاول ان تحجب عن البصائر مداعا ونورها .

وذلك بأن تعرض آيات من القرآن الكريم تبين أخلاق الانبياء الفاضلة ، وصفاتهم الطيبة التي أضفت عليهم كمالا بشريا معلوم في الدنيا والصفاء ، وندفع شبهات الجاهلون وزيف مقترحات الحاقدين - قد حرض حججهم شأن كل حجاج مظل ، والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حججهم واحضنة عند ربهس وطيبهم فضب ولهم عذاب عذب . (١) .

وهزق باطلهم وخزي ، سنقالله في ذلك " بل تقدى بالحق على الباطل فهو مفسوسة فاذا هو زاهق وكلم الجول ما تصفون . (٢) .

وليس بعد امتداح الله تعالى لانبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وثباته عليهم ، واخادتهم بأخلاقهم ورفع درجاتهم دلالة على أنهم علوات الله وصلاح طوبهم كانوا اسرع الناس في الخيرسرات وأبعد الناس عن المعاصي والمهقات .

(١) سورة الشورى الآية ١٦
(٢) سورة الانبياء آية ١٨

آدم عليه السلام

أمر الله عز وجل ملائكته أن يسجدوا لآدم عليه السلام * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * (١)

وذكر سبحانه أنما اختر آدم بحلم الاسماء - دون الملائكة - * ولم آدم الاسماء كلها
ثم عرضهم على الملائكة فقال أنعووني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين - قالوا سبحانك لا علم لنا
إلا ما علمتنا انك انت المليم الحكيم - قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال
الم أقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تدرون وما كنتم تكتمون * (٢)

ولم آدم بالاسماء حين لتفضيلها لسجادة الملائكة له * ولكنه ليس النهر الوحيد * فالمسلم
عند ما لا تصارجه طاعة لله * وكف عن محاربه خلقه قبيته وشركه * ولا يستحق صاحبه به تفضيلا
على غيره فلا بد ان آدم عليه السلام قد شاهد الملائكة في الخلق بخلقهم من فعل الأسوات
وترك المحظورات وتم امتاز عليهم بحلم الاسماء * ولهم * ولهذا كله استحق شرف اسماهم
له واما قول الملائكة عن الخليفة الذي سيجعله الله في الارض * أتجعل فيها من يفسد فيها
ويهدك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك * *

فلا بد ان آدم عليه السلام قد أفسد في الارض وفسد الدماء * فان آدم منزله عن
هذا وانما الذي يفسد وفسد الدماء بعض ذريته الداخلين في لفظ " الخليفة " فان المراد به
آدم ونسبه *

واما مخالفة طية السلام النهي الشرحه الله من ربه بأن لا يأكل من الشجرة التي عندها له
فهى مخالفة لله في الظاهر * وانقياد له في الباطن وتوضيح ذلك على النحو التالي :
أخبر الحق سبحانه ملائكته انه سيجعل في الارض خليفة - آدم وذريته - بخلاف بعضهم
بعضا جيلا بعد جيل * وقربا بعد قرن * ويكون منهم من يفعل فيها بين بعضهم من المظالم
ويرد عليهم عن المحامير وقرت ال ملائكة ان من هذا الجنس من يفسد في الارض وفسد الدماء *
اما بحلم خاص من جهة الله تعالى * *

او بما فهموا من الطهارة البشرية المخلوقة من صلصال من حامسين * والتي ركب
فيها الخير والشر وهبت للطاعة والمصيان * ونفس واسواها * فآلهمها فجورها وتقواها *
وليس مجيلا على الطاعة الخالصة والخير المحض سوى الطهارة المتكاملة *
او بما فهموا من لفظ " الخليفة " انه الذي يقضى بين الناس في المظالم * ويكفيهم

عن السائم

(١) سورة البقرة الاية ٣٤

(٢) سورة البقرة الايات ٣١ - ٣٢ - ٣٣

ولهذا سألت الملائكة بهم موافق استسلام واستكشاف عن الحنيفة في اختلاف هــو لا
الذين يفسدون في سكنون الدماء مع انهم في الملائكة - يهدون الله وسبحون بحمده ، ولا يصدرو
منهم ادسا ولا سفك دماء " ونحن نسمع بحمدك ونفد من لك " .

فأجابهم الحكيم الخبير بأنه يعلم من المصلحة والحكمة في اختلاف البشر ما لا تعلم الملائكة
قال ابي اطم ما لا تعلمون " . .

ومن هذه الحكمة : ان الافساد في الارض وسفك الدماء لن يقع من جميع ذرية آدم وانما
من بعضهم وسيكون من ذرية آدم انبياء ورسول يهدون الناس الى الحق التي هي اقم ، كما سيكون منهم
الصدوقون والشهداء ، والصالحون ، والاولياء ، والابرار ، والمؤمنين ، والملماء الماملون والآسرون
بالمعروف والناهون عن المنكر ، كما ان بعضا من يخطئ ، وفقد لا يلبث ان يعود الى رشده
فيتوب ويصلح و " ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " .

فانما كان من ذرية آدم العصاة والطائسون ، والخطاهون والتوابون ، فهم ليسوا شسرا
مخضا ، ولا فسادا خالصا ، وانما فهم خير وشر ، واستقاموا وعرجا يقول البهائي في تفسيره :
ان الحكمة تقضي ايجاد ما يخلب خيره ، فان ترك الخير الكثير لاجل الشر القليل
شرك كثير (١) كذلك من الحكمة اختلاف آدم وذريته في الارض فكشف فائتها ، واخرج
ما اودع في طبقاتها واطهار ما اختزن بين طبقاتها ، واحتوته بطون جبالها ، وضمت اعينها
بحارها وانهارها من خيرات لا تحصى ، وضم لا يبلغ المد منهاها ، وكثر لا يأتي عليها الحصر
وشروات تفي بحاجات البشرية من مبدتها الى منتهائها .

والبشر هم الذين تدفعهم الحاجة الى الطعام والشراب ، وسوقهم الضرورة الى اتخاذ
المسكن والكساء ويحتمهم حب الراحة وكراهية الالم الى النسي الدائب في روع الارض والمشمسي
في مناكبها " فامشوا في مناكبها وكلاوا من رزقها " وهذا تصور الارض وتزد هو فوقها الحبيسة
اما الملائكة - فهم مستغنون عن كل ذلك ، غير محتاجين الى طعام او شراب او مسكن او كساء
ولهذا قلن بجهد وافي الارض طلبا لخيراتها ، وانتفاعا بشرواتها ، فلو اختلفوا فيها لبقيت .

طول عمرها كحالها يوم خلقها ربها لا يستزج فيها زرع ولا يستثمر فيها قفسور ولا
يستكشف لها سرور . وحتمت لاله تقتضى ان تظهر آلاؤه وتكشف نعمه وتروى آثاره وتبين
وعظمه وذلك انما يكون بعمارة الارض وبت الخصوبة والازدهار في روعها على ايدى الذين
لا يستغنون عن هذا وهم آدم وذريته .

فانما اسكن آدم وزوجه الجنة فانما هي سكنى ظاعن واقامة مسافر حسدات
له غاية لا يد ان يبلغها ، ومهمة لا مفسر من القيام بها - هي عمارة الارض ، وهى الحياة
فروعها - بحسد ابتلاء محتج وامتحان مقدور ، فان سئل الله في خلقه ان ترتبط المسببات
بأسبابها وان تودى الى الخايات مقدماتها ، فليكن لا تنقل آدم عليه السلام الى الارض وهو
لا يد منتقل اليها سبب يستدعيه ، وداع يقتضيه ظاهره المخالفة لله ، والمصيان لاسره ،
وحده بقره ان يقع موافق الله ويتم مقدوره .

فما يتوجه الى آدم عليه السلام اللوم ولهذا فعند ما لام موسى آدم عليهما السلام
على تسجده في اخراج نفسه والناس تبعها له من الجنة باكله من الشجرة المنهى عنها احتساج
عليه بانه امر قد ره الله عليه قبل ان يخلقه ، فهو انما خلق - اولاً للارض لا للجنة .

روى البخارى بسنده عن ابي هريرة قرئ الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى فقال له موسى : انت آدم الذى
اخرجتك خطيئتك من الجنة ، فقال له آدم : انت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته
وكلامه ثم تلومنى على امر قد رعى قبل ان اخلق . فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فحج آدم موسى مرتين * (١) .

أخلاق نوح عليه السلام

.....

تحدثت آيات من الكتاب العزيز عن نوح عليه الصلاة والسلام بأن الله تعالى قسمه
اصطفاه ، وهداه وأنه عبد شكور .

أما الاصطفاء بالرسالة في قوله تعالى " ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم
وآل عمران على العالمين " .

فهذه الآية تخبرنا ان الله تعالى اختار آدم ، ونوحا وآل ابراهيم وهم اسما عجل واسحاق
وأولاده هما الرسل ، ونهينا صلى الله عليهم وسلم ، وآل عمران وهم موسى وهرون ابنا عمران
على العالمين بالرسالة ، والخصائص الروحانية والجسمانية ، ولذلك تروا على عالم بقوله غيرهم .
واصطفى في اللغة : اختار ، فمعنى اصطفاهم : جعلهم صفوة خلقه ، تميلا بالشئ
الذي يفضي وينقى من الكدورة ، قال ابو السعود : واصطفاه : اخذ ما صفا من الشئ .
كلا متصفا ، مثل به اختياره تعالى اياهم النفوس القدسية ، وما يليق بها من الملكات الروحانية
والكمالات الجسمانية المستتعبة للرسالة في نفس المصطفى كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام
أرومن بلاسهم ونشأ منه لما في مومهم .

وقيل : اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم ، وقد لبسهم
الاسماء واسجد الملائكة اياه واسكان الجنة .

واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نوح الشرائع ، انه لم يكن قبل ذلك
تزوج المحارم حراما ، واطالة عمره ، وجعل ذريته هم الباقون ، واستجابة دعوته فسي
حق الكفرة والمؤمنون وحمل على من الماء (١) .

وقال الفخر الرازي : ان النفس القدسية المنهية مخالفة بما هيئها لسائر النفوس ومن
لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء والفتنة والحسرة والاستعداد والترفع عن الجسمانيات
والشهوات ، فاذا كانت البرج في غاية الصفاء والشرف ، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة .
كانت هذه القوى المحركة والمركبة في غاية الكمال ، لانها جارية مجرى انوار قاطنة من جوهر
البرج ، واصله الى البدن ، متى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال ، كانت الاثار في غاية
القوة والشرف والصفاء (٢) .

(١) تفسير ابي السعود ج ١ ص ٢٢٩

(٢) مفتاح الغيب ج ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦

وأما الهداية : فقد وصف الله تعالى بها نوحا عليه السلام في قوله * ونوحا هدانا
من قبل * أي : وهدانا نوحا من قبل إبراهيم *

ولقد هدى نوح وسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى بعد ذلك * ذلك
هدى الله يهدى به من يشاء من عباده * إلى النبوة والرسالة ، وأرشدوا إليها ، لأن الهداية
المخصوصة بالإنبياء ليست إلا ذلك *

وقيل : اليهود من هذه الهداية : هو الهداية إلى الدين والمعرفة ، وكان ذلك
جزاء على الاحسان الصادق منهم ، لأنهم اجتهدوا في طلب الحق ، فآله تعالى جاز لهم
على حسن طلبهم بإيصالهم إلى الحق كما قال تعالى * والذين جاءوا فإنا لنتهد بهم سهلا *
وقيل : هدوا إلى الثواب العظيم ، فهدايتهم كانت إلى طويق الجنة ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر
هذه الهداية قال بعد ها * وكذلك نجزي المحسنين * وذلك بعد أن على أن تلك الهداية كانت
جزاء المحسنين على احسانهم ، وجزاء المحسن على احسانه لا يكون إلا الثواب ، فالصواب أن من
هذه الهداية الهداية إلى الجنة (١) *

وأما أن نوحا عليه السلام هدى شكورا فقد وصف بذلك في قول الله تعالى * ذرية من
حلنا مع نوح انه ثان عبدا شكورا *

والمعنى : يا ذرية من آمن بنوح وحمل معه في السفينة اجعلوه اسوقكم كما جعلنا
آباءكم اسوقهم ، وقد عرفتم حال الآباء فكفونا آيها الابناء كذلك ، فان دليل رشد الابناء حسن
الاعتقاد بسنة الآباء ، وان نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا في السراء والضراء *

والشكر : بمقابلة النعمة بالشأن على النعم ، ونوح عليه السلام كان يحمد الله على طعم
وشراهه ولباسه وشأنه كله ، فلهذا سمي عبدا شكورا (٢) *

وقد روى الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي قال : انا سمي نوح عبدا شكورا لان
كان اذا أكل أو شرب حمد الله * (٣) *

وقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صل الله عليه وسلم
في دعوة فرد إليه الذراع وكانت تعجبه فبهش منها نهضة وقال : انا سيد الناس يوم القيامة ...
إلى أن قال - فها تون نوحا فيقولون : يا نوح : أنت اولى الرسل إلى أهل الارض وسماك اللسان
عبدا شكورا ... * (٤) *

ومن اصطفاه الله وعباده ، وجعله عبدا شكورا لاتصدم منه المصيبة ، لان الله تعالى
لا يختار العصاة ليهدي بهم عباده ، فانهم يصيرون قذرة في الضلال والاضلال ، فكيف يختارهم
لهداية الناس ، ثم ان النبوة أعظم النعم على الانسان ، والمعاصي لا يقوم بشكر الله على نعمه
ونوح هدى شكورا ... فهو اذن لم يحمى الله تعالى *

- (١) مغانج الغيب للفخر الرازي ج ٤ ص ٨٦ - ٨٧
- (٢) تفسير المنصفي ج ٢ ص ٢٠٧
- (٣) ابن كثير ج ٣ ص ٤٣
- (٤) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٥٠

أخلاق إبراهيم عليه السلام

ان التواضع العاطرة ، والذكر الحسن الذي اذلقه الله في آيات القرآن الكريم على خلقه عليه الصلاة والسلام لما بلغت النظر ، وسوى الاتهاء ، وحقوق التأمل البصير فقد اتته حبه بحسن الصفات ، وبكامل الاخلاق ، وحبه الخصال حتى ان الامم المختلفة والطوائف المتعددة تجد من الفخر ان تلقى اليه ، ومن الشرف ان يكون لها نسبة اليه فانه في اكثر الناس انهم والخليل على طمة واحدة ، فزعم اليهود ان الخليل كان يهوديا ، وزعم النصارى انه كان نصرانيا ، وزعم المشركون انهم على طمة ابراهيم ، فمد الله تعالى على الجميع مواهبهم القاسية وقدر الحقيقة الناصية وبني ان اقرب الناس من الخليل هم اتباعه وحده صلى الله عليه وسلم والذي ين آمنوا " يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده اذلا تمظون " - ها انتم هولاء حاججتهم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم واللهم يعلم وانتم لا تعلمون -

ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين (١) .

لقد اتى الله ابراهيم ورشده قال تعالى " ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا بمنالين (٢) "

والرشد : قبل . النبوة ، واحتج له بقوله " وكنا به عالين " لانه تعالى ، انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله الله (في المستقبل) يقوم بحقاها ، ويجتنب مالا يليق بها ، ويحترز عما ينفسر قومه من قبل ما جاء به .

وقيل : الاعتدال لوجوه الصالح في الدين والدنيا قال تعالى " فان آتيتهم منهم رشدا فاد نصروا اليهم اموالهم " .

وقيل : التوفيق للخير صغيرا ، واختار بعضهم التفسير " من قبل " يحتمل ان يكون من قبل موسى وهرون فيكون المعنى : آتينا ابراهيم نبوته واعتداله من قبل موسى وهرون ، وهو عن ابن عباس .

ويحتمل ان يكون من قبل استنبائه وفي صغيره ، وهو عن مقاتل ، ويكون الرشده على هذا هو الاعتدال الى وجوه الصالح في الدين والدنيا ، والا لزمه ان يحكم بنبوته عليه السلام في صغيره

(٣) -

" وكناه عالين " اي عالين بأحواله الموضوعة ، وصفاته الحميدة التي اهلته لان يكون خليلا لنا وجزا ان يكون هذا كناية عن حفظه تعالى اياه وعدم اضاغته (٤) .

(١) سورة آل عمران ان الايات من ٦٥ - ٦٨
 (٢) سورة الانبياء الاية ٥١
 (٣) مفتاح الغيب ج ٦ ص ١٢٥ - ١٢٦
 (٤) روح المعاني ج ٥ ص ٣٦٥

وأرجح أن يكون معنى الرشد النبوة والحجة على قومه ، ويكون قد أوتى الخليل هذا من قبل موسى وعبرون وكتابهما ، ومن قبل محمد وقوانه ، وكان به عالما باستحقاقه هذا الرشد لا تصافه بأهل الصفات ، وأكرم الخلال .

أما ان الرشد هو النبوة والحق والحجة على قومه ، فلذكر الانبياء الثلاثة قيسله ، وما أوتوه من التوراة والقرآن والذي فهما الفرقان بين الحق والباطل ، والضياء الذي يستضيء به في ظلمات الحيرة والجهالة ، والذكر المبارك للمؤمنين ولتضمن الآيات الثالثة لهذه الآتية حاجة وجد الا محقوبه في أمر الاصنام باطلها ، وحقبة فاطر السموات والارض في الوجودية والمعبودية .

وان الرشد الذي آتاه اللطيف ابراهيم عليه السلام قد طهر قلبه فجعله سليما ، وان من شهدته لاهراميم - ان جاء به بقلب سليم .

أى أن من شايح لوجا عليه السلام وشاهمه في أصله به وثقواه لاهراميم عليه السلام ان اخلص الله قلبه الطاهر .

وان القول الذي استخرج اليه - من جملة اقوال كثيرة ذكرها المفسرون في معنى " القلب السليم " هو : انه السالم من جميع الآفات كساد العقائد ، والتباعد السوية ، والصفات الفهية كالحمس والخل وغير ذلك ، لان اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ولقول الله تعالى فيه " ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكناه عالمين " (1) فهو عليه السلام اجمالا قد أوتى الرشد وطهر قلبه فكان تفصيلا متصفا بصفات الفضل والشرف التي منها . ما ذكر في قول الله تعالى " ان ابراهيم لحليم اواه منيب " فقد وصف الحق سبحانه خليه بصفات ثلاث :

الاولى : انه حليم : أى غير عجل على الانتقام من المسيء اليه .

الثانية : اوعاؤه : أى كبحر التأوه من خوف الله ، وقد ذكر ابن كثير له عدة معان منها : المتضرع

الدهاء ، وهو ما نقل عن ابن جرير ترجيحده .

الثالثة : انه منيب " بمعنى راجع الى الله تعالى .

فهذه الصفات الثلاثة على رقة القلب والرأفة والرحمة وهي ما حظت الخليل عليه السلام

على المجادلة في قوم لوط رجاء ان يهتوا لهم بعد ثوب النجاة ، ويرفع عنهم المسئذاب

كما حملته على الاستغفار ولا يهيسه .

(1) مفتاح الذهب ج ٢ ص ١٤٤

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٢٨٢

(٢) ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٥

وعده الصفات وغيرها من الكمالات التي لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة كثيرة اجتمعت
للخليل عليه السلام حتى وصف بأنه أمة قال تعالى :

" ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين - شاكرا لأنعمه اجتنابا من عباده الذي
صراط مستقيم - وأتيناها في الدنيا حسنة - وانه في الآخرة لمن الصالحين " .
فهذه أخلاق وفضائل ابراهيم عليه السلام .

أولا : انه كان أمة ، وفي معنى امة وجوه

منها : ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : انه عليه السلام كان عبده من الخير ما كان عبدا أمة
وهي الجماعة الكثيرة .

ومنها : ما قاله مجاهد : انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا وفي صحيح البخاري : انه عليه
السلام قال لسارة : ليس على الارز الهم مؤمن نفهري وفيرك .

ومنها : انه مجاز يجعله كأنه جميع ذلك المصير ، لان الكفرة بمنزلة المدم .

ومنها : ان الامة فصله : بمعنى فصول كالرحلة بمعنى المرحل اليه ، والنخبة بمعنى المنتخب
من أمة ان قصد - او اقتدى به اي كان موثقا به ، فان الناس كانوا يقصدونه للاستفادة وقتدرون
بسيرته ، ودليله قوله تعالى " اني جاعلك للناس اماما " .

ثانيها : كونه قانتا لله : اي مطيعا له ، وفي مختار الصحاح : القنوت اصله الطاعة ، وبه قوله
تعالى " والقانتون والقانتات " ونقل ابن كثير ما روى عن ابي المصعب بن : انه سأل عبد الله
ابن مسعود عن الامة القانت فقال : الامة ، بعدم الخير والقانت المطوع لله ورسوله (١) .

وذو الفخر الرازي في تفسيره ان القانت : هو القائم بما أمره الله تعالى به ، والمعنى
واحد ، فان القيام بأمر الله طاعة له .

الثالثة : انه حنيف : اي مائل عن كل دين باطل الى الدين الحق فهو رائل عنه ، قال ابن
عباس رضي الله عنهما : انه اول من اختتن وأقام مناسك الحج وضعي ، وهذه صفة الخنيفية (٢) .

الرابعة : انه من الموحد بن صغورا وكهولا قال تعالى " ولم يك من المشركين " فهو عظيم
السلام لم يكن من المشركين في أمر من أمورهم وذلك ظاهر من همة العالمة في إقامة الدين
اثبات المانع مع ملك زمانه وهو قوله " هي الذي يحيى ويميت " وإبطال عبادة الكواكب بقوله
" لا أحب الاقلمون " والاصنام أيضا حيث كسرنا فألقى في النار بسبب ذلك .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ع ٥٩٠

(٢) مفتاح النبوة ج ٥ ع ٣٧٢

وج ظهوره فقد صح به اللزوم على نكار قريش في قولهم : نحن على لغة ابراهيم
ابراهيم .

وقيل لذلك ولزوم على المشركين من اليهود والنصارى في زعمهم انه عليه السلام كان على ما هم
عليه كقوله تعالى " ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان
المشركين " .

الخامسة : كونه شاكرا لنعم الله تعالى عليه فان تعالى " شاكرا لانعمة " أي قائما بشكر نعم
الله عليه سواء جمع القلة في " انعم " ونعم الله تعالى على خلقه كانت كثيرة
لايذ ان بأنه عليه السلام لا يدخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة (١) .

السادسة : كونه مصطفي للنبوة في قوله تعالى " اجتهاد " أي اختاره واصطفاه للنبوة .
والاجتهاد : احتمال من جهات ، وأصله جمع الماء في الحوض ، والجاهية ، الحوض الذي يجلس
فيه الماء لانهل أي يجمع - والجمع الجوابي . ومنه قول تعالى " وحقان كالجوابي " .

قال الالمسي : أصل الاجتهاد - الجمع على طريق الاصطفاة ، وطلق على تخصيص الله تعالى
العهد بفضله الذي يتحصل له منه انواع من النعم بلا منعه ، وتكون للانبياء عليهم السلام ومن
بقايرهم كما قال تعالى في الامة المحمدية " وجاهدوا في الله حق جهاد هو اجتهادكم " (٢) .

السابعة : اهتدائه الى الطريق الموصل الى الله تعالى ، وذلك لعهد ايمانه له الى لغة الاسلام
والدعوة الى الله ، والتوجه في الدين الحق ، والتفكير عن الدين الباطل .

الثامنة : كونه ارضي في الدنيا حسنة قال تعالى " وآتيناها في الدنيا حسنة " وقد عرّفها
ابن كثير : بأن الله جمع له خير الدنيا من جميع ما يحتاج اليه المؤمن في اكمال حياته
الطيبة (٣) .

وقال قتادة : ان الله حبه الى كل الخلق ، فكل اهل الاديان يقولون به ، اليهود
والنصارى ، والمشركون أيضا - كما سبق - .

وقيل اهل الاديان جميعا له ، وثناؤهم عليه ، استجابة لدعاؤه في قوله " واجمعل
لي لسان صدق في الاخسرين " .

وقال آخرون : هو قول المصطفى منا " كما صلحت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم " وحسنة على هذا
بمعنى سيرة حسنة .

وقيل : الحسنة : الاولاد الابرار على الكبر .

وقيل : المال بصرفه في وجوه الخير والبر .

وقيل : الممر الطويل في السعة والطاعة (٤) .

(١) روح المعاني للالمسي ج ٤ ص ٤٥٦

(٢) روح المعاني ج ٤ ص ٤٥٦

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩١

(٤) روح المعاني للالمسي ج ٤ ص ٤٥٦

وقيل : الصدق والوفاء والمهابة ، وذلك لقوله تعالى " وأذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صدقا نبيا "

وقوله تعالى : " وإبراهيم الذي وفى " وقوله أيضا " قانتا لله " وحسنة على هذه الأقوال عطية أو نعمة حسنة ، والذي اختاره : هو التميمي في الحسنة لتشمل كل ما جاء فسمى الأقوال السابقة وذلك ان الخليل عليه السلام أوتيتا جميعها .
وأيضا فان تكبير " حسنة " يفيد الشوق .

التاسعة : انه في الآخرة من الصالحين " وانه في الآخرة لمن الصالحين " اي في عدادهم ، كائن معهم في الدرجات العلى من الجنة ، ولم يقل : وانه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين : فانه في أعلى مقاماتهم تنبها على ان الله تعالى أجاب دعا " حين قال " رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين " وكونه من الصالحين لا ينفى ان يكون في أعلى مقاماتهم ، لان الله تعالى بين ذلك في قوله تعالى " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء " .

فهل يصح أن يقال عن الذي رفع الله درجاته ، وأعلى في العالمين ذكره ، وطهر قلبه ، وآتاه رشد ، وامتدحه بحسب الصفات ، وشتى الطاعات ، انه أشرفها لله طرفة عين ، أو كذب كذبه تشبها وتحط من شأنه ؟ كلا .

لقد كان إبراهيم عليه السلام ممتازا بالصدق ، ملتزما بالتصدق بالحق ، وفتح القسدر عند الله وعند الناس - قال تعالى " وأذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صدقا نبيا " .

وفي معنى " الصدق " قولان : أحدهما : انه مخالفة في كونه صادقا ، وهو السدى يكون عادته الصدق لان هذا البناء ينهى عن ذلك ، وكذا يقال مكبر للمولع بالمكر .
ثانيهما : انه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به .
وليس مخالفا من يقول : ان لفظ الصدق يتناول الصادق الذي عادته الصدق ، والكثير التصديق وان الخليل عليه السلام موصوف بفرط الصدق ، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكلمه ورسوله قال الفخر الرازي : ان الصدق بالشيء لا يوصف بكونه صدقا إلا اذا كان صادقا في ذلك التصديق (١) ومعنى النبي : الرفيع القدر عند الله وعند الناس ، لانه واسطة بين الله وبين عباده ولا وظيفة أسمى من ذلك .

ولقد قام الخليل عليه السلام بحقوق النبوة والاعطفا فوفى ، وأخبر عنه به سبحانه بذلك في قوله تعالى :

" وإبراهيم الذي وفى " وفي معنى " وفى " أقوال متعددة

ذكر ابن كثير منها

ما قاله سعيد بن جبور ، والثوري : انه بلغ جبريل ما أمر به

وما قاله قتادة : انه رأى طاعة الله ، وأدى رسالته الى خلقه ، واختار ابن جرير هذا القول ، فهو يشمل الذي قبله ، وشهد لقول اللطفي " وإذا ابتلى إبراهيم به بكلمات فأتىهم فقال انى جاعلك للناس اماما " . . . فقام بجميع الاوامر ، وترك جميع النواهي - وبلغ الرماله على التمام والتمال ، فاستحق بهذا ان يكون للناس اماما يقتدى به في جميع اقواله وافعاله واحواله . وأرى ان ينبغي فيه أيضا بالاضافة الى ما سبق ما رواه ابن ابي حاتم بسنده عن معاذ بن انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :

" ألا أخبركم لم سى الله تعالى ابراهيم خليله الذى رضى " ؟ انه كان يقول كلما أصبح وكلما أمس " سبحان الله حين تمشون وحين تصبحون - وله الحمد فى السموات والارض وشميسا وحين تظهرين (١) - وما قاله عطاء بن السائب من انه عهد ان لا يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النار . قال له جهنم : ألك حاجة ؟ فقال : أما الهك فلا .

وما نقله النصفى . من أنه رضى سهام الاسلام - وهى ثلاثون : عشرة فى التوبة " الثابتون " . . . الآية ، وعشرة فى الاحزاب " ان المسلمين " . . . الآية " وعشرة فى المؤمنون " قد ألفهم المؤمنون " . . . الآية .

وما ذكره الخازن : من أنه أخذ بتقد الرؤيا بذهب ولده ، وايضا روى شأن المناسك (٢) وهذا الذى روى به الخليل عليه السلام هو الكلمات التى ابتلاه الله بها فأتىهم - على أرجح قولين فى تفسيرها - فى قوله تعالى " وإذا ابتلى إبراهيم به بكلمات فأتىهم قال انى جاعلك للناس اماما " .

فالقول الاول فى تفسيره الكلمات " انه ليس فى الآيات التالية دلالة على تلك الكلمات ، وإنما هى : أوامر ونواه كلفه الله تعالى بها ، وهى التى سبق ذكرها فى معنى الرضا والتوفية التى قسم بها الخليل وضاف اليها ما نقله ابن كثير ما رواه ابن ابي حاتم عن الحسن البصرى انه قال : ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس وابتلاه بالهجرة ، والنار ، والختان ، وذهب ابنه فريض عن كل ذلك . وأيضا : المناظرات الكثيرة فى التوحيد مع أبيه وقومه ، ومع نمرود - والصلاة والصوم والزكاة والضائقة والصبر عليها .

ويكون المعنى : ان الحق سبحانه يخبر عن شرف ابراهيم عليه السلام بأنه قام بالاوامر وترك النواهي فجزى على ذلك بأن جعل اماما للناس وقدوة يقتدى به ، وهو الأرجح .

القول الثانى : ان فى اللفظ ما يدل على تلك الكلمات ، وأن الآيات التى بعدها كاليهاى ليهذه الكلمات ، وهى " انى جاعلك للناس اماما " وقوله " وإذا جعلنا الهيت مثابة للناس وأمنا " وقوله " واتخذوا من مقام ابراهيم صلى " وقوله " وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل الآية " وقوله (وان ارفع ابراهيم القواعد من الهيت واسماعيل " الآية .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٨

(٢) تفسير اللانقر بالخازن ج ٤ ص ٢٥٩

ونقل عن السدي قوله : ان الكلمات التي اهتلى بهن ابراهيم به هي " هئا تقبل منا انك انت السميع العليم - هئا واجملنا مسلمين لك ومن ذرئتنا امة مسلمة لك " . الاية " و " هئسا واهت فبههم رسولا منهم " . الاية (١) " . وبدل لهذا القول امور :

الاول : ان الابهتلاء اما يكون بأمر شاققة ، ولذا ذكره اللغوي في الابهات امور شاققة .
ففي الامامة - على انها النبوة ، متاعب تهليج الرسالة ، وطى انها القدوة بدون نبوة ، مشاقق القدوة وفي بناء البيت وتطهيره من المشاقق مالا يخفى ، ثم انه يتضمن اقامة المناسك ، وفيها مسن المشاقق مانعها وفي الدعاء بأن يحدث الله رسولا في الامة . من الاخلاص لله ، وتجنب الحسد مالا يحتاج اليه بيان .

الثاني : ذكره في الآيات عقب الكلمات من غير فصل بحرف من حروف العطف ، فلم يقل : وقال اني جاعلك (٢) .

الثالث : ما ذكره ابو جعفر بن جرير : من انه لا يجوز الجزم بشئ من المعاني السابقة انه الرواد على التبيين الا يحدث او اجماع ، ولم يصح في ذلك خبر ينقل الواحد ، ولا ينقل الجماعة ، الذي يجب التسليم له ثم ضعف - ابن جرير - حديث معاذ السابق ، وقال : ان سنده مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه .

ولهذا رجح ابن جرير ان الكلمات التي اهتلى الله بهن ابراهيم هي ما ذكره بعد هئا من قوله تعالى " اني جاعلك للناس اماما " والآيات التي بعد ها ، فهي كالبهتان لهذا الكلمات . في حين اننا نرى ابن كثير يختار ان تشمل الكلمات جميع المعاني السابقة ، مستندا الى السياق قائلا : ان السياق يعطى غير ما قاله ابن جرير (٣) .

ويمكن القول - بعد هذا - بأن الابهتلاء : الزام كل ما في فعله كلفه شدة هدة ، وشققة فاللفظ من حيث الدلالة يتناول مجموع هذه الاشياء .

فقد جاء لفظ " ونسى " مطلقا ، فيتناول كل نسياء وتوفية ، وتكون جميع المعاني التي ذكرها المفسرون ، اذلة تحت الرفاء والتوفية .

وجاء لفظ " كلمات " متكررا - فشمس كل الكلمات التي اهتلى بها الخليل عليه السلام بما يدخل فيه كل المعاني التي ذكرها المفسرون .

ويدخل في لفظ " ونسى " و " كلمات " من جهة الرواية ، ما ثبتت فيه الرواية .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦٦
(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٤٩٥ - ٤٩٦
(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

ولما قام الخليل عليه السلام بكل ذلك جزاه الله تعالى بأن جعله للناس قدوة واماماً
يقفدى به ويحتذى حذوه " انى جاعلك للناس اماماً " .
وهو يدل على انه عليه السلام معصوم من الذنوب ، لانه وقد جعله الله قدوة لو صدقت
المعصية منه لوجب الاقتداء به فيها ، فهلزم وجوب فعل المعصية وهو باطل .
والخلاصة : ان ابراهيم عليه السلام قد آتاه الله رشده ، وطهر قلبه ، وجعله خنياً مسلماً
وعده بقا نبيا واماماً رفيع اللذ درجات واتقى طوبه ، بما اتصف به من صفات طيبة ، وما قام بنفسه
من اعمال جليلة ، وما رزاه واتمه من كلمات ربه ، واتخاذ له خليلاً له " ومن احسن له ينسب
من اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم خنياً واتخذ الله ابراهيم خليلاً " فهل من هذه
صفاته ومنزله عند ربه ، ومن تلك اعماله يتصور منه شرك ، او كذب ، او ارتكاب معصية ؟ كسلاً

أخلاق لوط عليه السلام

ان لوطاً اتبع ابراهيم عليهما الصلاة والسلام واقفدى به فى صحة العقيدة ، وحسن
السيرة . فهو اول من آمن لابراهيم ، وقال انه آمن به حين رأى الناصى لم تحرقه " فأمن له
لوط وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم " .
وليس معنى انه لوطاً - وهو ابن اخى ابراهيم - اقل من آمن لابراهيم ، انه كان - قبل ايمانه
له - كافراً ، لان تصدق لوط لم يكن بهتوة ابراهيم عليهما السلام وما دعا اليه من التوجه
فقط وانما كان بجميع مقالاته (١) .
وان الله تعالى قد آتى لوطاً عليه السلام حكماً وطماً وصلاً ورحمة ، قال تعالى
" ولوطاً آتينا حكماً وطماً ونجبناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوموا فاستقن
وأدخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين " . - " الحكيم " الحكمة ، وهى ما يجب فعله من العمل .
وقيل : الفصل بين الخصم .
وقيل : للنبوة .
" والعلم " الفقه ، أو العلم بكل ما يتخى علمه لاتباعهم السلام (٢)
" ونجبناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث " - نجاء الله من أهل مسندهم
الذين كانوا يمسكون .

(١) تفسير ابراهيم السمود ج ٤ ص ١٦٦

(٢) انوار التنزيل للبيضاوى ج ٢ ص ٦١

الخبايا والسوء والفسق • من اللواطنة • والضباط • وحذف العارة بالحصص
والسباب - والفحش في المزاج وغير ذلك مما يظهر تحت الفاحشة والسكر • وقطع السبيل •

" بلوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين - ائتكم
لتأتون الرجال • وتقطعون السبيل وتأتون في ناد بكم الشرك فما كان جواب قومه الا ان قالوا
ائتنا بهذا الله ان كنتم من الصادقين • "

" الفاحشة " الفعلة البالغة في القبح • وكون هذه الفاحشة لم يأتها احد سبقهم من
الناس • يدل على انها ما اشأرت منه الطباع • وتحاضت عنه النفوس • وما أقدموا عليها
الا لخبثتهم •

" وائتكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل " تتعرضون للمهانة بالقتل • وأخذ المال • أو
بالفاحشة حتى انقطع الطريق • أو تقطعون سبيل النحل بالاعتراض عن الحرث • واتيسان
بالمسح بحسرت •

وتأتون في ناد بكم " في مجالسكم الخاصة بأهلها " المنكر " كالجماع • والضباط وحل الارباب •
وغير ذلك من القبائح • وعدم مهابة بها • وقيل : الحذف روي البنادق (١)

فكان لوط عليه السلام يكره هذه الاعمال القبيحة " قال اني لم يملك من القالين " -
المبغضون غاية البغض ونهى قومه عن ارتكابها • وجهلهم بفعلها " ائتكم لتأتون الرجال
شهوة من دون النساء بل اتم قوم تجهلون • "

حتى ضاق قومه ذرعا بانكاره عليهم • ونهى اباهم ففوتوه • ان لم يكف عن هذا
بالتقى من بين اظهروهم بقسوة وعنف " قالوا لئن لم تنته بالوط لتكونن من المخرجين • "
أى لئن لم تنته بالوط عن نهينا وتجهج أمرنا لتكونن من المنفذين من بين أظهرنا بقسوة وعنف
فخردهم لوط عليه السلام من العذاب فقالوا " ائتنا بهذا الله ان كنتم من الصادقين • "

عندئذ طلب من يه أن ينجيه من شؤم عليهم وعذابه فقال " رب نجني وأهلي ممن
يصلون " - فنجاه الله وأهل بيته من المتصدين له على دونه باخراجهم من بينهم وقبضت
حبل العذاب بهم الا امرأتك انت من الباقيين في العذاب لولها الى القوم ورضاها بفعلهم
" فنجونا وأهله أجمعين - الا عجوزا في الفاهرين - ثم دمرنا الآخرين " (٢) •

وان من اخلاق لوط عليه السلام الصالحة رعايته لحق الضيف • فقد دافع عن اضيافه
الذين نزلوا به - وهم الملائكة ولم يكن يملك ما يملكهم ملائكة - وجاهد في دفع قومه
عنهم حتى لا يخزي ضيفه

(١) انوار التنزيل واسرار التأويل للبيضاوي ج ٢ ص ٢٦٦ •

(٢) انوار التنزيل ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٢ •

فقال لقومه " يا قوم هو لا يناتى هين أظهور لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفتي
الذين منكم رجل رشيد " . .

وقد أدخل الله لوطا عليه السلام في أهل رحمته ، أو في جنته ، لأنه من الصالحين
فجوزى على صلاحه ، كما جوزى قومه بالكهلاك عقابا على فسادهم " وأدخلناهم
في رحمتنا انه من الصالحين " (١)

وقد وصفت الله تعالى نوحا ووطا عليهما السلام بالصلاح أيضا في قوله تعالى :
" ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عهد من من عاهدنا صالحين "
لهذا كله فضل الله تعالى لوطا عليه السلام مع غيره من الرسل على العالمين " واسماعيل
واليسع ويونس ووطا وكلا فضلنا على العالمين " .

فإذا كان لوط عليه السلام بهذا المثابرة من التصديق بجموع ما أتى به إبراهيم عليه
عليه السلام وقد أوتى حكما ولما صلاحا ورحمة وفضلا ، فهل يقبل التقول عليه بأنه
عليه السلام التجأ الي غير ربه ، أو رضى أن يأتي قومه الفاحشة مع بناته ، وهو
الذي كان يهفئ كل الهفئ ما عليه قومه " قال ابن لعلمكم من القالين " ؟ كلا .

ولا يقبل أيضا ان يشرب الخمر معها كانت الحملة الى ذلك ، وضطجع مع ابنتيه
تحت أى مؤثر كان كما يزعم المبطلون مستندين الى نصوص مختلفة في الاصحاح التاسع
عشر من سفر التكوين .

خلى يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام . فهو كما يروى البخاري
بسند عن ابن عمر رضي الله عنهما : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكرم بن الكرم
ابن الكرم ابن الكرم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم (١) .

وهو واحد من اثني عشر ولدا ذكرا ليعقوب عليه الصلاة والسلام ، الا انه واخاه بنها من كانا
احب الي يعقوب من سائر ابنائه * اذ قالوا ليوسف واخوه احب الي ابنا منا ونحن عصبة *
وما ذلك الا لما يتحمان به من الادب الجم ، والخلق الرضي ، والشاغل الطيبة ، وبخايل
الشرف والفضل منذ النشأة المبكرة .

وهذه من شأنها ان تجعل اصحابها موضع التقدير والحب والرعاية ، وهي التي حدثت بعزير
مصر - لما اشترى يوسف عليه السلام ان يحتق به ، وكريمه ، ووصى أهله به خيرا
اكبري شوا من ان ينفقنا او نتخذ ولد ا *

والنشأة الطيبة تحمل دلالات واضحة على ما سيكون لصاحبها في مستقبل حياته
من عظمة الشأن ورفعة الحال ، وكذلك كانت نشأة يوسف عليه السلام ، وقد أكد ذلك
الروايات التي رأها في منامه ، وهي : ان احد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له ، وقد
نهم منها يعقوب عليه السلام ان يوسف سيكون له شأن عظيم ، وسيبوء قومه حتى اباء وأمه
واخوته ، ولهذا نهى عن ان يقصها على اخوته حتى لا يحسدوه ، ويكيدوا له كيدا .

وأخبره انه كما اكرمه الله بالروايات بجمته ، وملكه تأويل الاحاديث ، وتم عليه نعمته *
* وكذلك بجمتك ملك وملكك من تأويل الاحاديث وتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها
على أبوك من قبل ابراهيم واسحاق ان ملك عليهم حكيم * (٢) .

بجمتك * بطفحك للنسوة .

و * تأويل الاحاديث * تعبير الروايات ، ذكر هذا ابن كثير عن مجاهد .

وقال القرطبي : عني بالاحاديث ما يراه الناس في المنام ، وهي معجزة له ، فانه لم يلاحق
فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام اعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم
نحو ذلك .

ثم حكى قول آخر فيها هو : انها احاديث الامم والكتب ، ودلائل التوحيد ، فهيسر

اشارة الى النبوة وهو المقصود بقوله : * وتم نعمته عليك * أي بالنبوة .

وقيل : يا نجائك من كل مكروه .

وقيل باخراج اخوتك اليك .

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٥٧

(٢) سورة يوسف الآية ٦

" وعلى آل يعقوب " بالخلاص من الكارهة ، أو بأن يكونوا هادين للناس ، أو بجعل
النبوة فيهم " كما اتهمنا على أيديك من قبل إبراهيم " بالخلة ، وانجاءه من النار " و
اسحاق " بالنبوة (١) .
" ان يهلك طوبى حكمهم " يعلم كل شيء " ومن يستحق هذه المنجى ، فيفعل كل شيء " حسبما تقتضيه
الحكمة فيفعل ما يفسد جوارها على سنن علمه وحكمته (٢) .
وأهل الشرف والفضل لا يدعهم التلوم الحكيم فتوشم سهام المعتدين ، وإنما يهيمسي
سبحانه لهم وسائل النجاة من المكروه ، والظفر بالمعقوب ، والله قالم على أمره ولكن أكسب
الناس لا يعلمون " .
فقد ألقاه أخوته في غياهب الجب ، وأثن الله حفظه فيه حتى استخرجه بعض المسافرين فباعوه
لممريز مصر الذي عطف الله قلبه عليه ، فأوسى بما علقه خيرا .
" وقال الذي اشتراه من مصر لا مرأته أكبرى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا وكذلك مكنا ليوسف
في الأرض ولتعلمه من تأهل الاحاديث " .
وفي مصر انعم الله على يوسف بأجل النعم وهو " النبوة " جزاء على ما تخطى به من اجمل الصبر
وأخلص الاحسان .
" ولما بلغ أشده آتته حكما وطما وكذلك تجزي المحسنين " .
ولم يولد الاشد : هو استكمال القوة الذي يكون بمدد النقصان . قال الفخر الرازي : تقول العرب :
بلغ فلان أشده ، اذ انتهى منتهاه في شابه وقوته قبل ان يأخذ في النقصان (٣) .
وقال الالوسي : بلغ زمان انتهاه اشقداد جسمه وقوته ، وهو من الرقوى عن النمو المعتدبة (٤)
وهذه الاقوال تجعل بلوغ الاشد استكمال القوة الجسمية ، وأولى من ذلك - عندي - ان يجعل
بلوغ الاشد هو استكمال القوة الجسمية والقوة العقلية ، فالذي يلام النبوة بجانب استكمال
الجسم استحكمت العقل ، والى هذا ذهب ابن كثير الذي قال في تفسير " بلغ أشده " استكمل
عقله وتم خلقه (٥) .
" آتته حكما وطما " .
اختلف في معنى الحكم والملم على اقوال
احدها : الحكم : النبوة : والملم : التفقه في الدين .
ثانيها : الحكم بين الناس ، والملم بوجود المصالح
ثالثها : الحكم : الحكمة ، وهي : العلم النافع المومئد بالعمل ، لانه بدونها لا يعتمد به ، والعمل
بخلاف العلم سفه

(١) تفسير القرطبي ، طبعة الشريعة ، ٢٧ ص ٣٢٥٨

(٢) روح المعاني ج ٤ ص ١٦

(٣) مفتاح النجاة ج ٥ ص ١١٨

(٤) تفسير الالوسي ج ٤ ص ٢٢

(٥) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٣

والمعلم : علم تتأهل الروميا وودى بالذکر ، لانه غير داخل فيها قبله .

اولان ليوسف عليه السلام به اختصاص تام .

راحمها : الحكمة : حبس النفس عن هواها ، وصوتها عما لا ينهض ، والمعلم هو المعلم (النظرى)

وكذلك تجزى الحسنين " مثل ذلك الجزء الحسن تجزى كل من يحسن في عمله (١)

بفسر القوطي " الحسنين " بالمؤمنين ، ونقل قول آخر ، انهم المصابرون على التواكب كما صهر

يوسف واذا كان يوسف عليه السلام مؤمنا صابرا اجتهاد به ، وطمه تأويل الاحاديث ، وأتسم

عليه نعمته فبمثل تقع منه مروءة امرأة العزيز عن نفسها ، وهل يحاول أن يجازى عزيمته

مصر على احسانه اليه ، والتواكب اليه بالمدح اساءة ، وأمرأ مجازاة ؟ كلا .

لانه اذا كان من مصطفهم الله تعالى ، ووجههم الحكم والعلم ، يرتكبون هذا السر والفحشاء

فمن بعد هم يكون غده خلق وضعه .

ان يوسف عليه السلام استعصر بالله ما دحه اليه امرأة العزيز ، وافضا خيانة زوجها

الذي أنوسه ، مبرضا عن ارتكابها حرمه به الذي تولا ، بلطفه ، وانه لو فعل ما دعسى

اليه من السر والفحشاء ، لكان من الظالمين . الذين لا يستحقون عهد النبوة ، وشرف الاصطفاء

" قال معاذ الله انه من احسن من ان لا يظلم الظالمون " . . .

قال يوسف ذلك عليه السلام ردا على التي راودته عن نفسه ، وظقت الابواب ، ودعه السسى

الفاحشة .

ومن يستجبر بالله من السر والفحشاء ، وذكر حق زوج المرأة عليه ، واحسانه اليه ،

وفضل به عليه ، لا يرتكب المعصية ، لان اللائق بمن يعرف الفضل لذوه ان يقابل النعمس

بالطاعة ، ولا يقابلها بالمعصية ، فان المعصية عند ظلم ، ولا يظلم الظالمون والله تعالى السسى

بمعص من اغتصم به من السر ، وصرف السر عن المخلصين .

" كذلك لنصرف هذه السر والفحشاء ، انه من مبادئ المخلصين " .

" السر " الانسى " والفحشاء " الزنى

وقول : " السر " مقدمات الفحشاء (٢)

" المخلصين " بفتح اللام . الذين اخلصهم الله لرسالته ، وكسر اللام : الذين اخلصوا

طاعة الله .

(١) روح المعاني ج ٤ ص ٢٢

(٢) تفسير الخازن ج ٣ ص ١٥

وكان يوسف يلهيهمه السلام بهاتين الصفتين ، لأنه كان مستخلصا لرسالة الله ، وكان
مخلصا في طاعة الله (١)

والمعنى : كما أرينا يوسف يرهانا صوفه عما كان فيه كذلك تقبه السوء والفحشاء في جميع أسوره
انه من عبادهنا المجتهدين الطاهرين الاخيار .

«أخلق بمن صرف الله عنه السوء والفحشاء» : ان لا يستجيب لترويب اهل السوء وان لا يؤثر فيهم
ترويبهم ، حتى ولو كان بالهم المذاب ، وذلك المسجن .

« قالت فذلكم الذي كنتى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لمسجن
وليكونا من الصاهرين - قال رب السجن احب الي ما يدعونى اليه » .

ان امرأة المزيز لما رأت افتتان النسوة به يوسف أظهرت فديها بقولها : هذا الذي كنتى في حبه
ولقد طلبت منه الموافقة فامتنع واستعصم . ولئن لم يفعل الذي أمره به فيما سبأتى كما لسم
يفعل فيما مضى لمسجن وليكون من الاذلاء المهانين (٢) .

وأثر يوسف عليه السلام السجين على الوقوع في المعصية فأودع السجن ولكن ان استطاعت امسراة
المزيز ان تنفذ بعض ما هدته به وهو ان تجمل يوسف مجيئا فهي لا تستطيع ان تنفذ بعضه
الاخر وسوا ان تجعله ذليلا . لان السوء بالمرأة ، وكذلك الاحاسيس بالذلة ينجم من النفس
وقد لا يكون لها علاقة بما يلاقه الجسد . فقد يمدب امران الشيطان انسانا في جسده
يجمع ذلك يشعر في قراره نفسه بحزة لا تقدر ، لان التمذيب والتكامل كان في سهل اللسه .
والحق والفضيلة والمرءة المستمدة من عزة الله لا حدود لها . من كان بهذه العزة فله العزة
جميعا .

و « لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وان من يتعرف الاقام ، ويختص في حماة الرذيلة لهو الذليل حقا ولو كان السيد البطسماع
والامر الناهي فهو يوسف عليه السلام يشعر بحزة الطاعة لله ، ولو كان في اعناق السجن ، وامسراة
المزيز تحسن بذلك المنفعة وراء الهوى والفتوة ولو كانت تنصر في مشهد القصور .

ولقد كان يوسف عليه السلام محسنا قبل ان يدخل السجن ، وهذا ما أثره على الوقوع
في المعصية وحده ان أودع السجن .

قال له صاحبه في السجن وقد رأى كل منهما يوما « نعلنا بقأوله انا براك مسن
المحسنين » . ذكر القرطبي ان احسان يوسف عليه السلام كان عباده المؤمنين ، وبه اوتاهم
بجزءه الحزاني ، ونقل عن الضحاك قوله :

كان اذا موى الرجل من غسل السجن قام به ، واذا ضحك

(١) تفسير القرطبي ج ٢٧ ص ٢٢٩٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١٢ - ٢٤١٣

وسع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل نفسه .
ونقل قولاً آخر في " المحسنين " أنهم العاملون الذين أحسنوا العلم (١)

وذكر الفخر الرازي في احسان يوسف عليه السلام قولاً : انه الاحسان في حق الشركاء والاصحاب
وقولاً ثانياً : انه شدة المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فمعنى " انا تراءى من المحسنين "
اي في امر الدين ، ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله في تعبير الروميا ، وفي سائر الامور
وقولاً ثالثاً : هو احسانه علم التعبير ، وذلك لانه اذا عملاً يخطئ كما قال " وطنتي مسنن
تأويل الاحاد بيت " (٢)

وطى اي معالي من هذه المعاني فهو يدل على ان يوسف عليه السلام كان شعبها بعكسها
الاخلاق وحمود الافعال .
فعلى القبول بأنه من العلماء ؛ فهو كذلك لان من يحسن العلم تحسن اخلاقه ، ويستقيم
سلوكه .

وطى القبول بأنه من المواظبين على الطاعات فهو ايضاً كذلك ، لان من يواظب على الطاعات
من الصلاة والصوم ويمسكها تحسن اخلاقه ، فان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصوم
يورث التقوى وغيرها من سائر الطاعات يوصل الى الفايضين طهارة القلب وركاة النفس .
وطى القبول بأنه من المحسنين في تعبير الرومي ، فاما ذلك لصفاء نفسه ، ونقاء باطنه .

ولا يبعد في نظري ان تكون كل هذه الاقوال مرادة في الآية ، وان يكون يوسف عليه السلام مسنن
المحسنين معاملة الاصحاب ، ومن المحسنين العلم ، ومن المواظبين على الطاعة ، ومن المحسنين
تعبير الرومي ودل على حسن اخلاقه ، واستقامة سلوكه ، وحمده عن الاثم .

ومن اخلاق يوسف عليه السلام العالمة : الصدق وصفه به الذي تجا من صاحب السجن
عندما ذهب اليه يستفتيه في رؤيا الملك قائلاً " يوسف ايها الصدق اقتنا في سبع بقرات "
والصدق ، الكثير الصدق ، والمبالغ فيه ، الذي لا يتزحزج عنه ، وقد وصف بهذا بعد ان خالطه
وحرب احواله في مدة اقامته معه في السجن (٣)

ومعركان صدوقا مع الناس فهو مع الله اصدق ، والصدق في جماع الخير ، فهو يهدي الى الهدى
والهدى يهدي الى الجنة ، وان الانسان ليرصد في وتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدقاً
فكأنى بالاستقنى يصف يوسف عليه السلام بأنه جمع خلال الخير .

(١) الجامع لاحكام القرآن ج ٢٨ ص ٢٤٩
(٢) مفاتيح الذهب ج ٥ ص ١٣١
(٣) روح المعاني ج ٤ ص ٦٦

ولقد مكن بالله ليوسف في مصر ، وجعله صاحب الكلمة التي لا ترد في امر خزائنها ، لأنه استجمع خصالا يتوقف عليها حسن تدبير شئون الاموال والتموين في مصر ، وهي الامانة والمدل والمسلم .

” وقال الملك أتتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك الهم لدنيا مكن أمين - قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفظ عليهم ” .
والمعنى : قال الملك أتتوني به يوسف من السجن لاجمله خالصا لنفسى وخاصة بهى ، فأتوا به فلما كلمه وشاهد منه عالم يكن بصريف عنه قال ليوسف : انك من الان عندنا ذو مكانه ومنزلة رفيعة ، وموتن على كل شىء (١) .

وقوله ” مكن • أمين • تجمع فضائل عدة • ومناقب جمعة •
قال الفخر الرازى : واعلم ان قوله : مكن أمين • كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب وذلك لانه لا يد فى كونه مكنيا من القدرة والحلم ، اما القدرة : فلأن بها يحصل المكتسب واما الحلم فلأن كونه متمكنا من افعال الخير لا يحصل الا به ، ان لو لم يكن عالما بما ينهضى وما لا ينهضى لا يمكنه تخصيص ما ينهضى بالفعل وتخصيص ما لا ينهضى بالترك ، فثبت ان كونه مكنيا لا يحصل الا بالقدرة والحلم .

اما كونه آمينا فهو عبارة عن كونه حكما لا يفعل الفمل لداعى الشهوة ، بل انما يفعله لداعى الحكمة ، فثبت ان كونه مكنيا آمينا يدل على كونه قادرا ، وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفمل لداعى الحكمة لا لداعى الشهوة ، وكل من كان كذلك فانه لا يصدر عنه الشر والسفاهة (٢) .

ولعلم يوسف عليه السلام ان أحدا فيه لم تتوفر له صفات الامانة والمدل والمسلم التامى بتحتم توافرها فمن يتولى امر الخزائن فى هذه القسوة المصيبة طلب من الملك أن يعينه بهذه هذه المهمة الشاقة ابتغاء وجه الله ، حتى يقم احكام ربه ، وقضى بالحق ، ويبسط العدل ، ويجتاز بالصباة والبلاء ، أزمة لو لم يحسن اجتيازها لهلك كثير من الناس ، ولهبذا قال ” اجعلنى على خزائن الارض انى حفظ عليهم ” أى فوئلى على خزائن أرضك - مصر - انى أمين ، أحفظ ما تستحفظينه ، عالم بوجوه التصرف ، فقد علل طلبه ، بأن لديه من الامانة والكفاية ما يقم الحق ، وينشم العدل ، ويتجنب الظلم والفساد أى أنه طلب ذلك لله لا لحب الملك والدنيا .

وانا علم النبى أو العالم أنه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ، ودفح الظلم الا يتمكن المملك الكافر أو الفاسق فلما سبق

(١) ارشاد العقلم السليم ج ٣ ص ٧٨

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٤٤

أن يستظهِر به (١)

وهل من يكون عليه لله وصلاحه العبادة ، بخضب به بارتكاب ما حرمه ، أو يسيء السيء
أحد من عباده بانتهاك عرضه ؟ اللهم لا

وحسبك بالتقوى والصبر خلقا لا نسان ، فان بهما يحفظه الله من كل سوء وكره ، ويحقق
بهما كل خير ويرغب ، ويدل لهذا قول يوسف لأخوته - عند ما دخلوا عليه ، وشكروا اليه -
الضر ، وظلموا منه أن يرضى لهم الكيل وأن يتصدق عليهم ، وسألهم عما فعلوه به يوسف وأخيه -
وعرفوا من ذلك أنه يوسف - " انا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يثق ويصبر فسان
الله لا يضيع أجر اللصحين "

قالوا لله لقد آثرتك الله علينا وان كنا لخاطئين - قال لا تشرب عليكم اليوم يخفر الله لكم
وهو أرحم الراحمين "

أى : انا يوسف - الذى فعلتم به ما فعلتم - وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص ما ابتليتنا
به ، والانس بعد الوحشة ، والاجتماع بعد الفرقة ، والراحة بعد التعب ، فان من يفصل
التقوى فى جميع أحواله ، أو يثق نفسه عما يريه ويبسخط الله تعالى وعذابه
ويصبر على المحن ، أو على مشقة الطاعات ، أو عن المعاصى التى تستلونها النفس ، فان الله
لا يضيع أجره "

فقال له أخوته : تالله لقد فضلك اللهم علينا بالملم والحلم والتقوى والصبر والاحسان ، ولقد كنا
مذنبين إذ فعلنا بك ما فعلنا .

ويبلغ كرم الخلق به يوسف عليه السلام ، وساميه عن الدنيا - انه لم يلم أخوته ، ولم يوثقهم
على ما فعلوا به ، وإنما طلب من الله لهم المنفرة والرحمة " لا تشرب عليكم اليوم يخفر الله لكم
وهو أرحم الراحمين (٢)

فهل الذى يحسن الى السيء ، ويقابل اسائه بالعفو والاحسان ، يصح أن يتصور منه الاساءة
الى من أحسن اليه - فى عرضه وشرفه ؟ كلا

ويمكننا بعد هذا ان نلخص من اخلاق يوسف عليه السلام - الطيبة ، ما يقطع بنزاعته عن كل ما نسب
اليه - كذبا واقترافا - وما يصلح تمريسا وعندي لمن يقوم بهما الاعمال ، ويصعب اليه بتصريف
الامور عند الازمات المصيبة ، وهى

أولا : العفة عن الشهوات ، وضبط النفس عن السوء والفحشاء " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
انه من عباده المخلصين "

ثانيا : الحلم عند الخضب ، وضبط النفس عن مجازاة السيئة بمثليها " قالوا ان بصرف فقد صرف
أخ له من قبل فأسرهما يوسف فى نفسه ولم يهد هما لهم .

(١) تفسير النصفى ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨

(٢) تفسير ابوالصمد ج ٣ ص ٩٠ - ٩١

ثالثا : وضع اللين في موضعه ، والشدة في موضعها * ولما جهزهم بجهازهم قال أفتونى بسأخ
لهم من أهلكم الاتقون ائى أرض انكبل وانا خير المنزلين -- فان لم تأتوني به فلا كبل لكم عندى
ولا تقربون * فالصدر للين والعجز للشدة *

رابعا : ثقته بنفسه * اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليهم *

خامسا : قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما قاب وضى عليه سنون حتى يضبط الصياغات ، ويمسرف
للناس اعمالهم * وجاء اخوه يوسف قد خلوا عليه فعرّفهم وعلم له منكرون *

سادسا : جودة القوة المخيلة حتى تأتى بالاشياء تامة الوجود * انى رأيت احد عشر كوكبا
والشيس والقمر رأيتهم لى ساجد بن *

سابعها : استمداده للملم وحبه له وثقته به * واتهمت لمة آباءى ابراهيم واسحاق ومقسوب
ماكان لنا ان نشارك بالله شىء * فلك من فضل الله علينا ولى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكسرون *
ولما بلغ أشده آتتهاه حكما وطمأ وذلك تجزى المحسنون * * رب آتيتنى من الملك وطمئتسى
من تأويل الاحاديث *

ثامنا : شفقتة على الضعفاء ، وتواضعه مع جلال قدره ، وعلو منصبه ، فخاطب للفتيين المسجونين
بالتواضع فقال * يا صاحبي السجن * * الآية وحاده شهما فى أمور دنياهما ودنياهما فالاول بقوله
* لا يتأتىكما طعام ترمزانه الا نباتكما بتأويله * والثانى بقوله * انى تركت قم لا يومنسون
بالله وهم بالآخرة هم كافرون * * سواتهمت لمة آباءى ابراهيم واسحاق ومقوب ماكان لتسا
ان نشارك بالله من شىء *

تاسعا : * المفومع القدره * قال لا تشرب عليكم اليوم يخفر الله لكم وهو أرحم الراحمين *

عاشرا : اكرام المشهورة * وأتوني بأهلكم أجمعين *

الحادى عشر : قوة البهان والقصاحة المبهتة على العلم والحكمة * فلما كلمه قال انك اليوم لدنيا
مكون أمين *

الثانى عشر : حسن التدبير * فما حصودتم قدروه فى منبهة الا قليلا ما تأكلون *

ومن حسن تدبيره ، وسديده سياسته فى ملكه ، اجتذابه القلوب اليه بالاحسان * وقسال

لقتبانه اجعلوا بضاههم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون *

وتدبير الحيلة المجيب بمسألة الصواع - واتهام اخوته بالمعركة ليهزم أخاه اليه * فهدأ بأوجنتهم

قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه *

ومعاملة المحكومين بشرفهم وطاهرتهم ونقا بهم * ليلكون أدهى لا مثالبهم * قالسوا

فما جزاؤه ان كتتم كاذبون - قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك يجزى الظالمين *

حقا فهذه أخلاقهم وخصال المصطفين الاخبار الذين صنعهم اللس

بهمده * وبأهم ليكونوا همدها وشيلا لمن يرجو الله واليوم الآخر *

خَلِيْلُ مَوْسَى ؑ لَيْسَ الْمَسْمُومُ

بخبر الحق سبحانه انه اتى موسى عليه الصلاة والسلام حكما وطما جزاء له عطسي احسانه فقال تعالى " ولما بلغ أشده واستوى آتناه حكما وطما وكذلك نجزي الحسنين " (١) وقه سبق توضيح معنى " الحكم والمعلم " بطرفين عن اعادته ، ومعنى الآية : ولما بلغ موسى نهاية القوة ، ونظام العقل ، وتم استحكامه ، آتناه حكما وطما - أى حكمة ، وطما بمصالح الدارين .

وذلك جزاء له على احسانه قال الزجاج : جمع الله تعالى لهما العلم والحكمة مجازاة عطسي الاحسان لانهما يؤدىان الى الجنة التى هى جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من مسلسل بعلمه ، لانه تعالى قال " ولينس ما عسوا به انفسهم لو كانوا يعلمون " فجعلهم جهنم لانه لم يعملوا بالمعلم (٢)

فموسى عليه السلام قد آتاه الله علما وعلا بهذا العلم ، ومن كان عالما طالما يعلمه يكون أهدى الناس من الشرور والنكرات ، وأكثر التزاما بما شرع الله تعالى ، وأعد تأهبا عطسي الشيطان وزفاته ، وأهدى سهلا من حرموا العلم النافع ، أو ظنوه ولكنهم لم يعملوا به ، فهسو عليه السلام لم يتكرف الاثم ، والا لو اقرنوه بمصانف العلم النافع والعمل به فإذا بقى للجهلاء ، أو للمعلمين غير الماظنين بعملهم ؟

وموسى عليه السلام تخلق بأخلاق طهية كثيرة فيها الامانة ، وصفته بها - بعد تجرته - ابنه شعيب من الكبر فيما حكاها عنها القرآن الكريم " قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين " قال عمر بن عباس ، وشريح القاضي ، وقتادة ، ومحمد بن اسحاق ، وغير واحد : انها لىما قالت " ان خير من استأجرت القوي الامين " قال لها أبوها : وما لك بذلك ؟ قالت لسه : انه رفع الصدرة التى لا يطوق حملها الا عشرة رجال ، وانى لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كوفى من ورائى ، فاذا اختلف على الطريق فاحذرن لى بحصاة أطم بها كيف الطريق يسوق لاهتدى اليه (٣)

والامانة القوي البدين ، الموضو المانفة الذى يكون أمينا على العرضى فيبسة الرقبسة من البشر حتى عد النظرة الى امرأة تصف الوجه بدنها اخلاا بواجب الامانة : حسرو السان يدرك انه مسئول امام ربه قبل أن يكون مسئولا امام البشر ، وهذا المنصف حسرو الذى يؤدى حقوق الله ، ويصون حقوق الناس ، ولا عجب ، فرسل الله تمهدهم بالحفست من السور هتايته ، لانهم يدعون الى سبيله " واتصنع على عيني " واصطنعتك لنفسى " فهم معتمدين بالفضولة ، بعداء من الرذيلة فى نهوتهم وقيلها ، فى أوطانهم وفى ديار هجراتهم ، وقادسة رسالات بهم تتطلب خلقيا لا يتغير باختلاف الاحوال ، وذلكك هو الامانة .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٥

(١) سورة القصص الآية ١٤

(٤) تفسير النسفى ج ٢ ص ٤١٩

ومنها الحياء ، وهو خلق نهيل يدل على طهيرة صاحبه ، وكشف عن آدبه العالي ، وتوسيط
بإيمانه . روى الحاكم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحياء والايمان قرنا جبههما
فاذا رفع أحدهما رفع الآخر . فالحياء خير كله يتدبج بمصاحبه من حسن الى أحسن ، ومن منزلة
الى أرفع منها حتى يبلغ بمصاحبه الد درجات المعلى .

وقد ان الحياء على الممكن تماما يتدبج بمصاحبه من سيء الى أسوأ ، ويهبط به من منزلة السيسى
أول ولا يزال يهوى به حتى يصل بمصاحبه الى الدرك الاسفل .

وموسى طوبه السلام كان متخلقا بهذا الخلق النهول حتى أنه ما كان يرى من جسمه شي . فاستأذاه
من آذاه من بنى اسرائيل وقالوا ما يفعل هذا الا من عيب فيه ، فهم يطهروا بشرتهم فبههم وسوا الظن
المتخوف لدهم قلبوا الحجة منقصة ونصروا الفضيلة بالمعيب ، وهذا من أن يكلموا له طوبها
التناء كالوا له الذم والابناء .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان
موسى كان رجلا حويا ستيرا لا يرى من جلده شي . استحياء منه فأذاه من بنى اسرائيل
فقال : ما يستتر هذا التستر الا من عيب بجلده ، اذ يبرص واما آفة ، وان الله أراد أن
يبرسه ما قالوا لموسى فتسلا بها وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم انخسل فلما فسح
أنهبل الى ثيابه لأخذها وان الحجر عدا بشوه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجمسه
يقبل : فهو حجرون حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل فرأوه عيانا أحسن ما خلق الله
وأبراه ما به ولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فطبعه - وطق بالحجر ضربا بمصاه ، فقال الله
ان بالحجر لندها من أثر ضربته ثلاثا أراها أوغصا فذلك قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا
آمنوا لا تكلموا كالذين آذوا موسى فبرأه الله لما قالوا وكان عند الله وجيها * (١)

والهمنى يذهب الى أن سبب الابه غير هذا ، وأنه قد ولهم لموسى : انك قلت هرون : وان
تبرك موسى من هذه التهمة كانت بأن حملت الملائكة جنة هرون وطافت به على جبال
بنى اسرائيل ، وكلمت بهوته .

فقد روى احمد بن منيع فى مسنده ، والطبرى وابن أبى حاتم باسناده قوى عن ابن عباس عن طلحة
بن أبى طالب قال : سمع موسى وهرون الجبل فبات هرون ، فقال بنو اسرائيل لموسى انت قلت
كان ألين لنا منك وأعد احبا ، فأذوه بذلك فأمر الله الملائكة فحطته فمرت به على جبال
بنى اسرائيل فكلمت بهوته * (٢)

وفى رواية أخرى : أن الله برأ موسى بأن رفع لهم جسد هرون وهو ميت فحاط بهم بأنه مات
قال ابن حجر تعقبا على هذا : وانى المصحيح أصح من هذا لكن لا مانع أن يكون للشيء مبرهان
فاكثر .

وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : يحتمل ان يكون الكل مرادا وأن يكون معه غيره

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٦٥
(٢) فتح البارى ج ٨ ص ٤١١

وغير الذي مضى من الايذاء كتهر وجهه السفها والحق من بني اسرائيل الى موسى عليه الصلاة والسلام فكان يصبر عليه ويتحمله ولا يذوق به ، وقد أشاد نبينا صلى الله عليه وسلم بصبر موسى عليه السلام على الاذى وقوة احتار له في معوض التملى به عنه ما نفعه عليه رجل واتهم بانه لم يعدل في قسه فنائم حنين فيها رواء البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يوم حنين آثر للنبي صلى الله عليه وسلم اناسا في القصة فأعطى الاقرب من جايس مائتين الاهل ، وأعطى عينه مثل ذلك وأعطى اناسا من اشرف المصري فأثرهم يوفد في القصة قال رجل : والله ان هذه القصة ما عدل فيها وما أريد بها وجهه الله فقلت : والله لا يخبر النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته فأخبرته فقال : فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى فقد أذى بأكثر من هذا فصبر * (١)

كذلك من اخلاق موسى عليه السلام النجدة ونصر المظلوم ومما روى الضعيفين هذا من اغائته للاسرائيلى الذي استغاثه على ظالمه المصري الذي كان يسخره في حمل الحطب الى مطبخ فرعون ، فأغاثه موسى عليه السلام للاسرائيلى لم يكن ليجرد انه من شيعته ، وانما كان لظلم المصري له ، وتحمله فدى ما يطوقه ، فقد كان السائد وقتها هو امتعها فرعون وقومه للاسرائيليين ، والمبالغة في اشتباقتهم وتجاوز الحد في ظلمهم بنى عن ذلك قول الحق سبحانه

* ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها عبدا مستضعفا طائفتهم يذبح ابناهم ويمتحنى نساءهم انه كان من الضدين *

ولم يكن التجبر والظلم صادرا من فرعون وحده ، وانما منه ومن قومه ، فالتاس على دين ملوكهم ولا يعقل أن يظلم فرعون الاسرائيليين ثم يعسن المصريين معاملتهم ، وانما كان اذلال الاسرائيليين وسخبرهم ظلاما وغيا هذا متفقا عليه ، ومنهاجا عاما يطبقه فرعون وقومه .

* ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين *

والانسان ذو العروة والنجدة تأبى عليه عزه ته وتجدته أن يرى مظلوما ثم لا ينتصف له مسن ظالمه بل الشرائع توصي بنصر المظلوم وتجعله حتما على من يقدر عليه ، فما فعله موسى عليه السلام انما تطوعه القيم الانسانية النبيلة ، بالشرائح السماوية المادية ، وما ترتب على صنعته من القتل كان غير مقصود له ، انما كان مقصود ككف الظالم ودفع ظلمه .

ومما روى الضعيف الذي لا يجسد له منانا بون الاقوياء كانت من خصال موسى عليه السلام

وخلاله الطهية ، وهي واضحة - مع ابنتي شيخ مدين الكبير ، فمئذ ما ورد موسى عليه السلام ما مدين ، ووجد عليه جماعة يسمون مواشيهم ، ومن دونهم امرأتين لا تتمكنسان من السقي لضيقهما وورود الماء من هوأ قوى منهما ، ولذا فهما تدفعان عن الماء حتى يفنى الرطاب من حقي مواشيهم ، فلما رأى ذلك موسى عليه السلام يعرف شأنهما بمسده ان سألها سقى غنمها لاجلها معاونة للضعيف ، وشفقة بالفقاتين اللتين لا تقدران على مواجعة الرجال ، وتمتحيان من الاختلاط بهن ، ثم عدل بعد هذا الى اصل شجرة جلس في ظلها يشكى الى ربه جوعه ، واحتياجه اليه .

فجاءته احداهما تمشي على استحياء ، قالت ان ابي يدعونك ليجزئك اجراما سقطت لنا .

حكى الخازن في معنى هذه الآية : انه سمع موسى ذلك كره ان يذهب معها ، ولكن كان جائعا فلم يجد بدا من الذهاب فبشت المرأة وبشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف زفيرها ففكره موسى ان يرى ذلك منها ، فقال لها : اشئ خلفي ولينني على الطريق اذا اخطت ففعلت ذلك ، فلما دخل موسى على شبيب اذا هو بالعشاء مهيا ، فقال اجلس يا بني تمشي فقال موسى اعوذ بالله ، فقال شبيب ، ولم ذاك ألسبت بجائع ؟ قال بلى . ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقطت لهما ، وانا اعمل بيتا لا تطلب على عمل من اعمال الآخرة عوضا من الدنيا فقال له شبيب : لا والله يا بني ، ولقنها عادتني بجاهة آهائي تقوى الضيف وتطمع الطعم السلام تجلس وأكل (١)

ولهذه الصفات النبوية التي تحلى بها موسى عليه السلام آتاه اللد الهدي ، ولقد آتينا موسى الهدي وأورثنا بني اسرائيل الكتاب ، فوجب له حكما وجملة من المرسلين ، ففرت منكسر لما خفتكم فوجب لي مني حكما وجملة من المرسلين .

وكان اصطفاؤه الله له ، واختياره اياه عن أهلية بجدارة في موسى عليه السلام ، قال يا موسى اني اصطفتك على الناس برسالاتي وكلامي ، وانا اخترتك فاستمع لما يوحى .

وقد قام عليه السلام بالرسالة القلي الوجه الامثل ، فعالج بني اسرائيل اعد المعالجة ، بلقسي منهم الكثير بما كان يوجبهم به من غيبهم الامثل موسى عليه السلام في صلاته في الحق ، وعدته في مواجهته الانحراف والزيف ، ولهذا لما ذهب عنهم لميقات به اتخذوا رجلا جسمدا له خوار معبود اللهم من دون الله ، وهم ان همون بين ظهراتهم ، ولما عاد اليهم اشتد فمسي تقريع متخذى المسجل ، وحرقة وذراة في البحر .

وانظر الى الهلك الذي ظلت عليه عاكفا لحرقتة ثم لتصفته في الهم نسفا .

وهو الذي روي قوله - قبيلا - بالجبهين عند ما جاوزوا البحر وهربوا على قوم يعقوب بن اسحاق لهم
 فطلبوا منه أن يجعل لهم اليها كما لهم - لا الهة - وهاؤنا بين اسرائيل البحر فأتوا على قوم
 يعقوبون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا اليها كما لهم ^{الذي} قال انكم قوم تجهلون
 حقا ان من يخلصه الله تعالى ويختاره ، ويخلصه الله تعالى العباد والطاعة انما يكون ذلك
 لهم ، وينهج قهر لا يهول الى الشر ، ويبتعد الى الصلابة والاشم ، وانما يظل يرتقى
 في مد ايج الكمال والسمو حتى يتبرأ منزلة القرب من الله ، والوجاع عنده .

• واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا لهما ، قهره مخلصا بكسر اللام بمعنى
 اخلص العباد والطاعة لله تعالى ولم يراه ، وقهره بالفتح اي مختارا ، اختاره الله تعالى
 ثم استخلصه واصطفاه .

• وانه بناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجبا ، اي رفع الله قدره ونزلته وشرفه بالمناجاة
 وجعله كريما اذا جاءه وقد ر ، وكان عند الله وجهها .

ومن وجاعته ونزلته عند الله تعالى انه يوم القيامة حين يصعق الناس ويكون نبوتنا على اللسان
 عليه وسلم اول من يفتق فانه يرى موسى عليه السلام آخذا بشيء من العرش بقوة ، فلا يصدري
 نبوتنا اكان موسى عليهما السلام من صعق فأفاق قبله ، وهذه فضيلة لموسى ، او كان موسى
 من استنتى الله فلم يصعق ، وهذه ايضا فضيلة لموسى عليه السلام يتبين هذا ما رواه البخاري
 بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم
 والذي اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على المالين ، في قسم يقسم به ، فقال اليهودي
 والذي اصطفى موسى على المالين ، فوضع المسلم يده عند ذلك فطعم اليهودي ، فذهب سب
 اليهودي الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بالذي كان من أموره وأمر المسلم ، فقال :
 لا تخبروني على موسى فان الناس يصعقون فأكون اول من يفتق فاذا موسى باطنه بجانب
 العرش فلأدري اكان من صعق فأفاق قبلى او كان من استنتى الله (١)

فهل بعد هذا بالثقت المقل الى كلمة تطعن في موسى عليه السلام ، او فريسة
 تنتقم من قدره بطلبها حاقد أو جامس ٢٤

أخلاق داود وسليمان عليهما السلام

قرئت الحديث عن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام في مجال الاخلاق ، حيث
تشابهها في كثير من الصفات والخصال ، شأن الوالد وولده ، اذ يشبه الولد والده في كثير
من طبعه وأخلاقه والولد سر أبوه .

وقد جمع لكل منهما بين النبوة والملك ، فكان كل منهما نبيا ملكا . وكان القوم الذين
أرسل اليهم داود وحكمهم هم عندهم الذين أرسل اليهم سليمان وحكمهم - عليهما الصلاة
والسلام .

وقد حدثنا آيات القرآن الكريم عن عصال داود وسليمان الحميدة ، وأخلاقهما الطيبة وسلوكهما
الرشيد حديثا يدرج كل تقوى عليهما ، ويزيد في طعن بوجه اليهما .
ونبدأ الحديث عنهما من اختيار الله لهما ، وإيتائهما الملك والنبوة ، والعلم .

قال تعالى " فمزموم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وطمه ما يشاء " (١)
قال ابن كثير في معنى الآية

أتى الله داود الملك الذي كان يريد طالوت والحكمة أي النبوة بعد شموله ، وطمه ما يشاء
من العلم الذي اختصه به (٢) وهو العلم الذي ينهى ان يعلمه الا نبيها .

واعطى سليمان طيبه السلام ما اعطى داود " وورث سليمان داود " فكان كل منهما قد أوتي الملك
والنبوة والعلم " وكلا آتينا حكما وعلما " .

ومن خصائص هذا العلم

أنه مستمد من الله تعالى " ولقد آتينا داود وسليمان علما " فهو علم يعمين على التقوى ، ولا تكون
له عواقب وخيمة ، ولا يلحق ضررا بالابناء ، كما يتقوى على داود ، ولا يظلم ابوالا بغير حق ،
ولا يغل منعه عن فريضته وذكره ، كما يدعى على سليمان عليهما الصلاة والسلام وانه علم شامل
لنواحي كثيرة ، لانه أفيض ليوهمي وسالقرهانية تنظم الحياة من جوانبها المختلفة وذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء

" وسخرنا^ج داود الجبال يسبحون والطير وكنا فاعلون - وطمنا ، عنمة ليهوس لكم لتحصنكمس
من بأسكم فهل انتم شاكرون - وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها
وكنا بكل شئ عالمين - ومن الشياطين من يخوضون له ، وطمون علاه ون ذلك وكننا لهم
حافظين " (٣)

" وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ " ان هذا ليس
الفضل اليهمس " (٤)

(٣) سورة الانبياء من الآية ٧٩ - ٨٢

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

(٤) سورة النمل الآية ١٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠٣

وانه لا يثور الضمير في نفس صاحبه منها أحزبه من النجاس . بل يدعو الى مزيد من التواضع
والاعتراف بالفضل لصاحب الفضل كله .

وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين * (١)

وهذا منطلق الذين عليهم الله . وأدبهم فأحسن تأديتهم . لهذا فهو المنطق المثالي
في شكر النعمة . والاعتراف بالجميل . وظليل أصحابه * وظليل من عبادة الشكر .
وفي قولها * فضلنا على كثير من عباده المؤمنين * ذكاء النبهة . وأدبها وتواضعها . فهم
لم يدعوا التفضيل العام المطلق على جميع البشرية . لانها لم يستوعبها كنه النعم المزججاء
من الله الى عباده . فضلا عن أن يدعوا استهباب البشر أجمعين . فهو منطق راشد يتمسك
فيه الذكاء والادب والتواضع . والاعتراف . والحياء جميعا .

حقا ان علما هذه خصائصه انما ينسر شكرا خالصا . وعلا عالجا . يتمثل في فعل المسورات
واجتناب المنهيات

ولقد كان على هذا المنهج القويم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام فشكرا كثيرا . وأصلحنا
الممل دائما كما أمرهما الله عز وجل .

* ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أهي معه والطير وألنا له الحد يد . ان اعمل ساهنات وقدر
في السرد واعلوا عالجا اني بما تمطون بصور . وسليمان الريح غدوها شهر ورواجها شهر
الى قوله * اعلوا آل داود شكرا وظل من عبادة الشكر * (١)

وامتعان النهران الكريمان بالله على تأدية الشكر كما ينهى . والقيام بالعمل الصالح السني
برضاه . وهاهو القرآن الكريم يسجل امتعانه سليمان عليه السلام به في هذا في قوله
* رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضاه وأد خلنسني
برحمتك في عبادة الصالحين * (٢)

ومن شكر داود عليه السلام وعلمه الصالح أنه كان يأكل من عمله . ويصنع الروح ويهيئها . ويأكل
من أثمانها * ولما صنعته ليهوس لكم * و * ان اعمل ساهنات *
ولم يكن يأكل من بيت مال الامة . ولو أنه أكل منه . وأخذ حاجته لما كان عليه ضمير في ذلك
ان هو يفرح بشؤون وعمله . ويكره جهده . وورقه بعد طاعت الله في مصالحهم .
وذلك لانه عليه السلام اختار أن يأكل من أطيب الكسب وهو عمل الانسان بهمه .

(١) سورة النمل الآية ١٥

(٢) سورة سبأ الآيات من ١٠ - ١٣

(٣) سورة النمل الآية ١٩

وقد اشدح هذا نهيها على الله عليه وسلم وأشاد به داود عليه السلام - عليه فقال :
" وما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده " ، وإن نهي الله داود كان يأكسسل
من عمل يده " (١)

وكانت عبادته عليه السلام من صيام وصلاة ، وما إلى ذلك من أمثل ما تكون العبادة ، ولهذا
فقد كان صيامه وصلاته أحب إلى الله تعالى

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسب
الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان
ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه " (٢)

ومن يدرك أن نعم الله عليه تكون لذبتلا ، ولا اختيار أشكر أم يكثر ، فإنه - بلا شك - يد بسم
الشكر ، ويتجنب الجحود والكفران ، وذلك بفعل الطاعة ، والحمد عن المصيبة .

ويحرص الانمان على هذا أكثر إذا علم أن ثمرة شكره على النعمة تعود إليه ، وذلك بأنه يد بعبادته
يزيدها ويوهدها جحود ، وكفره يرتد إليه ، وذلك بانهاضها أو انتقاصها

وقد أدرك هذا سليمان بن داود عليهما السلام فقد قال - عندما رأى عرش ملكسبا قد أحضس
بين يديه - " هذا من فضل ربي لم يلنق أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه " ، ومن كفر
فان ربي غنى كريم " (٣)

ان هذه البقطة الواحة تجاه النعم الفائضة ، والمنح النامرتن الله تعالى على داود وسليمان
عليهما السلام تجعلهما لا يذهلان عن ذكر ربهما وطاعته ، ولا يجتعان إلى عبادهما ولا ضرار
بخلقه كما اقترى الصطلون على داود وسليمان عليهما السلام

بأن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام من الرسل الذين هدى الله ، وأمر نبيه محسندا
صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهداهم قال تعالى - بعد ان ذكر كثيرا منهم ، ومن ذكرهم
داود وسليمان - " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " (٤)

فهل يخبر الله عنهما بأنه سبحانه عداهما ، وأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
بالاقتداء بهما ، بينما هما يرتكبان المنكرات ؟ كلا

روى البخاري بسنده عن مجاهد قال : قلت لابن عباس : اسجد في " ص " فقرا " ومن ذرته
داود وسليمان " حتى أتى " فبهذا هم اقتده " فقال : نهيكم صلى الله عليه وسلم من أسس
أن يقتدى بهم " (٥)

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٦٢

(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٦٢

(٣) سورة النمل الآية ٤٠

(٤) سورة الانعام الآية ٩٠

(٥) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٦٣

كذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يقتره عليه كفار مكة ، وأن يذكر
عبد داود - وهو من الرسل - لم يقدر بهم ، وتلقى بنا أعباءهم عما يصيبه .
وذكر له داود من المناقب والفضائل ما جعله أخلاقاً يقتدى به فقال تعالى
" اصبر على ما يقطون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب - أنا سخرنا الجبال معه يصيح
بالمعنى والاشراق - والطيور محشورة كل له أواب - وشد لنا ملكه وأتينا الحكمة وفصل الخطاب " (١)
فلو أن داود عليه السلام كان متركباً للمعاصي لما كان من الحكمة أمر نبيه صلى الله عليه
وسلم بالاعتداء به في الصبر ، إذ كيف يقدر في الصبر بمن لم يصبر عن العصية .

قال الفخر الرازي : أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقدر على داود في المصاهرة
مع الكاهنة ، ولو قلنا أن داود لم يصبر على مخالفة النفس ، بل عنى في واقعة امرئ مسلم
لغرض شهوته ، فكيف يلحق بأحكام الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقدر على بسبب داود
في الصبر على طاعة الله (٢)

كذلك وصف الله داود عليه السلام بأنه عبد له ، والقصد به أن أنه كامل فسي
المعبودية والتكامل في العبودية لله هو الذي يورث الطاعات ويحترز عن المعاصي ، فإذا لم
يتجنب داود عليه السلام المعاصي ، فإنه لا يكون كاملاً في عبوديته لله تعالى ، وإنما يكون عبداً
هو وشهوته

والصفات والفضائل التي وصف الله بها داود عليه السلام في الآيات - بعد - لا يتأتى
مهما ارتكبه المنكسر

أحدها : " ذا الأيد " أي القوة والمراد : القوة في الدين ، لأن القوة في الدنيا كانت
حاصلة للملوك الكفار وما استحقوا بها مدحاً ، والقوة في الدين : هي المنزلة الشريفة على
آداء الواجبات ، وترك المنكرات ، فكيف يوصف بها من لم يملك منع نفسه عن العمل مع الهوى
والشهوة .

ثانيها : " أنه أواب " والأواب الرجوع ، ولا يتصور من الرجوع إلى ذكر الله تعالى أن يرفسب
في زوجة رجل آخر ، وتشتد به الرخصة إلى حد محاولة الاستيلاء عليها عن طريق تعريض
زوجها للقتل .

الثالثة : " أنا سخرنا الجبال معه يصيح بالمعنى والاشراق - والطيور محشورة كل له أواب " .
واللائق بتسخير هذه الأشياء للإنسان أن يقابلها بالشكر والطاعة لا باتباع الهوى والشهوة .
الرابعة : " وشد لنا ملكه " وليس المراد منه أنه مشتمر ملكه بأسباب الدنيا وحدها ، فإن
ذلك حاصل للملوك الكفرة ، بل المراد تشدد ملكه في الدين والدنيا ، ومن شد له الله
ملكه في الدين لا يعجز عن منع نفسه عن القتل والفجور .

(١) سورة عن الآيات من ١٧ - ٢٠

(٢) مفاتيح الغيب ج ٧ ص ١٧٨

الخامسة : " آتينا الحكمة " والحكمة : اسم جامع لكل ما ينهى عما يحسن
فكيف يعقل أنه اتصفت بالحكمة مع ارتكابه ما لا يصد ر إلا من الجهلاء المحقن ، كالتشواخ
زوجته مجاهد مخلص ، والاحتبال لقتله .

السادسة : " فصل الخطاب " قال ابن عباس : بيان الكلام . أي معرفتالفرق بين ما يلتبس
في كلام المخاطبين له من غير صعوبة في ذلك .

وقال ابن مسعود والحسن ، علم الحكمة والبصر بالذمما .
قال الألويسي : في معنى " فصل الخطاب " انه الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاستسد
والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكميات ، وقد اهور
الملك والمشورات أو أنه فصل الخصام بتعريف الحق عن الباطل (١)

ومن كان هذا شأنه كيف يجور على انسان يرى ، ويهضم حقه ، ويظلمه لمصلحته نفسه ؟ كلا
فهذه الصفات تدل على وسوخ قدسه عليه السلام في الطاعة ، وشدة احتوازه عن المعصية
بما يرى ، ساحتها ما نسمه اليه السطلون الأفاكون
كذلك مدح الله سليمان عليه السلام بلقظ جامع يتناول عموم الفضائل ، وشتى المناقب فقال تعالى
" ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أوأب " (٢)
وأخبرنا أخبر الحق سبحانه ان لكل من داود وسليمان عليهما السلام عندة منزلة عالية ، وحسن
مروج وهو الجنة .

فقال تعالى عن داود " وان له عندنا لزلقى وحسن مأب " وقال عن سليمان أيضا " وان له
عندنا لزلقى وحسن كآب " أي لكل منهما ذرية وحسن مروج في الجنة
وقى هذا دلالة على براحتهما عليهما السلام من كل مانسب اليهما زوا واتقوا ، فان السندي
يستحق الزلقى وحسن المآب هو الذي يفصل الأمور ، ويجتنب المنهيات ، اما من يعمسى
في قسمل فخره ، والمدوان عليه في زوجته ، كما زعم الزاعمون في حق داود فلا يستحق القرينة
والجنة ، ومن يخفل عن فرضة به عليه ، وتلف ما لا يستخده في اعلاء كلمة الله ، كما تقبول
السطلون على سليمان بن داود عليهما السلام فلا يستحق المنزلة العالمة والجنة ، إذ كيف
يهتمد كل منهما عن الله بدم المصيبة ، ويزيد الله رفعة وشوكة ؟

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٣٢٩

(٢) سورة ص الآية ٣٠

خلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

اختار الله عز وجل لقبه محمد صلى الله عليه وسلم أصلاب الطاهرين ، وأرحام الطاهيرات من لدن آدم عليه السلام وحواء الى أبيه وأمه " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين النسي أرحام الطاهيرات " وذلك من كرامة الله عز وجل لقبه صلى الله عليه وسلم من قبل ان يولد ^{وهو} ان ولد حفظه الله تعالى من الشيطان فلم يجعل له سهيلا الى قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث شرح صدره وقلبه وهو غفور ، واستخرجت منه العلقة السوداء التي هي خط الشيطان من الانسان ، ثم غسل قلبه صلى الله عليه وسلم حتى نقى

بوي ابن سعد عن خالد بن معدان قال : قول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرني سائرا عن نفسك قال : انا دعوة ابراهيم ، وشرب عيسى بن مريم ، وروايت أمي حين وضعتني خبيج منها نوراً ، له تصور الشام ، واسترضعتني بنتي سعد بن بكر ، فهربنا انا مع أخي خسلف بورتنا تويي بهما - غنما - اتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب ملوثة تلجسنا فأخذاني فشقا بطني فاستخرجوا قلبي فشقاه فاستخرجوا منه طقة سوداء فطرحاها ثم غسلوا بطني وقلبي بذلك الطنج . . . (١)

وحفظه به من قهائج الجاهلية وسابها فلم يتدنس ^{بوتها} بهذا

ما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما همت بقهوج ما هم به أهل الجاهلية - أي وقد ملوثة - الا مرتين من الدعاء -
كلتاهما عصمتي الله عز وجل منهما

قلت لقي كان يمس من قهيش بأطى مكة في غم لاهله بوطها ، أبصرتني غنى حتمسي أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر النقيان . قال : نعم ، فخرجت فلما جئت أدنى دار مسن له وركعة سمعت غناء ، وصوت دقوف وزامير : فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : فلان قد تزوج بفلاتسه لرجل من قهيش تزوج امرأة من قهيش ، فلهوت بذلك الصوت فخلعتني عنها فتمت فمسنا ابقتني الا من الشمس فخرجت الى صاحبي . فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ثم فعلت الليلة الاخرى مثل ذلك

فوالله ما همت بشي من ذلك - بعد - حتى اكويش الله تعالى بهنوته (٢)

ولقد عرف صلى الله عليه وسلم بالامن قبل ان يوحى اليه ، فحين هدمت قهيش الكعبة ، وأعادت بناءها ، وانتهاها الى حيث يوضع الحجر الاسود قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ، واختلفوا

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣١

(٢) السيرة الطيبة ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦

حتى كانه ان يقع بهم ^{قَالَ} فقال * ثم اتفقوا على ان يحكموا بينهم اول د اخل من باب المسجد -
باب بنى شيبة - فكان رسول اللصلى الله عليه وسلم اول د اخل عليهم فلما رآوه * قالو : هذا
الامين * ومنها حكمه * * (١)

كما اشتهر بين أهل مكة بالصاقي * حيث لم يجوهوا عليه شيئا من الكذب
رشد الخبير * ولقد شهدوا بذلك عندما ناداهم من فوق * الصفا * فاجتمعوا وقال لهم
فيما قال : أرايتكم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل انتم صدق ؟ قالو : ما جئنا
عليك كذبا *

فكان الصادق - الذي يتلقون أخباره بالتسليم والثقة * الامين - الذي استودعوه اماناتهم
واستحفظوه نفوس أموالهم

وكان صاحب هذه الصفات الطيبة هو الذي يقبل منه ان يدعو غيره الى الصديق والامانة * وهو
الستعد ساعد الله له - لتحصيل رخصة به * ودعوة الخلق الى خالقهم * ولهذا لما خسان
على نفسه بعد اول لقاء له مع جهيل * ورجع الى بيته برحمة فؤاده * وأخبر زوجته الخبر وقسم
لقد خشيت على نفسي * قالت له خذ بغيري الله عنها : والله ما يخزيك الله أبدا * انك لتصل
الرحم وتحمل الكل وتكسب المدبر * وتقرى الضيف * وتعين على نوائب الحق (٢)
ومعنى هذا ان المتحلى بهذه الصفات هو الذي لا يكون للشيطان سهول اليه باقوا * او اضسوار
ولهذا أمره الله تعالى بالثبات على هجو ما يهوى الى العذاب من الشرك والذنوب فقال تعالى
* والرحس فاهجر *

قال ابو السمود : في معنى الآية : وأعجز العذاب بالثبات على هجو ما يهوى الى الله من المآثم (٣)
وثبت صلى الله عليه وسلم على هجو المآثم فكان على الطريق المستقيم لم يعدل عنه * واقسم
الحق سبحانه ان تبهه صلى الله عليه وسلم لم يعدل عن الطريق المستقيم فقال
* والنجم اذا هوى - ما ضل صاحبكم وما قرى - وما ينطق عن الهوى *

قال البهزاني * في معنى الآية : يا عدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم * وسما
اعتقد باطلا * والبراه نفي ما ينسبون اليه وما يصدرونه بالقرآن عن الهوى (٤)
والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتبع هوى المشركين * فذلك لم يقع في الضلال قال تعالى
* قل لا أتبع أهواكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين * (٥)

أى لا أجرى في طمأنينة التي ملكتموها في دينكم من اتباع الهوى * وبن اتباع الدليل

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ٣

(٣) ارشاد العقل السليم ج ٥ ص ٢٠٧

(٤) أنوار التنزيل ج ٢ ص ٣٤٠

(٥) سورة الانعام الآية ٥٦

وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وان اتهمت أفعالكم فأنا ضال ، ولمست
من المهتدين في شئ " (١)

وكيف يصل ، أو يمشي ، أو يتبع الهوى ، وقد آتاه الله الكتاب والحكمة ، والمعلم
قال تعالى

" وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وهديك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً " (٢)
والكتاب " هو القرآن " و " الحكمة " : السنة

" وطمئنت ما لم تكن تعلم " من أمور الدين وأحكام الشريعة ، أو الأمور الخفية التي لا تعلم إلا بالوحي
وكان فضل الله عليك عظيماً " وهو النبوة ، إذ لا فضل أعظم منها (٣)
وهذا الذي أنزله الله على نبيه من الكتاب والحكمة والمعلم الذي علمه إياه ، أفاضه به ووه على
الأخسرين ، ولكنه إلى من كانوا في ضلال مهين ، فاتفح منهم بهذا الهدى من اتفح
بهذا كانت النعمة على المؤمنين قال تعالى

" لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (٤)

قال ابن كثير سرفى معنى الآية

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته ، وسواله
وبجالتهم ، والانتفاع به ، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم
مخاطبته ومراجعتهم في فهم الكلام عنه ولهذا قال

" يتلو عليهم آياته " بمعنى القرآن

" ويزكيهم " يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهروا من الدنس والخبث
الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة " القرآن والسنة

" وان كانوا من قبل " هذا الرسول " لفي ضلال مبين " لفي في وجهل ظاهري جليسي
بين لكل أحد (٥)

ومن صفات نبيها صلى الله عليه وسلم التي وصفتها في التوراة والانجيل : صفة الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر قال تعالى " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً
عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر " (٦)

(١) تفسير النجاشي ج ٢ ص ١٤ - ١٥

(٢) سورة النساء الآية ١١٣

(٣) تفسير أبي السعود ج ١ ص ٢٨٢

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٥) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧

(٦) سورة الاعراف الآية ١٥٧

وإذا كان نهيها صلى الله عليه وسلم آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فهل يترك معروفه أو يأتى
مكرا ؟ كلا

ومن هنا يقطع بهمته عن المآثم والمعاصى ، ونزاهته عن كل ما يخالف دعوته ،
ثم إن الله قد وصفه بأنه نور يضىء للناس جهاتهم ، ويخرجهم من ظلمات جهالاتهم
ويصيرهم بمصائرهم قال تعالى

" يا أيها النبي إذا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا - ودعنا إلى الله يأنس وجنايا مهترا " (١)
قال البيضاوى فى معنى " سراجا منيرا "

بمضاء به من ظلمات الجهالات ، ويقوم من نوره أنوار البصائر (٢)

ومن كان بهذه المثابة فإنه يكون فى أقواله وأفعاله مثلا يحتذى فى فعل كل خير ، والبعثه
عن كل شر ، لأن من يترك الخير ، أو يفعل الشر لا يهدى فوره ، ولا يضىء للأخرين
حياتهم وحتى بمضاء بنوره ، ويهدى بهد يسه كان صلى الله عليه وسلم متواضعا له يسلم
رفيقا بهم كما أمره به بذلك فى قوله تعالى

" واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " (٣)

وكان يعفون المسيئون ، ولا يكافىء الجاهلین بمثل ما فعلهم تنفيذا لأمرو به بذلك
فى قوله تعالى

" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین " (٤)

" والعفو " اختلف فى معناه هنا على أقوال

منها : العفو عن الناس وذلك قبل أن تفرض الزكاة

ومنها : العفو عن المذنبين

ومنها : خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ، ولا تكلفهم ما يثق عليهم من العفو والسدى
هو ضد الجهد .

ويجوز أن معناه هنا : خذ ما عفا لك من أخلاقهم ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا
عن ابن عباس بن ربيعة المراءى قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم " خذ
العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل ؟
قال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك (٥)

(١) سورة الاحزاب الايات ٤٥ - ٤٦

(٢) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ١٩٧

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٥

(٤) سورة الاعراف الآية ١٩٩

(٥) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٥

و "المعرف" المصروف

فقد أمر الله ﷺ على اللطيف وسلم أن يأمر عباده بالمصروف ، وانه خل من ذلك جميع الطاعات
ولا عرا عن الجاهلين " أي لا يباريهم ولا ينافيهم بمثل أعمالهم ،
ولقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم على هذه الاخلاق الكريمة ، فانه وصف بها في الكتب السماوية
السابقة على القرآن .

روى البخارى بسنده عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله
عنهما قلت :

اخبرني عن صفة رسول الله على الله عليه وسلم في التوراة . قال : أجل ، والله انه لو صوف نسي
التوراة بهمض صفته في القرآن : يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا وبشيرا ونذيرا ، وحسوزا
للذين أتت عهدى ورسولى سمعتك المتوكل ليس يفتظ ولا يظيط ولا يخاب في الاسواق ، ولا يدفع
بالسيئة السيئة ، ولكن يمحو ويحفر . ولن يعقبه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا
لا اله الا الله . ونظم به أمنا عيا ، وأنفسا عسا ، وظلها ظفنا * (١)

ولقد كان تواضعه صلى الله عليه وسلم ولينه مع المؤمنين ، وتجاوزه عن المسيء ، وقد فسر
بالتى عى أحسن كل ذلك جمع الذلوب حوله ، وحببه اليهم قال تعالى

" فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر
لهم وشاورهم في الامر . . . " (٢)

وبالاضافة الى انصلى الله عليه وسلم كان رؤفا ورحيما بالمؤمنين كما وصفه به في قوله
" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حرم عليكم بالمؤمنين رؤفا ورحيما " (٣)

فقد كان عليه الصلوات والسلام ورحيما بأعدائه حيث كان يدعو لهم بالهداية والمنفرة بيضا هسسم
بؤنه ونسه وسيتون اليه ، ونقل " اللهم اهلا قوس فانهم لا يعلمون "

ولا عجب فقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة الله للناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم كما قال
تعالى

" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " (٤)

حكى القوطى عن سعيد بن جبهر عن ابن عباس قوله : كان محمد صلى الله عليه وسلم
رحمة لجميع الناس فمن آمن به ، وصدق به سمد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الامم من الخسف
والشرق (٥)

أي هو صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين في الدارين ، ورحمة للكافرين في الدنيا بالنجاسة
من عذاب الامتصاص

- (١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٠
- (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩
- (٣) سورة التوبة الآية ١٢٨
- (٤) سورة الانبياء الآية ١٠٧
- (٥) تفسير القوطى ج ص ٤٣٩

وكيف لا يكون رحمة وهو الذي يدعو الناس لما يحبهم

• يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبكم • • (١)

فإن اتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يحى القلوب • وترك ما نهى عنه • فإنه لا يبيست القلوب مثل الكفر والجهل والمعصية

ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الناس لما يحبهم تكون بالقول والفعل • والدعوة بالفعل والقدر الحسن تكون أنجح وأنجع • والقلوب التي امتثلت لها أمر • ولقد كان لنا في نهجنا القدوة الطيبة • والاسوة الحسنة •

• لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا • (٢)

ومن كان أسوة حسنة لمن يرجو الله واليوم الآخر • ويذكر الله كثيرا • لا تقع منه المعصية لانه لو وقعت منه لم يكن أسوة حسنة • وإنما أسوة حسنة

وما أحسن أسوة • وما أظهد قدوة • فهي بمن كان القرآن خلقه • اقوالا وأفعالا وأحوالا •

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن (٣)

ومن يكن القرآن الكريم خلقه يكن على أقوم منهج • وأعظم خلق • وأكرم خصال • وأحمد صفات وأهمد ما يكون عن المؤمن والمؤمنات قال تعالى بصف خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم

• وإنك لملئ خلق عظيم •

وهل يثنى الله على نبيه • ويمتدح أخلاقه بينما هو يرتكب المنكر • ويحترف السبقات ؟

اللهم • لا

ويحسن هنا أن أسوي حدك عند بن أبي عمير في صفة النبي صلى الله عليه وسلم •

فقد احتوى الكثير من شمائله وأخلاقه صلى الله عليه وسلم حتى يتبين كيف كان على خلق عظيم

روي البيهقي عن الحسن بن علي قال : سألت خالي عماد بن أبي عمير التميمي • وكان صفاقا

عن حلية النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشتبه أن يصف لي منها شيئا أتملق به فقال :

• كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فمخما يتلأ • وجهه تلالوه القمري ليلة الهدى • • • • •

الي أن قال : يتكلم بجوارح الكلم • فصل لا فضول ولا تقصير • دمك ليس بالجافى ولا المهبس

بمعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئا • لا يذم نواقصا ولا يمدح حسنة • لا تنضبه الدينسي

وما كان لها • فلذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد • ولم يقر لفضله شئ • حتى

(١) سورة الانفال الآية ٢٤

(٢) سورة الاحزاب الآية ٢١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٦

(٤) سورة القلم الاية ٤

بنتصر له ، لا يفضى لنفسه ولا ينتصر لها . . . ثم يقول : فكتمها الحسين بن علي زماناً
ثم حدثته بها فوجدته قد سبقني اليها فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله
ومجلسه ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئاً .

قال الحسين سألت أبي عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان له دخوله ما دوننا
لغى ذلك ، فكان إذا أوى إلى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله تعالى ، وجزءاً لاهله
وجزءاً لنفسه ، ثم جزءاً جزءاً بينه وبين الناس ، فيرد ذلك على العامة بالخاصة ، ولا يدخل
عندهم شيئاً ، وكان من سيرته في جزء الأمانة إثارة أهل الفضل بآذنه وقسمته على قدر فضلهم
في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحوائج فيتشافل بهم ، ويشغلهم
فيما يصلحهم والأمة من مسألة عنهم ، وأخبارهم بالذي ينهض لهم يقول : ليلغ الشاهد
منكم الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاقي حاجته ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجته
من لا يستطيع إبلاغها أباه ثبت الله قدميه يوم القيامة ، ولا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من
أحد غيره ، يدخلون عليه رؤدا ، ولا يفترون إلا عن ذواق ، ومخرجون أدلة - يعني فقهاء -
قال : فسألت عن مخرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

فقال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا ما يفتهم وهو لغهم ولا يفرهم ،
ويكرم كرم كل قوم ويوليهم عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحدهم
بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، وسأل الناس عما في الناس ، وحسن الحسن وقومهم
ويصح القبيح ويوجهه ، ممتدل الأمر غير مختلف ، لا يهفل مخافة أن يهفلوا أو يهفلوا
لكل حال عند هناك ، لا يقصر عن الحق ولا يجوز ، الذين يلوته من الناس خبارهم ، أفضلهم
عنده أعظم نصيحة ، وأعظمهم عند منزله ، أحسنهم مواساة وموازرة .

قال : فسألت عن مجلسه ، كيف كان يصنع فيه ؟

فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن إلا ما كمن
وينهى عن إيظانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس وأمر بذلك
بمطى كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جلسيه أن أحد الأكرم عليه منه ، من جالس أو قام معه
في حاجة صاهرة حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرد ، إلا بها أو بميسور من القبول

قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواه ، جليلة مجلسه
حلم وحياء ، وصبر ، وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤمن فيه الحرم ، ولا تنق فتاتسه
تصادلهم ، يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون فيه الكبر ، ويرحمون فيه الضعيف
ويؤثرون ذا الحاجة ، ويرحمون الشريب

قال : قلت : كيف كانت سيرته في جلسائه ؟

فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتم البشر وسهل الخلق ، ولين الجانب ، ليمس بهنظ
ولا غلظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مداح ، يتخافل عما لا يشتهي ولا يؤسس
منه ، ولا يهيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المرأة ، والأكثر ، وبالا بمنه ، وترك الناس
من ثلاث : كان لا يذم أحدا ، ولا يهينه ، ولا يطلب عوته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، إذا تكلم
أطرق جلساؤه ، فكانوا على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ،
الحد يث ، من تكلم أنصتوا له حتى يغيب ، حد يثهم عند حد يث أولهم ، يضحك ما يضحكون
منه ، ويتعجب ما يتعجبون منه ، ويصبر للفرح على الجف وتفي منطلقه وسألته : حتى
أن كان أصحابه يستجلونهم - في المنطق - ويقول : إذا رأيتم طالب الحاجة يظلمها
فأرشدوه ، ولا يطلب الثناء إلا من مكاف ، ولا يقطع على أحد حد يثه حتى يجوز فيقطعه
ينهي أوقيام

قال : فسألته : كيف كان سكوتك ؟

قال : كان سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكير
فأما تقديره ، ففي سموته والنظر والاستماع بين الناس ، وأما تذكره ، أو قال تفكره ففما بهقى
وفهمه ، وجمع له صلى الله عليه وسلم الحلم والصبر ، فكان لا يفضيه شيء ، ولا يستغزه ، وجمع
له الحذر في أربع : أخذته بالحسن ليقضى به ، وتركه القهوج لينتهي عنه ، واجتهاده السراى
فيما أصلح أمته والقيام لهم فيما جمع لهم أمور الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم (١)

ولا عجب أن يكون صلى الله عليه وسلم على هذا الخلق المعالي ، فإنه اقتدى بهدى الرسول
جميعا عليهم الصلاة والسلام ، كما أمره به بقوله " أولئك الذين هدى الله فبهم اهتدى
أقصد " فان الانبياء قد وصفهم الله بالهداية والاحسان ، والصلاح ، والفضل على
العالمين ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، وأبدا الكسب

والحكم والنبوة ثم اقتدى بهم نبينا على الله عليه وسلم في عداهم وفي أخلاقهم
ومناقبتهم قال تعالى

” وقلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم - ووعينا
له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا عدا بنا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيسا
ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين - وذكرياء ويحيى وعيسى والجان كليل
من الصالحين - واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا طي العالمين - وسمن
آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبتناهم وعدناهم الى صراط مستقيم - ذلك هدى
الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبظ عنهم ما كانوا يعملون - اولئك
الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفروا بها هولاء فقد وكنا بها قوما ليس
بها بكافرين - اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسألكم عليه اجرا
ان هو الا ذكرى للمالميين ” (١)

ومن يتخلق باخلاق هؤلاء الرسل جميعا • ويهتدى بهداهم في اقوالهم
واقوالهم واحوالهم لاشك انه يكون على اعظم خلق • واكمل هداية • وانك لم تلتقى
خلق عظيم • ومن كان هذا شأنه يكون اسرع الناس في الخبرات • واهم الناس عسى
المعاصي والمهفات • ولذا لا يلتفت لما يقتره عليه الفرضون الحاقدين • ولا لمسا
يردد الاقبياء الجاهلون •

الباب الثالث

موقف التوراة والانجيل من عصمة الانبياء

عرض ومناقشة

معجب القارىء لكتب المهددين : القديم والجديد (التوراة والانجيل) فيها يوجد فيها من نصوص متهمجة على مقام الانبياء عليهم الصلاة والسلام ناصية اليهم ما يستحق منه وتألم الانسان العاوى لو نسب اليه .

لقد نسب العهد القديم الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكر الافعال وفاحش الالفاظ وقبيح الصفات بما لم يبت لهم منزلة عند بنى اسرائيل ولا استحقاقا لترسم خطاها وانتهاج نهجهم فى الخير ولا يلبث المعجب ان يتجدد وهزول عندما يحتكم الانسان الى عقله ويوازن بين امرين لا ثالث لهما :

احدهما : عصمة الانبياء من المعاصى ونزاهتهم عن القبائح وبراءة ساحتهم من المنكرات .
وثانيهما : ان هذه النصوص الهية وكلماتها ربانية والكتب المشتملة عليها مساوية والمقل السليم يظهر له من الموازنة الصحيحة بين هذين الامور . الاقتناع باوليهما ورفض ثانيهما .

اما الاقتناع بعصمة الانبياء فلانهم اختيروا لهداية البشر فلا بد ان يكونوا اعقل واكمل من غيرهم ولا بد ان يكونوا اسوة حسنة وقدوة سالحة لمن سواهم من البشر حتى يتم الانتفاع بهم واستقاء الهداية منهم اذ كيف ينادون بالاصلاح وهم مفسدون وكيف يدعون غيرهم الى الخير وهم شر من يدعونهم ان كون الانبياء غير محصومين لا يصح فى نظر المفضل

ثم انهم لو كانوا عصاة مفسدين فلم وقع اختيار الله عليهم للاخذ بيد البشرية الى التى هى اقسم وقيادة الانسانية فى طريق الهدى ؟ لا يكون غيرهم ممن لا يفسدون احق بهذا الامر منهم ان افعال الله مبنية على الحكمة وليس عن الحكمة فى شىء ان يختار لتبليغ رسالاته الى الناس من يكون سلوكه حجة فى رفض رسالته " وما اريد ان اخالفكم الى ما انبهاكم عنه ان اريد الا اصلاح ما استطعت " وعندما لا يقبل المقل السليم الا ان يكون الانبياء محصومين من المعاصى والقبائح فلم يبت الا رفض ان يكون النصوص التى تنسب اليهم القبائح من كلام رب العالمين وانما عن كلام بشر افتروا على الله تعالى وعلى انبيائه الكذب وحرفوا الكلم عن مواضعه .

وعندئذ يقال لهم : كيف تؤمنون بكتب لمبت الايدي تبدىلا وتحريفها ؟ وكيف تمجدون الله بنصوص اشتملت على باطل وكذب والله لا يرضى ان يعبد بباطل ولا كذب ؟ وستستبد بهم الحيرة ومتظل تالزمهم حتى يهسودوا الى رشدهم ويؤمنوا بالله ايمانا صحيحا ويعلموا الانبياء بالعصمة .

ذكر العهد القديم انه بسبب مخالفة آدم عليه السلام نهى الله له عن الاكل من الشجرة لعنت الارض
فقى الاصحاح الثالث من سفر التكوين * وقال الرب لآدم لانك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة
التي اوصيتك قائلاً: لا تأكل منها مملونة الارض بسببك * فكيف يلعن الله الارض بسبب مخالفة آدم عليه
السلام وهي لم تقع منه على الارض وإنما في الجنة فما ذنب الارض في أن تصيها لعنة بسبب معصية وقعت في غير
في غير عالمها *

ثم ان جزاء آدم على هذه المعصية كان هبوطه من الجنة الى الارض ويجوع ويمرئ ويظلم ويضحي بعد
أن كان في الجنة لا يصيبه شيء من هذا فالجزاء انما يستحقه من تقع منه المعصية وليس الذي هو
بعيد عنها والجزاء يؤثر في العاقل الحما من ارتياحها او كراهية اما الارض فأى احسان لها بهذه اللعنة
وعلى فرغان لللعنة حلت بالارض بسبب هذه المخالفة الواحدة الا تشفع الطاعات الكثيرة والمعابدات
الدائمة بعد ذلك من آدم في رفع اللعنة عن الارض *

واذا كان الله قد تاب على آدم عليه السلام * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * وفقاً عن مرتكب
المخالفة ذاته الا تستحق الارض العفو عنها ورفع اللعنة التي حلت عليها وهي التي لا دخل لها
في وقوع المخالفة ولا ذنب

ثم اذا كانت اللعنة اصابت الارض بسبب خطيئة آدم الا تستحق ان ترفع عنها اللعنة من اجل طاعات
من عاشوا عليها من الانبياء والصديقين والصالحين والعلماء الماملين وكل من اطاع الله فوقها ؟
وكيف تلصق الارض بسبب خطيئة آدم وقد اختار الله ادم ونبيه لهسكنوا الارض ويمعمروها دون الملائكة
وهم يسبحون بحمده ويقدمونه وقال للملائكة لما استفسروا عن سر ذلك * انى اعلم ما لا تعلمون *
ثم ان التوراة لم تذكر شيئاً عن توبة آدم عليه السلام واستغفاره ربه من ذنبه ومغفرة الله له في حين
أن ذلك موضح في القرآن الكريم وما جاء به القرآن هو الذي تقبله العقول السليمة اذ كيف يعصى
نبي ولا يندم على ذنبه ويتوب منه ؟ الا يكون هذا تشجيعاً لزيته من بعد على التماذى في عييانهم
وبعد الرجوع بالتوبة الى ربهم * وهل بهذا تصلح الحياة ؟ كسلاً

المشهد القديم ونوح

نسب المشهد القديم الى نوح - عليه السلام - أنه شرب الخمر ، وسكر حتى
انكشفت عورته ، وأن " حاما " أحد ابناؤه لم يستر عورته ، وإنما اكتفى بأن أخبر اخويه :
ساما وياقن ، فجاءا على عجل وسترأ عورة الاب المخمور .
ولما أفاق نوح - عليه السلام - من سكره فذهب على " حام " ودعا على كتمان بن حام
باللمة وأن يكون عبدا لعبيد أخوته .
جاء في الاصحاح التاسع من سفر التكوين :
وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما وياقن ، وحام هو أبو كتمان ، وهو
الذي اثنى عم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت كل الارض .
وأبتداء نوح يكون فلاحا وفرنس كوما ، وشرب من الخمر فسكر وسرى داخل خبائه ، فأبصر
حام أبو كتمان عورة أبيه وأخبر اخويه خارجا ، فأخذ سام وياقن الرداء ووضعاه على اكتافهما
وشيا الى الوراء وسترأ عورة ابيهما ، ووجهاهما الى الوراء فلم يبصرا عورة ابيهما ، فلما استيقظ
نوح من خمره علم ما فعل به ابناه الشيخير فقال : ملعون كتمان عبد الصبيد يكون لاخوته وقال
مبارك الرب اله سام ، وليكن كتمان عبدا لهم ، ليفتح الله لياقن فيمكن في مساكن سام وليكن
كتمان عبدا لهم :

فهذا النص ينسب الى نوح عليه السلام شرب الخمر وهو محصية
والظلم ايضا : فقد ظلم كتمان حيث دعا عليه بأن يكون عبدا لعبيد أخوته وهو لم يرتكب
ما يستحق عليه عذا إنما الذي اغتبه على حد قول المشهد القديم هو حام الذي لم يستر عورته
فكيف يجازى نوح عليه السلام الابن بذنب ابيه .

المشهد القديم وابراهيم

ان الطعن على ابراهيم عليه الصلاة والسلام - واضح - في نصوص المشهد القديم فيما يتعلق
بهجرته وزوجه " سارة " الى مصر وموقفه من فرعونها الذي أراد اغتصاب زوجته .
ففي الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين : وجد جوع في الارض فاتحدر ابرام الى مصر
ليتغرب هناك لأن الجوع في الارض كان شديدا .
فهذه الآية : ترجع السبب في هجرة ابراهيم عليه السلام من فلسطين الى مصر الى الجوع
الشديد وليس الى تليغ الرسالة الى أهل مصر ، ودعوتهم الى الله عز وجل .

وعذا - في حد ذاته - ما لمن في ابراهيم عليه السلام أن يكون دافعة الى الرحيل

عن موطن يقيم فيه الى آخر : طلب الرزق الوفير ، والعيش الرفد .

صحيح أن الهجرة من أجل الرزق مشروقة " فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه " ولكن عذا

بالنسبة لغير الانبياء ، أما هم فتبليغ رسالة الله الى الناس ودعوتهم اليه ، أهم شيء في حياتهم

وهو دافعهم الأول والاخير الى الهجرة فان نبينا صلى الله عليه وسلم حوصر هو وأقاربه في شعب

" ابن طالب " حصارا اقتصاديا خانقا ثلاثة سنين حتى اصابهم الجهد والمشقة ، فلو كان أمر

الرزق مبررا للهجرة الانبياء عليهم الصلاة والسلام لهاجر نبينا حين حوِّب فيه ، ولكنه لم يفعل .

" وحدد لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امراته اني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر

فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امراته فيقتلونني ويستبقونك قولي : انك اختي

ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك " .

فهذا النص يفيد أن الخليل - عليه السلام - يعلم قبل أن يدخل مصر ما عليه ملكها من

اقتصاب الزوجة الجميلة من زوجها القادم اليهم فكيف يخاطر خليل الرحمن بعرضه وشرفه الى

هذا الحد .

ان الصحيح - وهو الذي تضمنه الحديث الصحيح في ذلك - أن ابراهيم عليه السلام لم

يعلم بما عليه ملك مصر - من اقتصاب الزوجات الجميلات من ازواجهن الثرى - الا بعد أن

دخلها فعلا وأصبح أمام الامر الواقع إذ يستبعد من مثل الخليل عليه السلام أن يقبل دخول بلد

يعتدى نبيها على عرضه مهما كانت الدوافع لدخولها .

وفي قوله لزوجه " قولي انك اختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك " دلالة على

أن الخليل عليه السلام قصد من وراء انكار زوجته لها أمرين :

احدهما : أن ينجو من القتل ثانيهما : أن يظله خير أي نفع مادي دينوي .

ولا يصدق عقل عاقل مثل هذا من ابراهيم - عليه السلام - لأن أقصى ما يتامع فيه انسان

تسرع لمثل هذا الموقف أن يفكر ويحتال فيما ينجيه من القتل والهلاك ، وفيما يحفظ عرضه مسن

الاضهان لا أن يفكر ويحتال للحصول على مال واحراز ثروة .

وكأنى بمن اضافوا عذرة العبارة " ليكون لي خير بسببك " وقد قصدوا أن يظهروا الخليل

عليه السلام بمنظور الحريص على المال المستعيت في الوصول اليه مهما كلفه ذلك من عناء وعطش من مشقة

وذلك كي يهرب بنو إسرائيل حرصهم على جمع المال مهما كانت الوسائل لذلك غير مشروعة وغير
كريمة والآيات التالية لهذا تقول :

" فحدث لما دخل ابرام لصرأين المصريين وأبوا المرأة أنها حسنة جدا ، وأبوا رؤساء
فرعون ، ومدحواها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى ابراهيم خيرا بسببها
وسار له فتم وقهر وحبير وعبيد وأما وأثن وجمال ، فقرب الرب فرعون وبيته ضربات ، لئمة بسبب
ساراي امرأة ابرام . "

فهذه الآيات على النسق التي جاءت به تجعل الخير الذي ساقه الملك إلى ابراهيم حين
أخذت " سارة " إليه قبل أن يضرب السرب فرعون وبيته ضربات عظيمة فما سبب سوق هذه الاموال
والعبيد إلى ابراهيم في هذا الوقت ؟

أعو اتخاذا الملك سارة زوجة له ومعاشرتها معاشرة الازواج ؟ أم السبب غير ذلك ؟
ان الآيات بهذا السياق الذي جاءت عليه تفيد أن الملك ما فعل هذا الا من أجل الاستمتاع
بسارة وعمل يقبل الخليل عليه السلام هذه الاموال عوضا عن زوجته ؟ كلا ولا غير الخليل من
الشرقاء يقبل هذا وأخيرا يقول النبي :

" فدعا فرعون ابرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني انها امرأتك لماذا قلت
هي أختي حتى اخذتها لي لتكون زوجتي والآن هوذا امرأتك اخذها وان هب . "
وفهم منه أن فرعون قد أخذ سارة زوجة له فلما قرب الرب وبيته ضربات عظيمة ايقن أن ذلك
بسبب سارة فاستدعى ابراهيم ولامه على أنه لم يخبره انها امراته ، وعلى أنه قال انها أخته
حتى اخذها الملك لتكون زوجته .

فالقصة على هذا النحو الذي وردت عليه في العهد القديم تقدم في عصمة ابراهيم عليه

السلام وتنسب اليه ما لا يليق بالانسان العادي فضلا عن النبي الكريم .

اما على النحو الذي جاء في " الحديد " فننزله الخليل عليه السلام عن هذه السفساف وعن

كل ما لا يليق به كسبي ، ففي الحديد ان ابراهيم فوجئ بما عليه فرعون مصر بعد أن دخلها

وأصبح أمام الامر الواقع وأنه ما قال : انها اخته الا ليتجو من القتل ويكف الملك عن اخذها وما

تمد نفعا ولا منتما .

وأن فرعون لم يمكنه الله من سارة ، وانما حال بينه وبين أن يحقق ما ربه الذي تعرف فرعون

من ذلك كرامة ابراهيم وسارة على الله ، فساق لهما ما ساق من أموال وليس ذلك مقابل اتخاذاها

زوجة كما يفيد العهد القديم ، ما يدل على أن كالمه قد حرف عن مواضعه وليس بكلام اصدق القائلين

لسوطى العهد القديم

قدّم العهد القديم لوطا عليه الصلاة والسلام وابتتبه بجزية من أغرب الجرائم فى العالم
وعنى : أن ابنتى لوط عليه السلام سقاه خمرًا ، فلما سكر اضطجعت معه احداهما فى الليلة
الاولى والثانية فى الليلة التالية وانجبتا منه .

ولنا على هذه الفرية رد بعد أن نقلها بنفسها من الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين :
” وصعد لوط من صوفر وسكن فى الجبل وابتناه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوفر
فسكن فى المغارة هو وابتناه ، وقالت البكر للصغيرة : ابونا قد شاخ وليس فى الارض رجل
ليدخل علينا كمادة كل الارض ، علم نسقى ابنانا خمرًا ونضطجع معه فنحى من ابنا نسلا ،
فسقنا اباهما همرًا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع ابياها ، ولم يعلم باضطجاعها
ولا بقيامها ، وحد ، فى الغد أن البكر قالت للصغيرة : انى قد اضطجعت البارحة مع ابسى
نسقيه خمرًا الليلة ايضا فادخلى اضطجعى معه فنحى من ابنا نسلا ، فسقنا اباهما خمرًا
فى تلك الليلة ايضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ،
فحبلت ابنتا لوط من ابياها تولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب ، وهو ابو الموابيين الى اليوم
والصغيرة ايضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمن ، وهو ابو بني همون الى اليوم .”

فهذا النص يحمل فى طياته دلائل كذبه وشواهد وضمه ، اذا تضمن مالا يتفق والمقل
والواقع من عدة امور .

الاول : أن لوطا عليه السلام - كان فى عذا الوقت شيخا تقدمت به السن والرجل اذا
تقدمت به السن - وشاخ - تكون قدرته على اتيان النساء محدودة ، فكيف استطاع لوط -
عليه السلام - وهو شيخ - أن يأتى النساء سكرانا فى ليلتين متواليتين ، وخاصة أن كلام
البتتين بكر تحتاج مجامعتها اول مرة الى قوة فى الرجل وجهود مناعف لفضح بكارتها .
الثانى : أن هذه الحكاية الخبيثة تحدد أن الاضطجاع مع كل من البتتين كان مرة واحدة ،
وأنها حملت منه ، ومن المعلوم : أن للمرأة فترة خضوة تحمل ان تمت المجامعة فى اثنتائها
ولا تحمل ان وقعت فى غيرها ، فهل كانت البنتان فى عاتين الليتين فى فترة خضوتهما حتى
حملت كل منهما ؟ .

وأى مصادفة هذه تلك التى جعلت من مجامعة الليلة الاولى حملا ذكرا ، ومن مجامعة

الليلة الثانية حملا ذكرا ايضا ليحيا من لوط نسلا كما ارادت البنتان ؟ .

الثالث : أن لوطا عليه السلام لا بد أن يكون قد رأى حمل البتتين وانتفاخ بطניהما ، فماذا
كان موقفه من ذلك ، أسكت سكوت راضى ؟ وفيه ما فيه من اقرار النكرام غضب وثار وهاتق
البتتين ؟ ان العهد القديم لم ينقل شيئا من ذلك ، وكان عليه - لوصح ما ذكره - أن
يلم بأطراف الواقعة ، وأتى على كل جوانبها من بدتها حتى نهايتها

هذه الامور تقضى بأن هذا النص مختلف مؤيد ، ولا يكفينا أن نجزم باختلافه ووضعه
فحسب بل لا بد أن تبحث عن الاسباب التي أدت الى اختلافه ووضعه حتى نزداد يقينا بأن
اليهودي والتصويب الاعلى هو الذي دفع بعضا من بنى اسرائيل لأن يزيدوا في كتاب الله وينقصوا
منه ، ويحرفوا كلمه عن مواضعه ، ونعاشي بعض الاسباب :

أولا : العداوة الذي بين بنى اسرائيل وبين بنى عمرو وموآب هو الذي دعا الى عدا تجريحا
لهم ونيلاً منهم قال السمو^{٥٠} بن يحيى العفرى - أحد اخبار اليهود قبل اسلامه - :
ان العداوة التي مازالت بين بنى عمرو وموآب وبين بنى اسرائيل بعثت واضع هذا النصل
على تليفق عدا الحال ، ليكون أعظم الاخبار فحشا في حق بنى عمرو وموآب (١) .

ثانيا : أنهم ارادوا تسجيل الخزي والعار - على داود وعيسى - الذي ينتسب اليه -
عليهما الصلاة والسلام - بأن يكونا من نسل احدى ابنتى لوط من الزنا .

ذلك : أن داود هو ابن نيسان بن عوبيد ، وأم عوبيد اسمها " روي " المأبوية من بنى موآب
بن لوط من الزنا بابنته فيكون داود - عليه السلام - على حد هذه الفرية ابن زنا من طراز
شاذ في العالم ، وهو زنا الاب بابنته ، ومثله عيسى الذي ينتسب الى داود عليهما السلام
ثالثا : أن اليهود - كما عرف عنهم عبر التاريخ - يتساهلون في أمر العرش حتى أن نساءهم
لا يرددن يد لاس ، ويوسدون أن يستندوا في هذا الى ما يصلح أن يكون قدرة على جعلها
من بنتى نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام - وعما مثال العفة والطهارة - مثالا للفجور
والعسر وذلك حتى لا يكون على بناتهم لهم في ارتكاب هذه الخيانة ، لأنه قد سبقهن
اليها بنتا نبي على حد قولهم (٢) .

رابعا : ان الامامة كانت في الهارونيين فلما أنتقل الامر الى داود بقى في نفوسهم
هي " قاضيا عزرا وكان هرونيا الى التوراة فصلين طاعنين في نسب داود أحد عما قصة بنات لوط .
قال السمو^{٥٠} بن يحيى : عند بنى اسرائيل أن موسى جعل الامامة في الهارونيين ، فلما ولى
طالوت وثقلت وراثته على الهارونيين وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم أنتقل الامر الى داود بقى
في نفس الهارونيين التشوق الى الامر الذي زال عنهم ، وكان عزرا خادما لملك القدس حزقيا
عنده ، فتوسط الى بناء بيت المقدس ، ومثل لهم هذه التوراة التي بأيديهم ، فلما
كان هرونيا كره أن يتولى عليهم في الدولة .

(١) بذل المجهود في افحام اليهود ^{٥٠}

(٢) المرجع السابق ص ٤٨

(٣) أدلة اليقين للإستاذ عبد الرحمن الجزيري ص ٤٣٥

الثانية داودي ، فاننا الى التوراة فصلين طالعين في نسب داود : احدهما ، قصة
بنات لوط ، والاخرى : قصة " تامان " (١) .
عنده هي الدوافع التي كانت وراء هذه الذرية الخبيثة التي تنضج بالحقد والتعصب الاعى
والتي تعد من أفسس وأخط الفري في العالم ، وما حساب وأشعبها الا على ربي لو يشعرون .
موسى وهسرون في العهد القديم

ينسب العهد القديم لموسى عليه السلام انه قتل القبلى عبدا انتقاما منه لشره
رجلا عبرانيا ففى الاصحاح الثانى من سفر الخروج :
" وحدث فى تلك الايام لما كبر موسى انه خرج الى اخوته لينذرهم فى انقالمهم فرأى رجلا
صريا يضرب رجلا عبرانيا من اخوته فالتفت اليه عينا ونمناك ، ورأى أن ليس احد فقتل المصرى
وطأه فى الرمل " .

فهذا الذى يفيد أن موسى عليه السلام قعد قتل المصرى ، اذ أن التفاته الى عينا
وعمناك اننا المتأكد من احدا لا يراه ، وعندئذ قتل المصرى ، وحتى لا ينتضج أمره أخفى
معالم جريمته بأن دفن قتيله فى الرمل .
فهو يعقل من موسى - عليه السلام - ان يتعمد قتل انسان لمجرد أنه أهدى بالشرب أو
بالثام أو بتسخير رجل من شيعته ؟

ان هذه أمور لا تستوجب أن يقتل فاعلها ، ولا يتصور من موسى عليه السلام أن يتجاوز
الحد فيتعمد قتل فاعلها .
ان العقلاء ان فكروا فى الرد على السيئة ، وعدم الاغناء عنها انما يكون بمثليها لا بأكثر
من ذلك وموسى عليه السلام كان فى ذلك الوقت قد استحكم عقله وآتاه الله الحكم والعلم ،
وودعه بأنه من المحسنين " ولما بلغ أشفه وأستوى آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين "
وايضا : فان موسى عليه السلام يعلم ما عليه فرعون وقومه من أخطاهاد الا - رائلين م استضعافهم
فهو يفكر فى قتل مصرى عبدا وهو يدرك ما يترتب على هذا السنيع وهو - قطما - ليس أسهل
من القتل وعمل من يتعمد قتل انسان يكفى باستخدام يده وسيلة مؤدية الى القتل ؟ كل .
ان القرآن يرح بأن موسى عليه السلام استخدم يده " فوكزه موسى " فى دفع عدوان المصرى

والوكر : النوب بالكف مضمومة اصابها أو : النوب باليد مجرمة اصابها أو : الدفع
باطراف الاصابع ، وقد اقبل العهد القديم ذكر ما نوب به موسى عليه السلام المصري بالثقة
واغراقا في الخاق جريمة التمد وسبق الاصرار بموسى .

والحق : أن قتل موسى عليه السلام للمصري كان خطأ ، فقد اراد دفع عدوانه وكسب
اذاه عن الاسرائيلي فوكزه بيده الا لانه كان فيها القضاء عليه ، ولذلك اشدت ندم موسى - عليه
السلام على الوكر الذي أدى الى الموت .

وذلك لأن الذي تصدهم العناية الالهية لدهوة الناس الى الخير وزجرهم عن الشر لا
يكونون قتلة متعمدين القتل ، وازعاج الارواح ، فان تعمد قتل النفس بخير حق من أكبر
الكبائر ، بل تلى في قبحها وشناؤها الكفر بالله مباشرة .

والانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قبل البعثة من كبائر الذنوب ، لأن صدورنا منهم
قبلها يجعل لهم - بعد البعثة - ماضيا غير مشرف ، ويؤدي الى تنفير الناس من اتباعهم -
وكل ما يؤدي الى النفرة من الانبياء تقتضى حكمة الله عدم وقوعه مشهم .

وما الحقه العهد القديم بموسى عليه السلام : أنه طلب من ربه أن يعفيه من الرسالة
معتذرا عن اذنا بأنه ثقيل الفم واللسان ، وندتد اشدت غضب الله تعالى على موسى عليه السلام
وذلك في الاصحاح الرابع من سفر الخروج ونصه :

" فقال موسى للرب استمع ايها السيد ، لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس
ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان : فقال له الرب : من صنع للسان
فما أو من يمنع أخرس أو أصم ، أو بصيرا أو أعمى ، أما هو أنا الرب ، قال إن أذعيب وأنا أكون
مع فمك وأعلمك ما تتكلم به فقال استمع ايها السيد أرسل بيدي من ترسل ، فغضب الرب على
موسى وقال اليس هرون الكهني أخاك " .

فهو يصدق عقل أن موسى عليه السلام يطلب اغفاء من الرسالة وهو يعلم أن النبوة أجل
نعمة وأعظم منحة يتفضل الله عز وجل بها على من يشاء من عباده ؟
ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما أوتوا من عقول راجحة يدركون ، وقدرهم اختصاص
الله لهم بالنبوة والاصطفاء - حتى قدره فلا يتصور منهم أن يرفضوا الكرام الله لهم ، ولا يستغني
أحدهم منه ثم انه كيف يكون موسى عليه السلام ثقيل الفم واللسان ومهمة الرسول التبليغ عن الله
والاقتناع به ، فهل يتفق هذا مع ذلك في نظر العقل .

ان الله تعالى وقد اختار موسى عليه السلام للرسالة قد أعدّه اعدادا يتفق ومهمة بالقيام
والاقتناع بها ، ولا يعقل انه وقد أمره ان يأتي القوم النازلين فرعون وقومه يدعوهم ويناقشهم
ويقنعهم ، ان يكون قد كلفه بهذا وهو لا يستطيعه لثقل فمه ولسانه لأن الله أعلم حيث
يضع رسالته .

فالذي يقتنع به العقل السليم اذن : هو ان موسى عليه السلام كان فصيحاً بطاوعه
لسانه وينقاد له بيانه الا ان عمرون عليه السلام كان أكثر منه فصاحة وبيانا ، يدل لهذا
أسلوب القرآن الكريم في قوله تعالى " وأخى عمرون هو أفصح منى لسانا " فافعل التفضيل
بقتضى ان كلاهما كان فصيحاً الا ان عمرون أكثر فصاحة من موسى عليهما السلام .

ثم ان الانبياء عليهم السلام كانوا على يقين من انه كلما تحملوا مشقات في سبيل
الدعوة الى الله وكلما ازدادت أعباء تبليغ الرسالات عليهم ، وكلما بالغ الخصم في اذائهم
وانساجادهم ، كلما تناعوا ثوابهم وارتفعت عند الله منزلتهم .

لهذا فهم لا يستعفون من الرسالة ، لما يصاحبها من مشقات ، وانما يزدادون حرصا
وعزما على ابلغها ولو كلفهم ذلك حياتهم ، ولقد قتل بعضهم في سبيل تبليغ الدعوة - كما
هو معروف - .

وان المناسب للرسول يدرك قيمة اصطفاؤه الله له واختياره داعية الى سبيله يرى ان اخسر
يشبهه في اخلاقه وعباقرة ومع ذلك أفصح منه واقدر على البيان ان يطلب مؤازرته في مهمته
ويشاركه في أمره " وأشركه في أمرى " ، لا ان يطلب اعفاءه من الرسالة اصلا ، وهذا هو
الذي حدث كما أخبر القرآن الكريم .

" وأخى عمرون هو أفصح منى لسانا فارسله معى رد " يصدقنى انى اخاف ان يكذبون " .
ولهذا اجابه ربه الى ما طلب ، وارسل معه عمرون سنداً وجوناً " قال سنشد عندك باخيك " .
ومن عجب ايضا : ان يجعل المهدي القديم السبب في حرمان بنى اسرائيل من دخول الارض
القدسة مع موسى وعمرون عليهما السلام هو : انهما لم يؤمنا بالله حتى يقدماه امام بنى
اسرائيل وذلك في الاصحاح العشرين عن سفر العدد والذي قال :

" فقال الرب لموسى وعمرون من اجل انكما لم تؤمنا بهن حتى تقدماني امام بنى
اسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الارض التي اعطيتهم اباها " .

وهذا مردود من عدة وجوه :

الأول : انه لا يعقل من موسى وعرون عليهما السلام أن لا يؤمننا بالله حتى يقدها أمام بني اسرائيل ، وعما رسولا الله الى فرعون وقومه وبني اسرائيل ليدعواهم الى الايمان والطاعة فكيف يصدر منها - وعما القدوة - عصيان أمر الله .

الثاني : أن موسى وعرون عليهما السلام هما اللذان استنقذا بني اسرائيل من فرعون وقومه وسارا بهم ليدخلوا الارض المقدسة بأمر الله تعالى حتى أن موسى عليه السلام الح عليهم في ذلك قائلا ما حكاه عنه القرآن الكريم " وما قوم أدخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم " فكيف يطلب منهم موسى وعرون ذلك ويخبرانهم أن الله كتب لهم دخولها ، ثم يصدر منهما - بالذات - ما يكون سببا في حرمان بني اسرائيل من دخولها بصحبتهم .

الثالث : أنه اذا كان الحرمان من دخول الارض المقدسة مفوطا بالمصيبة التي اما أن تكون من موسى وعرون واما من جماعة بني اسرائيل فأى التريقين يتصور العقل صدور المصيبة منه ؟ انه دون شك فريق جماعة بني اسرائيل .

الرابع : انه ان صح أن صنيع موسى وهرون هو السبب في حرمان بني اسرائيل من دخول الارض المقدسة فما ذنب هذه الجماعة حتى تحرم من دخول الارض التي أعطاها اياها الله تعالى .

الخامس : أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكن أحد منهم في وقت من الاوقات شوفا علس قومه وسببا لمنع الخير عنهم ، وانزال الضربهم ، بل كانوا دائما ينايغ خير لأقوامهم ، وموانع شر عنهم . وموسى وعرون عليهما السلام كانا سببا تنزل الخير الالهى على بني اسرائيل من الاتجا من فرعون وقومه ، ومن تظليل الضمام عليهم ، ومن انزال المن والسوى اليهم ، وغير ذلك من نعم الله عليهم فكيف يكونا سببا حرمانهم من دخول الارض الممطرة لهم من الله تعالى .

وهذا النص وغيره مما هو على شاكلته اضيف الى العهد القديم قصد الاساقفة الى النبيين الكريمين موسى وعرون عليهما السلام ، ولكن العقول الواعية لا تقع في شركه ولا تتخذ به . وأكثر من هذا جرما وشناعة ما نسبته سفر الخروج الى عرون عليه السلام من الردة الصريحة والعمل على احياء الوثنية في بني اسرائيل وذلك في الاصحاح الثاني والثلاثين منه .

" ولما رأى الشعب أن موسى أبطل في النزول من الجبل اجتمع الشعب على عرون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه فقال لهم عرون : أنزعوا أقراط الذهب التي في آذان نساءكم وبناتكم وأتوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى عرون فاخذ ذلك من ايديهم وصوره

بالأزميل ، وصنعه عجلاً صبوكاً ، فقالوا هذه آلهتنا يا إسرائيل التي أمدتنا
من أرض مصر ، فلما نشر هرون بنى مذبحاً أمامه ونادى هرون وقال ، غدا عيد للرب
فيكروا فسي القد واحمدوا بحسرات و قدموا ذبائح سائمة وجلس الشعب لا تكلموا والشرب
ثم قاموا للمعب .

فهل يصدي عقل عاقل أن هرون عليه السلام - وهو رسول كريم - يرتد بعهد
إيمان ويقعد بعد الإصلاح ؟ كلا .

فان مهمة الرسول الأساسية محاربة عبادة الأنداد والمركاء ، والدعوة إلى
الوحدانية ، وقد تحمل هرون وموسى عليهما السلام أعباء التصدي الدفاعية فهرون
، ومحاربه ، وإبطال همه الإلهية الذي أكدته في قوله - الذي حكاه عنه
القرآن الكريم " يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري " .

ان العجب الذي ينتهي دونه كل عجب هو من نسبة المهدى القديم لهرون أنه صنع
عجلاً لعبده بنو إسرائيل ان الذي يقره العقل سمو أن يكون مانع المجل لبنى إسرائيل
انساناً ليس بنبي كالسامري الذي أخبر القرآن الكريم أنه الذي أشل بنى إسرائيل " قال
فانا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري " بأن صنع لهم من حليهم عجلاً جسداً
وقال : هذا الهكم : " ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم ففدناها فكدلك ألقى السامري -
فاخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فمسي .

ولقد حذرهم هرون عليه السلام من مقبة ما فعلوا ، وبين لهم أن ربهم الرحمن ،
وأن عليهم أن يتبعوه ، ويطيعوا أمره ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم
به وإن ربكم الرحمن فاتبعوه واطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرج عليه هاكفين حتى يرجع
إينا موسى .

ولم يسكت هرون عليه السلام عن نهى بنى إسرائيل عن عبادة المجل ، وبطلانهم
بالمودة إلى عبادة الرحمن الا بعد أن قاربوا أن يقتلوه " ان القوم استضمفونسى
وكادوا يقتلونى " .

فهل بعد هذا يزعم زاعم أن هرون هو الذي صنع المجل لبنى إسرائيل ، ومن زعمه
لا يصدي ولا يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

داود في العهد القديم

من أجل الاعمال واعظها اجرا عند الله الجهاد في سبيله والقتال لاعلاء كلمته والمجاهد الذي يهاج نفسه لله وضى براحته وأمنه من أجل رغبة دينه أننا يستحق في الدنيا بالاضافة الى نصيب الآخرة ان يوفر الامن لاهله والحفاظ على عرضه واما ان يبرز في فرضه او يمتد على شرفه فذلك من السفاهة والدناءة في معاملته والقسوة والظلم في مجازاته واذا اضيف الى هذا ان يكاد للفازي في سبيل الله ليقتل من اجل النظر بأمراته والاستيلاء على زوجته فذلك غاية الخسة والفضالة واذا انضم الى هذا وذلك ان يكون الاعتداء على لحرر المجاهد والكيد لاهلكه من القائد الاعلى للجيش والمسئول الاول عن رعاية الدولة وتصريف شئونها ومن المفروض فيه الحرص على حياة المجاهدين والحفاظ على اعراضهم فذلك مالا يكاد يوصف عنده وانحطاطا

واذا كلن المثل يستطيع ان يتصور انسانا فعل كل هذا لانه استجمع الرذائل كلها وحوى النقائص بأسرها فلا يستطيع ان يتصور ان فاعل كل هذا واحد من المصطفين الاخيار والانبياء المقربين ولهذا فان ماحواة العهد القديم من نسبة مجموعة من خلائق الشر وطائفة من كبريات القبائح الى داود عليه السلام لا يتصوره عقل عاقل مما يجمل من النسفة والمدل وصحة بالكذب والافتراء وما هو نصر ما نسبته العهد القديم من هذا الى داود عليه السلام

جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني :

واما داود فاقام في اورشليم وكان في وقت المساء ان داود قام عن سريرته وتشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فارسل داود وسأل عن المرأة فقالت واحد اليست هذه بنشبع بنت البهام امرأة اوريا الحثي . فارسل داود رسلا واخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت الى بيتها وحملت المرأة فارسلت واخبرت داود وقالت لئسى حبلي . فارسل داود الى بواب يقول ارسل الى اوريا الحثي فارسل بواب اوريا الى داود فأتى اوريا اليه فسأل داود عن سلامة بواب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا انزل الى بيتك واغسل رجلك فخرج اوريا من بيت الملك وجفجت وراءه حصة من عند الملك ونام اوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل الى بيته فاخبروا داود قائلين لم ينزل اوريا الى بيته .

فقال داود لا اوريا الماجث من السفر فلماذا لم تنزل الى بيتك ؟ فقال اوريا لداود ان التابوت واسرائيل
وههنا ساكنون في الخيام وسيدى يواوب وعبيد سيدى فارطون على وجه الصحراء وانا آتى الى بيتى لا اكل
واشرب واضطجع مع امرأتى وحياتك وحياتك نفسك لا افعل هذا الامر فقال داود لا اوريا اقم هنا اليوم ايضا
وفدا اطلقك . فاقام اوريا في اورشليم ذلك اليوم وغده ودعا داود فااكل امامه وشرب واسكره وخرج عند
المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل .

وفي الصباح كتب داود بكتوما الى يواوب وارسله بيد اوريا وكتب في المكتوب يقول : اجملوا اوريا في وجه
الحرب الشديدة وارجموا من ورائه فيضرب ويموت وكان في محاصرة يواوب المدينة انه جعل اوريا في الموضع
الذى علم أن رجال البأس فيه فخرج رجال المدينة وحاربوا يواوب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات
اوريا الحثى ايضا . . .

ثم يقول الاصحاح نفسه " فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات اوريا رجلها ندمت بحملها ولما مضت المناحة
ارسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولد تله ابنا واما الامرانذ فعمله داود ففصح في عيني الرب
ففي هذه القصة نسبة عدة ذنوب الى داود وهى :

١ - النظر الى امرأة غيرة ظهيرة

٢ - حسد زوجها عليها

٣ - الزنا بها

٤ - سقى زوجها خمرًا حتى اسكره

٥ - التعيب في قتله وقتل بعض الشعب معه .

وهذه الذنوب يابى الانسان العادى ان يرتكب بعضها فما بالك بها جميعا ومن نبي اصطفاه ريسه
واختاره ليصلح به النفس ويقوم المصح فهل يكون هو افسد النفسدين ؟ ان هذا غير محقول والمعجب
ايضا هو نوع العقاب الذى يقاب به الرب في زعمهم داود عليه السلام ان كان تسليط ابن داود ابشالوم
على نساء ابيه يزنى بهن ويتهتك اعراضهن علانية وامام جميع بنى اسرائيل ففي الاصحاح الثانى عشر
من سفر صموئيل الثانى ما نصه :

هكذا قال الرب - ها انذا اقيم عليك الشر من بيتك واخذ نساءك امام عينيك واعطيهم لقرينك فيضطجع
منهن ساكن في عين هذه الشمس لانك انت فعلت بالسر وانا افعل

هذا الامر قدام جميع اسرائيل وقد ام الشمس *

ومن حقا بعد ان نقرأ هذا في العهد القديم ان نسال المؤمنين به ما مقومة الزاني عندكم ؟ اليس هو الرجم (ومن زنى بامرأة صاحبه او زنى بامرأة لها رجل فليقتل الزاني والزانية) ولماذا لم ينفذ هذا الحد فيه ؟ ان الشرائع لا تفرق في احكامها وتقوياتها بين حاكم ومحكوم ولا بين امير وحقير فقد ورد عن نبينا على الله عليه وسلم واهم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها *
ثم ما ذنب البريثيات زوجات داود حتى يكن موضع الانتقام ويسلط ابن داود عليهن يهتك اعراضهن ؟ لا ذنب لمن حتى يجرى عليهن هذا المقاب

ثم متى عهد في الشرائع المعاقبة على الفاحشة بفاحشة افظع منها ؟ ما سمعنا بهذا في شريعة من الشرائع قال الاستاذ عبد الرحمن الجزيري تعليقا على هذا النص : هل من العدل الالهى ان ينتقم الله من الابرياء فيسلط ابشالوم على السرارى اللاتي لا ذنب لهن فيهتك اعراضهم

وهل من المعقول ان يجمل الله الحد الذي وضع الزجر الجاني جريمة اخرى يعاقب عليها فاعلها وهل يتصور مخلوق ان الله تعالى الذي يكره الفاحشة يسقط ابشالوم لياتي هذه الفاحشة بصورة من افظع الصور وهي ارتكابها من نساء ابييه

ان التوراة التي يعمل بها داود تجعل حد الزنا القتل فلماذا اهمله الله تعالى مع داود واستبدله بنفس الفاحشة التي تستوجب القتل (١)

سليمان في العهد القديم

سليمان عليه السلام هو صاحب الاسفار الثلاثة : الامثال والجامعة ونشهد الانشاد وهي حافلة بآداب ونصائح لا تعدر الا من الانبياء ولذا عدوها جزءا من التوراة وفي الاصحاح الاول من سفر الملوك الاول :
هكذا يقول الرب اله سيدى الملك (داود) كما كان الرب مع سيدى الملك كذلك ليكن مع سليمان ويجعل كرسيه اعظم من كرسى سيدى الملك داود *

وفيه ايضا : وايضا قد جلس سليمان على كرسى الملكة وايضا جاء عبيد الملك

ليباركوا سيدنا الملك داود قائلين : يجمل الهك اسم سليمان احسن من اسمك وكرسيه اعظم من
كرسيك فسجد الملك على سريره وايضا هكذا قال الملك تبارك الرب اله اسرائيل الذي اعطاني اليوم
من يجلس على كرسيي وعياني تبصرون *

فرضا داود وسجوده لربه شكرا على ان جعل اسم سليمان احسن من اسمه او كرسيه اعظم من كرسيه
يفيد ان سليمان نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام

كذلك ذكر سفر الملوك الاول ان الرب تبارك اله لسليمان عليه السلام مرتين ففي الاصحاح التاسع منه :
وكان لما اكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذي سران يعمل ان الرب تبارك
له سليمان ثانية كما تبارك اله في جبعون وقال له الرب قد سمعت صلواتك وتضرعتك الذي تضرعت به امامي *
وهو يفيد ان الصلة التي بين سليمان وربه من نوع الصلة التي بين الانبياء وبين الله عز وجل وان الله
قال لسليمان سمعت صلواتك وتضرعتك اليس هذا وحيا من الله لسليمان فيكون نبيا ثم نرى اصحاب العهد
القديم يسجلون على سليمان عليه السلام انه اقر نساءه على عبادة الهتهن في بيته ان سكوت سليمان عن
هذا الصنيع في بيته من قبيل الاشراك بالله ففي الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الاول :

واحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موابيات وعمو بيات واورببات وصيدونيات وحثيات من
الامم الذين قال عنهم الرب لهي اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لانهم يميلون قلوبكم
وراء الهتهن فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري
فامالت نسلوه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه املن قلبه وراء الهة اخرى ولم يكن قلبه
كاملا مع الرب الهة كقلب داود ابيه فذهب سليمان وراء عشورث الهة السيد ونهين وملكوم وجسس
العمونيين وعمل سليمان الشرقي عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود ابيه *

حينئذ بنى سليمان وكرثعه لكموش رجس السوابيين على الجبل الذي تجاه اورشليم ولمولك رجس الى عمون
وتكذا فعل لجميع نساءه الضربيات اللواتي كن يوثدن ويذبحن لالهتهن فغضب الرب على سليمان لان
قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذي تبارك اله له مرتين وواعاه في هذا الامران لا يتبع الهة اخرى فلم
يحفظ ما وصى به الرب *

فهذا النص يصرح بأن نساء سليمان املن قلبه وراء آهة اخرى فكيف تأسر الشهوة وحب النساء قلب نبي الله سليمان الى حد ان يسترضى نساءه بالميل الى آهتهن؟ ان هذا مرفوض من المقل العليم كل الرفض وايضا فانا نجد موضعاً آخر من سفر الملوك الاول : هو الاصحاح الثامن : يتره فيه سليمان به عن ان يكون له مثيل في السماء او في الارض فيقول :

ووقف سليمان امام مذبح الرب تجاه كل جماعة اسرائيل وسط يديه الى السماء وقال : ايها الرب اله اسرائيل ليس اله مثلك في السماء من فوق ولا على الارض من اسفل حافظ العهد والرحمة لمبيدك السائرين امامك بكل قلوبهم *

ثم كيف يكون تحت سليمان الف امرأة لهن جميعا حق الاعفاف وشباع غرائزهن الجنسية فهل يطيق سليمان عليه السلام الوفاء بحاجات نساءه الالف من هذه الناحية؟

ثم من اين له الوقت الكافي لتلبية رغباتهن جميعا وهو نبي يحتم عليه مكانه من الله ومسئوليته تجاه الشرع المكلف به ان يتسرف في وقتا ليس بالقليل فيما كلف به وتحمل امانته كما انه كملك وحاكم شعب يقتضى هذا منه ان يفصل في قضاياهم ويدير شئونهم على الوجه الامثل وان يوجه الجيوش ويراقب سير الممارك في سبيل الله وهذا وغيره يأخذ من وقته الكثير فماذا يبقى عنده من الوقت لنساءه الالف وكل منهن لها حق لا يصح التحلل منه او الاخلال به والا كان ظالما مشيما لحقوق من تجب رعاية حقوقه عليه وحاشا بنبي الله ان يكون هذا شأنه وحاله في اهله وغير اهله *

اذن فما تضمنه هذا النص غير صحيح وانما هو باطل من اساسه

قال صاحب ادلة اليقين : بعد ان ساق هذا النص من التوراة في كتابه :

ويظهر من التوراة ان سليمان لم يكن له عمل ما سوى التشيب في النساء والتمشق فيهن ولذا جمع منهن جيشا عظيما وما ظنك بالامرأة من جهات مختلفة تجتمع تحت رجل واحد كزوجات له فانه اذا لم يسطأ كل يوم امرأة فانه لا يمكنه ان يمشقهن حتما ومن يفعل ذلك فماذا عسى ان يقوم به من اعمال الملك والنبوة والنظر في مصالح الشعب وغير ذلك * (١)

عيسى من العهد الجديد

أنزل انجيل لوقا عيسى عليه السلام في منازل مخجلة ، ووضع في مواضع التهمة حيث صوره محبا للخطاة ، وفضلا للخطائين والخطايات على من ليسوا كذلك وصوره غفورا للخطايا متساويا مع مرتكبها الى الحد الذي يشجع عليها ، ويحصر على الاكثر منها في الامحاح السابع من انجيل لوقا :

لأنه جنس يوحنا المعدان لا يأكل ولا يشرب خمرًا فتقولون : به شيطان - جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فتقولون : هوذا انسان آكل ويشرب خمر ، محب للمساكين والخطاة ، والحكمة تبررت من جميع بينهما .

وسأله واحد من الفريسيين أن يأكل معه فدخل بيت الفريسي وانكأ ، وإذا امرأة قسي المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكئ في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من وراءه باكية وأبتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب ، فلما رأى الرئيس الذي دعاه ذلك تكلم في نفسه قائلاً لو كان هذا نبيا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هي : انها خاطئة فاجاب يسوع وقال له يا سمعان عندي شيء أقوله لك ، فقال : قل يا معلم كان لمدائين مديونان على الواحد خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون ، وإن لم يكن لهما ما يوفيان سامحتهما جميعا فقل : ايهما يكون أكثر حباله ؟ فاجاب سمعان وقال : أظن الذي سامحه بالأكثر فقال له ، بالصواب حكمت ثم التفت الى المرأة وقال لسمعان أنتظر هذه المرأة ، اني دخلت بيتك واء لاجل رجلى لم تمسح رأسي ، فقد غسلت رجلى بالدموع ومسحتها بشعر رأسها قبلت رجلى ، واما عيسى فممنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلى ، بزيت لم تدعن رأسي واما هي فقد دعفت بالطيب رجلى ومن أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيرا ، والذي يفر له قليل يجب قليلا ثم قال لها مغفورة لك خطاياك .

هذا هو النص : ولو تجاوزنا عما فيه من سماحه لها بغسل رجليه بالدموع ومسحها بشعر رأسها وتقبيلها ، ودهنهما بالطيب ، فلن نستطيع أن نتجاوز عما تضمنه من دلالة على أن صاحب الجرائم الكثيرة أكثر حيا لربه الفنون من صاحب الجرائم القليلة ، وما يستلزمه من أن صاحب

الجرائم الثقيلة أكثر حيا لربه من الذى لم يجرم أصلا .

لأن الذى يحب انسانا لا يخالفه ، والذى يحب ربه لا يعصاه ، ولو صدق مدعو

محبة الله ما خالفوه فى أمر أو نهى اذ المحبة الصادقة تقتضى الطاعة المطلقة .

وفى انجيل لوقا ايضا الاصحاح الثامن منه أن عيسى عليه السلام كان يسبح فى الجهات

يبشر بملكوت الله هو وتلاميذه . ومنهم نساء كن قد شفين من ارواح شريرة وأمرانه فى قوله :

وعلى اثر ذلك كان يسير فى مدينة وقرية يكرز ويبشر بملكوت الله وبعده الاثنا عشر . وحضر

النساء كن قد شفين من ارواح شريرة وأمرانه . مريم التى تدعى المجدلية التى خرج منها سبعة

شياطين ، وبيونا امرأة خوزى وكيل غيرودرس وسوسنة واخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن .

فهناك يمشى أن يبشر عيسى عليه السلام بملكوت ربه فى موكب يختلط فيه رجال ونساء بالليل

والنهار ، والحل والترحال ، وفى احيان كثيرة من سياحتهم هذه يحتسون كئوس الخمر فيقتل

توازنهم ، وتحتاج غرائزهم .

ان هذه عجائب لا يصدقها الا خيال مريض أو فكر عقيم يحتوى عنده الحق والبهراء والصدق

والافتراء ، اما العقول النيرة ، والالهاب البصيرة والافكار المستقيمة فانها تنكر الخبيث من القرب

وتستمتعك بالطيب منه .

ولقد اشتمل العهد القديم على باطل كثير وكذب وزور فى حق انبياء الله الكرام ورسوله

الحظام الذين صنعهم الله على عينه ، واختارهم من بين خلقه ليكونوا الامناء على دينه والحراس

على شرائعه باخلاص لهم مثالية ، وافعال مرضية ، وهذا ما نؤمن به كل الايمان وندافع عنه بكل

ما اوتينا من بيان .

اما العهد الجديد فهو يعظم الانبياء يهتفى عليهم ولم يذكرهم بسوء ، ولكننا نجد المبشرين

يوافقون العهد القديم فى الاستهانة بقدر انبياء الله عليهم السلام وفى نسبة الكباثر والاثام اليهم

والسبب فى ذلك أن يبرروا القول بأنه لا مخلص للبشرية من خطيئة ابيهم آدم الا المصوم من

الاثام وهو عيسى وحده ذلك : أن الخطيئة التى اقترفها آدم وهى أكله من الشجرة التى نهاه الله

عنها لم تغفر له ، بل بقيت ، ثم سرت مند الى ذريته بطريق الوراثة ولم ينج منها الا يسوع وحده

والبشرية . فتقرة الى شفيع أو مخلص يرفع عنها الخطيئة لكن يتقدسوا ويفوزوا بالحياة الابدية ، وليس

من الانبياء مصوم من الذنوب يصلح لهبة الخلاص والشفاعة ، فتتوقف مسألة الخلاص على يسوع

وينحصر الرجاء فيه ، لأنه هو وحده المصوم من الاثام (١) .

(١) من مقال للاستاذ محى الدين سعيد البهدادى بجلة " الاسلام العدد / ٢٩ لسنة الرابعة

وتقول في الرد على هذه الفرية :

أولا : انا نسلم بأن آدم عليه السلام أخطأ ، ولكن لا نسلم بأن خطيئته بقيت لم تفسر فان الله عز وجل قبل توبة آدم منها " فخلق آدم من ريع كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم " ، وما ان آدم قد تاب وقبل الله توبته وفقر له خطيئته فقد بطل الاساس الذي أنبتت عليه هذه الفرية .

ثانيا : أن خطيئة أي انسان يتحملها صاحبها وحده ، ولا يشاركه في تحملها أحد غيره ، وبهذا يقضى عقل العقلاء وشرع المادل الحكيم " ولا تنزروا وزر أخرى " فالقول بأن خطيئة آدم سرت منه الى ذريته بطريق العرواثة قول مرفوض عقلا وشرعا ، اذا ما ذنب أبناء آدم وذريته حتى تسرى اليهم خطيئته أرتكبها أبوعم .

ثالثا : على تسليم قولهم بأن الخطيئة سرت من آدم الى ذريته جدلا ، لا نسلم لهم أنه لم ينح منها الا عيسى وحده ، لأن المسيح من أبناء آدم فان كانت خطيئته قد بقيت فالمسيح ملوث بها شأن غيره من أبناء آدم ، حيث هو مولود من مريم ، وتتكون في رحمها من دمها وثابت أنه انسان وكان يقول عن نفسه : انا ابن الانسان وعلى هذا فقد بطل القول : أن المسيح وحده معصوم من الخطيئة التي أرتكبها آدم .

رابعاً : لا نسلم القول : أنه ليس من الانبياء معصوم من الذنوب يصلح لهمة الخلاص والشفاعة لأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جميعها معصومون من الذنوب .

وأما ما ينسب اليهم من ذنوب وآثام في العهد القديم فقد ردناه بالادلة العقلية ، وبهذا أثبتنا أن النصوص التي ذكرت فيه - بهذا الشأن - مختلفة موضوعة لحاجة في نفوس واضعها وأما ما يتوهم من ظهور بعض آيات القرآن الكريم من وقوع مخالقات من بعض الانبياء ، فعند التأمل واعمال الفكر يتبين أنه لم يرتكب أحد من الانبياء معصية ، وانما هي أمور من قبيل ترك الاولى ، والخطأ في الاجتهاد ، ولا ضير في مخالفة تقع على وجه منها - كما سيأتى بيانه في الباب الرابع - .

خامساً : لنا تمقيب على قولهم ان مسألة الخلاص متوقفة على المسيح ، فانه المعصوم وحده هو : انا توهم بأن المسيح معصوم ولكن ليس وحده وانما يشاركه في المعصية جميع انبياء الله تعالى ، غذا من جهة ، ومن جهة أخرى : أن بعض الاناجيل التي يؤمنون بها تصم المسيح ببعض الذنوب كانبجيل " لوقا " كما مر آنفاً ، وعلى تمازج مدعايم ، علينا بأننا نقطع بأقتراءها على الله وعلى نبيه عيسى وبأن عيسى معصوم من الذنوب لكن نقول غذا لنبيين تناقض هو " لا البشرية مع الاناجيل التي يؤمنون بها .

الباب الرابع

دفع شبهات حول الانبياء

تمهيد :

سبق القول في الباب الاول : في عسمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن المعاصي : الكبائر والصغائر الخمسة عمدا وفي الخلاف في عصمتهم عنها سهوا او خطأ في التأويل وفي عصمتهم عن الصغائر الغير خسية على خلاف فهمها على ثلاثة اقوال

واخفرت عصمتهم عن الكبائر والصغائر الخسية عمدا وسهوا وخطأ في التأويل وعن الصغائر الغير خسية عمدا وجوازها عليهم سهوا او خطأ في التأويل

وقبل الدخول في توجيه الايات التي توهم البعد عن ظاهرها وقوع معاصي من بعد الانبياء رأيت ان اسهد لذلك بكلمة موجزة عن

اجتهاد الانبياء

جوازه ووقوعه والخالف في ذلك وادلة كل والراجع في ذلك حتى اذا واجهتنا وقائع لبعض الانبياء قيل في توجيهها انها من باب الخطأ في الاجتهاد كان هذا صيوفا بصرفة حكم الاجتهاد الانبياء والخطأ فيه وهن هو قادح في عصمتهم او غير قادح

تصريحا لاجتهاد

الاجتهاد في اللغة : بذل الجهد في تحصيل ما فيه كلفة ومشقة والجهد : بفتح الجيم وضحا الطاقة وان الوسع والاجتهاد في اصطلاح الفقهاء هو : بذل الوسع في تحصيل الاحكام الشرعية العملية الظنية من ادلتها التفصيلية (١)

والاجتهاد اعم من القياس فانه يتناول بذل الوسع في معرفة المراد من التنصيص الشرعية والمراد بالاجتهاد في حق الرسول هو خصوص القياس اما معرفة المراد من التنصيص الشرعية فهو واضح للرسول ولذا لاجتهاد له فيه

والقياس في اللغة : هو التقدير والمساواة يقال : قاس الثوب بالذراع ان قدره به وقاس كذا على كذا اذا ساواه به

والقياس في الاصطلاح عرفه القاضى البيضاوى بأنه : اثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشترائكهما في علة الحكم عند المثبت (٢)

والمعنى الاجمالي للتعريف هو : ان القياس الاساسي هو : ادراك المجتهد اى القاضى ثبوت حكم الاصل في الفرع المشارك للأصل في علة الحكم بحسب نظره واعتقاده كقولهم : النبلذ مسكر فهو حرام كالخمر بجاءع الاسكار في كل غسما

واركان القياس اربعة : الفرع والأصل وحكم الاصل والملة المشتركة بين الاصل والفرع

(١) مختصر صفوة البيان في شرح " منهاج الوصول الى علم الاسول للشيخ بين سويلم طه ج ٣ ص ٨٩

(٢) منهاج الوصول الى علم الاسول ج ٣ ص ٣

وقد اختلف في جواز الاجتهاد للنبي على مذاهب

الاول : مذهب الجمهور وهو جواز الاجتهاد له وانما كان متمسدا به فيما لم ينزل فيه وحى ويستدل عليه بهذه الادلة

الاول : قوله تعالى " فاعتبروا يا اولي الابصار " فانه امر عام لاولي الابصار بالقياس وقد كان صلى الله عليه وسلم اكمل الناس بصيرة وعقلا فيكون مأثورا به

الثاني : ان النبي صلى الله عليه وسلم اذا علم ان حلة الحكم المنصور عليه موجودة في محل آخر رجع عنده ان حكمه كحكم محل النص والمحل بالراجع واجب اتفاقا

الثالث : ان الاجتهاد فضيلة لما فيه من المشقة وكمال التفكير والدلالة على الفطنة وكثرة الثواب فليجوز خلو النبي منها لانه جاء لانواع الفضائل

المذهب الثاني : عدم جواز الاجتهاد للنبي

وهو لابي علي الجبائي وابنه ابي هاشم وابن حزم واستدلوا عليه بهذه الادلة

الاول : قوله تعالى " وما ينطق عن الهوى " فانه نفى عن الرسول ان يقول قولا صادرا عن الهوى اى عن غير الوحي والقول بالاجتهاد قول بتغير الوحي فيكون نفيًا عنه

الثاني : انه صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الوحي في بعض ما يحدث من الوقائع وفي بعض ما يرجع اليه من اسئلة فلو جاز له الاجتهاد لما انتظر الوحي ليهن له حكم الواقعة او ليجيب له عن الاسئلة (١)

الثالث : ان مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تجوز ولو جاز له الاجتهاد لجازت مخالفته لانه يجوز مخالفة الاجتهاد

وقد اضاء النيسابوري الى هذه الادلة دليلا آخر

هو : انه لو جاز على النبي لجاز على جبريل ايضا وحينئذ يرتفع الامان عن الوحي فرما كانت هذه الشرائع من مجتهدات جبريل (٢)

ومذهب الجمهور هو الراجح لقوة ادلتهم اما ادلة الفريق الاخر فهي مناقشة ويردود عليها

على الاول : : بأن الآية رد لما كانوا يقولونه في القرآن من انه افتراء فتكون خاصة بالقرآن

قال الالوس : والظاهر ان الآية وارادة في امر التزويل بخصوصه وان كان مثله الاحاديث القدسية (٣)

ولو سلم عموم الآية فالاجتهاد وحى لانه مأثور به فلم يكن السمل به نطقا عن الهوى

قال الالوس : ان اللتعالى اذا صوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يمسند اليه

(١) مختصر صفوة البيان في شرح منهاج الوصول ج ٣ ص ٨٩ - ٩٠

(٢) غرائب القرآن ج ١٧ ص ٢٨

(٣) روح المعاني ج ٨ ص ٢٥٠

وحيا لا نطقا عن الهوى

ثم حكى اعتراضا على هذا واجاب عنه فقال :

واعترض عليه /بانه يلزم ان تكون الاحكام التي يعتبرها المجتهدون بالقياس وحيا

واجيب بأن النبي صلى الله عليه وسلم اوحى اليه ان يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين (١)

وعلى الثاني بان انتظار الرسول صلى الله عليه وسلم كان للتأكد من عدم تزوير النص

او لانه لم يجد في المنصوص عليهما لا يقين عليه

وقبل ان نرد على الثالث : نذكر اختلاف الأصوليين في الخطأ من الرسول فيما اجتهد فيه هل يجوز

وقوع الخطأ منه او لا يجوز ؟

ذهب بعض الأصوليين الى جوازه لكن لا يقره الله على خطئه بل ينبهه اليه

وذهب فريق آخر منهم الى عدم وقوع الخطأ في اجتهاد الرسول (٢)

واستدل هذا الفريق بأننا مأمورون باتباع الرسول فلولا اخطأ في اجتهاده لوجب علينا اتباعه ولزم الامر

باتباع الخطأ وهو باطل (٣)

وبناء على هذا يرد على الدليل الثالث للقاتلين بعدم جواز اجتهاد الرسول

على مذهب سني اجاز خطأ الرسول في اجتهاده بأن الله يقرب نبيه على خطئه وبالتالي فمخالفته غير جائزة

وعلى مذهب من لا يجوز عليه الخطأ في الاجتهاد لا يجوز مخالفته من بابا وليسى

وعلى الدليل الذي اضافة النيسابورى بان الامة اجتمعت على عدم جواز اجتهاد جبريل (٤) وقول

الرسول في بعض الاحيان " لا ادري بالاصح مستند للقاتلين بعدم جواز الاجتهاد له لانه قاله

لعدم ظهور القياس له ويؤيد مذهب الجمهور بالانهاضة الى ما سبق وقائع حدثت واجتهد فيها الرسول صلى

الله عليه وسلم سجد القرآن الكريم بعضها وعاتب اللعمالي نبيه صلى الله عليه وسلم على الخطأ فيها

والتوقوا اقوى ادلة الجواز كما يقولون ثم ان عتاب الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعد الاجتهاد فيها

يرجح بجواز خطأ الرسول في اجتهاده ان لو لم يخطئ فيها لما عاتبه ومن هذا ما لوقائع

١ - اذن الرسول للمتخلفين عن غزوة تبوك

فقد اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لقوم من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك لما اعتذروا وتملأوا باكاذيب

فنزل قول الله تعالى

" عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتحلم الكاذبين " (٥)

عتابا للنبي صلى الله عليه وسلم على اذنه لهم قيل ان يتبين له صدقهم في اعتذارهم او كذبهم فيه والعتاب

(٢) مختصر صفوة البيان ج ٣ ص ٩٠

(٤) غرائب القرآن للنيلسبوري ج ١٧ ص ٣٨

(١) روح المعاني ج ٨ ص ٢٥٠

(٢) نسيم الرياض للشهاب الخفاجي ج ٤ ص ٥٧

(٥) سورة التوبة الآية ٤٣

لا يكون فيما فيه وحى فسلم انه فعله بالاجتهاد ولا يكون المتاب ايضا على الاسباب في الاجتهاد فسلم انه
اخطأ فيه

٢ - اخذ الفداء من اسرى بدر

فقد اسر المسلمون في غزوة بدر عددًا من اعدائهم واستشار الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم اصحابه فاشار
ابوبكر رضي الله عنه باخذ الفداء منهم واشار عمر رضي الله عنهم بقتلهم فبان الرسول الى رأى ابي بكر
فانزل الله تعالى قوله

" ما كان لنبى ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز
حكيم - لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم (١)"

عتابا للنبى صلى الله عليه وسلم على اخذ الفداء من الاسرى مما يدن على وقوع الاجتهاد والخطأ فيه (٢)
ومن لم يجوز على الرسول الخطأ في الاجتهاد قال عن اخذ الفداء من اسرى بدر وعن الاذن للمتخلفين
عن تبوك انه خلاف الاولى وان المتاب فيهما لمخالفة الاولى

على ان نجد فريقا اخر يذهب الى جواز الاجتهاد في الاسرى والحروب خاصة ومنعه في غيرهما (٣)
وهذا المذهب الاخير ضعيف

لما رواه ابوداود عن ام سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم اتاه رجال من يثرب يفتنهم في مواريث واشياء قد درست
فقال لهما " انى انما اقضى بينكم برأى فيما لم ينزل على فيه شئ "

فهو صريح في وقوع الاجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم في غير الاسرى والحروب

كما يبدو في مرجوحية القول بعدم وقوع الخطأ من الرسول في اجتهاده وعد " اخذ الفداء من اسرى بدر "
والاذن للمتخلفين عن تبوك " من باب مخالفة الاولى

لان مخالفة الاولى انما تكون فيما له جهتان متقابلتان احدهما صواب والاخرى اصوب وانفع ومسألة اسرى
بدر ومسألة المتخلفين عن تبوك احدى الجهتين فيهما صواب وهى القفل في الاولى وعدم الاذن نفسى
الثانية والاخرى خطأ وهى اخذ الفداء في الاولى والاذن في الثانية فهناك فرق بين مخالفة الاولى والخطأ
في الاجتهاد

وبهذا ترجح عندي المذهب القائل بجواز اجتهاد الرسول وانه وقع وان الرسول اخطأ في بعض اجتهاداته
حتى لا يخرج الناس عن حدود البشرية وهذا لا يقدر في عصمة الرسول لان الله لا يقره عليه بل يتبهمه
اليه وقد عاتبه على ما اخطأ فيه وبهذا يحصل الامن من اتباعه فيما اخطأ فيه وما ثبت في حق نبى يثبت في
حق سائر الانبياء اذ لا فرق

(٣) نسيم الرياض وشرح الشفا لعلى القارى

(١) سورة الانفال الآيات ٦٧ - ٦٨

ج ٤ ص ٥٨

(٢) اسون الفقة للشيخ محمد عبد الله ابوالنجا ص ١٥٤

الفصل الأول

الشبهات الواردة على آدم

الشبهة الأولى :

تسبك الخائفون على آدم عليه السلام في أفعاله بقول الله تعالى " وقل يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين - فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ما كانا فيه وقلنا أبعثوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم (١) " .
 ويقول تعالى " ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين - فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سراتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين - وقاسمهما انسى لكما ليسن الناصحين - فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سراتهما وظنفا يخصفا عليها من ورق الجنة وتادا عما ربهما ألم أنهبكما عن تلكا الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين - قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تتفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " (٢) .
 ويقول تعالى " فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى - فأكل منها فهدت لهما سراتهما وظنفا يخصفا عليها من ورق الجنة وهى آدم ربه فنوى - ثم اجتبا ربه فتاب عليه وهدى " (٣) .

وان تسبكم في وقوع الذنب من آدم بهذه الوجوه :

الأول : أن آدم عليه السلام قد وثقت منه المحصية كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله " وهى آدم ربه فنوى " التى هى ارتكاب المنهى عنه في قوله تعالى " ولا تقربا هذه الشجرة " وارتكاب المنهى عنه معصية .

الثانى : أنه كان منه الشئ بقوله تعالى " فنوى " والنهى : ضد الرشده لقوله تعالى " قد تبين الرشده من النهى " فالمتصف بالنهى يكون صاحب ذنب .

الثالث : أنه تاب بما فعل لقوله تعالى " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه " وتاب الله عليه لقوله تعالى " ثم اجتبا ربه فتاب عليه وهدى " والثائب مذنب ، لأنه التادم على فعل الذنب والتادم على فعل الذنب ، مخبر عن كونه ذاعلا للذنب ، فان كذب في ذلك الاخبار فهو مذنب بالكذب ، وان صدق فيه فهو المطلوب ، فعلى كلا التقين لا يخلو من الذنب .

الرابع : أنه ارتكب المنهى عنه في قوله تعالى " ألم أنهبكما عن تلكا الشجرة " وهى قولسسته تعالى أيها " ولا تقربا هذه الشجرة " وارتكاب المنهى عنه ذنب .

(١) سورة البقرة الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة الاعراف الآيات ١٩ - ٢٣

(٣) سورة طه الآيات ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

الخامس : أن الله تعالى ساء ظالما في قوله " فتكونا من الظالمين " وأدم عليه السلام
 قد سى نفسه ظالما في قوله " ربنا ظلمنا أنفسنا " والظالم ملعون لقوله تعالى " ألا لعنة
 الله على الظالمين " ومن استحق اللعن كان صاحب كبيرة .
 السادس : أنه أعتزها به لولا مغفرة الله ورحمته لكان خاسرا في قوله تعالى " وإن لم تنفروا
 لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " وذلك يقتضى كونه صاحب معصية .
 السابع : أنه أخرج من الجنة بسبب فعلته القربة على طاعة للشيطان لقوله تعالى " فأزلهما
 الشيطان ففينا فأخرجهما مما كانا فيه " ومجازاة آدم عليه السلام بهذا إنما كان لأرتكابه الذنب

الجواب عن هذه الشبهة

يلزمنا في الإجابة عن هذه الشبهة أن نحدد نوع هذه المعصية أعي كبيرة أم صغيرة وأن
 تصرف أثرنا على عصاة آدم سواء على القول بأنها وقعت قبل النبوته أو على القول بوقوعها بعد
 النبوته وإلى أنها بعد النبوته هل كانت مخالفة لله فيها مقصودة أم غير مقصودة ؟
 أما عن نوعها
 فأقول : أنها صغيرة إذ لا يتطابق عليها حد الكبيرة . فالكبيرة كما روى عن ابن عباس كل
 ذنب ختمه الله بنار . أو قضب أو هذاب أو لحة - (١) والصغيرة ما عدا الكبيرة .
 وهذه المعصية لم يتعهد الله تعالى عليها آدم بشئ من ذلك ، فهي إذن صغيرة .
 وأما الاستدلال على أنها كبيرة : بأن الله تعالى ساء ظالما في قوله " ولا تقرها هذه الهجرة
 فتكونا من الظالمين " والظالم ملعون لقوله تعالى " ألا لعنة الله على الظالمين " فمعصية
 آدم استحق عليها اللعنة فهي كبيرة .
 مردود : بأن الظالم الملعون أصحابه في قوله تعالى " ألا لعنة الله على الظالمين " .
 هو ظلم الكفار والمنافقين ، الذين وضوا العباد في غير موضعها ، وجعلوا لله شركاء عبدوه
 وصدوا غيرهم عن الإيمان والطاعة ، ووجدوا بالآخرة وكذبوا بوقوعها ، يدل لهذا صدر هذه
 الآية وما بعد ما قال تعالى " ومن أظلم ممن أفتري على الله كذبا أولئك يحرصون على
 ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين .
 الذين يمدون عن سبيل الله ويخونونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون (٢) .
 وأما عن وقت وقوعها فكان قبل الهجرة أم بعدها ؟ فقد أتت في تفسيره على التولسين .

(١) سبق ذكره في ص ٧٧

(٢) سورة عبود الآيات ١٨ وما بعدها

ذهب فريق من العلماء ^{الى} أن أكل آدم من الشجرة كان قبل نوحه وأستندوا الى :

أولا : أنه لم يكن له أمة في الجنة ، والنبي لا يه له من أمة *
ثانيا : سياق الآيات في سورة طه حيث ذكرت معصية آدم ثم ذكر الاجتهاد * وهي آدم ربه
فغوى ، ثم اجتهاد ربه فتاب عليه وهدى * والظاهر من الاجتهاد أنه بالتبصرة
فهذا يدل على أن الأكل من الشجرة كان قبل النبوته *

قال صاحب المواقف ومشارحه : كيف يه عن أنه في الجنة ولا أمة له هناك كان نبيا مبعوثا
لتبليغ الأحكام ؟ وهل كان الاجتهاد بالنبوته الا بعد تلك القصة ؟ كما يدل عليه قوله
تعالى * فغوى ثم اجتهاد ربه فتاب عليه * فان كلمة ثم للتراخي والسهولة فهذه القصة كانت
قبل النبوته (١) وذهب فريق آخر من العلماء الى أن آدم وقت الأكل من الشجرة كان نبيا
ودليلهم :

أه أمرني قوله تعالى * يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما * ونهى

في قوله تعالى * ولا تقربا هذه الشجرة ولم يكن في زمته نبي آخر * فهذا يستلزم نبوته *

قال التفازاني : أما نبوة آدم عليه السلام في الكتاب الدال على أنه قد أمر ونهى مع القطع

بأنه لم يكن في زمته نبي آخر * فهو بالوحى لا غير * وكذا بالنسبة والاجتماع (٢) *

وأعترض عليه أصحاب المذهب الاول : بأن الأمر والنهى بلا واسطة لا يستلزم النبوته *

١- اما لجواز أن يقتصر على نفسه * ولا يكونا للتبليغ * والنبي انما يبعثه الله لتبليغ الأحكام

قال المصام - معقبا على كلام التفازاني السابق : وفيه بحث * لان النبي عرف بأنه اديان

بعثه الله لتبليغ الأحكام فالامر والنهى بلا واسطة لا يستلزم النبوته لجواز أن يقتصر على نفسه

ولا يكونا للتبليغ (٣) *

يرد على قول المصام : بأن أمر آدم يستلزم النبوته * لانه بلا واسطة ولأجل التبليغ

قال الخيالي : والحق أن الأمر بلا واسطة انما يستلزم النبوته اذا كان لأجل التبليغ * وأمر آدم

كذلك (٤)

٢- واما لأن الأمر والنهى كانا في الجنة * ولا أمة له هناك * والنبي لا يه له من أمة :

قاله صاحب المواقف - ويرد عليه : بأن حواء في الجنة أخته *

قال الخيالي : نعم يراد أن يقال : لم لا تكفي حواء أمة له في الجنة ؟ *

٣- واما لأن مريم قد أمرت بلا واسطة نبي بقوله تعالى * وعزى اليك بهجذع العجلة * وكذلك

١٤٣

(١) شرح المواقف للسيد الجرجاني المقصد الخامس

١٣٤

(٢) شرح التفازاني على العقائد النفسية

١٣٤

(٣) شرح المصام على شرح التفازاني

١٣٥

(٤) حاشية الخيالي على شرح التفازاني

أم موسى بقوله تعالى " اذنيه في الثابت " وعما ليستا من الانبياء
 ويرد عليه : بأن نبي النبوة منهما * لأن المرأة لا تكون نبية .
 قال العمام : وقد يمنع دلالة الامر والنهي ولا واسطة نبي على النبوة بأمر عريم * وبأمر أم موسى
 - في الآيتين السابقتين - ويمكن ونحوه : بأن الظاهر هو النبوة * ونفي النبوة عنهما * لما
 تقرر أن المرأة لا تكون نبية فلم كانا رجلين مستوري الحال . لدل الامر بظاهره على نبوتها (١)
 وهذا المذهب وهو : أن آدم وقت الاكل من الشجرة كان نبيا هو ما أرجحه للدليل السابق
 ولأن اعتراضات الفريق الآخر قد رد عليها *

ولأنه كان في الجنة مأمرا بتبليغ حواء كما في قوله تعالى " ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة
 تكلا من حيث شئتما ولا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " *
 وعلى هذا فالاجتباء في قوله تعالى " وحسى آدم ربه فحوى " - ثم اجتباء ربه فتاب عليه *
 معناه تقريبه اليه بالحمل على التوبة * والتوفيق لها *
 ويكون معنى قوله " فتاب عليه وعدي " أنه رجع عليه بالرحمة وقبل توبته حين تاب *
 وهداه الى الثبات على التوبة * والتمسك بما يرضى الله سبحانه وتعالى *
 وقيل : هداه الى كيفية التوبة بتعليم الكلمات (٢) *

ولا قدح في عصاة آدم عليه السلام بهذه المخالفة لأنها صغيرة غير حسية
 وأما هل كانت مخالفة الله فيها عن قصد أم عن غير قصد فنقول :
 ١ - ذهب طائفة من العلماء الى أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسيا *
 وأستندوا في هذا الى قوله تعالى " ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له
 عزما (٣) والعهود : الوصية يقال : عهد اليه : اذا أمره ووصاه * وقد أمر آدم ووصى بأن
 لا يأكل من الشجرة المحسنة * من قبل * من قبل هذا الزمان * وقيل : من قبل وجود حواء *
 المخالفين وقيل : من قبل أن يأكل من الشجرة * فنسى * العهد ولم يشتمل بحفظه حتى
 قتل عنه *

* ولم نجد له عزما * تصحيح رأى وثبات قدم في الامور * وروى عن ابن عباس وقشادة أن المصنف
 لم نجد له صبورا عن الاكل من الشجرة * وعن ابن يزيد : لم نجد له عزما على الذنب أي أنه
 أخذاً ولم يتصمد (٤) ولا نوالخذ نحن المسلمين بالنسيان لما رواه الطبراني عن ثوبان : أن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " *

(١) شرح المصطام على شرح التفتازاني ١٢٤

(٢) روح المعاني للألبوسي ج ١ ص ٣١٢

(٣) سورة طه الآية ١١٥

(٤) روح المعاني ج ١ ص ٣٠٨

ولكن الانبياء مواخذون به لعدم شأنهم * ورفعة منزلتهم عند الله .
قال النسفي : فنسى العهد أى النهى والانبياء عليهم السلام يؤخذون بالنسيان (١) فمتاب
الله لا دم عليه السلام إنما كان على ترك التحفظ من أسباب النسيان .
قال اللوس : والمتاب جاء من الانشغال عنه حتى كانت الغفلة والنسيان والانبياء يعاتبون على
مثل ذلك (٢) .

• بهذا أجيب على أحد اعتراضين على هذا القول .

أولهما : لو كان أكل آدم من الشجرة عن نسيان لما عتب عليه . أما من حيث الفعل فذلك
الناس غير قادر على الفعل فلا يكون مكلفا به لقوله تعالى " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " .
وأما من حيث النقل فلحديثه " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " فلما عتب بدل
على أن ذلك لم يكن نسيانا ودفع هذا الاعتراض كما سبق . بأن المتاب إنما كان على ترك
التحفظ من أسباب النسيان .

ثانيهما : أن إبليس قد ذكر آدم وجواه النهى ، قال تعالى : " ما نهاكما ربكما
عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمها انى لكما من الناحيتين " .
مما يدل على أن آدم لم ينس النهى حال الاكل من الشجرة .

• وجواب عنه : بأن وقت الاكل من الشجرة كان غير وقت التذكير بالنهى ، فوقت النسيان غير وقت
التذكر . وليس في الآية ما يدل على أن الاكل من الشجرة كان عند قول إبليس السابق .
قال القرطبي : وقيل : أكلها ناسيا ، ومن الممكن أنهما نسيا الوحيد ، قلت : وهو الصحيح
لاخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتما وجزما فقال " ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى
ولم نجد له عزما " لكن لما كان الانبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم
وعلو منازلهم لا يلزم غيرهم كان تذكيرهم عن تذكر النهى تنبيها صار به عاصيا أى مخالفا (٣)
ومن ذكر هذين الاعتراضين من المتكلمين شمس الدين الاصفهاني وأضاف ثالثا ثم أجاب
عن الاول وترك الاجابة عن باقيهما .

فقال : وأعرض عليه بأن إبليس ذكر آدم وقت الوسوسة أمر النهى فقال " ما نهاكما ربكما
عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " ومع هذا التذكير يمنع النسيان

(١) تفسير النسفي ج ٣ ص ٦٧

(٢) روح المعاني ج ٥ ص ٣٠٨

(٣) الجامع لاحكام القرآن ج ٣ ص ٦٦١ طبعة مؤسسة كتاب الشعب

الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين * وبى هذا التذکر بفتح النسيان
وقد اجيب عنه بأنه يجوز ان يكون وقت التذکر غير وقت النسيان والا فلا وجه لقولتمالى * نفس *
وايضا عاتبه الله تعالى على ذلك فى قولتمالى * ألم انهكما عن تلكما الشجرة * وقد سبق هذا الاعتراض
والاجابة عنه ثم اضاف : وآدم وحواء اعترفا بالزلة وقالا ربنا ظلمنا انفسنا فقبل اللتعالى توبتهما فقال
* فتاب عليهما * وكل ذلك ينافى النسيان (١)

وهذا الاعتراض الاخير وهو اعتراف آدم وحواء بالزلة ولو كانا قد نسيانا لقالا : ربنا اننا نسينا بيجاب عنه
بأن اعترافهما وقولهما * ظلمنا انفسنا وتوبتهما لان سمو منصب الانبياء بجمليهم يستمضون ما يفرض
منهم عن هتات ثم انهما لو اعترفا بالنسيان لما قيد منهما لانهما تركا التحفظ من اسبابه
وهذا القول : هو المختار عندى لى الاية على النسيان ولان الاعتراضات عليه دفعت بنا بزيلها
وهذا لا قدح فى عصمة الانم عليه الصلاة والسلام ان ما صدر منه صغيرة غير خسية وقعت نسيانا وهذا
لا ضمير منه على مقام الانبياء

ولا يفوتنى هنا ان اشير الى ما يراه البعض من ان ما صدر من آدم لا يوصف بأنه كبيرة او صغيرة لانه قد وقع
الاتفاق على خروج الناس والماهى عن حكم التكليف ومن هولاء القاضى عياض الذى قال *
وقد قيل : نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال * ولم نجد له عزيمة * اى قصد الى المخالفة واكثر المفسرين
على ان المزمع هنا : الحزم والسير فاذا كان ناسيا لم تكن معصية اذ الاتفاق على خروج الناس والماهى
عن حكم التكليف (٢)

ونقله ايضا الالوس عن كثير من العلماء فقال : ان الكثير من اهل السنة جعلوه اى قول آدم وحواء : ربنا
ظلمنا انفسنا وان لم نخفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * عن باب هضم النفس بناء على ان ما وقع كان
عن نسيان ولا كبيرة ولا صغيرة معصية (٣)

واود قبل ان انتقل عن هذا القول : ان اوكد : ان آدم وحواء لم يقبلان ابليس وعنه ان نهى الله لهما
عن الاكل من هذه الشجرة لئلا يكونا ملكين او خالدين فى الجنة ولوانهما اكلتا منها لحصل لهما ذلك
ولا حلفه بالله انه ناصح لهما فى قوله * مانها كما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين * او تكونا
من الخالدين وقاصيها انى لكما لمن الناصحين *
لانهما لو صدقاه لكانت معصيتهما فى ذلك التصديق اعظم من الاكل عن الشجرة لان ابليس بقولسه

(١) مطالع الانظار على طواع الانوار ٢١٠ - ٢١١ (٣) روح المعاني ج ٣ ص ٢٣
(٢) الشفا ج ٢ ص ١٥٦

التسليم لأمره ، والرضا بحكمه ، وإلى أن يعتقدوا كون إبليس ناصحا لهما ، وأن الله سبحانه قد غشهما ، ولا شك أن هذه الاشياء أعظم من الأكل من الشجرة .
 وأيضا : كان آدم عليه السلام عالما بتمرد إبليس عن وجوده ، وعالما بعداوتة له لقول الله تعالى : ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * فكيف يلقى بالعاقل أن يقبل قول عدوه مع هذا ؟ .

وليس معنى أكل آدم عليه السلام أكل من الشجرة بعد وسوسة إبليس له وقوله السابق له أنه أنخدع به وصدق به ، وإنما بعد مضي فترة من الزمن على النهي ، وعلى وسوسة إبليس التي يتأثر بها نسي آدم النهي ، بأن ترك التحفظ من أسبابه فوقع .
 ٢- وقد هبت طائفة أخرى من العلماء إلى أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ذاكرا للنهي ولكن كان متأولا .

وهو لا يفسرون النسيان في الآية الكريمة * فنسى * بالترك ، ويكون معنى الآية عندهم فترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها وهو - كما قال الالوسي - مروى عن ابن عباس والحسن ، وقد ذكر الزمخشري كلا المعنيين للنسيان دون ترجيح أحدهما على الآخر فقال : فإني قلت : ما المراد بالنسيان ؟ قلت : يجوز أن يراد النسيان الذي هو تضيغ الذكر وأنه لم يمتن بالوصية الحثاية الصادقة ، ولم يستوثق منها بمقدد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان وأن يراد الترك ، وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها (١) .

والتأويل بواحد من وجهين :

الاول : أنه عليه السلام فهم أن النهي للتنزيه لا للتحريم ، وهما عليه فالذي حصل من آدم عليه السلام هو مخالفة الأولى ، ومخالفة الأولى لا تندج في هبة الانبياء ، ومع ذلك تمتحنى منهم التدم عليها ، والاستغفار والتوبة منها .

قال الالوسي : والاكثرون على أن النهي هنا للتنزيه ، وتدميها واستغفارها على ترك الآثي ، وهو في نظرها عظيم ، وقد يلام عليه أشد اللوم اذا كان فاعله من المقربين (٢) .
 يوضح الفخر الرازي وجهة نظر القائلين : أن النهي هنا للتنزيه على النحو التالي :
 أن هذه الصيغة وردت تارة في التنزيه ، وأخرى في التحريم ، والأصل عدم الاشتراك ، فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين ، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة

(١) الكشاف ج ٣ ص ٧١

(٢) روح المعاني ج ٣ ص ٢٢ - ٢٣

في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل
أوعلى الإطلاق فيه ، لكن الإطلاق فيه كان ثابتاً بحكم الأصل ، فإن الأصل في المنافع
الاباحة ، فإذا انضم مدلول اللفظ على هذا الأصل صار المجموع دليلاً على التنزيه .
قالوا : وهذا هو الأولى بهذا المقام ، لأن على هذا التقدير يرجع حاصل موصية آدم عليه
السلام إلى ترك الأولى ، وكل مذهب أفضى إلى عصاة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولى
بالقبول (١) .

وهي آخرون : أن قوله تعالى : " ولا تقربوا هذه الشجرة " كقوله " ولا تقربوهن حتى يطهرن "
وقوله " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن " فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول .
ثانيها : أنه تعالى رتب على مخالفة النهي الظلم فقال " ولا تقربوا هذه الشجرة فتكونا من
الظالمين " أي إن أكلنا منها ظلمنا أنفسنا ، ولهذا لما أكلنا قال : ربنا ظلمنا أنفسنا .
ثالثها : أن آدم عليه السلام أخرج من الجنة ووجبت عليه التوبة بمخالفة النهي ، فيكون
هذا النهي للتحريم ولو كان للتنزيه لما استحق آدم ذلك .
وقد رد الأولون على هذه الوجوه :

عن الأول : بأن النهي وإن كان في الأصل للتنزيه ، لكنه قد يحمل على التحريم لدلالة
منفصلة أي أن كونه للتحريم في قوله تعالى " ولا تقربوهن حتى يطهرن " وفي قوله " ولا تقربوا
مال اليتيم " إنما هو بسبب أمر منفصل لا لكونه الأصل في النهي .
وهن الثاني : أن معنى قوله " فتكونا من الظالمين " فتظلمنا أنفسنا بفعل ما الأولى بكما تركه
لأنكما إذا فعلتما ذلك أخرجتكما من الجنة التي لا تجوعان فيها ولا تهرمان ، ولا تظلمان السي
موضع تكاهدان فيه الجوع والعمرى ، والظما والنحوسة .
وهن الثالث : أن الأخراج من الجنة لم يكن لهذا السبب .

وحدد أن عرفنا الخلاف بين العلماء في النهي عتاً ، والاستدلالات فيه فإني أرجح أنه
للتحريم لأن النهي يقتضى تحريم المنهى عنه لقوله تعالى " وما نهاكم عنه فانتهوا " فإنه أمر
بالانتها ، أي الكف عن المنهى عنه ، والأمر للوجوب ليكون الانتها واجباً ، وعدم الانتها حراماً
لفظ النهي حقيقة في القول الطالب للترك أي في الصيغة الموضوعة لطلب الترك وهي :
لا تفعل : وهذه الصيغة ترد لسان كثيرة : كالتحريم مثل " ولا تقربوا الزنا " والكراهة كما
في حديث " لا تصلوا في مبارك الأهل " والدعاء : نحو " ربنا لا تزق قلوبنا "

وغير ذلك * وهي حقيقة في التحريم مجاز في غيره (١) *

والخلاصة : أن النهي يقتضي التحريم * وأن صيغته حقيقة في التحريم مجاز في غيره *
والذين ذهبوا إلى أن النهي في قوله * ولا تقربا هذه الشجرة * للتنزيه - بناء على أن
صيغته حقيقة في القدر المشترك بين التحريم والكراهة * ثم أنتم إلى هذا أن الأصل في المنافع
الاباحة - فصار النهي للتنزيه - إنما أعتدوا المذهب القائل : أن صيغة النهي مضافة للقدر
المشترك بين التحريم والكراهة ولكن مذهب الجمهور أقوى منه وهو : أنه حقيقة في التحريم مجاز
في غيره *

فالنهي في قوله * ولا تقربا هذه الشجرة * للتحريم * لما ترتب على وقوع المنهي عنه من
اللوم الشديد والتدم والاستنفاذ ووجوب التوبة *

على أن البعض يمتدح من آدم عليه السلام على القول بأن النهي ظاهر في التحريم *
بأنه ليس ناصيا فيه وصرفه عن الظاهر وهو التحريم إلى التنزيه لقريظة عنده * قال شمس الدين
الاصفهاني : وزعم آخرون : أن النهي وإن كان ظاهرا في التحريم * لكنه ليس ناصيا فيه * وصرفه
عن الظاهر لدليل غيره عنده (٢) *

وسواء سلمنا بهذا الاعتذار الأخير من آدم * أو وافقنا القائلين بأن النهي للتنزيه فإنه
تأويل من آدم عليه السلام بصرف فعلته عن أن تكون معصية فادحة في عصيته *

الوجه الثاني في مخالفة آدم النهي تأويلا :
أن كلمة * هذه * في قوله تعالى * ولا تقربا هذه الشجرة * قد يراد بها الإشارة إلى
الشخص * وقد يراد بها الإشارة إلى النوع كما روي أبو داود وعليه الصلاة والسلام أخذ حريزا
وذعها بيده وقال : هذان حل لاناث أمي حرام على ذكور عم * فقد أراد الرسول نوعهما *
فآدم عليهما السلام : أتبه الأمر عليه فظن أن المراد هو الشخص فعدل عنه إلى شخص آخر من
ذلك النوع فكان مخطئا في ذلك الاجتهاد * لأن مراد الله تعالى من كلمة * هذه * كان
النوع لا الشخص والخطأ في الاجتهاد لا يقدر في عصية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام *
وقد حسنه القرطبي : فيبعد أن حكى قولين في تهوير أكل آدم عليه السلام من الشجرة مع
الرجيد عليه *

أولهما : أن آدم وحواء أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهي واقعا على جميع جنسها
وثانيهما : أن آدم أكل من الشجرة ناسيا *
قال : والقول الأول أيضا حسن * فظننا أن المراد العيين * وكان المراد الجنس كقول النبي صلى
الله عليه وسلم حين أخذ ذعها وحريزا * هذان حرامان على ذكور أمي * وقال في خبر آخر

(١) مختصر صفوة البيان في شرح منهاج الوصول ج ٢ ص ١٨ - ١٩

(٢) مطالع الانظار ص ٢١١

" هذان مهلكان أمتي " وإنما أراد الجنس لا المين (١)

ولكن يرد على الذهن سؤال : أما كان هناك بيان وقت النهي يرفع الاحتفال في كلمة (هذه) ويحدد أنها النوع ؟ لا يرد من البيان لأن الصلوات أثقوا على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة أي وقت السجود بالخطاب المحتاج الي بيان : أما بتخصيص العام فأبو تقييد المطلق ، أو توضيح المجرى لأن التكليف بالالتيان بغير المعلوم تكليف بما لا يطاق وهو صريح لقوله " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " (٢) فاذن لا يرد أنه كان هناك بيان وقت النهي يرفع الاحتفال في " هذه " وبذلك لا يكون آدم عليه السلام معذورا في ذلك الخطأ .

ويمكن أن يدفع هذا السؤال : بأنه كان هناك بيان ولكن لم يتنبه له آدم فكان منه الخطأ والانبياء لا يقرعهم الله تعالى على الخطأ في الاجتهاد بل ينههم عليه . ثم يترتب على هذا سؤال هو : اذا كان آدم عليه السلام معذورا في خطئه في الاجتهاد فلماذا أخذه الله تعالى ؟

وقد أجاب عنه الفخر الرازي بقوله :

لأن آدم قد قصد في تبين حقيقة النهي الموجه اليه وكان عليه أن يتبينه بتفحص ما يحذف به من قرائن أو بالسؤال عنه ، فلما لم يفعل ذلك أوخذ على قدر درجته (٣) .

وعلى هذا فلا قدح في عصاة آدم عليه السلام ، لأن مخالفته صغيرة غير خصية وقعت خطأ في التأويل ولو قيل : بأن آدم عليه السلام خالف النهي عامدا غير متأول لكأنه معصيته غير قادمة لأنها صغيرة غير خصية ، وعن تجوز على الانبياء عمدا على مذهب الجمهور ، وأكثر الشافعية والمعتزلة ولكن لا أسلم بأنها صدرت من آدم عليه السلام عمدا ، وإنما نسي لان الله سبحانه وتعالى - وهو أعلم بما في أنفس عباده - أخبر بذلك فقال " ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى " وفعل الصغيرة غير الخصية نسيانا جائزا من الانبياء ولا يقدح في عصمتهم كالأصنام الذي يشتغل بأمر يستغرفه ويغلب عليه حتى يسهو عن الصوم المفروض أو ياكل أو يشرب في أثناء صومه ساعيا ، فلا يضمن هذا في دينه ولا خلقه لأن السهو يرفع عنه جرم المعصية ووزرها ، والمأخذة عليها ، لكن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعاتبون على ما يصدر منهم نسيانا - نظرا لعلو درجتهم - ولأن علمهم أن يحتفظوا من أسباب النسيان .

وتحسية ما وقع من آدم عليه السلام نسيانا معصية إنما هو بحسب الصورة ، فصورته صورة المعصية وحقيقة عدم العصيان لعدم القصد .

(١) تفسير القرطبي ج٣ ص ٢٦٢

(٢) مختصر صفوة البيان في شرح منهاج الوصول ج٢ ص ٥٧

(٣) عصاة الانبياء للفخر الرازي ص ١٥

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجاب عن الوجوه السابقة التي تصك بها الطاعنون على آدم عليه السلام على النحو التالي :

عن الوجه الأول وهو أنه عسى استناداً إلى قول الله تعالى " وهى آدم ربه " .
بأن آدم عليه السلام خالف النهى بلا قصد فتكون مخالفته زلة لا معصية ، إذ المعصية وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهى قسداً وأطلق عليها معصية مجازاً لا حقيقة ، وذلك لزعج الناس عن الذنوب ونظر العقاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وطرد درجاتهم عند الله .
قال النسفى : المعصيان : وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهى ، وقد يكون عمداً فيكون ذنباً وقد لا يكون عمداً فيكون زلة (١) والزلة هى : أن يقصد الإنسان أمراً مباحاً أو طاعة فيقع فى أمر غير مشروع بسبب عدم الاحتياط .

وقال الرمخشى : ولكن قوله " وهى آدم ربه فنوى " بهذا الإطلاق ، وبهذا التصريح ، وحيث لم يقل : وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والقرطات فيه لئلا يكلف المكلفين ، ومزجراً بليفة ، وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : أنظروا وأهتروا كيف نصبت على النبى المصوم حبیب الله الذى لا يجوز عليه الا أقران الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الفلطة وهذا اللفظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرض منكم من السيئات والصفات فضلاً عن التورط فى الكبائر (٢) وقد اختلف على مجازية إطلاق المعصيان على أكل آدم عليه السلام من الشجرة بأن الأصل عدم المجاز ويجاب عنه بأن الأصل عدم المجاز إذا لم توجد القرينة السارفة ، من الحقيقة ، أما إذا كانت موجودة فلا يكون الأصل عدم المجاز وهنا القرينة السارفة عن الحقيقة موجودة ، فقد قال تعالى " فنسى ولم يجد له عزماً " وهو يدل بوضوح على أن أكل آدم عليه السلام من الشجرة كان حال الخفلة عن المنع ، وبنا لا يكون قد فعل الحرام بحيثية الحرمة لعدم قصد المخالفة والمعصيان لا يوجد بدون قصد المخالفة ، والاصل عدم المجاز ، والامر ليس كذلك ، إلا أنه عليه السلام لم يرتبه وعظم منزلته عند الله لما نسي وقفل عن حفظ العهد نزل منزلة القاصد مجازاً فأطلق عليه وما يناسب قاصد المخالفة (٣) .

وهذا البعض : أن إطلاق اسم المعصية على ما وقع من آدم عليه السلام إنما هو بحسب الصورة فنسوته صورة المعصية ، وحقيقته عدم المعصيان لعدم القصد .
يقول الامام أبو محمد بن حزم الظاهرى : أما قوله تعالى " وهى آدم ربه فنوى " فقد علمنا أن كل خلاف لامر فنسوته صورة المعصية فيسمى معصية لذلك وهواية إلا أنه منه ما يكون

(١) تفسير النسفى ج ٢ ص ٦٨

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٧٤

(٣) تحفة الأخلاق للمحمد الكاظمي ص ٥٥

عن عبد و ذكر فهذه معصية على الحقيقة لأن فاعلها قاصد الى المعصية وهو يدري أنها معصية وهذا هو الذي نزهنا عنه الانبياء عليهم السلام . ومنه ما يكون عن قصد الى خلاف ما أمر به وهو يتأول في ذلك الخير ولا يدري أنه عاصي بذلك بل يظن أنه مطيع لله تعالى . أو أن ذلك مباح له . لأنه يتأول أن الامور الواردة عليه ليس على معنى الايجاب . ولا على التحريم . لكن اما على الذنب ان كان بلفظ الامر أو الكراهية ان كان بلفظ النهي وعذا شيئ يقع فيه العباد والنهي . والافضل كثيرا . وهذا هو الذي يقع من الانبياء عليهم السلام وهو اخذون به اذا وقع منهم . وعلى هذا السبيل اكل آدم من الشجرة (١) وهو لا يفسرون المزمع المنفي عن آدم عليه السلام في الآية الكريمة . بأنه القصد الى الذنب لا امر الله فيقولون : ان معنى قوله تعالى : ولم نجد له عزما . لم نجد له قصدا الى خلاف الامر به .

وهو آخرون : ان اطلاق اسم المعصية على ما وقع من آدم عليه السلام اطلاق لغوي لا شرعي أي أن الاكل من الشجرة التي نهى الله عن الاكل منها معصية بمقتضى وضع اللفظ . وليس معصية شرعية مذمومة (٢) .

وأرجح أن يكون الاطلاق مجازيا . لوجود القرينة الصارفة عن الحقيقة وهي قوله " فنسى " ومع النسيان لا تكون معصية .

على أن هذه الاقوال متفقة في نفي الالتم عن آدم عليه السلام . ومن الثاني : وهو أن آدم عليه السلام كان منه النهي . والنهي ضد الرشد فيكون صاحب ذنب بأن النسي عننا ليس معناه الضلال عن طريق الهدى . وإنما معناه الخيبة . وآدم عليه السلام بأكله من الشجرة خاب من تميم الجنة .

قال الفخر الرازي في معنى " غوى " : خاب من تميم الجنة . وذلك أنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما . ثم لما أكل زال . قلبا خاب سميه وما تجب قيل : أنه غوى . وتحقيقه : أن النسي ضد الرشد . والرشد : هو أن يتوصل بشيئ الى شئ . يوصل الى المقصود . فمن توصل بشيئ الى شئ . فحصل له ضد مقصوده . كان ذلك غيا (٣) . أو فسد عليه عيشه بنزوله الى الدنيا .

وقد يكون معنى النسي : الضلال عن المطلوب أي كان هذا المطلوب . فمن طالب شيئا فلم يتحقق له فقد ضل عنه ولهذا ذكر المفسرون في معنى " غوى " عنها اقوالا منها : أنه ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود . ومنها : أنه ضل عن المطلوب منه . وهو ترك الاكل من الشجرة (٤) .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ص ١١

(٢) موقف القرآن من عصاة الانبياء للدكتور شاذلي محمود

(٣) غنائج الغيب ج ١ ص ١١

(٤) روح المعاني ج ٥ ص ٣١١

وعلى أي من هذه الأحوال فليس النبي الواقع من آدم عليه السلام هو الذي معناه الضلال عن طريق الهدى حتى يكون ذنبا ، وإنما هو : الحرمان من الخلود في الجنة والتمتع بنعيمها ومباحاتها ، والانتقال عنها إلى دار الدنيا يشقى بالكد والجهد لتحقيق مطالبه ، وتوفيق حاجاته ، وأسباب معيشته .

وعن الثالث :

وهو أنه ثابت ، والثائب مذنب ، بأنه ليس بلانم أن تكون التوبة من ذنب ، فهي تحسن من لم يذنب على سهول الانقطاع إلى الله تعالى ، المستحق الثواب بها ابتداء ، وبدل لذلك أن نهينا صلى الله عليه وسلم كان يستشفق الله تعالى كثيرا - في اليوم سبعين مرة وقد يتجاوزها إلى مائة مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن مذنباً .

والانبياء عليهم الصلاة والسلام - لعلود رجعتهم ، وشدة خوفهم من ربهم - يستعظمون ما يقع منهم من زلات وهنات ، ويتوكلون إلى الله عز وجل منها .

وعن الرابع :

وهو أنه ارتكب المنهي عنه ، وأرتكاب المنهي عنه ذنب .
بأنه ارتكب المنهي عنه نسيانا - كما سبق - ولا يوصف ما يعمله الناس توكلا للأهمية ، أو فضلا للمنهى عنه بأنه ذنب .

أو أنه ارتكب المنهي عنه خطأ في التأويل حيث فهم أن النبي عن شجرة مسينه فتركها ، وأكل من شجرة أخرى من نفس النوع ، والخطأ في التأويل ليس ذنبا .

أوفهم : أن المنهي للتنزيه لا التحريم ، ومخالفة نهى التنزيه ليست ذنبا ، وإنما من باب تحريك الأولى فدلى أي من هذه الأحوال لا يكون ارتكاب آدم المنهي عنه ذنبا .

وعن الخامس :

وهو أن الله تعالى قد سماه طالما ، والظالم ملمعون ، ولا يستحق اللعن إلا صاحب الكبيرة بأن حقيقة الظلم هي : وضع الشيء في غير موضعه ، وآدم عليه السلام كان الأولى له امتثال النهى حتى يستحق به الثواب العظيم ، فلما ترك الأولى ووضع المخالفه موضع الامتثال نقص حظه من الثواب ، وهذا ظلمه لنفسه .

على أن من الاقوال التي ذكرها المفسرون في معنى قول آدم وحواء " ربنا ظلمنا أنفسنا ونعمنا حظها بالتعرض للاخراج من الجنة " (١)

فآدم وحواء بخالفتهما النبي أهبطا من الجنة ونعيمها إلى الأرض وشقائهما ، فهما بذلك قد وضعنا نفسيهما في غير ما كانا فيه ، وهذا ظلم منبسط لأنفسهما .

وعلى هذا فظلم آدم ليس من نوع الظلم الملمعون صاحبه ، وهذا لا يكون ذنبا .

وعن السادس : وهو أنه اعترف بأنه لولا مغفرة الله ورحمته لكان حاسماً في قوله " وإن لم تفراننا

وترحمنا لنكونن من الخاسرين " وهذا يقتضى كونه صاحب معصية .

بأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام - نالوا لسمو مناصبهم ، ورفعة درجاتهم يستعظمون ما يفرط منهم من زلات وهنات ، ولذا فانهم يلحون في طلب مغفرتهم ، ولو لم يطلبوا مغفرتهم لكانت مستهينين بها وحاشاهم أن يكونوا كذلك ، فان المؤمن العادي يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه فما بالك بالنبي .

والاستغفار مطلوب حتى ممن لم يذنب انقطاعاً الى الله تعالى ، كما كان حال نبينا صلى الله عليه وسلم في كثرة استغفاره كل يوم مع أنه لم يذنب .

وذكر الأوسى من المعاني الآتية : وإن لم تستر علينا بالحفظ ما يتسبب نقصان الحفظ ، وترحمنا بالتفضل علينا بما يكون عوضاً عما فاتنا لتكونن من الخاسرين (١) .

ويروى البعض : أن استغفار آدم عليه السلام لتسليم أولاده حتى يحرصوا على طلب المغفرة لكل ما يفرط منهم ولو كان هنه من الهنات .

قال محمد الكلبى : قال بحر العلماء : أن الباحث على ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام تعليم سائر الناس وتأديبهم : فالناس كما يحتاجون الى اقامة الطاعة يحتاجون الى اصلاح تقاصيرهم بل الثانى أزيد من الأول فلهذا عوتبوا على الزلات ، ليسلم غيرهم أن الانبياء مع علم منزلتهم وقربهم من الله أخذوا بالمصائر التى صدرت عنهم نسياناً أو تأويلاً ولم يستغنوا عن التوبة والاستغفار ، قالوا احد منا مع كثرة ذنوبه من المصائر والكبائر ، ومقله طاعته لا يد أن يشتغل طول عمره بالتوبة والتندامة واليكاء (٢) .

وعن السابع : وهو أنه جوزى على ما تقدم عليه بالاجحاج من الجنة ، وما هذا الا لأن المصادر

منه ذنب بأن آدم عليه السلام جوزى بالاجحاج من الجنة على مخالفته الأولى : من أنه كان عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحفظ من أسباب النسيان . أو أنه لم يحتفظ فى الاجتهاد ، ومثل ذلك يؤخذ به الانبياء لعلو شأنهم . على أن اجحاج آدم عليه السلام من الجنة مرتب بحسب الظاهر على أكله من الشجرة ، أما فى الحقيقة فليس ما قدره الله أزلاً من خلق آدم ليكون خليفه فى الأرض " وإن قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفه " وعلى هذا فسكاه فى الجنة ليس على وجه الدوام وإنما السى

(١) روح المعانى ج ٢ ص ٢٣

(٢) تحفة الاخلاء فى عصمة الانبياء ص ٦٥ ، ٦٦

حين ثم يربط الى الأرض تحقيقا لاختياره للخلافة فيها .

وهي الدكتور شاكر محمود عايشه أن مطابقة لجنة بدل عليها التفسير بالسكنى في قوله تعالى " وقتلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة " لا بالاقامة ، ولا بالملك ، لأن السكنى لا تدم ولا تستمر (١) .

ويقول العلامة محمد الكابلي - بعد أن منع أن الاخراج كان لأجل الأكل من الشجرة ، وإنما لأجل قوله تعالى " انى جاعل فى الأرض خليفة " :

ان الله تعالى لما كان كريما ، والجنة مقام القرب ، ومن عادات الكرم أن لا يخرج من قريته أحدا الا بحجة قائمة على الاخراج والتخيير جعل الله أكل الشجرة من آدم عليه السلام سببا ظاهرا بالاخراج (٢) .

ويؤيده قول القرطبي في تفسيره : والحيح فى اهباط آدم عليهما السلام وسكناه فى الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية فى ذلك وهى نشر نسله فيها ليكثفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخرى ، إذ الجنة والنار ليست بدار تكليف ، فكانت تلك الأكلة سببا اهباطه من الجنة ولله أن يفصل ما يشاء ، وقد قال " انى جاعل فى الأرض خليفة " وهذه منقبة عظيمة مفضلة كريمة شريفة (٣) .

وإذا كان اخراج آدم عليه السلام من الجنة سببه اختيار الله له ليكون خليفة فى الأرض ، فلماذا ينسب اخراجه الى الشيطان ، ويجعل السبب فيه فى قوله تعالى " فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه " ؟

ان ذلك لأن الشيطان سبب ظاهرى مباشر .

ولأجل أن يذكر أبناء آدم عداوة الشيطان ، ومحاولة افساد حياة الطمأنينة والراحة والتحصين على أيهم آدم ، فلا يستجيبوا السماوى وترعات عدوهم وعدو أبيهم ، وإنما يستعينوا بالله منه ويأخذوا حذرهم منه مهما احتال عليهم ، وسلك سببه الخفية للايقاع بهم ، وافسادهم وتفويت الخير عليهم ، والحق الشريهم .

(١) موقف القرآن من عصاة الانبياء

(٢) تحفة الاخلاق ص ٥٩

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٣ .

الشبهة الثانية :

تصانح الطاعنون على آدم عليه السلام في باب الاعتناء بقول الله تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تشابها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من المشركين . فلما آتاهاما صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاهاما فتعالى الله عما يشركون (١)

فالنفس الواحدة هي آدم ، وزوجها الخلق منها حواء ، وهما اللذان جعل الله شركاء فيما آتاهاما من الولد الصالح ، فان الضمير في قوله " جعلنا له شركاء " واجع اليهما ؟ ان القسم يتقدم ما يصلح لذلك سواءما والضمير في " له " لله سبحانه وتعالى . فقد صدر ان من آدم الاشراك .

وأقدم بين يدي الاجابة عن هذه الشبهة توضيحا مختصرا لالفاظ الآيتين بما يعين على فهمهما " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " المراد بهما آدم .

" وجعل منها زوجها " من جسدها من ضلع من اضلاعها ، وقول من جنسها لقوله تعالى " وجعل لكم من أنفسكم أزواجا " أي من جنسكم و " زوجها " حواء ، والحكمة في كونها خلقت منه أن الجنس الى الجنس أميل .

وقيل : المراد بالنفس الواحدة وزوجها غير آدم وحواء ، وسيأتي بيانه .

" ليسكن اليها " ليأمن بهما ويضمن اليها الامنان التي الى جزئه أو جنسه .

" فلما تشابها " جامعها

" حملت حملا خفيفا " خف عليها ولم تلق منه ما يلقي الحوامل غالبا من الازدي ، أو حمولا خفيفا وهو النطفة .

" فمرت به " فعالجت به أعمالها ، وقامت وقعدت ، ولم يعقبا عن شيء من ذلك لخفته .

" فلما أثقلت " صارت ذا ثقل بكبر الولد في بدنها

" دعوا الله ربهما " دعا آدم وحواء ربهما وبالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى وللتجأ اليه

فقالا " لئن آتيتنا صالحا " ولدا سويا قد صلح بدنه ويرى من الآفات

" لنكونن من المشركين " على نعمتك علينا

" فلما آتاهاما صالحا " فلما آتاها الولد الصالح المسوي

" جعلنا له شركاء فيما آتاها " جعلنا لله شركاء فيما آتاها من الولد

" فتعالى الله عما يشركون " تقدم الله وتنزه عن شرك المشركين

وقد أجاب العلماء والمفسرون عن هذه الشبهة بعدة أجوبة

الجواب الأول

نسلم بأن النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء ، لكن لا نسلم أن الشرك الواقع منهما شرك فسي العبادات وإنما هو شرك في التسمية حيث سما ولد هما "عبد الحارث" والحارث هو اسم ايليس ، والشرك في التسمية لا يقدح في عصمة آدم عليه السلام ، إذ لم يعتقد هو وحواء أن الحارث ربهما يتسما ولدهما عبد الحارث وإنما قصدوا أن الحارث كان سبب نجات الولد فسمياه به ، كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له ، لا على أن الضيف ربه كما قال حاتم

واني لعبد الضيف مادام تاريا . . وما في الا تيك من شيمة الصبر (١)

وذكر هذا القول بعض المفسرين ، ومنهم ابن جرير الذي ذكره ، ثم صوبه ، ووجهه على قول آخر حكاه أيضا فقال : اختلف أهل التأويل في الشركاء التي جعلها فيما أوتيا من المولود . فقال بعضهم : جعلها له شركاء في الاسم ، وروى تأييدا لهذا - حديثا عن محمد بن بشر عن عبد الصمد عن عمرو بن ابراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ولدت حواء ، اتف بها ايليس ، وكان لا يسمى لها ولد ، فقال : سمىه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره . وقال آخرون : بل المعنى بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بنى آدم جعلوا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين يرقهما ما يرقهما من الولد

ثم وجه ابن جرير القول الأول . فقال : وأولى القولين بالصواب قول من قال : عنى بقوله " فلما آتاها صالحا جعلها له شركاء " في الاسم لا في العبادات ، وأن المعنى بذلك آدم وحواء لاجتماع الحج من أهل التأويل على ذلك (٢)

ومن حكي هذا القول واستحسنه ودافع عنه ، وهأى صحة الحديث الألبوسي الذي قال : لا يمد هذا شركا بالحقيقة لأن أسماء الأعلام لا تفيد مفهوماتها اللغوية ، ولكن أطلق عليه الشرك تغليظا ، وإيذانا بأن ما عليه أولئك السائلون عما لا يعنيههم أمر عظيم فتظيح ونقل عن العلامة الطيبي قوله : ان هذا القول احسن الأقوال ، بل لا قول غيره ، ولا محل الا عليه ، لأنه مقتبر من مشكاة النبوة

ثم قال : وانت قد علمت منى أنه اذا صح الحديث فهو مذهبي ، وأراه قد صح والله تعالى المرفق للصواب (٣)

وحديث سمرة هذا - الذي استند اليه ابن جرير ، وهأى الألبوسي صحته ، ذكر السبوطي أنه خرجه جمع من أئمة الحديث فقال عنه : أخرجه احمد ، والترمذي ، وحصنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٧٧٥

(٢) جامع لبیان ج ١٣ ص ٣١٧

(٣) روح المعاني ج ٢ ص ١٨٥

والحاكم وصححه عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم
وقال أيضا : واخره عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله " فجملا له شركاء " قال : كان شركا في طاعة
ولم يكن شركا في عبادة (١)

وحق يتفادى اصحاب هذا القول الاعتراض عليهم
بأن قولهم تعالى " فتعالى الله عما يشركون " يفيد ان الذين اتوا بالشرك جماعة اذ لو كان آدم وحواء لقال :
فتعالى الله عما يشركان "

فقد ذهبوا الى ان في الايتين قصتين : قصة آدم وحواء والخبر عنهما قد انقض عند قوله " جملا له
شركاء فيما آتاها " وقصة مشركي العرب والخبر عنها في قوله " فتعالى الله عما يشركون " والمعنى :
فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الاوثان وبهذا فسرها ابن جرير فقال : فتنزية من الله
تبارك وتعالى نفسه وتعظيم لها عما يقون فيه المبطلون ويدعون معه من الالهة والاثان (٢)

وعلى هذا فالاية من باب الموسول لفظا المفصول معنى وهو غير مرتضى من بعض العلماء كالنخعي الرازي
الذي ذكر ان فيه تفكيكا في نظم القرآن لكن يذهب جلال الدين السيوطي الى انه لا يعيب نظم القرآن
اذ ان حسن التخلل من اساليب العرب
قال السيوطي في التفتان :

ان الاية في قصة آدم وحواء كما يفهمه السهات وصرح به في حديثه اخرج احمد والترمذي وحسنه والحاكم
وصححه من طريق الحسن بن سمرة واخرجه ابن ابي حاتم وغيره بسند صحيح عن ابن عباس لكن آخر
مشكل حيث نسب الاشراك الى آدم وحواء وادم نبي تكلم والانبيا محسومون من الشرك قبل النبوة وبعد عن اجماعا و
وقد جر ذلك بعضهم الى حمل الاية على غير آدم وحواء وانها في رجب وزوجته كانا من اهل الملك وتعدي
الى تحليل الحديث والحكم ببنكارته ومازلت في وثقة من ذلك حتى رأيت ابن ابي حاتم قال : اخبرنا احمد
بن عثمان بن حكيم حدثنا احمد بن مفضل حدثنا اسباط عن السدي في قوله تعالى " فتعالى الله عما
يشركون " قال : هذا فصل من آية آدم وخاصة في آية العرب وقال ان بعبد الرازي روى بسنده عن السدي
قوله : هذا من الموسول المفصول وقال : ان ابن ابي حاتم روى بسنده عن السدي عن ابي مالك قال : هذه
مفصلة اطاعة في الولد " فتعالى الله عما يشركون " هذه ملقوم محمد فانحلت عنى هذه العقدة وانجالت لى
هذه المعضلة واتضح بذلك ان آخر قصة آدم وحواء فيما آتاها " وان ما بعدة تلخص الى قصة العرب
واشراكهم الاصنام ويوضح ذلك تفسير الضمير الى الجمع بعد التثنية ولو كانت القصة واحدة لقان
" عما يشركان " وكذا الضمائر في آية يشركون بالا يخلق شيئا " وما بعدة وحسن التخلل والاستطراد من
اساليب العرب (٣)

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج ٣ ص ١٥١

(٢) جامع البيان ج ١٣ ص ٣١٧

(٣) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ٩٠

ونجد فرقا آخر من العلماء لا يرتضى هذا القول ، وإنما يضمنه ، ويذكر وجوه ضعفه ، وهمل حديث مسند السابق ومنهم : ابن حزم الذى قال عنه :

وهذا الذى نسبوه الى آدم عليه السلام من أنه سعى ابنه عبد الخارث خرافة موضوعة فكنهه ، من تأليف من لا دين له ولا حياء ، لم يصح سندها قط ، وإنما نزلت في المشركين على ظاهرها (١) .

ومنهم : الفخر الرازي : الذى ذكر أن هذا القول فاسد ، واستدل على فساد بوجوه ستة اعتمد منسبها

اثنين هما : - أولا : أن آدم عليه السلام كان أشد الناس محرفة بابليس ، وكان عالما بجميع الأسماء كما

قال تعالى " وعلم آدم الأسماء كلها " فكان لا بد وأن يكون قد علم : أن اسم ابليس هو الحارث ، فصح

المدادوة الشديدة التى بينه وبين ابليس ، ومع علمه بأن اسمه هو الحارث ، كيف سعى ولد نفسه بمحمد الحارث

وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم .

ثانيسا : أن الواحد منا لو حصل له ولد يرجو من الخير والصلاح ، فجاه انسان ودعاه الى أن

يسميه بمثل هذه الأسماء لجزره وأنكر عليه أشد الانكار ، فأدم عليه السلام مع نهوته ، وعلمه الكثير السبى

حصل من قوله " وعلم آدم الأسماء كلها " وتجاربه الكثيرة التى حصلت له بسبب الزلله التى وقع فيها لأجل

وسوسة ابليس كيف لم ينته لهذا القدر ، وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التى يجب على المسلم

الاحتراز منها وأضيف الى هذين .

وجها ثالثا : هو " جمع الشركاء " فى قوله تعالى " جعلا له شركاء فيما آتاهما " يدل على أن المتخذ شركا

لله جماعة ، فى حين أن المتخذ شركا لله على هذا القول واحد هو ابليس فالتصريح بالجمع يدل على ضعف هذا

القول .

رابعا :

وهو : أنه لم يجز لابليس فى الآية ذكره ، فلو كان هو المتسبب فى التسمية التى أطلق عليها شركاء

على حد هذا القول - لجرى له ذكره ، فالمقام مقام التحذير من الانخداع بوسوسة ابليس كما تترقى واقصاة

الأكل من الشجرة على أنه كان بوسوسة الشيطان " فوسوس لهما الشيطان " ليحذر أبناء آدم وحوا من وسوسة

الشيطان لهم ، ولو كانت التسمية من روحى الشيطان ووسوسته لصرعاهما تحذير الأبناء آدم وحوا من وسوسة

فى واقعة الأكل من الشجرة .

فهنا الوجه تدل على ضعف هذا القول ، ولا بد - وقد أقيمت الأدلة على ضعفه - من مناقشة مستند

وهو حديث " سمة " السابق ، وقد تكفل بهذا الحفاظ ابن كثير ، فقد أعله من وجوه ثلاثة وهم :

الاول : أن عمرو بن ابراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن مسين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به

الثاني : أنه قد روى من قول " سمرة " نفسه • ليس مرفوعا • فقد روى ابن جرير بسنده عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنة عبد الحارث •

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بنير عذا • فلما كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه • روى ابن جرير بسنده عن الحسن قال : كان هذا في بعض أهل الملوك • ولم يكن بآدم • وروى أيضا ابن جرير عن الحسن قال : عني بها تسمية آدم • ومن أشرك منهم بعدة • كذلك روى ابن جرير عن الحسن أيضا قال : هم اليهود والنصارى يزعمهم الله أولادنا فهو دوا وتصبروا وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك • وهو من أحسن التفسير • وأولى ما حملت عليه الآية • ولو كان لهذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه • هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فلو كان كذلك على أنه موقوف على الصحابي • ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وثب بن فيه وغير ما • إلا أنها برئنا من عبادة المرفوع والاه أعلم (١) • كذلك ضعف القاسم الحديث السابق • والآثار في أن الشرك من آدم وحواء هو تسمية ولد • ما بجهد الحارث • ولذلك لم يذكرها باعتبارها وأهمها الإسناد معلولة • وأن أصلها مأخوذ عن مسلمة أهل الكتاب • وذكره : أنه لا يفتقر بكثرة مخرجها فقال :

وقد ذكر المفسرون معنا أحاديث وآثارا تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء • ولا حاجة بنسبها إلى روايتها • لأنها وأهمها الإسناد معلولة • كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسيره • وتقبل ثلثه من السلف لها وتلقها لا يجدى في صحتها شيئا • إذا أصلها مأخوذ من مسلمة أهل الكتاب • وتهويل بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة إذ أخرجها فلان وفلان من تنميق الألفاظ المتزق الممانسي • فان المشكاة النبوية أجل من أن يقتبس منها الاكل ما عرفت جودته (٢) •

كما طعن في الحديث أيضا صاحب المنار • وفي الآثار بأنها من الاسرائيليات فقال • معقبا على حديث سمرة • والآثار في معناه :

وعو على كثرة مخرجيه غريب وضعيف • وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية تشهد عليها بأنها من الدساتر الاسرائيلية (٣) • ويحد هذا • أجدرني غير مقتنع بهذا القول • وبأن مستنده مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم • وإنما هو موقوف على الصحابي • ويحتمل أنه تلقاه من بعض مسلمة أهل الكتاب •

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٢٧٤-٢٧٥ •

(٢) محاسن التاويل للقاسم ج٧ ص ٢٠-٢٣ ٢٩ •

(٣) تفسير المنار لرشد رضا ج ١ ص ٥٢١ •

والذين ضعفوا أن الشرك في الآيتين من آدم وحواء، وأنه كان يتسمية ولد عما بعد الحارثا اختاروا أن قصة آدم وحواء تسميها بقوله تعالى "عوادى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها" وانتم في الحديث تسميها، ثم ابتدأت قصة المشركين من أولاد عما، ومن هؤلاء أبو مسلم الذي قال عنه الألويس: وعن أبي مسلم أن صدر الآية لآدم وحواء كما هو الظاهر إلا أن حديثهما ما تضمنه قوله سبحانه وتعالى "عوادى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها" وانقطع الحديث ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر، ويجوز أن يذكر العموم ثم يخص المصير بالذكر (١) ومثله كثير في الكلام قال الله تعالى "عوادى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة" فعم جميع الخلق في أول الآية، ثم خص في آخرها بعضهم فكذا عهدنا وقد حسن هذا القول أيضا وما زال إليه ابن كثير في التفسير نقل ما رواه ابن جرير عن الحسن بن علي بن فضال "جعله شركاء فيما آتاهما" قوله: كان غذا في عصر الملل ولم يكن بآدم، وقوله أيضا: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وقوله كذلك: عم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادهم يهودا ونسروا ثم عقب على أقول الحسن هذه بقوله: وهذه آسانيد صحيحة عن الحسن رعى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وعموم أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

ثم اختار مدعى الحسن مدعى لنفسه مذهبها له بقوله: وأما نحن فملى مدعى الحسن المصير رحمه الله في غذا وأنه ليس المراد من غذا السيان "جعله شركاء فيما آتاهما" آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله "فتعالى الله عما يشركون" ثم قال: فذكر آدم وحواء أولا كالتوضيعة لما بعد عما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنين فنوله "ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح" الآية، ومعلوم أن المصابيح هي النجوم التي زينت بها السماء ليست عن التي يرمى بها، وإنما غذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن (٢) وهذا القول لا يأتى به.

الجواب الثاني

إن هذه الآية وردت في قصة آدم وحواء، ويدفع الاشكال بواحدة من هذه الوجوه الأولى: أن القصة من ألبها إلى آخرها في حق آدم وحواء، ويدفع الاشكال في قوله تعالى "جعله شركاء فيما آتاهما" بأن الكلام على حذف مضى والتقدير: جعل أولاد عما له شركاء فيما آتى أولاد عما، على حذف المضى وإقامة المضى إليه مقامه وهو نظيره قوله "واسأل القرية".

(١) روح المعاني ج ٣ ص ١٨٤
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٥

أى : وإسأل آدم الفرية

والثنية باعتبار أن ولده قسمان : ذكر وأنثى ، بالتعبيرى " جملا " و" آتاعما " بلفظ التثنية لكونهما
صنفين ونوعين ، وفى قوله " فتعالى الله عما يشركون " بلفظ الجمع باعتبار الأولاد وقد حكى غذا
القول شارح المواقف من المتكلمين ومن المنسرين كثير منهم : الفخر الرازى ، والخطيب الشربسى
والنيسابورى فى تفاسيرهم ، ولكن دون ترجيح

أما الزمخشرى ، والنسفى فكلاهما يتضمن تقوية له بأمرين :

الأول : جمع الصمير فى قوله " فتعالى الله عما يشركون "

الثانى : الاتقان على أن آدم وحواء لم يشركا وإنما الذى أشرك أولادهما

قال الزمخشرى : فى معنى قوله تعالى " جملا له شركاء " : بمن أولادهما له شركاء على حذف
المصاع وإقامة المصاع إليه مقامه ، وكذلك " فيما آتاعما " أى أتى أولادهما ، وقد دل على ذلك

بقوله " فتعالى الله عما يشركون " حيث جمع الصمير ، وآدم وحواء يريثان من الشرك ، ومعنى

أشركهم فيما آتاعم الله : تسميتهم أولادهم بعهد العزى ، وعهد مناه ، وعهد الشمس ، وما أشبه

ذلك مثان عهد الله ، وعهد الرحمن ، وعهد الرحيم (١)

وقد اعترض على غذا الوجه بعدة اعتراضات أختار منها ما يأتى والاجابة عنها :

الأول : أن غذا الوجه لا يستقيم ، لأن اشراك أولادهما لم يكن حين آتاعما صالحا ، بل بعده
بأزمنة تتطاوله ويجاب عنه •

بأن كلمة " لما " ليست للزمان المتصايف ، بل لامتداد ، فلا يلزم أن يقع مضمون الشرط والجزاء فى
وقت واحد بل يختلف ذلك باختلاف الأمور

الثانى : ما لقائده فى التثنية فى قوله " جملا له شركاء " فيما آتاعما " على غذا التأويل •

ويجاب عنه : بأن ولده قسمان : ذكر وأنثى فقوله " جملا " المراد منه الذكر والأنثى عبر عنهما مرة بلفظ

التثنية لكونهما صنفين ونوعين ونوعين • ومرة بلفظ الجمع وهو قوله تعالى " فتعالى الله عما يشركون "

الثالث : على غذا التأويل ، وهو أن المراد أولادهما ، ليس كل أولادهما مشركين ، فكيف يأتى

بصيغة الجمع ، وعلى طريق المصوم

ويجاب عنه : بأن غذا من قبيل نسبة نفس الهمزة الى الكل كما فى قوله تعالى " أيتها الصمير

انكم لسارقون " ثم يدل الهمزة على صحة غذا الوجه بحديث الشفاعة ، وإتيان الناس آدم وقولهم

له : أنت آدم أبوا الناس خلقك الله بيده ، وأسكنت بنيه ، وأسجدت لملائكته ، وعلمت الأسماء

كلها ، اشفع لنا الى ربك

فيريحنا من مكاننا هذا فقول : لست هناك ، وبذكر خطيئة التي أصاب : أكله من الشجرة وقد نهي عنهما
ولم يذكر هذه الخطيئة ، ولو كانت تلك الخطيئة ، من آدم عليه السلام كانت أغلظ من الأولى ، فمسلم
أن هذا النص مؤول بأولاد عما (١) .

الوجه الثاني : في دفع الاشكال

أن آدم وحواء لما آتاها الله ذليل الولد السوي الصالح عزما على أن يجزيلاه وفقا على خدمة الله وطاعته
على الاطلاق ، ثم بدا لهما في ذلك ، فكانا ينتفمان به في مصالح الدنيا أحيانا فأرشد بالشرك هذا القدر
وعلى هذا ، فانما قال تعالى " فتعالى الله عما يشركون " لأن حسنات الأبرار سيئات القوم وقد جرى هذا
الوجه ببعض المفسرين : كالفخر الرازي ، والنيسابوري ، وسحر المتكلمين ، كمحمد الكابلي ولكن يبدو لسي
ضمفه من عدة أمور :

أولا : سياق الآية التالية وهي " أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون " إذ ما لا يخلق هنا هم الاصنام
والانتفاع بالولد في أمور الدنيا ليس من قبيل اشراك الاصنام لله في الولد .

ثانيا : أن قيام المرء ببعض أمور الدنيا التي يستخدم فيها الولد الصالح لا يكلفها من طاعة الله ،

فالمسعى في المعاش من الطاعة لله ثم ان الله تعالى استخلف آدم وبنه في الأرض لحمايتها ، والشهوات بها
لا لا نقطاع عنها وتروا استعمالها .

ثالثا : أن قيام المرء ببعض أمور الدنيا لا مفر منه إذ لا غنى عنه ، فكيف يسد ما اغنى عنه من الشرك .

الوجه الثالث :

أن يكون الكلام واردا على الاستفهام والتعجب وذلك أن المشركين كانوا يقولون : ان آدم علمهم
السلام كان يعبد الأصنام ، ويشرك كما تشرك ، فذكر الله تعالى قصة آدم وحواء ردا عليهم وحكى عنهم قولهم
" لئن آتينا صالحا لنكونن من الظالمين " فذكر ان الله تعالى لو آتاها ولدا سويا صالحا لا تشركوا به
تلك القصة ، ثم قال " فلما آتاها صالحا جعل له شركاء " والتقدير : أجعل له شركاء فيما آتاها أي أن
ذلك بعيد ، ثم قال : " فتعالى الله عما يشركون " أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون
بالشرك وينسبونه الى آدم عليه السلام .

ونظير هذا أن ينعم رجل على آخر بوجوه كثيرة من الانعام ثم يقتل : لذلك المنعم : ان الذي أنعمت
عليه يقصد اهدائه ، وإيصال الثواب اليك ، فيقول : فعلت في حقك كذا وكذا وأحسنت اليه بكذا وكذا ثم يقابلني
بالشر والاساءة ، ومراده : أنه بئس من ذلك ومنشئ عنه ، وقد ذكر هذا الوجه الفخر الرازي ، والنيسابوري ،
والألوس في تفاسيرهم دون تملوق .

وأردت أن في هذا الوجه ضمفا من جهة أنه ليس كما يؤيده من الأحاديث والآثار التي ثبتت أن سبب نزول هذه الآية هو قول المشركين إبه آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ، وبشرك كما يدعى أن الآية نزلت لآرد على المشركين في أنفسهم هذا يحتاج إلى سند يؤيده .

وأبضا : لو أن المعنى على الاستفهام ، هو التقدير : أجملا له شركاء فيما آتاهما " فكان تذوول الآية " فتعالى الله عما يشركون " بالتاء ، لآنى صدر الآية خطاب لهم ، أما وإنما بالياء فاستبعد هذا الوجه حيث يؤد إلى تفكيك في الآية .

الوجه الرابع : أن المراد بقوله تعالى " جملا له شركاء " واحد منهما . هو حواء ، وأسند الشر إلى آدم لأنه القائم عليها ، وعليه عيانتهما عن مثل هذا قال محمد الكابلي :

المراد حواء " وقد كثر في كلام العرب نسبة الفعل الصادر عن الواحد إلى الجمع كما قال الله تعالى (نسبا حوتهما " وقال " فلا جناح عليها فيما افتدت به " وأخبر عن الواحد بلفظ الجمع في قوله " جملا له شركاء " مع أن المذاع واحد وهو إبليس ، لأن من أذاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين والدليل على هذا حديث سيرة السابق ، وهو صريح في أن حواء هي التي سميت ابنها عبد الحارث ، وليس آدم فلما غفل عن حالها أسنده إليه فقال عز وجل " جملا له شركاء " . (١)

وأرى ضعف هذا الوجه : — إذا تركنا الكلام عن الحديث جانبا — بأن نوحا ولو طأ عليهما السلام لم يؤاخذا بأشراك زوجتيهما ، ولم ينسب شرك الزوجتين إليهما .

الجواب الثالث

أن الخطاب لجميع الناس ، والضمير في " جملا " و " آتاهما " يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا إلى آدم وحواء عليهما السلام .

وقد ذكر أبو حيان : أنه مذعب الحسن وجماعة فقال : وقال الحسن وجماعة : الخطاب لجميع الخلق ، والمعنى في " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " من هيئة واحدة ، وشكل واحد " وجملا منها

زوجها " من جنسها ثم ذكر حال الذكر والأنثى من الخلق ثمسنى " جملا له شركاء " حرفاء عن الفمارة إلى الشرك كما جاء " ما من مولود الا يولد على الفطرة فليواه خما اللدان يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه

وقال القفال بحو هذه القول — ثم أخذ يعرض قول القفال (٢)

ولكن أفضل أن نسمع قول القفال من الفخر الرازي ، فإنه عرضه بتوضيح أكثر في قوله .

(١) تحفة الأخلاء في عصاة الأبيها — ٤١

(٢) البحر المحيط لأبو حيان ج١ — ٤٣

قال القفال : انه تعالى ذكر هذه القصة على تشبه ضرب المثل ، ويبان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك ، وتشهير هذا الكلام : كأنه تعالى يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها انسانا يساويه في الانسانية ، فلما تنشئ الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة بهما : لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لتكونن من المشركين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاها الله ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد الى الطهاج ، وهم الطهاجيمون ، وتارة الى الكواكب ، كما وقول النجميين وتارة الى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام ثم قال تعالى : فتعالى الله عما يشركون " أى تنزه الله عن ذلك الشرك .

وهذا القول يعجب البصير ، بل نرى من حكم عليه بأنه في غاية الصحة والسداد كالفخر الرازي (١) ومن رجحة كمحمد الكابلي (٢) ، وكالقرطبي " الذي ذكر فيه قول عكرمة : لم يخسر بهما آدم ، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم ، وقول الحسين بن الفضل : وهذا أعجب السى أهل النظر (٣) .

ولكن يستبعد به بعض آخر من المفسرين ، ويرون أن الجهاد من صدر الآية آدم وجواه ، ومنهم الآلوس الذي نقل عن الحسن وقتادة : أن ضمير " جعلنا " و " آتاها " يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا الى آدم وجواه عليهما السلام ، ثم نسب هذا القول الى الأصم (٤) ، واتى عتق بأن الآية في آدم وجواه ، وأن هذا هو الظاهر ، وأما الذهاب الى غيره ففيمتلك وقريب من هذا المعنى ما اختاره ابن المنير في الانتصاف على الكشاف وهو .

الجواب الرابع

أن يكون الفرد جنس الذكر والأنثى لا يقصد فيه الى محين ، والمعنى : خلقتكم جنسا واحدا ، وجعل أزواجكم منكم أيضا ليستكنوا اليهن ، فلما تنشئ الجنس الذكر والأنثى ، وهو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة الى الجنس ، وأن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم ، فجاز أن يضاف الكلام الى الجنس على طريقة قتل بنوتميم فلانا .

وإنما قتله بعضهم ، يعنى نسبة ما صدر من البصير الى الكل (٥) .
ومثله قوله تعالى " ويقول الانسان أئذا مات لسوف أخرج حيا " و قتل الانسان ما أكفره " الى غير ذلك وهذا القول قد حسنه البصير كالقرطبي الذي حكاه ثم عمل عليه وحسنه فقال :
وقال قوم : ان هذا راجع الى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام وهو الذي يحصل عليه ، فنقله " جعلنا " يعنى الذكر والأنثى الكافرين ، ويعنى به الجنسان

(٤) روح المعاني ج٣ ص ١٨٤ .

(١) مفاتيح الشيب ج٤ ص ٣٤٢ .

(٢) تحف الأكلأ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) الانتصاف على الكشاف ج٢ ص ١٤٦ .

(٤) تفسير القرطبي عدد ٣١ ص ٢٧٧ .

أن الخطاب لمشركي العرب

وقد حكاه أبو حيان بقوله : وقيل الخطاب بخلقكم خاص وهو لمشركي العرب كانوا يقربون المولود للآلات
والمزى والأصنام بتركابهم في الابتداء ، وينقطعون بأملهم إلى الله تعالى في ابتداء خلق الولد
إلى انفصاله ثم يشركون فحصى التمجيد منهم (١)

وهذا القول ظاهر الضعف ، إذ كيف يقربون المولود للأصنام ويكون أمليهم في الله تعالى وحده

أن من يعرفونه لا يتبرك بالأصنام ، ومن ينقطع بأمله إلى الله لا يشرك بهد ذلك بل يصح القول
أن هذه الرأى أضعف من الذي قبله .

وأظهر منهما في الضعف : القول : بأن انضمير في " له " للولد ، والمعنى عليه : انهما طلبا من الله

تعالى أمثالا للولد الصالح الذي آتاهما .

والقول الآخر الذي يجعل الضمير " له " للإله ، والمعنى عليه : جملا لا يلبس شركاء في اسمه ،

حيث سميا ولدهما بعهد الحارث ، وكلا القولين في غاية الضعف لكني ذكرتهما استيفاء للأقوال .

الجواب السابع

أن المراد بالنفس الواحدة آدم ، وزوجها المجهول منها حواء ، والذي طلبه آدم وحواء من اللسة

صالحا النسل بصفته الذكور والاناث فلما أعطاهما الله النسل الصالح ، جعل ذلك النسل الصالح

إسوي بصفته المذكور والاناث لله شركاء من الأصنام والوثان فيما آتاهم من الأولاد فتعالى الله عن شرك

المشركين من هذا النسل .

قال الخطيب الشربيني : في معنى قوله تعالى " فلما آتاهما صالحا جملا له شركاء فيما آتاهما "

" فلما آتاهما صالحا " جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدنا وقوة وهقلا فكثروا في الأرض ، وانتشروا

في نواحيها ذكورا واناثا " جملا " النوعان من أولادهما : الذكور والاناث ، لأن صالحا صفة للوالد

وهو الجنس ، فيشكل الذكر والانثى ، والقليل والكثير فكانه قيل : فلما آتاهما أولادا صالحا الخلقة

من الذكور والاناث جعل النوعان " له شركاء " بعضهم أصناما ، وبعضهم نارا ، وبعضهم شمسا ،

وبعضهم غير ذلك .

ثم قال : ويدل عليه قوله تعالى " فتعالى الله عما يشركون - أي يشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون

أي الأصنام (٢) .

وهذا القول الأخير اختاره على غيره من الأقوال لهذه الأسباب

أولا : أن المتبادر من صدر الآية أنه في آدم وحواء ، وأنهما اللذان — لما أثقلت حواء — سأل الله أولادا صالحى الخلق ووعدها الشكر عليها ، ولا يحق وآدم بنى باتفاق أن يخلف وعده مع الله وأن يشرك بالله فيما آتاه — أولون من الشرك — لأن الأنبياء معصومون عن ذلك بعد الوحي وقبله وأن آدم عليه السلام كان يعرف اسم ابلوس ، فهو قد علمه الله الأسماء كلها ، فكيف يسي ولده باسم ابلوس عدوه الذى تسبب فى مخالفته النهى بالأكل من الشجرة ، وإعماه له على أثر ذلك من الجنة أنيف بعد كل هذا ينقاد له ، ويسى ابنه باسمه .

ثانيا : حديث الشفاعة يدل على أن آدم لم يشرك — أى شركه — إذ لو كان لا اعتذر عن الشفاعة الى الله به كما اعتذر بالأكل من الشجرة ، والشرك أظلم من الأكل من الشجرة ، فهل يحقل أن يحتذر آدم عليه السلام بالأخف ويتره الاعتزاز بالأشد والأقلم ؟ كلا

فهذا يدل على أن آدم عليه السلام لم يشرك — أى شركه — وإنما الذواتى بالقرآن نسل آدم وحواء ولده فولد الولد ما تناسلوا .

ثالثا : أن الآية على هذا القول تكون متناسبة مع ما سبق فى مطلع السورة من قوله تعالى " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين " حيث يكون فسى هذه نوع من التفصيل لما أجمل فى قوله " ولقد خلقناكم ثم صورناكم " التى هى بمعنى : خلقنا أبائكم آدم طيفا غير مصور ثم صورناه أهدج تصوير ، وأحسن تقويم سرى الهكم جميعا .

رابعا : أن سألها الذى طارده ، ووعدها عليه الشكر صفة لموصوف محذوف يصح أن يكون نسلا ويصح أن يكون ولدا ، والولد : جنس يشمل الذكر والأنثى ، والقليل والكثير ، فعندما ما يجرى الكلام عليه بعد ذلك بضمير التثنية ، فالمقصود النوعان : الذكور والإناث وان صح أن حواء كانت تلد فى كل مرة ذكرا وأنثى فالأمر واضح وعندما يجرى الكلام عليه بضمير الجمع ، فالمقصود النسل الصالح ، والأولاد الصالحون .

خامسا : أن فى هذا القول غنية عن الحذف ، وعن التحلات البعيدة فى الأقوال الأخرى .

الفصل الثاني

شبهات حول نوح عليه السلام

اتار الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام على نوح شبهات اهمها :

سؤال نوح ربه نجاة ابنته الكافر مع ان الله قد نهاه ان يطلب منه انجاء احد من الكافرين وقد تمسكوا فيها بظاهر قول الله تعالى * وناد نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين - قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين - قال رب اني اعوذ بك ان اسالك ما ليس لي به علم والانتخرف لسي وترحمني اكن من الخاسرين * (١)

وتوضيحا لهذه الشبهة والاجابة عنها اقدم بين يدي ذلك بمقدمة على النحو التالي

ارسل الله عز وجل نوحا عليه السلام الى قومه ليدعوهم الى عبادة الله وحده فلما بلغ رسالة ربه ونصحهم رفضوا دعوته ونصيحته وزعموا انه عليه السلام لا يستحق ان يكون رسولا اليهم لانه بشعر مثلهم ولو شاء الله ارسال رسول اليهم لانزل ملكا من الملائكة وان الذي دعا نوحا الى هذا هو رغبته في ان يتفضل عليهم ويكفوا اتباعا له ولم يشن تكذيبهم فواصل تأدية الرسالة ولبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما ولكن لم يزد هم ذلك الا فرارا من دعوته فأوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومه الا من آمن وحان وقت الانتقام بالاغراق بالطوفان ثم نهى الله تعالى نوحا عليه السلام عن ان يطلب من الله دفع المذاب عنهم ومراجعة في نجاة احد من الذين كفروا لانه قد حكم على كل الكافرين بالخرق وامره ان يصنع السفينة لينجو عليها من الخرق هو ومن آمن معه وركب نوح عليه السلام ومن آمن معه ومن كل زوجين اثنين وجرت السفينة بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه كمان اوصام ليركب في السفينة وينجو مع الناجين فأبى ظانا انه يستطيع ان ينجو من الخرق بالالتجاء الى جبل عال يحويه فدعا نوح ربه ان ينجي ابنه * رب ان ابني من اهلي * اي وقد وعدتني انجاءهم في ضمن قولك * احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك * فرد الله تعالى عليه : بان هذا الابن الذي سأل نجاة ليس من اهله الذين وعده ان ينجيهم معه لانه ذو عمل غير مرضى وهو الشريك ونهاه ان يطلب منه مطلبا لا يحلسم يقينا ان حصوله صواب ووافق للحكمة فاستمات نوح عليه السلام بربه من ان يطلب منه بعد هذا مطلبا لا يعلم ان حصوله مقضى الحكمة وطلب من الله ان يغفر له هذا ويحمل توبته منه

الشبهة الاولى

ان هذه الآيات تفيد صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام من وجهين : الكذب ومخالفة النهي الاول : وهو الكذب فذلك ان الله تعالى رد عليه قوله * ان ابني من اهلي * بقوله * انه ليس من اهلك

فيكون قول نوح هذا كذبا والكذب محصية

والثاني : ان نوحا عليه السلام سأل ربه نجاة ابنه المتضمن في قوله " رب ان ابني من اهلي " وهو مصيبة لعدة امور :

الاول : انه نهى عن هذا في قوله " ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مفروقون " فيكون طلب اجاب احد من الكافرين مصيبة وابنه كافر بدلالة قوله " ساوى الى جبل يحصني من الماء " الثاني : ان قوله تعالى " فلاتسألن ما ليس لك به علم " يدل على ان ذلك السؤال كان قد صدر لاعن العلم والقول بخير العلم ذنب فيكون السؤال ذنبيا الثالث : ان نوحا عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمصيبة في هذا المقام فانه قال : اتسى اعوذ بك ان اسالك ما ليس لي به علم والاتخرف لي وترخص اكن من الخاسرين " واعتزاه بذلك يدل على انه كان مذنبيا .

الجواب عن الشبهة

يدفع الوجه الاول من الشبهة : بان نوحا عليه الصلاة والسلام لم يكذب في قوله " ان ابني من اهلي " فهو ابنة حقيقة لصلبه لقول الله تعالى " ونادى نوح ابنه " واما قوله تعالى " انه ليس من اهلك " فمعناه : واحد من اتيين : اما : انه ليس من اهل دينك فمدار الاهلية هو القرابة الدينية وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة به من مسلم وكافر ولذا لا يتوارثا وحكى هذا عن ابن عباس واما : انه ليس من اهلك الذين امرتك بحطهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وحكى هذا عن ابن جرير وكبريته .

وعلى القولين : ليس من اهلك الذين وعدتك بانجاتهم وهذا تحقق ان نوحا لم يكذب حتى يكون قد ارتكب المصيبة (١) وهذا يندفع قولان : احدهما ضعيف والآخر اشد ضعفا : الاول : انه كان ابن امراته من زوج آخر واطلق عليه لفظ الابن لاختلاطه بابنائه واهل بيته ولهذا قال : ان ابني من اهلي ولم يقل " مني " (٢) وهذا القول ضعيف للتصريح انه ابنه لصلبه في قوله " ونادى نوح ابنه " .

الثاني : الذي بلغ غاية الضعف وهو : ان ابن نوح كان من الزنا ونسب هذا القول الى الحسن وسجاهد ومجيد بن عبيد وانه مستفاد من

١ - نفى انه من اهل نوح " انه ليس من اهلك "

٢ - ومن انه عمل غير صالح " انه عمل غير صالح "

والاحتجاج له بقوله الله تعالى عن امرأة نوح وامرأة لوط " فخانتاهما "

وقد سبق تحقيق معنى " انه ليس من اهلك " بالايدع مجالا للقول بانما بين زنا

(١) مفتاح الغيب ج ٥ ص ٦٥ لا روح المحاني ج ٢ ص ٥٦٢ (٢) عصمات النبياء للرازي ص ٢١

وأما الضمير في قوله تعالى * انه عمل غير صالح * فانه يستبعد عودة الى ترك الركوب معهم الذي
تقديره : ان ترك الركوب عمل غير صالح لانه خلاف الظاهر
ويستبعد أيضا عودة الى سؤال نوح عليه السلام الذي تقديره : ان سؤالك هذا عمل غير صالح
لانه يخرج الكلام عن ان يكون على مساق واحد
والصحيح عودة الى ابن نوح وتقدير الكلام : انه ذو عمل غير صالح فحذف المضاف وجعل نفس الممثل
مبالغة لمدادته عليه ونظير ذلك قول الخنساء اخذت صخر تصف ناقة فقدت ولدها بموت او نحر
ترعى اذا غفلت حتى اذا الوكرت * فانما هي اقبال وادبار

اي ذات اقبال وادبار

واشهر * غير صالح * على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون
نصا فيها هو من قبيل الفاسد المحض كالظالم
وأما للتلويح بأن نجاة من نجا انما هي الصلاح
ويتأيد هذا بقراءة الكمائي ويعقوب * انه عمل غير صالح على صيغة الفعل الماضي ونصب غير والاصل
عمل عملا غير صالح اي من الكفر والتكذيب فحذف الموصوف واقيمت صفته مقامه وذلك شائع مطرد عند
وضوح المعنى وزوال اللبس (١)

وأما قوله تعالى عن امرأة نوح وامرأة لوط * فخانتاهما * فليس المعنى انهما خانتا زوجيهما بالزنا
فمازنت امرأة نبي قط وقد اتفق ائمة التفسير على ان الخيانة راجعة الى الدين لا الى الفراش
قال القرطبي : والمقصود الخيانة في الدين لا في الفراش وذلك ان امرأة نوح كانت تقول للناس : انه
مجنون وذلك : انها قالت له : اما ينصرك ربك ؟ فقال لها نعم . فقالت : فمتى ؟ قال : اذا
فار التنوير فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله انه لمجنون يزعم انه لا ينصره به الا ان يفور
هذا التنوير فهذه خيانتها وخيانة امرأة لوط انهما كانت تدل على الاضيق (٢)

وقال الامام الرازي : القول الثالث : انه ولد على فراشه لغير رشدة والقاطنون بهذا القول اجتمعوا
بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط * فخانتاهما *
وهذا قول خبيث يجب صون من نصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو على خلاف نص القرآن
اما قوله تعالى * فخانتاهما * فليس فيه ان تلك الخيانة انما حصلت بالسبب الذي ذكره قبل لابن
عباس رضي الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ؟ فقال : كانت امرأة نوح تقول : زوجي مجنون وامرأة
لوط تدل الناس على ضيقه اذا نزلوا به
ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى * الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات
والطيبات للطيبين

والطيبون للطيبات وأيضاً قوله تعالى " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين " (١)

وقال العلامة أبو السعود : وما يقال من أنهما ليسا زانية ولا زاناً لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما " فارتكبا عظيمَةً لا يقادر قدرها فإن جناب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أرفع من أن يشار إليه بأصبع الطمأن وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين (٢)

ومثل هذا ذكره أيضاً العلامة البيضاوي في تفسيره للآية السابقة وكذلك العلامة الألبوسي في تفسيره لها فهذه أقوال بمضائة التفسير تستبعد إمكان أن تزني أحد نساء الأنبياء ولكن ناقش الأستاذ عبد الوهاب النجار هذا المبدأ وقرر جواز أن تزني امرأة نبي فليمت نساء الأنبياء معصومات من الزنا مع التسليم بأنه لم يقع الزنا من واحدة منهن حتى امرأة نوح عليه السلام وقاسه على الكفر الذي هو أشد من الزنا واعترضت عليه " لجنة مناقشة كتابه " قصص الأنبياء بأن نساء الأنبياء معصومات من الزنا ولا يصح قيا من الزنا منهن على الكفر لأن كفر المرأة وإن كان أكبر الكبائر لا يعود ضرره إلا عليها ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس فيجوز أن تكون امرأة النبي حيث لا يكون في كفرها عار عليه أما الزنا فإنه وإن كان أصغر من الكفر لا يقتصر ضرره عليها وحدها بل يلحق الزوج بسببه عار وفضيحة بين الناس في مطرد المادة بحيث يكون بحالة لا يستطع معها مجالسة الناس (٣)

وعلى أي حال فيما دام الطرفان قد اتفقا على أنه لم يقع زنا من امرأة نبي فهذا يمكننا وتحقق به مقصودنا أما الخلاف حول جواز أن تزني امرأة نبي أو عدم جوازه فلاياتي بظايل ولا ينتهي الأخذ والرد فيه عند حد حيث تكثر استدلال كل فريق على مذهبه وتكثر أيضاً اعتراضات الفريق الآخر عليه بظلال فائدة منه ما دام قد اتفق على أنه ما زنت امرأة نبي قسط

ومستند عدم وقوع الزنا من أحد نساء الأنبياء النقل والعقل
أما النقل فالآيات القرآنية الدالة على هذا كآيات التي نزلت ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها ما رويته زوراً وهتاناً في سورة النور " أن الذين جاءوا بإفك عصبه منكم لا تحموه شراً لكم بل هو خير لكم " لايات .
وأما العقل : فلأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبعوثون إلى الكفار لدعوتهم إلى سبيل الله فلم ينكحوا إلا ما ينكح الكفار منهم ومن أعظم المنفرات من أنسان أن تكون زوجته مسافحة فزنتها نساء الأنبياء لو وقع ينفر من اتباعهم ويخل بحكمة البمثة كدناءة الآباء وعبر الامهات
ولست وافق من قال : إن عار الزنا المرأة لا يلحق الزوج إلا إذا اشتهر منها وعلم به زوجها وأبقاها
في عصمتها

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ج ٣ ص ٢٣

(١) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ٢٣٢
(٣) قصص الأنبياء ص ٣٨ وما بعدها

بخلاف حصوله فلتة او خفية ولا يعلم به احد ولا الزوج فالتلحقه هجنة به (١)

لان الزنا اولا سبها حاول مرتكبوه اخفاءه وحياطته بسياج من السرية لا بد ان ينكشف امره للناس ويعرفونه بامارات وقرائن لا تنفك عنه

وثانيا : في الزنا وان لم يعلم به الزوج عار عليه ويؤدي الى احتقاره والنفرة منه لانه يدل من جهة على ضعف الرجل جنسيا وعدم قدرته على اشباع هذه التفرقة عند زوجته والانبياء عليهم الصلاة والسلام اوتوا قوة في هذه الناحية تفوق قوة غيرهم من سائر البشر بحضد هذا قول سليمان عليه السلام فيما رواه البخارى ومسلم " لا طوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تحمل بفارس يجاهد في سبيل الله ومن جهة ثانية على غفلة الزوج وسلاسته الى الحد الذي جعل زوجته تخونه مرارا ولا يشمس بذلك والانبياء عليهم الصلاة والسلام اوتوا حدة الذكاء وقوة الفطنة

وعلى هذا فالزنا يلحق الزوج بسببه عار ويجعله محل الاحتقار والهزء به والنفرة منه علم او لم يعلم لهذا حفظ الله تعالى نساء الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الزنا حتى لا يعود ذلك بالانتقاص والاخلال بمهنتهم في دعوة الناس الى الله

ولكن هل كان نبينا صلى الله عليه وسلم يعلم قبل ان تنزل الايات ببراءة عائشة رضي الله عنها ما رميت به مرجع المسلمين من غزوة بني المصطلق ؟

قد يفهم من موقف النبي صلى الله عليه وسلم ازاء هذا الحدث قبل نزول ايات البراءة ألا انه يجوز أن يقع الزنا من نساء الانبياء فانه استشار بعض الصحابة في الامر وايضا : قال لها فيما رواه البخارى : اما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت برئمة فسيبرك الله وان كنت الميت بدت فاستغفري الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب الى الله تاب الله عليه ٠٠ (٢)

اذ لو كان الرسول يعلم بأن نساء الانبياء لا يقع الزنا من احداهن لبادر الرسول صلى الله عليه وسلم باعلان الناس بذلك عندما جاء المبطلون بالافك

ولما طلب منها ان تستغفر الله تعالى وتتوب اليه ان كانت قد التمت بهذا الذنب ولما عراه الهم وضيق الصدر من لهذا البهتان

وقد قيل بهذا ووجه الالوس وذكر : ان ذلك لحكمة الابتلاء وغيره مما الله تعالى اعلم به وعدم العلم بمثل ذلك لا يقدح في منصب النبوة وان قو الصحابة الكرام رضي الله عنهم عندما سمعوا ما قاله اهل الافك " سبحانك هذا بهتان عظيم " لم يكن ناشئا الا عن حسن الظن في الصديقة بنت الصديق

(١) الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الانبياء ص ٤٢ وما بعدها

(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٧

لأنه لا يحرم القار والقبور • ولا يرد به شيء من الأباطيل (١)

ويصح القول أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بعدم جواز وقوع الزنا من إحدى نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنه يؤدى إلى النفرة التي تنفوت الغرير من البهمة ، والطريقة التي التزمها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ظهرت براءة زوجته كانت هي الطريقة المعتادة التي يتخمس بها باطل أهل المشركين قال الألوسي : وجزأ أن يدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بعدم جواز فجور نساء الأنبياء عليهم السلام لما فيه من النفرة المخلة بحكمة البهمة • لكن أراد عليه الصلاة والسلام أن يظهر أمر براءة السديقة رضى الله عنها ظهور الشمس في رابعة النهار • بحيث لا يبقى فيه غفاه عند أحد ممن السحابة الكرام رضى الله عنهم وما عراه من الهم إنما هو أمر طبيعي حصل بسبب خوض المنافقين • ومن تبصمهم • وشيوع الباطل بين الناس (٢) •

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يضيق صدره أحيانا من أقوال الكفار مع علمه بهطلانها قال تعالى • ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون •

وأرجح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم براءة زوجته • إذ لا تنزل امرأة نبي • لكن لم يبادر بإعلان الناس بذلك لأنه لم أعلنهم بذلك قبل أن تنزل الآيات به • لما أقتح اليهود والمنافقون الذين يحملون على إثارة الفتن والبلبلة بين المؤمنين • ولتزدادوا من خوضهم • وضاعفوا من تشكيكهم في الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا بأنه يحاور تبرئة زوجته والدفاع عنها • وسيقولون ونفسها : لو كانت عائشة بريئة لبرأها الله • أما وأن الله لم يبرأها • وإنما برأها زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم • فما هو إلا دفاع الزوج عن زوجته • نفيا للكار عن نفسه •

وهذا يقرنون في حملات التشكيك بالظمن في عائشة الظمن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انتظار أن يبرىء الله زوجة نبيه بقرآن يتلى إلى يوم الدين • فهو الذي يقطع الطريق على المنافقين ومن يدور في فلكهم فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا إلى الظمن في رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأما سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر عائشة • وطلبه منها الاتقار إن كانت قد فعلته وسؤال من حولها عنها • فذلك سيرا على الطريق المعتاد في مثل هذا الأمر • وحتى يكون مشهجا للناس يسعون عليه • وما يعضد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم براءة زوجته قبل تنزل آيات البراءة : أن تزوجه بها كان بأمر من الله تعالى • روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : • أريتك في المنام مرتين • • أرى أنك في سرقة • قطعة • من حبيب ويقول : هذه امرأتك فأكشف فإذا هي انتفاقون : أن يك هذا من عند الله يعضه • (٣)

(١) روح المعاني ج ٦ ص ٣٨

(٢) روح المعاني ج ٦ ص ٣٨

(٣) صحيح البخارى ج ٢ ص ٢١٤

وفي رواية الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاني جبريل فقال : ان الله قد زوجك بأبنة ابي بكر ومعه سورة عائشة (١) . فكيف يزوجه الله بها ويجوز ان يبق منها الزنا ؟
ثم ان عائشة رضی الله عنها هي التي كان ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واياها في لحاف واحد ولم يحدث ان نزل الوحي عليه وهو مع غيرها ؟

روى ابن سعد والطبراني برجال الصحيح وابن ابي شيبة ان عائشة قالت : أعطيت تسعاً خلال ما أعطيتها امرأة ، والله ما أقول هذا فخراً ، نزل الملك بصوتي ، وتزوجني لسبع واهدت اليه تسع ، وتزوجني بكراً وكان الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد ، وكنت أحب الناس اليه ، وكنت أحب الناس اليه ، ولقد نزل في آيات من القرآن ، وقد كادت الامة تهلك في ، ورأيت جبريل ولم يره احد من نساءه غيري ، وقهرني بيته لم يله احد غيري وغير الملك (٢) .

واما سؤال نوح عليه السلام به نجاته ابنته فليس معصية ، وانما هو من قبيل مخالفة الاولى ، او الخطأ في الاجتهاد ، ومخالفة الاولى ، والخطأ في الاجتهاد ، ليس معصية ولا يطعن بأي ضمير في عصية الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبيان ذلك على النحو التالي :

سؤال نوح عليه السلام به نجاته ابنته المتضمن في قوله " رب ان ابني من اهلي " اما ان يكون قبل الفرق أو بعده والسؤال حينئذ استعلام عن موجب اغراقه .

ذهب البعض الى انه كان يعد الفرق ، ومنهم المفسر الجليل ابن كثير الذي قال : هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي فرق " قال رب ان ابني من اهلي " أي قد وعدتني بجاته اهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف فكيف فرق وأنت احكم الحاكمين " قال يا نوح انه ليس من اهلك " اي الذين وعدت انجاءهم ، لاني انما وعدتكم بجاته من آمن من اهلك ، ولهذا قال " واهلك الا من آمن عليهم القول منهم " فكان هذا الولد من سبق عليه القول بالشيء كفره ، ومخالفته اباديني الله نوحا عليه السلام (٣) .

حجة هو لا :

ان قوله تعالى " وحال بينهما النوح " بعد ان دعا نوح عليه السلام ابنته الى الركوب في السفينة وأبى الابن معتدا على انه يستطیع الاعتصام من الفرق بجبريل يأوي اليه ، يفيد ذلك .
وذهب فريق آخر الى انه كان قبل الفرق ، ومنهم الملامة المفسر أبو السعود والالوسي ، اللذان عللا ما ذهبا اليه بأنه لو كان السؤال بعد الفرق عن موجب اغراقه لما نهى الله نوحا عليه السلام عن استفسار ما لم يعلم " فلا تسألن ما ليس لك به علم " فان النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشيء داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه (٤)

(١) شرح الزرقاني على المواهب ج ٣ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ (٢) شرح الزرقاني على المواهب ج ٣ ص ٢٦٦

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ (٤) تفسير ابن السعود ج ٣ ص ٢٥

والذى ارجحه هو : ان السؤال كان قبل الفرق ، وما استند اليه التريق الاول مردود بأنه لا يلزم من خيلولة الموج بينهما القطع بهلاك الابن ، لأنه قد يكون ظهوره خطأ في كرهه وأعماده على جبل يصيبه من الفرق ، نراجع نفسه وعرف الحق فآمن فيتداركه الله برحمته ونجيه خاصة ، وان عادة الناس قد جرت بسؤالهم وتخليص من صه الشر ، فاذا استحکم وعكس به من هلك ، كف السالمون عن الدعاء للهلكين ، ولا يسألون ربهم لماذا أهلكهم ؟ .

كالمريض يدعو الناس بشفاؤه فاذا مات لم يقولوا : يارب لماذا اهلكه ولم تشفه .
وعلى الراجح : وهو ان السؤال كان قبل الفرق فلا يخلو الامر من أن يكون نوح عليه السلام يحلم بكفر ابنه أو لا يحلم بكفره وانما يمتدق ايمانه ، لأن الابن كان منافقا يدهر الايمان ويبطن الكفر ذهب الى القول الثاني ، وهو أن ابن نوح كان منافقا ، ولا يحلم نوح بذلك كثير من العلماء ، ومنهم المتريدي الذى قال : ظن نوح أن ابنه على دينه ، اذ كان يظهر له ذلك ويبطن كرهه نفاقا هنالك والا لما أتى له أن يقول " ان ابني من اهلي " (١)
والشهاب الخفاجي ، وعلى القارى ، وكثير من الفسوف أمثال الزمخشري ، والخطيب الشرويني والقرطبي ، وابن القيم الذى قال : لم يكن نوح كاشفا لحال ابنه ، ولا مطلقا على باطن أمره ، بل ممتقدا بظاهر الحال أنه مؤمن (٢) .
وحجتهم :

ان الله تعالى نهي نوحا عليه السلام قبل سؤاله هذا أن يسأله نجاة احد من الكافرين ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم متفرقون ، فلا يلى معنى " ليه السلام أن يسأل ربه نجاة ابنه مع علمه بكفره .
ويرى هؤلاء العلماء : أن قوله " ولا تكن مع الكافرين " لا يدل على انه كافر عنده ، بل القصد به النهي عن الدخول في غمارهم ، والقطع بأن ذلك يوجب الفرق .

وأن اعتزال ابن نوح عنه ، وقصده الالتجاء الى الجبل ليس ينصرفي الاصوار على الكفر ، لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في القلت ، وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه (٣) .
وكون معنى قوله تعالى " فلا تسألن " ما ليس لك به علم " على هذا هو : فلا تطلب منى نجاة ابنك بناء على انه مؤمن ، فليس لك علم بحاله اذ هو كافر ، وأنا الذى اعلم كرهه .
وعلى هذا فسؤال نوح عليه السلام نجاة ابنه - بناء على علمه بايمانه - الذى هو غير الواقع فيه ترك للدولى اذ كان عليه وقد ظل يدعو الى الله سنين طويلة أن يعرض حاله من آمن ، ومن لم يؤمن ، وخاصة ابنه الذى له به مزهد اتساع ومخالطة ، فالقرائن والامارات الكاشفة عن أحوال الناس فى الايمان والكفر لا تخفى على من خالطهم مثل هذه الفترة الطويلة ، وخاصة من له بهم مزهد اتساع ومخالطة كاهله

(١) شرح الشفا لعلى القارى ج ٤ ص ٣٤ (٢) الانتصاف على الكشاف ج ٢ ص ٣١٣
(٣) ربي الممانى ج ٣ ص ٥٦٣

فلما خفي عليه هذا كان مخالفاً للقول فيه .

قال الزمخشري : ان الله عز وجل قدم لنعى الوعد بإنجاب اهلته ، مع استثناء من سبق عليه القول منهم فكان عليه أن يعتقد أن في جملة اهلته من هو مستوجب للمذاب ، لكونه غير صالح ، وان كلمهم ليسوا بناجين ، والا تخالجه شبهة حين شارف ولهم الخوف في انه من المستثنين ، لا من المستثنى منهم فموتب على أن أشبهه عليه ما يجب الا يشته (١) .

وسماه البصر خطأ في الاجتهاد كالخطيب الشريفي الذي ذكر : أن قوم نوح كانوا على ثلاثة اقسام كافر يظهر كفره ، ومؤمن يخفي ايمانه ، وموافق لا يعلم حاله في نفس الامر ، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة ، وحكم الكافرين هو الخوف ، وكان ذلك معلوماً ، واما أهل النفاق فيبقى أمرهم مخفياً ، وكان ابن نوح منهم ، وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المنويّة التي تكون للاب في حق الابن تحمله على حمل اعماله وانماله لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة فأخيراً في ذلك الاجتهاد (٢) .

ورغم كثرة القائلين بهذا الرأي - وهو نفاى ابن نوح - فأننى ارى ضعفه ، وذلك للأسباب الآتية :
الاول : أن نوحاً عليه السلام ، وهو نبي مقرر الارشاد والقيام بالعباد الدعوة تلك المدة المتطاولة لا يشتهه عليه كلام المسترشد من المعاند ، ولا يفوته العلم بحال ابنه من ايمان أو كفر ، خاصة وانه شديد السلطة به .

الثاني : أن اعتزال ابن نوح عنه وصدده الالتجاء الى الجبين ، وتسميته عليه بعد أن قال له ابوه " لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم " يرجع مجاهرة الابن بالكفر ، والاصوار عليه ، خلافاً لما رآه البصر من انه ليس بمنع في الاصوار على الكفر ، لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفلك ، وزعمه أن الجبل يجرى مجراه .

لأن المقل عند الموازنة بين أن يكون اعتزال الابن وصدده الالتجاء الى الجبل راجعاً الى الاصوار على الكفر وبين أن يكون راجعاً الى الجهل بانحصار النجاة في الفلك يرجح أنه راجع الى الاصوار على الكفر والمجاهرة به .

الثالث : أن قول نوح عليه السلام لابنه " ولا تكن مع الكافرين " واضح في أن الابن كان مجاهراً بالكفر والقول بانه لا يدل على أنه كافر عنده ، بل هو نهى عن الدخول في فخارهم ، وقطع بأن ذلك يوجب الاخرى موجوب .

رابعا : لو كان نوح عليه السلام يعتقد ايمان ابنه ، لساو وهو سأل ربه نجاته " رب ان ابني مؤمناً والله قد علمه بنجاة المؤمنين من اهلته ومن غيرهم في ضمن الامر بحملهم في الفلك في قوله تعالى " قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن " وانما سأل قائلاً : (رب ان ابني من اهلي " ورد الله عليه " انه ليس من اهلك " ولو كان ابنه منافقاً لقال له الله " انه

" ليس من أهلك " انه منافق ، يدل انه عمل غير صالح .

وهذا ظهر ضمما لقول أن ابن نوح كان منافقا ، وثبت رجحان انه كان كافرا مجاهرا بكفره .
وهنا يدور الامر بين أن يكون نوح عليه السلام سأل ربه نجاة ابنه الكافر بشرط الايمان ، وبين أن يكون سأل نجاة لمجرمه أنه من اهله .

قيل : بانثاني ، استنادا الى نسخة السؤال في قوله " رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق " فهي تفيد أن النهر لنوح عليه السلام في سؤاله نجاة ابنه الكافر هو : انه من اهله ، وقد وعده ربه انجاء اهله ، فهو يستنجز وعد الله بذلك .

وأعذر القائلون به عن نوح عليه السلام بأحد اعتذارات ثلاث :

الأول : أنه عليه السلام أخذ فيها بتأويل ما وعده الله به من انجاء اهله ، فإن ربه يرصد بأهله ما يشمل ابنه الكافر ويظاهر لفظ الاهل من غير نظر لحقيقته ، قال علي القاري :

" وكأنه صرف الاستثناء الى غير اهله " فبين الله تعالى له : أنه ليس من أهله الذين وعده

الله بتجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح ، فانه فاطح للقراية القريبة ، ولذا مضى الارث بالكفر واختلاف الملل وقيل : سلمان منا أهل البيت ، فآخذاه الله بهذا التأويل ، وعاتبه على مخاطبته له بقوله " اني اعطتك أن تكون من الجاهلين " فنسبه للجهاز زجرا له - ولله أن يخاطب بخلص عباده بما أراد - لانه حين وعد بنجاة اهله أستثنى من سبق عليه القوم من الفاجين ، لا سيما وابنه كان بممزل منه ، ففى دلالة الحان ما يفنى عن السؤال (١) .

الثاني : أنه غلب على نوح عليه السلام الشفقة الوالدية التي هي مقضى طباع الوالدين مع اولادهم قال القاسمي : ان نوحا حملته شفقة الابوة وتمطى الرحم والقراية على طلب نجاة لشدة تعلقه به واهتمامه بامره ، وقد راعى مع ذلك أدب الحسوة ، وحسن السؤال فقال " وان وعدك الحق " ولم يقل : لا تخلف وعدك بانجاء اهلي (٢)

الثالث : أن نوحا لم يكن يعلم أن سؤاله نجاة ابنه الكافر محظور عليه حتى اعلمه الله بذلك نقل هذا الالوسي عن الواحدى فقال : وزعم الواحدى : أن السؤال قيل الفروق ، ومع العلم بكومره ، وذلك أن نوحا عليه السلام لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة ولفه محظور عليه مع اسراره على الكفر حتى اعلمه الله تعالى ذلك (٣) .

وهذا القول مرجوح في نظري .

اذ كيف يطلب نوح عليه السلام نجاة ابنه الكافر ، وقد نهاه الله عن طلب دفع العذاب عن الكافرين

" ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرورون " وأمره أن يحمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين وأهله الا من سبق عليه القوم ومن آمن " قلنا أحصل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول " ومن آمن ، وذلك واضح في أن من سبق عليه القوم بالكفر لا يحمل في السفينة ولا يحق لنوح

(١) نسيم الرياص للشهاب الخفاجي وشرح علي القاري ج١ - ٢٠٨

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ج١ - ٣٤٤٨

(٣) روح المعاني ج٣ - ٥٦٤

• عليه السلام أن يطلب نجاة

وما اعتذربه من أن شفقة الأنبياء عند نوح حملته على أن يطلب نجاة ابنه مردود • بأن طبع الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصح أن يحاربوا نصوصاً دينية محددة • وقصة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأمر الله له في المنايا أن يذبح ابنه • وسارحته في تنفيذ أمر الله • وشروعه في ذبح ابنه رغم الشفقة الوالدية • يدعى على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يقدمون أوامر الله • وتكاليفه وأحكام الشرائع على مقتضى طباعهم البشرية

• وما اعتذربه الواحدى مرفوس

فان النهى عن طلب دفع المذاب عن الكافرين سابق على سؤال نوح عليه السلام نجاة ابنه بل سابق على صنعه السفينة وركوبه فيها يتضح ذلك من سياق قول الله تعالى " وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مفرقون - ويصنع الفلك " (١) •
• يبقى القول بأن سؤال نوح عليه السلام نجاة ابنه كان بشروط الايمان

وقد ذكره الفخر الرازى بقوله : لا نسلم أنه دعا لابنه مطلقا • بل بشروط الايمان (٢)

وهذا القول هو الأرجح عندى • لأن الله تعالى نهى نوحا عليه السلام أن يشأل نجاة الكافرين فى قوله " ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مفرقون " • بهد أن سأل نوح ربه أن يهلك الكافرين جميعا بقوله " رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا " واللائق بنوح عليه السلام ألا يخالف هذا النهى السريح

ويكون معنى قوله " يا بنى اركب معنا " أسلم وأركب معنا • ومن فسره بهذا المعنى النفسى وابن كثير الذى قال : وقوله وتادى نوح ابنه " هذا هو الابن الواجب واسمه يام وكان كافرا دعاه ابوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويؤوب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون (٣) •

وهذا المعنى هو المناسب • إذ لا يليق بنوح أن يدعو ابنه للركوب مع كفرة المستمر • ويكون

المقصود من قوله " ان ابنى من اهلى " طلب هدايته للايمان ونجاته • فكانه قال : رب ان ابنى

من اهلى فأهده للايمان ونجه فالانسان يحب الخير لأهله • ولا خير أحسن من الهداية والنجاة • وقد وعدتني انجاء اهلى ومن آمن •

وعلى هذا يكون معنى " انه لير من أهلك أنه ليس من أهلك الذين يؤمنون فيستحقون النجاة ويستحق فيهم الوعد • لأنه كفر كفرا مستمرا لا ينتهى حتى يهلك • لسبق القول عليه بذلك • ويكون النهى المتوجه الى نوح عليه السلام فى قوله " فلا تأسألن ما ليس لك به علم " لتحذيره من طلب الهداية والنجاة لابنه فى هذا الوقت • فلن يجاب له هذا المطلب • حيث ان الابن ممن سبق عليه القول لمخدم الايمان فى علم الله تعالى •

(١) سورة هود الايتان ٣٧ • ٣٨

(٢) قصة الانبياء ٢١

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ - ٤٤٦

وضح لا يعلم بذلك ، فنهاه الله أن يسأل إيمان وتباجة من بلا يعلم أن كان ممن سبق عليه القول أنه لا يؤمن أو كان ممن يمكن إيمانهم ، وشمل هذا السؤال يحتاج إلى إذن من الله تعالى ، لأنه عن شيء لا يعلمه إلا هو والله لم يأذن فيه ، فيكون نوح عليه السلام بذلك السؤال قد ترك الأولى وترك الأولى لا يقدر في عصم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وطى أنه خطأ في الاجتهاد - كما رأي البعض - فهو أيضا لا يطمئن به في مقامهم العالى .

الشبهة الثانية

وهي المتوهمة من ظاهر قول الله تعالى " وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ، رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين وامننا ولمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا " (١) .

فقد دعا نوح عليه الصلاة والسلام على قومه باهلاكهم بما فهمهم من أطفالهم ، ولا ذنب لا لآلهم حتى يهلكوا مع احتمال أن يولد منهم من يؤمن بالله ، وقوله " ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " تحكم على الله فيما لا يعرفه والباعث لنوح عليه السلام على هذا هو : تخليص نفسه من آذاهم ، واشتداد غضبه عليهم وكان الواجب عليه السير على آذاهم ، وأن لا يحمله الغضب على طلب اهلاكهم .
وما يدل على انه ارتكب ذنبا بهذا :

- ١- انه استغفر لنفسه ولمن آمن عقيب الداء في قوله " رب اغفر لي ولوالدي ... الآية " (٢) .
 - ٢- وأنه يتخذ يوم القيامة عن الشفاعة بهذه الدعوة التي دعا بها طر قومه كما جاء في حديث الشفاعة الذي رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه " ... فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا إلى ربك ، إلا ترى ما نحن فيه إلا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم ... ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وأنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى ابراهيم ... " (٣) .
- فاعتذر نوح عليه السلام بدعوته يدل على انها كانت ذنبا .

الجواب عن الشبهة

أن نوحا عليه السلام إنما دعا باهلاك قومه بعد أن عرف بالوحي أنه لن يؤمن أحد منهم الا من قد آمن قال تعالى " وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " (٣) وهرف أن نسلهم سيكون على شاكلة آباءهم في الإقامة على الكفر ، بالاستقرار والتجربة فقد لبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما " (٤) .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٧١
(٤) الآية ١٤ من سورة المنكبوت

(١) سورة نوح الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
(٢) سورة هود الآية ٣٦

ففي هذه المدة الطويلة عرف طبايعهم وجورهم حتى يقال : أن الرجل منهم كان يذللون بآبائه السي
نوح ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وأن ابني اوصاني بمثل هذه الوسيلة فيموت الكبير ، وينشأ على
ذلك ما يقطع الأمل في إيمانهم ، وهذا يكون الخير في هلاكهم لتخلص الأرض من شرهم ، ويكون الدين
كله لله ، ومن هنا كانت دعوة نوح عليه السلام باستئصالهم .

وأما أطفالهم : فعلى قول من قال : أن الله يبرأ عيال رجالهم ، واقدم ارحام نساكهم قبل
الطوفان بأربعين سنة أو سبعين سنة فلا اشكال ، لعدم وجود اطفال فيهم ، وقد يؤيد هذا قوله
تعالى " استغفروا ربكم انه كان غافرا - يرسل السماء عليكم مدرارا - ويمددكم بأموال وبنين " (١)
فانه يدل بحسب المفهوم على انه اذا لم يستغفروا فانه تعالى لا يمددهم بالبنين .

وأما على قول من قال بوجود اطفال فيهم ، فان اغراق اطفال لم يكن على وجه السقاب والصبروة
بمده الى عذاب النار كما بهم " ما خطبته اثمهم اغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا " .
بل لزيادة تعذيب الآباء والامهات ، اذا ابصروا اطفالهم ينفقون ، ثم لا يهذب اطفال في الآخرة
بالنار ، ونوح عليه السلام قد صبر كثيرا على أذى قومه ، فان من يمكث في قومه الف سنة الا خمسين عاما
يدعوه الى الله فلا يزدادون على دطئه الا فرارا واستكبارا ، هو - بلا شك - قد صبر كثيرا وتحمل من
أذاهم ما لا يحقيه الا من كان من أولى المزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ونوح منهم فهم المذكورون
في قوله " واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم " (٢) .

ويمد هذا الصبر والتحمل الكثير أوحى الله الى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومك الا من آمن ،
وهذا يشير الى أنه قد أنتهى امهالهم ، وحان وقت الانتقام منهم ، فاذا ما دعا نوح عليه السلام بالانتقام
منهم واهلاكهم فهذا الانتقام والاهلاك هو الذي يليق بهم وبآثامهم .

واذا كان الامر كذلك ، وكان نوح عليه السلام غير مذنب في ذلك على قومه فلماذا يعتذر ربهوم القيامة
عن الشفاعة بدعوته هذه ويقول : قد كانت لي دهوة دهوت بها على قومي نفسي نفسي ؟ .

ويجاب بأن اعتذار نوح عليه السلام انما كان لعركه الاولى ، اذ كان الاولى : أن يكل أمر قومه
الى الله ان شاء اهلكهم وأن شاء ابقاهم .

كما فصل ابراهيم عليه السلام اذ قال " فمن تبغنى فانه مني ومن عمتى فانك غفور رحيم " (٣)
وكما فصل عيسى عليه السلام اذ قال " ان تعذبهم فاعذبهم عذابك وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز
الحكيم " (٤) .

فلما دعا نوح عليه السلام باهلاك قومه كان قد ترك الاولى ، وترك الاولى لغير ذنبا ، ومع هذا
يستغفر منه الانبياء عليهم السلام لسوء درجتهم عند الله وهذا ما فعله نوح عليه السلام

(٢) سورة الاحزاب الآية ٧

(١) سورة نوح الايات ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٤) سورة المائدة الآية ١١٨

(٣) سورة ابراهيم الآية ٣٦

الفيل الثالث

شبهات حول ابراهيم عليه السلام

ان اكدب الكذب ، وأعظم الفرى أن يرى خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام بالكفر والشك واكذب وهى نقاء ص يستبعد من صلاحه المؤمنين فما بالك بالمصطفين الاخيار ، الذين صنمهم الله على عينه واختارهم دعاة الى سبيله .

ان ابراهيم عليه السلام الذى جعله ربه اماما للناس فى الخير ، وقدوة لهم فى الهداية تطاول عليه المتطاولون ، وشهجم عليه مقامه المتشجعون فنسبوا اليه ما لا يليق هو موضع الامامة ، ومنسب النبوة ، ومقام الخلة ، ان الشبه التى القوا بها والمزاعم التى زعموها سوف يتبين - بتوفيق الله - فيها ، ويبتطل باطلها بالردود الفحمة ، والاجوبة المقنعة ، التى يحق بها الحق ، ويهدى الباطل ولو كره الكذابون الاثمون وسيكون - باذن الله - مثلهم كمثل من يفتخ فى رواد ، أو يصيح فى واد ، لا يظفرون بظائل ، ولا يحققون ما رآ .

وأول الشبه التى متذهب مع الرياح تلك الشبهة التى نسبوا فيها الى الخليل عليه السلام الكفر

الشبهة الاولى

ونسب فيها الى الخليل عليه السلام الكفر أخذنا من ظاهر قول الله تعالى " فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الاقلىن - فلما رأى القمر باوفا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين - فلما رأى الشمس بازجة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برى ما تشركون - انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين " (سورة الانعام الايات من ٧٦ - ٧٩)

فذكروا أن الخليل عليه السلام قال عن الكوكب : لئن ربه ، حتى اذا غاب رجع عنه ، ثم قال عن القمر لما طلغ انه ربه ، فلما غاب رجع عنه ، ثم قال عن الشمس لما ابصرها بازجة : انها ربه فلما غربت تبرأ ما يشركون .

فهذا القول من الخليل عليه السلام ان كان عن اعتقاد فهو كفر ، واذا لم يكن عن اعتقاد فهو كذب فلا يخلو أمر الخليل عليه السلام فى هذا من الكفر أو الكذب وقبل الاجابة عن هذه الشبهة نوضح معنى بعض الفاظ الايات وهى : " جنسن " أظلم ، " أفل " غاب ، " لا أحب الاقلىن " أى لا أحب عبادة الالهة المتفهمين من خال الى حال ، لأن ذلك من صفات الحوادث ، والحادث لا يصلح لها ، لأن له محدثا أحدثه ودبر أموره وسائر احواله ، وهذا المحدث المدير هو الحقيق بأن يكون الاله المعبود .

الجواب عن الشبهة :

فى الاجابة عن هذه الشبهة اقوال متعددة .

القول الاول : أن ذلك كان من ابراهيم عليه السلام فى مقام النظر والاستدلال لنفسه ، وأنه وقت هذا القول كان مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم ينسره ذلك ، حتى قيل : ان ذلك فى

قال محمد بن اسحاق : ان الخليل عليه السلام قال ذلك حين خرج من المصرب الذي ولدته فيه
امه حين تخوفت عليه من عمرو بن كتمان لما كان قد اخبر بوجود مولود يكون له هاب ملكه على يديه ،
فامر بقتل الفلما ن عامث فلما حملت ام ابراهيم به ، وحان وضمها ذهبت به الى سرب ظاهر البلد
فولدت فيه ابراهيم وتركته هناك ، وذكر اشيا من خوارق العادات (١) .

وروى ابن جرير هذا القول عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس الذي قال : ان ابراهيم عبد
الكوكب حتى غاب فلما غاب قال : لا احب الاكبين ، فلما رأى القمر بازقا قال هذا ربي فعبدته حسني
غاب ، فلما غاب قال : لئن لم يهدني ربي لاكون من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازقة قال هذا
ربي هذا اكبر فعبدتها حتى غابت فلما غابت قال : يا قوم اني بري ما تشركون (٢) .

حجة هذا الفريق :

ان المقصود بملوك السموات والارض اياتهما ، وان قوله تعالى " فلما جن عليه الليل " تفصيل
للارادة وبيان لكيفية الاستدلال . وايضا : قوله تعالى " لئن لم يهدني ربي لاكون من القوم الضالين "
وقد استدل بهذه الآية ابن جرير على مذهبه ، وخطأ الاقوال الاخرى فقال :
وفي خبر الله تعالى عن قيل ابراهيم حين اقل القمر " لئن لم يهدني ربي لاكون من القوم الضالين "
الدليل على خطأ هذه الاقوال التي قالها هؤلاء القوم ، وان السواب من القول في تلك الاقوال يخبر الله
تعالى الذي اخبر به عنه والاعراض عما عداه (٣) .

وان كان ابن جرير قد خطأ الاقوال الاخرى ، ومنها قول الجمهور ، ليه صوب قوله ، فان الموازنة
بين قوله وبين قول الجمهور وأدلته التوبة تخلي قول ابن جرير ، وتصوب مذهب الجمهور ، وحتى تتم
الموازنة والرد على ابن جرير فسأعرض مذهب الجمهور أولا :

مذهب الجمهور : ان ذلك كان من الخليل عليه السلام في مقام المناظرة لقومه .

أدلة الجمهور :

الاول : ان القول بربوبية الكواكب كفر ، والكفر غير جائز على الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالاجماع
قال الخطيب الشربيني : لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الاوقات الا وهو لله
وحيد ، وبه عارف ، ومن كل معبود سواه بري (٤) .

الثاني : ان الله تعالى اخبره عنه قبل هذه الواقعة أنه قال لابي آزر " أتخذ أسما الهة اني
اراك وثوبك في ضلال مبين " فهذا يدل على ان ابراهيم عليه السلام قد عرف به قبل هذه الواقعة .
الثالث : انه دعا اياه الى التوحيد ، وترك عبادة الاصنام بالرفق " اذ قال لابي يا ابت لهتمبد

(٢) جامع البيان ج ١١ ص ٤٨٠

(٤) السراج المنير ج ١ ص ٣٥٦

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٥

(٣) جامع البيان ج ١١ ص ٤٨٥

ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك شيئا - يا أبت أئني قد جاءني من الصلح ما لم يأتك فاتبعني
أعدك سراطلا سويًا - يا أبت لا تمجد الشيطان أن الشيطان كان للرحمن نصيبًا - يا أبت أئني أخاف
أن يسبك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًا " (١) .

وفي هذه الواقعة دعاه إلى هذا بالكلام الخميني، والرفق يقدم عادة على المنف، فدل هذا على
أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرارًا، وهو لا يدعو غيره إلى الله إلا إذا كان
طرفًا به تثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف به بمدة .

الرابع : أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض، وفسد أكسبته تلك
الآراء يقينًا " وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين " أي وليكون بسبب تلك
الآراء من الموقنين، ثم قال بعدها " فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا "، والفاء تقتضي الترتيب فدل
هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين المارفين بهم (٢)

الخاص : النص في أكثر من موضع في القرآن الكريم أن هذه الحاجة كانت مع قومه، وذلك في قوله لهم
" يا قوم أئني برئ مما تشركون " وفي قوله تعالى " وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هدان "،
وفي قوله تعالى " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه " فهذا يدل على أنه كان في هذا المقام
مناظرًا لقومه فيما كانوا عليه من الشرك لا ناظرًا لنفسه .

السادس : اخبار الله تعالى عنه بأنه آتاه رشه من قبل، وكان عالمًا باستحقاقه الرسالة لتجنبه
الشرك وسوء الفعالم، وفتح الصفات قال تعالى في حقه " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به
عالمين إذ قال لآبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون " الآيات وقال هذه أيضًا " إذ جاء
به بقلب سليم " أي لم يشرك قط - كما قال القرطبي .

وقال تعالى عنه " ان إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين - شاكرا لآئمه
أجتباه وهداه إلى صراط مستقيم - وأتينا في الدنيا حنة وأنه في الآخرة لمن الصالحين - ثم
أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا ولمها كان من المشركين " .

وقال تعالى أيضًا عنه " قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم - دينًا قديمًا ملة إبراهيم حنيفًا
وما كان من المشركين " .

وأضاف ابن كثير مستدلا على هذا قوله : قد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " كل مولود يولد على الفطرة " .

وفي صحيح مسلم عن عمار بن حماد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله " انسى
خلقت عبادي حنفاء " فإذا كان هذا في حق مائت الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جملة
الله أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة

(١) سورة مريم الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٧٧ ، ٧٨

والسجدة المستقيمة بعد رسول الله على الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب (١)
فلهذه الأدلة على أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه كان القول الأول
بأنه كان ناظرا لنفسه ، فاسدا ، ولا يلتفت إليه ، ويمكن الرد عليه وطى مستنده .

الرد على القول الأول :

أن ما روى عن ابن اسحاق من أن قول الخليل عليه السلام هذا كان عند أول خروجه من السرب
الذي وضع فيه خرافة مكذوبة ، إذ كيف يبلغ انسان هذا المبلغ وهو لا يرى شمس ولا قمرا ؟
قال ابن حزم : وأما قوله عليه السلام إذ رأى الشمس والقمر هذا ربي ، فقال قوم : ان إبراهيم عليه
السلام قال ذلك محتقا أول خروجه من النار ، وهذه خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الاشمال ومن
المحال المستمع أن يبلغ أحد حد التمييز والكلام بمثل هذا وهو لم يرقط شمس ولا قمرا ولا كوكبا ،
وقد أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به
ظالمين " فحال أن يكون من آتاه الله رشده من قبل يدخل في عقله أن الكوكب ربه ، أو أن
الشمس ربه من أجل أنها أكبر قرصا من القمر ، هذا ما لا يظنه الا مجنون العقل ، والصحيح من
ذلك أنه عليه السلام إنما قال ذلك موحيا لقومه (٢) .

ويرى صاحب المنار : أن هذه القصة قد أخذها ابن اسحاق عن بعض اليهود الذين قصدوا
بها أن يلبسوا على المسلمين دينهم فيقول : ولا شك في أن هذه القصة موضوعة لهذه المسألة ،
وأن ابن اسحاق أخذها عن بعض اليهود الذين كانوا يلتقون المسلمين أمثال هذه القصص ليلبسوا
عليهم دينهم فتبطل ثقة يهود وغيرهم بهم .

ثم طعن صاحب المنار فسيما أخرجه ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
من أن الخليل عليه السلام عبد كل واحد من الكواكب الثلاثة حتى إذا غاب رجع عن عبادته ، بأنه
لا يسبح ، وأن علي بن أبي طلحة لم يرا ابن عباس ، وأن عليا هذا له أشياء منكرات ، وأنه
يخطئ .

فقال وأما ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس في تفسير " هذا ربي " بالعبادة فلا يسبح ،
وهو من مراسيل علي بن أبي طلحة مولى بنى الصباس ، وقد روى عن ابن عباس تفسيرا كثيرا ولم يره
وقال فيه أحمد بن حنبل : له أشياء منكرات ، وقال الحافظ في " تهذيب التهذيب " صدوق
يخطئ ، (٣) .

وأما استدلال ابن جرير بقول إبراهيم عليه السلام حين أفل القمر " لئن لم يهدني ربي لأكونن
من القوم الضالين " على أنه عليه السلام كان في مقام الاستدلال لنفسه فمردود عليه بأن الخليل

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١ ، ١٥٢

(٢) الفصل ج ٤ ص ٧

(٣) تفسير المنار ج ٧ ص ٥٥٢

عليه السلام انما يهيم به قومه على أن من أتخذ القمر لها وهو نظير الكواكب في الاقول فهو ضال
والتصريح بنسبهم هنا أصرح وأقوى من قوله (قبل " لا أحب لثقلين) تركها في الاستدلال على
فساد معتقد قومه من حال الى أصرح وأقوى منها حتى يصل الى غرضه من التخصيص على شركهم فيتم له
قيام الحجة عليهم ، ولهذا صرح في المرة الثالثة بأنهم على شرك ، وأنه يرى منهم فست له الحجة
عليهم ، ووضح الحق ، وبلغ من الزوج غايته .

ففي هذه الجملة : التي أستد اليها ابن جرير في تأييد مذهبه - دليل على أن استدلال الخليل
عليه السلام لم يكن لنفسه ، وانما كان حاجة لقومه .

واللهاء اصحاب هذا القول أن قوله تعالى " فلما جن عليه الليل رأى كوكبا " تفصيل للاراء في
قوله " وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض " وبيان لكيفية الاستدلال مردود عليه بأن فيه اخلافا
بجزالة نظم الايات البينات .

قال الملامه ابو السمود : وقيل : قال عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك في زمان
مراقبته وأول آوان بلوغه وهو مبني على تفسير الملكوت باياتهما ، وهطف قوله تعالى " ليكون " على ما
ذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى " فلما جن " الى آخره تفصيلا لما ذكر من الاراء ، وبيانا
لكيفية الاستدلال وأنت خبير بأن كل ذلك ما يخل بجزالة النظم الجليل ، وجلالة منصب الخليل عليه
الصلاة والسلام (١) .

وعلى هذا القول الصحيح ، وهو أنه كان في معرض مناظرة الخليل عليه السلام لقومه فما توجيهه ؟
في توجيه قول الخليل هذا بما يتناسب وخصمة الانبياء وجوه متعددة :
الاول : أن هذا القول من ابراهيم عليه السلام على سبيل الفرض ، وقد اختاره جمع من المفسرين
وحسنوه ومنهم ابو السمود الذي قال : قال على سبيل الوضع والفرض " هذا ربي " مجازاة مع ابيه
وقومه الذين كانوا يعبدون الاصنام والكواكب ، فان المستدل على فساد قوم يحكيه على رأى خصومه
ثم يكرطيه بالابطال (٢) .

وأخبره القاسي أوجه الاقوال فقال : ولكن الوجه من جميع ذلك كله ما أسلفناه اولاً من أن قوله
" هذا ربي " من باب احتمال النصفة على سبيل الوضع ، وهو صواب مقدمة في الدليل لا يعتقدها
لكونها مسلمة عند غيره ، لاجل الزامه بها ، وهو مصلح أهل الجدل (٣) .

وقد اختصر الزنخري على هذا الوجه وصححه ، وتيممه في ذلك التفسير ووصفه الفكر الرازي بأنه
الوجه المفتد في الجواب ، ومثل له بالقول بقدم الجسم عند مناظرة من يقول بقدمه ، فانك تقبول

(١) ارشاد العقل السليم ج ٢ ص ١١٣

(٢) تفسير ابن السمود ج ٢ ص ١١٣

(٣) محاسن التأويل ج ٦ ص ٢٢٧٧

الجسم قديم ، فاذا كان كذلك فلما نراه وشاهده مركبا متغيرا ، فقولك الجسم قديم لا عن اعتقاد بذلك ولكن توصلا الى الزام المحال عليه ، فكذا ما هنا " قال هذا هو " والمقصود منه حكاية قول الخصم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على فساد ، وهو قوله " لا احب الاقلين " وهذا الوجه هو المتمد في الجواب (١) .

ويحتد الالوسي ايضا بهذا الوجه فيجمله في اصدارة من الاقوال في معنى الآية ، ويصفه :
بأنه الذي ينفي قبوله فيقول بعمد حكايته : وهذا هو الحق الحقيقي بالقبول (٢) .

وقربول من هذا الوجه في توجيه قول الخليل عليه السلام .

الوجه الثاني : وهو أنه من قبيل استدراج الخصم بأظهار موافقته لسامح الحجة والزامه .

وذلك بأن ترى الخصم ميلا لا يسمع لقولك ودليلك لو صرحت بمقعودك ، فتذكر كلاما يوهم في الظاهر أنك توافق على مذهبه ، وأنت تخالفه باطنا ، لكنه فعلت هذا استراجا له حتى يأس اليك ويستمع حجتك التي تتمكن بها من ابطال مذهبه .

وقول الخليل عليه السلام " هذا رى " من هذا القبيل ، فانه اراد أن يبطل قولهم بربوبية

الكواكب ، الا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لاسلافهم ، وبعد اجابهم من قبول الدلائل أنه لو سرح بالدعوة الى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا ، فقال الى طريق يستدرجهم الى استماع الحجة وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه موافقا لهم على مذهبهم ، مع أن قلبه كان مأمونا بالايان ، ومقصود من ذلك أن يتمكن من إقامة الدليل على ابطاله ، وأن يقبلوا قوله .

وقرر الفخر الرازي هذا الوجه : بأنه عليه السلام لما لم يجد الى الدعوة طريقا سوى هذا الطريق

وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة الى الله ، وكان بمنزلة المكروه على كلمة الكفر ، ومعلوم أن هذا الاكراه يجوز اجراء كلمة الكفر على اللسان " قال تعالى الا من اكره وقلبه منطمئن بالايان " فاذا جاز ذكر كلمة الكفر لصلحة بقاء شخص واحد فهان يجوز اظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من العقلاء من الكفر والمقاب ارضي ، فابراعيهم عليه السلام تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى اذا اورد عليهم الدليل البطل لقد ولاهم كان قبولهم لذلك الدليل اتم ، وانشاهم باستماعه اكل (٣) .

واجد نفسى مستريحا الى القول بالاستدراج ، فائره في انقياد الخصم وتصريفه خطأ واضح ،

والخليل عليه السلام اراد بقوله هذا أن يستدرجهم ويصرفهم خطأهم ، ومثل هذا مثل من ورد على قوم

يحبون صنما ، فاظهر تمطيه فأكبروه حتى صدروا في كثير من الامور عن رأيه الى أن دهنهم عدو

فشاوروه في أمره فقال الوأى لن ندعو - هذا الصنم حتى يتكشف ما اصابنا ، فاجتمعوا حوله يتشربون

لما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دطعم الى أن يدعوا الله تعالى فدعوه فصرفهم ما كانوا يجدون

تألموا .

الوجه الثالث : أن المراد الاستفهام على سبيل الانكار ، واسقط حرف الاستفهام والمعنى :
 أهذا ربي ؟ وحذف أداة الاستفهام كثير في اللغة العربية .
 ففي القرآن " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان من فهم الخلدون " أي فهم الخالدون ؟
 وفي الشعر كقول الكاظمي :

لعمرك ما أدري وان كنت داريا يسبح رومين الجمرام بشان

وقول الهزلي

وقضى وقالوا يا خويلد لا ترج فقلت وانكرت الوجوه هم هم

ويضعف هذا القول أن حذف حرف الاستفهام لا يحسن إلا إذا كان في الكلام دلالة عليه والآية
 ليس فيها ذلك ، ولهذا حكم ابن الأنباري على القول بحذف حرف الاستفهام في الآية بأنه شاذ
 نقل ذلك عنه أبو حيان قائلًا قال ابن الأنباري : وهذا شاذ ، لأنه لا يجوز أن يحذف الحرف إلا
 إذا كان ثم فارق بين تنخبار والاستخبار (١) .

ولم يعترف أبو القاسم على إسناد الحسين البغدادي بهذا التضعيف فأجاب عنه : بأنه قد يحذف
 حرف الاستفهام مع إثبات الموضوع عنه ، ومع فقدته إذا زال اللبس في معنى الاستفهام ، ولستشهد بقول
 ابن أبي ربيعة

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

وهو خال من حرف الاستفهام ومن الموضوع عنه .

وما روى عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى " فلا أقنم المقبة " قال هو " أفلا أقنم المقبة
 فالتقيت ألف الاستفهام ، وإذا جازوا أن يلقوا ألف الاستفهام لدلالة الخطاب عليها ، فيجوز أن يلقوها
 لدلالة الحقول عليها ، لأن دلالة الحقول أقوى من دلالة غيره " (٢) .
 ومع هذه الإجابة فاني لا اسلم أن دلالة الخطاب في الآية ، أو دلالة العقل تدل أي منهما على
 الاستفهام ما يبقى على القول بضعفه .

الوجه الرابع : أنه مقول على سبيل الاستهزاء .

وذلك كما يقال للدليل ساد قوما : هذا سيدكم ، على سبيل الاستهزاء ، وقد نقل هذا القول
 الفخر الرازي ، والنيسابوري ، والتاسمي ، والأيوسي ، وذكره أيضا ابن حزم ، وأخذ به وصححه
 وجعله في الترميخ لقومه نظير قوله لهم - عندما كسر أصنامهم وسألوه عن فعل ذلك " بل فعله كبيرهم
 هذا " في الترميخ والسخرية منهم ، قال ابن حزم : والصحيح من ذلك أنه عليه السلام إنما قال فذلك
 موهبا لقومه ، كما قال لهم نحو ذلك في الكبير من الأصنام ، ولا فرق ، لأنهم كانوا على دين
 السابئين يعبدون الكواكب ، ويصورون الأصنام على صورها ، واسماؤها في هيكلهم ، ويعبدون

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ١٦٦

(٢) تنزيه الأنبياء ص ٢٢

لها الامياد ، ويذبحون لها الذبائح ، ويقرّبون لها القرب والقربان ، ويقولون انها تعقل
وتدبر ، وتضر وتنفخ ، ويقيمون لكل كوكب منها شريعة محدودة فويختم الخليل عليه السلام على ذلك
ويخبر عنهم (١) .

ومع تصحيح ابن حزم لهذا القول فانه لا يخلو من ضعف ، فان قول الخليل " هذا ربي " انما
كان في معرض محاجة القوم ، لا بطلان معتقداتهم ، وهذا لا يؤهل اليه اسلوب الاستهزاء .
وبقيت اقوال اخرى ضعيفة منها :

الوجه الخامس : ان معنى قول الخليل عليه السلام " هذا ربي " : هذا ربي في رصم واعتقادكم
الوجه السادس : ان القول منصرف فيه والتقدير قال : يقولون هذا ربي : أي هذا هو الذي
يدبرني ويربيني .

• وهذا ان القولان من الضعف بكان .

وأصح هذه الاقوال عندى القول بأنه من قبيل استدراج الخصم - باظهار موافقته - لسماح الحجة
والنزاع ، لأن هذا هو الاسلوب الامثل في تسكين الخصم ، وانتزاع غايته حتى اذا استمع الى الحجة
رسل قتياده ، وانس الى من يحججه أمكن اقامة الدليل على بطلان مذهبه ومعتقده فيتم المراد من
ابطال باطله ، واظهار الحق الذي يلزمه ، ومحاجة الخليل عليه السلام لقومه المماندين بحاجة
الى هذا اللون ، وهو الذي يجدى معهم .

وقال ابو السمود : ولعل سلوك هذه الطريقة في بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة
الشيعة الا انما لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الاول ، فلو صدح بالحق من اول الامر كما
نعله في حق عبادة الاغنام لتمادوا في المكابرة والمناد ، ولجوا في طغيانهم يعمهون (٢) .

(١) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٧

(٢) تفسير ابو السمود ج ٢ ص ١١٣

ونسب فيها الى الخليل عليه الصلوة والسلام الشا اخذا من ظاهر قول الله تعالى * وان
قال ابراهيم رب ارنى كيف تحى الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليدلثن قلبي قال فخذ
اربعة من الدليل فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سمعيا واعلم ان الله
عزيز حكيم * ١ *

اذ ان سؤال الخليل عليه السلام كيفية احياء الموتى وتخليه هذا يدلانية قلبه بمشاهدة
الاحياء يقتضى ان عنده ريبة وشك في قدرة الله على احياء الموتى .

ومن الصجيب ان المفسر الكبير ابن جرير احد الذين اختاروا ان سبب سؤال الخليل عليه
السلام به ان يريه احياء الموتى هو الشك الذى قذفه في قلبه الشيطان .

فقد روى في سبب هذا السؤال عن يونس بن يعقوب عن ابن وهب ان ابن زيد قال : مر ابراهيم بحوت
تسبح في البحر وتصف في البحر فما كان منه في البحر فدواب البحر تاكل منه وما كان منه فسى
البر فالسباح ودواب البر تاكل منه فقال له الخبيث - ايليس - يا ابراهيم متى يجمع الله هذا
من بدلون هؤلاء ؟

فقال يا رب ارنى كيف تحى الموتى . قال اولم تؤمن قال : بلى ولكن ليدلثن قلبي . اى ليما يبين
ذلك عيانا فلا يقدر بعد ذلك الشيطان ان يلتقى في قلبه مثل الذى التقى فيه عند رؤيته ما رآى
من ذلك . فقال : له به اولم تؤمن . يقول اولم تصدق يا ابراهيم بانى على ذلك قادر ؟ قال
بلى يا رب ولكن سالت ان ترىنى ذلك ليدلثن قلبي فلا يقدر الشيطان ان يلتقى في قلبى
مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت * ٢ *

وحتى يتم ابدال هذا القول فسند ذكر مستدانه وحجج اصحابه وناقشها بما ياتى على هذا
القول من قواعد حجج اصحاب هذا القول .

اولا :- الحديث الذى رواه الشيخان عن ابن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم " نحن احق بالشك من ابراهيم " اذ قال رب ارنى كيف تحى الموتى . قال : اولم
تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليدلثن قلبي * ٣ *

ثانيا :- الاثر الذى رواه عبد الرازى بحسنه عن ابن عباس انه قال : ما فى القرآن آية ارجى عنى
منها .

ثالثا :- ما رواه ابن ابي حاتم بحسنه عن محمد بن المنذر انه قال : التقى عبد الله بن عباس
وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : اى آية فى القرآن ارجى
عندك ؟

فقال عبد الله بن عمرو : قول الله تعالى " يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تشكوا من رحمة
الله . . . الاية " .

فقال ابن عباس : لكن انا اقول : قول الله " واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحى الموتى قال اولم تؤمن

قال بلى . فرضى من ابراهيم قوله بلى . قال : فهذا لما يمتزج في النفوس ويوسوس به الشيطان (١)
 رايحا : ما روى عن عطاء بن ابي رباح أنه قال : دخل قلب ابراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس
 فقال : رب ارنى كيف تحيي الموتى . فقال اولم تؤمن . قال بلى . قال : فخذ ارملة من الطير ليرية
 (٢) والحق : ان ابراهيم عليه السلام لم يكن شاكيا في قدرة الله على احيا الموتى وان الشيطان لا يدر
 على القائم الشك في قلوب الانبياء وهذا هو ما عليه الجمهور
 قال ابن حزم : وما شك ابراهيم عليه السلام في أن الله تعالى يحيى الموتى وانما اراد ان يرى الهيئته
 ثم قال : ومن نسب الى الخليل عليه السلام الشك فقد نسب اليه الكفر ومن كفر نبيا فقد كفر
 وقال القرطبي : ولا يجوز عليهم - عليهم السلام - مثل هذا الشك وقد اخبر الله سبحانه ان اصفياه
 ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيفا وقال اللعين
 " الاعداء منهم المخلصين " واذا لم تكن له عليهم سلطنته فكيف يشكهم
 واما الحجج التي استند اليها المجوزون للشك فيرد عليها على هذا النحو
 على الاول : بأن الحديث ليس فيه اثبات الشك للخليل - عند التأمل - بل فيه نفيه عنه
 قال البعض : ان معنى الحديث : نحن اشد اشتياقا الى رؤية ذلك من ابراهيم
 وقال آخرون : معناه : اذا لم نشك نحن فابراهيم اولى ان لا يشك اى لو كان الشك تنطرقا الى
 الانبياء لكانت انا احق به منهم وقد علمت انى لم اشك فاعلموا انه لم يشك وانما قال ذلك نبينا صلى
 الله عليه وسلم تواضعا منه او من قبل ان يعلمه بلله بأنه افضل من ابراهيم
 وقيل : ان سبب هذا الحديث . ان الاية لما نزلت قال بعض الناس : شك ابراهيم ولم يشك نبينا
 فبلغه ذلك فقال : نحن احق بالشك من ابراهيم . واراد ما جرت به العادة في المخاطبة لمن اراد
 ان يدفع عن آخر شيئا ان يقول : ما اردت ان تقوله لفلان فقله لى ومقصوده : لا تقل ذلك
 وقيل : اراد بقوله : نحن " امة الذين يجوز عليهم الشك واخراجهم هو منه بدلالة المعصية
 ونقل ايضا : ان المعنى : هذا الذى ترون انه شك انا اولى به لأنه ليس يشك بل هو غلب لمزيد
 البيان وذكر البعض : ان المعنى : لا شك عندنا جميعا لان افضل هنا لنفى المعنى عن الشكيبين
 نحو قوله تعالى " اهم خير ام قوم تبع " اى لا خير فى الفريقين ونحو قول القائل : الشيطان خير
 من فلان اى لا خير فيهما فعلى هذا فمعنى قوله " نحن احق بالشك من ابراهيم " لا شك
 عندنا جميعا (٣) فعلى اى معنى من هذه المعانى لا يثبت الحديث شك للخليل عليه السلام
 اى ينفيه عنه

وطى الثانى والثالث : بأن قول ابن عامر انها ارجى آية فى القرآن لما فيها من الادلال على الله تعالى وسؤال الاحياء فى الدنيا .

اولاً ان الايمان باحيا الموتى يكفى فيه المعرفة الاجمالية ، ولا يكلف المرء فيه المعرفة التفصيلية صحيح ان المعرفة التفصيلية التى طلبها الخليل عليه السلام اقوى وارسخ من المعرفة الاجمالية المفضية الى التردد بين الكيفيات المتعددة مع الطمانينة فى القدرة على الاحياء .

لكن فى مثل هذا الامر لا داعى للتكبر فى كيفية التكوين ، وانشغال النفس بما استأثر الله تعالى به ، قال الامام محمد بن عبد الله ما معناه :

فى قوله تعالى لا ابراهيم : اولم تؤمن - وهو اطم بايمانه وبقينه - ارشاد الى ما ينبغي للانسان ان يقف عنده ، ويكتفى به فى هذا المقام ، فلا يتمداه الى ما لغيره من شأنه كأنه يقول : ان الايمان بهذا السر الالهى ، والتسليم فيه لخبر الوحي ودلائله ، وامثاله هو منتهى ما يطلب من البشر فلو كان وراء الايمان والتسليم - اللع لناظر لبينه الله تعالى لك ، وفى هذا الارشاد لخليل الرحمن لآديب المؤمنين كافة ، ومنع لهم عن التكبر فى كيفية التكوين ، وانشغال نفوسهم بما استأثر الله تعالى به فلا يعلق بهم البحث ههنا (١) .

وطى الرابع : وهو ما روى عن ع ا بن ابي رباح انه قال : دخل قلب ابراهيم بضم ما يدخل قلوب الثائر فقد حمله ابن عطية على طلب الحماية .

واذا بطل الاستناد الى الحديث ، والى قول ابن عباتى ، والى قول هؤلاء ، فقد سقط عن الاخبار قول القائلين بوقوع الشك من ابراهيم عليه السلام .

ونفى ان تصرف سبب سؤال الخليل وصحى الآية بما يتناسب ونزاهة ساحته عليه السلام ما لا يلقى بمقام النبوة والخلة ، وفى هذا اقوال :

الاول : ان السؤال كان لزيادة الايمان واليقين ، فدرجاته متفاوتة ، والحماية يقتل الانسان فيه من علم اليقين الى عين اليقين ، اذ العلم ينقسم الى ضرورى - وهو الحاصل من غير استدلال للهورم - ونظرى - يتوقف على نظر واستدلال لكونه غير بديهى - والشك متبع فى الضرورى ، وساحتمل فى النظرى وقد اراد الخليل عليه السلام ان ينتقل الى النظرى الى الاطى منه وهو الضرورى ، ولغير معنى هذا ان ابراهيم عليه السلام وقع منه شك فى علمه النظرى ، بل ان النظرى من حيث هو يجوز طريقان الشك عليه ، وفرق بين الشك وجوازه .

قال الزمخشري فى تفسير قوله * ولكن لياثن قلبى * ليزيد سكوننا والطمأنينة بحضرة علم الضرورة

علم الاستدلال ، وتظاهر الأدلة او كى للقلوب ، وازيد للبصيرة واليقين (١) .
وقال الخطيب الشربيني معناه : ليسكن قلبي الى السماينة والشاهدة ، آراد أن يصير له بعد علم
اليقين عين اليقين ، فان الميان يفيد في المعرفة والطمانية ما لا يفيد الاستدلال (٢) .
الثاني : ان الخليل عليه السلام طلب رؤية كيفية الاحياء ، وكيفية جمع الاجزاء المتفرقة ، لا
نظر الاحياء فانه ثابت مقرر ، يدل لهذا وقوع السؤال بكيف ، وهي : انما يسأل بها عن الهيئة
والكيفية ، فان الانسان يؤمن بما لا يعرف كيفيته ، وفي فائته الرغبة في استكناه اشياء هو بها
مؤمن ولكنه يود لو يقف على اسرارها وخفاياها ، والطلب الخليل عليه السلام رؤية كيفية احياء الموتى
من هذا القبيل ، فهو طلب للطائفة فيما تنزع اليه نفسه من معرفة خفايا اسرار الروبوية ، لا طلب
للطائفة في اصل الايمان بالبحث الذي عرفه بالوحى والبرهان ، دون الشاهدة والميان .
والى هذا القول يعيل العلامة ابن الصير معللا موقع قوله تعالى بعد " اولم تؤمن ؟ قال بلى "
بان النص بمباراة سريعة واضحة على ايمان ابراهيم المخلص ، وموضحا معنى قوله تعالى " ولكن
ليؤمنن قلبي " على هذا بأنه ليكف الفكر عن تخيل كيفية الاحياء ، اذ تتعين هذه بالمشاهدة كيفية
احياء الموتى . قال اما سؤال الخليل عليه السلام بقوله " كيف تحيي الموتى قلبي من شك - وانما
بالله - في قدرة الله على الاحياء ، ولكن سؤال عن كيفية الاحياء ، ولا يشترط في الايمان الاحاطة
بمورثتها ، فانما هي طلب علم ما لا يتوقف الايمان على علمه .
ويدل على ذلك ورود السؤال بسيغة " كيف " وموضوعها : السؤال عن الحال ، ونظير هذا
السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لا يشككانه يحكم فيهم ، ولكنه سأل عن
كيفية حكمه لا ثبوته .
ثم يقول موضحا موقع قوله " اولم تؤمن " : بان هذه السيفة تستعمل ظاهرا في السؤال عن
الكيفية ، وقد تستعمل في الاستعجاز مثاله : أن يدعى مدح أنه - يستطيع أن - يحمل ثقلا من الثقال
وانت جازم بمجزؤه من حمله فتقول له : ارضى كيف تحمل هذا ؟ .
فلما كانت هذه السيفة قد يعرض لها هذا الاحتمال الذي احاط علم الله تعالى بان ابراهيم
مبرا منه اراد بقوله " اولم تؤمن " أن ينطق ابراهيم بقوله " بلى " آمنت ، ليدفع عنه هذا الاحتمال
اللفظي في المباراة الاولى ليكون ايمانه مخلصا ، نص عليه بمباراة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه
فيه شك .
ثم يضيف ابن الصير موضحا معنى قوله تعالى " ولكن ليؤمنن قلبي " على هذا قائلا : ولكن ليؤزل

(١) الكشف ج ١ ص ٢٣٦
(٢) السراج المنير ج ١ ص ١٤٣

عن قلب الفكر في كيفية الحياة ، لاني اذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في كفياتها المتخيلة
وتصنعت عندي بالتصوير المشاهد ، وجاءت الآيات ملائمة لسواله ، لانه شاهد صورة حياة الموتى (١)

وهذان الوجهان في معنى الآية هما اظهر الوجوه واقواها .
على أن الثاني منهما اشد قوة وأكثر ظهورا في نظري لأمرين :

الاول : أن في الآية ما يدل عليه وهو قوله " كيف " فهو واضح في طلب رؤية الكيفية .
الثاني : أن قوله " ليظنن قلبي " يفيد ، فالألمستان السكون ، أي ليسكن فكري من التثقل بين

الكيفيات المتخيلة ، حيث تحدد بالمساعدة كيفية احياك الموتى .
وهناك اقوال اخرى صحيحة ولكنها مع ذلك تنفي الشك عن الخليل عليه السلام منها :

الثالث : أن ابراهيم عليه السلام طلب ذلك لما علم أن الله متخذ بشرا خليلا ، وعلامته :
أنه يحيى الميت بدعاك فقال أن يريه كيف يحيى الموتى حتى يعلم أنه خليله ، فقال له به

" أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمنن قلبي " بأنني خليل لك .

فهذا من ابراهيم عليه السلام اختبار لشكته عند ربه ويكون معنى قوله " أولم تؤمن " أولم تصدق
بمتركتك مني وخلقتك ، وقد نسب هذا القول للفخر الرازي الى ابن عباس وسعيد بن جبير ، والسدى

انهم قالوا ان الله تعالى اوحى اليه اني متخذ بشرا خليلا ، فاستنم ذلك ابراهيم صلى الله عليه وسلم
وقال : الهى ما علامة ذلك ؟ فقال : وعلامته انه يحيى الميت بدعاك ، فلما عظم مقام ابراهيم عليه

السلام في درجات المبودية ، واداء الرسالة خطر بباله اني لعلى أن كاون ذلك الخليل فقال احيا
الميت ، فقال الله : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمنن قلبي على انني خليل لك (٢) .

وهذا الوجه صحيح لأمرين :

الاول : انه من امين لنا العلم بان الله تعالى اوحى الى ابراهيم انه متخذ بشرا خليلا ، وان علامته
انه يحيى الميت بدعاك ؟ انه لم ينقل اليانا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يوثق ويقبل

خبره فهو لا ينطق عن الهوى ، وانماة عن وحى يوحيه الله اليه ، اما خبر غيره - صحابيا كان أو
تابعيا أو من بعدهم - في امر كهذا ، فلا يركن اليه كل الركون .

الثاني : أن الفاظ الآية لا تساعد عليه

القول الرابع : أن سبب مسألة الخليل ربه ذلك المناظرة والمحااجة التي جرت بينه وبين نمرود في ذلك
اذ انكر نمرود ان يكون ثم اله غيره ، وطلب من ابراهيم عليه السلام دليلا على وجود الرب الذي يدعو

اليه فقال ابراهيم " هو الذي يحيى ويميت " أي : ان الدليل على وجوده هو حدوث الاشياء المشاهدة

(١) الانتصاف على الكشاف ج١ - ص ٢٢٦

(٢) مفتاح السبب للفخر الرازي ج٢ - ص ٣٤٣

بعدم عدمها وعدمها بعدم وجودها ، وهي لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الله تعالى ، فمئذ ذلك قال الصحاح وهو عمرو بن " انا احيى واميت " وذلك اثنى بالرحلين فد استحقا القتل ، فأمر بقتل احدهما فيقتل ، وأمر بالمنفوع الآخر فلا يقتل ، فذلك احياء وامانة قال عمرو بن ذلك على سبيل العناد والمكابرة ، اذ ليس ذلك احياء وامانة على الحقيقة فمئذ قال ابراهيم : ان احياء الله برده الالواح الى الاجساد ، فقال عمرو هل طابنته ؟ فلم يقدر على ان يقول نعم ، فانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه ائن يربه ذلك .

وقد حكى هذا القول عن اسحابه ابن جرير ، وروى الحاجة بين ابراهيم عليه السلام وبين عمرو بن محمد بن اسحاق (١) ، كما حكاه الفخر الرازي عن محمد بن اسحاق ايضا وزاد على ما سبق قوله : وروى عن عمرو انه قال له : قل لو بك حتى يحيى ولا تقتلك ، فقال الله تعالى ذلك وشوله " لهطمئن قلبي " بنجاتي من القتل ، اوليطمئن قلبي بقوة حجتي وبرهاني ، وان عدولي منها الى غيرها ما كان بسبب ضعف تلك الحجة ، بل كان بسبب جهل السميع (٢) .

والوجه من جهتين .
الاولى : انه من اين لنا ان سوال الخليل عليه السلام ذلك من ربه كان عند عمرو ، الى هذا يتوقف على صحة كون هذه الواقعة عند عمرو وجموده ، ومن اين لنا اثبات صحة ذلك ، وهو لم ينقل عن المصمم على الاله عليه وسلم ، ولا يقبل في هذا غير خبره .
الثانية : ان الخليل عليه السلام قد انتقل من هذا الاستدلال الى غيره على حد رواية ابن اسحاق .
فاما اذا اذن يسأل ربه ان يربه كيف يحيى الموتى ، ولماذ يملل سؤله بالاطمئنان .
واشد من هذا ضعف القولان الاتيان :

الخامس : وهو ان سوال الخليل هذا كان لقومه لا لنفسه ، وقد ذكره الفخر الرازي بقوله : انه صلى الله عليه وسلم سأل ذلك لقومه وذلك لان اتباع الانبياء كانوا يظنوا باليهود باسميا تارة باطالة كقولهم لومس عليه السلام " اجعل لنا الها كما لهم الهة " وتارة حقه ، فسأل ابراهيم ذلك ، والمقصود ان يشاهده تومه فيزيل الاتكار عن قلوبهم .

ورشة ضعف هذا القول ، انه لم يرد في القرآن ولا في السنة ان قوم ابراهيم عليه السلام طلبوا منه ان يروا باعينهم كيف يحيى الله الموتى حتى يكون طلب الخليل هذا لأجلهم لا له ، وقد حكى القرآن كثيرا من مطالب الاقوام من انبيائهم وليس هذا منها .
وايضا : لو كان هذا صحيحا لقال الخليل " ارفعهم كيف يحيى الموتى " ولما كان رد الله على خليله وتلميح الخليل طلبه على هذا النحو في الآية .

والسادس : ان الخليل يقصد : اقدرني على احياء الموتى ، وسؤاله بقوله " ارض كيف يحيى الموتى "

تأديب مع الله ، قال القاضي هماغر : قال بعضهم : قوله " ارضي كيف تحيي الموتى " سؤال طعن بطريق الادب والمراد اقدوني على احياء الموتى ، وقوله " ليؤمنن قلبي " عن هذه الالهيية اى ليؤمنن من هذا التمنى (١) .

وشدة مصف هذا القول من جهة أن قوله تعالى الخليل " أولم تؤمن " بأبيساء .

الشبهة الثالثة

توهم البعثر من ظاهر قول الله تعالى " فنظرت نظرة في النجوم " فقال انى سقيم " (١) .
صدور الذنب من ابراهيم عليه السلام من وجهين الا

الاول : أنه نظرت في النجوم ليصرف حاله من تأثيرها ، والنظر في النجوم من هذا الوجه حوالم
الثانى : انه قال انى سقيم ، وهو كذب ، لانه وقت هذا القول لم يكن سقيما ، والكذب موصية

الجواب عن الشبهة

يجاب عن الوجه الاول بأنه عليه السلام نظرت في النجوم لا ليصرف حاله من تأثيرها ، وانما للتفكر
والتدبر فيها وهذا طاعة لله تعالى لقوله سبحانه " ويتفكرون في خلق السموات والارض " وقوله " قل
انظروا ماذا في السموات والارض " وهذا هو اللائق بالخليل عليه السلام .

لكنه اوسمهم بهذا النظر - بطريق التفسير - انه ينظر فيها ، ليصرف حاله من تأثيرها ، على
حسب وهم واعتقادهم بتأثير اوضاع النجوم في احوالهم وما يحدث لهم لى يتوعل بذلك الى مقصده
من الانفراد بالاصنام وتكبيرها وهذا من مكاره الافعال ، وتغييره تفتيش يوسف عليه السلام اوعية اخوته
لابيه قبل وطء شقيقه مع طيه بأن الساع ليس فيها ، وانما فى وطء اخيه تصدقنا بانه لا يعرف فى اى
وطء هو ونفيا للتهمة عن نفسه لو بدأ بوطء الاخ .

وهذه الاجابة على أن نظر الخليل عليه السلام فى النجوم من باب الما رى ، ويرى البعثر أن ذاك
ليس من الما رى وطيه فيجاب بواحد من اثنين .

الاول : أن النظر فى النجوم معناه : التفكر ، والمرب تقول اذا تفكر الشخص : نظر فى النجوم ، وهو
منسوب لقادة قال ابن كثير قال قتادة : والمرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه
نظر الى السماء متفكرا فيما يليهم به .

ونحو قيل ابن كثير قال النسفي وعبارته : نظر فى النجوم راميا ببصره الى السماء متفكرا فى نعمته
كيف يحتال ، وعلى هذا القول فليس من الما رى لا قوله " انى سقيم " .

الثانى : أن المعنى نظرت فى النجوم ، ارضى عليها ، ارضى كتبها واحكامها ، ليحتدل على ما يحدث
له والنظر فيها للاحتدلال على بعض الامور ليس بمنوع شرطا اذا كان بأعتقاد أن الله تعالى جعلها علامة
عليه ، والمنوع الاحتدلال بأعتقاد انها مؤثرة بنفسها .

(١) الشفا ج ٢ ص ٨٩

(٢) سورة الطافات الايتان ٨٨ ، ٨٩

وقد ذكر هذا الوجه بمغز المفسرين كاللوسى ، والخليل الشريفي ، والفخر الرازي والنيسابوري
 واعتمد عليه في الاجابة ابن حزم حيث اقتصر عليه فقال : واما قوله " فنظر نظرة في النجوم - فقال انى
 سقيم " فليس هذا كذبا ، ولسنا ننكر ان تكون النجوم دلائل على الصحة والمرض ، ومغز ما يحدث
 في العالم ، وانما المنكر قول من قال ان الكواكب هي الفاهلة المدبرة لذلك ذون الله تعالى او
 مشاركة معه فهذا كفر من قائله (١) .

وعلى هذا القول يكون معنى " انى سقيم " مشارف السقم ، ويكون صدقا صريحا وليس من المعارض
 اذ كانت له عليه السلام حتى لها نوبة معينة في بعض الاوقات ، فنظر ليصرف هل جاء وقتها ؟ فاذا
 وقتها قد جاء فقال " انى سقيم "

أخرج ابن ابي حاتم عن زيد ابن اسلم قال : ارسل اليه عليه السلام ملكهم فقال : ان غدا عيدنا
 فاخرج معنا فنظر الى نجم فقال : ان ذا النجم لم يطالع قط الا طلع يسقم لى (٢) .
 والقول الثانى في انى سقيم انه صدق من باب المعارض ، وفي معناه اقوال ثلاثة :

الاول : ان كان في عقبه الموت فهو سقيم ، وان لم يكن به حين قالها سقم ظاهر ذكره ابن جرير
 الثانى : سأسقم ، فان كل انسان معرض للسقم .

الثالث : سقيم القلب لكفرهم وهايكهم ، والقوم فهموا من هذا القول قرب اتصافه بسقم لا يستطیع معه
 الخروج معهم الى معيدهم - وهو الظاهر - كما روى عن سفیان وابن جبیر ، وكان أغلب الاسقام
 طيبيم ، وكانوا شديدي الخوف منه ، لا يفتادهم الخدوى فيه ، وقد ذكر هذان المعنيان الالوسى (٣)
 وهذان القولان في " انى سقيم " يتفقان في اتهمه صدق ، ولكن احدهما يجعله صدقا صريحا
 والثانى يجعله صدقا من باب المعارض .

واما تسميته كذبا في بعض الاحاديث الصحيحة كحديث البخارى الذى رواه بمشده عن ابي هريرة
 رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام الا ثلاث
 كذبات : تتين مشهن في ذات الله عز وجل قوله " انى سقيم " وقوله " بل فعله كبيرهم هذا " وقال
 بينا هو ذات يوم وسارة اذ اتى على جوار من الجبابرة . . . الى قوله واخدم هاجر " (٤) .
 فنظرا للصورة ، اولما فهمه الفيرمه لا بالنسبة الى ما تعده المتكلم .

وكحديث الشقاع : انا سيد الناس يوم القيامة . . . الى قوله فيأتون ابراهيم فيقولون يا ابراهيم
 انت بسى الله وخليه من اهل الارض اشفع لنا الى ربك ، الا ترى ما نحن فيه ، الا ترى الى ما قد بلغنا
 فيقول : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته . . .
 الحديث " (٤) ، تسميته كذبا فيه لما سبق وعده ذنبا ، لانه خلاف الاولى

(٢) روح المعاني ج ٧ ص ٢٨٢
 (٤) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٥٣

(١) الفصل ج ٤ ص ٧
 (٣) روح المعاني ج ٧ ص ٢٨٣
 (٥) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٧١

وهذا رأينا ان قول الخليل عليه السلام " انى سقيم " ليس كذبا وعرفنا توجيه الاحاديث التى سمته كذبا ومع هذا نجد فريقتا يقول : انه كذب ولكنه لمصلحة دينه فهو جائز ويستندون الى الحديث السابق : لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات وحديث الشفاعة : وقد رجح هذا القول ابن جرير الذى قال : ذكر ان قومه كانوا اهل تنجيم فرأى نجما قد طلع فمصّب رأسه وقال : انى مطمون وكان قومه يهيمون امن الطاعون فاراد ان يتركوه فى بيت الهتهم ويخرجوا عنه ليخالفهم ويخرجوا عنه ليخالفهم اليها فيكسرهما لم قال : واختلف فى وجه قول ابراهيم لقومه " انى سقيم " وهو صحيح فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال " لم يكذب ابراهيم غير ثلاث كذبات " الحديث وقال آخرون : ان قوله انى سقيم " كلمة فيها ممرض " .

ثم رجح القول بأنه كذب لمصلحة دينه فهو جائز - امتدادا الى ظاهر الحديث فقال - والخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف هذا القول كلمة فيها ممرض وقول رسول الله هو الحق دون غيره " ١ " وارى ان هذا الوجه غير شديد وتوجيه ابن جرير له امتدادا الى الحديث فى غير موضعه لا لان الحديث غير مقبول كما ذهب الى ذلك الفخر الرازى الذى قال لاصحاب هذا الوجه هذا الحديث لا ينهى ان يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فردوا عليه : بانه كيف يحكم بكذب الرواة المدول فقال : لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى وبين نسبته الى الخليل عليه السلام كان مسن المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوى اولى " ٢ "

فالحديث صحيح وقد رواه الشيخان ولا مجال للطعن فيه وانما لان ما تضمنه الحديث من اقوال الخليل عليه السلام من الممازى وهى لا تمد كذبا وتسميتها كذبا قد سبقت الاجابة عنها وان فى الممازى لمنذوحة عن الكذب وقد استعملها نبينا صلى الله عليه وسلم عندما ركب هو وابوبكر ليتحصيا موضع المدونى غزوة بدر فالتقيا بشيخ من العرب فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد واصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ : لا اخبركما حتى تخبراني عن انتما فقال رسول الله : اذا اخبرتنا خبرناك فقال : اذاك بذاك ؟ قال نعم فاخبر الشيخ بما يعرفه عن الرسول واصحابه وعن قريش وكان مصيبا ولما فرغ من خبره قال : من انتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نحن من ماء " وترك الرجل وانصرف فهذا من ممازى اقوال ائمة فهم الرجل انهما من ماء الحزاق واستعملها الصديق ابو بكر رض الله عنه حين سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم فى طهرتها الهجرة فقال : هو هاد يهدىنى حيث اراد الهداية الى التى هى اقوم وفهم السائل انها الهداية فى الطريق الحسى ولا تمد الممازى كذبا فى الحقيقة ولهذا رجحت ان نظر الخليل عليه السلام فى النجوم من الممازى قسى الاقمال وقوله انى سقيم من الممازى فى الاقوال

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٥ للاستاذ

عبد السلام هارون

(١) جامع البيان ج ٢٣ ص ٤٦ - ٤٧

(٢) مفتاح الغيب ج ٧ ص ١٤٥

وهي المتهمة من ظاهر قوله تعالى " وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذافا الا كبيرا لهم لملهم اليه يرجعون " الى قوله " قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون " (١)

وذلك ان ابراهيم عليه السلام هو الذي كسر الاصنام كما نطقت بذلك الايات ثم لما سئل عن ذلك نسبة الى الصنم الاكبر فيكون هذا عنه كذبا والمكذب معصية

ويدل لذلك ايضا حديث : " لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات " وحديث " الشفاعة " وفيهما عد قوله هذا منها

الجواب عن الشبهة

في الاجابة عن هذه الشبهة انقسم العلماء الى فريقين

الاول : يرى انه كذب لمصلحة دينه فهو جائز لان الكذب ليس لذاته وليس كل كذب معصية ~~بم~~ منه ما يكون طاعة لله عز وجل

يقول ابن حزم : اما الحديث انه عليه السلام كذب ثلاث كذبات فليس كل كذب معصية بل منه ما يكون طاعة لله عز وجل وهو ~~م~~ واجب يحصى من تركه صبح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس الكذب الذي يصلح بين الناس فينسى خيرا " وقد اباح عليه السلام كذب الرجل لامراته فيما يستجلب به مودتها وكذلك الكذب في الحسب

وكذلك اجمع اهل الاسلام على ان انسانا لو سخط مظلوما قد ظلمه سلطان وطلبه ليقتله بخير حق ويأخذ ماله غصبا فاستتر عنده وسممه يدعو على من ظلمه قاصدا بذلك السلطان فعأل السلطان ذلك السامع عما سمعه منه وعن موضعه فانه ان كتم ما سمع وانكر ان يكون سمعه او انه يعرف موضعه او موضع ماله فانه محسن مأجور مطيع لله عز وجل وانه ان صدقه فاخبره بما سمعه منه وبموضعه وموضع ماله كان فاسقا عاصيا للعتز وجل فاعل كبيرة مذموم تماما وقد ابيح الكذب في اظهار الكفر في التقية وكل ما روى عن ابراهيم عليه السلام في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة لا في الكذب الذي ينهى عنه (٢)

ومن انصار هذا الفريق من رأى ان الكذب يحسن في مواضع وهذا منها وقد يجب لتحمل اخسف الضررين دفعا لا عظمهما كما بين عقيل الذي نقله عنه ابن حجر قوله : الكذب المحسن في مثل تلك المقامات فان الكذب وان كان قبيحا ~~م~~ خذ لك الضررين دفعا لا عظمهما واما تسميته اياها كذبات فلا يريد انها تدم فان الكذب وان كان قبيحا ~~م~~ خذ لكته قد يحسن في مواضع وهذا منها (٣)

ومن الذاهبين الى هذا القول من جوز ان يكون اللتعالى قد اذن لابراهيم عليه السلام في ذلك ليعرف قومه خطاهم

(١) سورة الانبياء الايات من ٥٢ الى ٦٣ (٢) فتح الباري ج ٦ ص ٢٢٨

(٢) الفصل في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ٦

كابن جرير الذي قال بعد ان عقد موازنة بين انه كذب لمصلحة فهو مأذون فيه شرعا وبني من كون
الكبير فاعلا مشروط بكونهم ناطقين والمعلق على المحال محان نقوى الاول وضمف الثاني الاجادا الى
الحديث السابق :

وغير مستحيل ان يكون الله تعالى ذكره اذن لخليلة في ذلك ليقرع قومه به ويحتج به عليهم ويمنقهم
موضع خطيئهم وسوء نظرهم لانفسهم كما قال ط. وذن يوسف لاختوته : ايها العير انكم لسارقون * ولم
يكونوا سرقوا شيئا (١)

وسا سبق يتضح ان هذا الفريق يستند الى

١ - حديث * لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات * مع ابقائه على ظاهرة

٢ - ماورد في بعض الاحاديث الصحيحة من اباحة الكذب في ثلاثة مواضع : الحرب واصلاح الزوجة
واصلاح ذات البين كحديث اسما بنت يزيد الذي اخرجه الترمذي مرفوعا * لا يحل الكذب الا في ثلاث

تحدث الرجل امرأته ليرضيها والكذب في الحرب وفي اصلاح بين الناس (٢)

فاذا كان الكذب في هذه الثلاثة قد ابيح للمصلحة فكذب الخليل عليه السلام فثله اذ هو لمصلحة
دينه فيكون مأذونا فيه شرعا

وهذا القول ضعيف لانه يؤدي الى عدم الوثوق في الشرائع فان تجوز الكذب على الانبياء لمصلحة يؤدي
الى تجويزه عليهم في كل ما خبروا به وهذا ترتفع الثقة بالشرائع *

قال الفخر الرازي : لو جاز ان يكذب الانبياء عليهم الصلاة والسلام لمصلحة وأذن الله تعالى فيه
فلتجوز هذا الاحتمال في كل ما خبروا عنه وفي كل ما خبر الله تعالى عنه وذلك يمتل الوثوق

بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها (٣)

وقد زيف هذا القول ايضا الحسن بن محمد النيسابوري في "غرائب القرآن" بمثل ما ذكر الفخر

الرازي كما وعفه الالوس في تفسيره بانه زعم وليس من الحق

وحكم علي بن ابي حيان في البحر المحيط بانه بعيد عن طريق الفصاحة

واما الاحاديث التي استند اليها هذا الفريق كحديث * لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات * فاطلاق

لفظ الكذب فيه انما هو بالنسبة للصورة فقط اما في الحقيقة فلا كذب اذ دلالة العقل بوجوب صدق الرسوم
والثقة في خبرة تصرف اطلاق الكذب على ابراهيم عن ظاهرة

نقل ابن حجر عن ابن عقيل قوله : دلالة العقل تصرف ظاهر اطلاق الكذب على ابراهيم وذلك ان العقل
قطع بأن الرسول ينبغي ان يكون موشوقا به ليملم صدق ما جاء به عن الله ولا ثقة مع تجوز الكذب عليه فكيف

مع وجود الكذب منه وانما اطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند الصالح (٤)

وكحديث الشفاعة واعتذار الخليل عليه السلام فيه عن الشفاعة وذكره ما صدر منه فالان الاولى والاليتي بمرتبته
في النبوة والخلة ان يجهر بالحق ويخبر بالواقع كيفما كان الامر ومهما كانت النتائج ولكنه استعمل الرخصة

وهي .

(٣) مفاتيح السبب ج ٦ ص ١٢٩
٢٢٨

(٤) فتح الباري ج ٦ ص ١١١

(١) جامع البيان ج ١٧ ص ٣١

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ١١١

لاتليق بمنزلته السامية وكان عدم استعظام الرخصة اولى بنى استعمالها فكان عليه السلام مخالفا الاولى
(١) واما حديث " لا يحل الكذب الا في ثلاث " فان اباحة الكذب في مثل هذه الثلاثة انما هو
بالنسبة لغير الانبياء اما الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلا حتى لا ترتفع الثقة باخبارهم ويتوجه الطعن
الى الشرائع .

الثانى يرى ان مصدر من الخليل عليه السلام في قوله " من فعله كبيرهم " ليس كذبا ويوجهه على احد
الوجهوه الاتية :

الاول : نسب ابراهيم عليه السلام الفعل الى كبيرهم وقصده : تقريره لنفسه واثباته لها باسلوب
تمريضى مبتكيتا لهم والزما للحجة عليهم لانهم اذ انظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وانه لا يصلح
لها لان اثبات فعل دائريين اثنين احدهما عاجز عنه والاخر قادر عليه الى الماجز ضمما استهزا
بمواثباته للقادر وبناتكسير الاسنام اما ان يكون من ابراهيم عليه السلام واما ان يكون من كبيرهم وكبيرهم
عاجز عنه قطعا فضمته اليه اذن استهزا به واثباته لابراهيم عليه السلام باسلوب تمريضى يتحقق به
غرضه من الزام قومه الحجة وتبكيتهم على عبادة من لا يصلح لها حيث لا يقدر على شئ وهذا الوجه
ككثره كثير من المفسرين كالزمخشري والفخر الرازى والالوس دون تعقيب عليه بترجيح او تضييف وذكره
غير هؤلاء مرجحا كالتاسى وابن كثير

الثانى : ان اسناد الفعل الى الكبير من قبيل اسناده الى العيب الحاكن عليه فانه عليه السلام
لما رأى الاعنام مصطفة مؤمنة يحتملها المشركون ورأى زيادة تمثيلهم لكبير الاصنام وتخصيصهم اياه
بمزيدا التواضع والخضوع اشتد بغضه له وغينته عنه فحمله ذلك على ما فعل بتلك الاصنام

وابقى الكبير مع انه لسبب ليورد عليهم هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الاصنام
وهذا الوجه حكاه كثير من المفسرين دون ترجيح او تضييف الا ان تقدم الالوس على غيره من الاقوال
يشعر بارتياحه اليه اكثر من غيره وصحيح شارح المواقي يؤذن بترجيحه حيث اقتصر عليه (٢)
وقد رأى جودته محمد الكابلى فقال بعد ان حكاه : وهذا القول اجود (٣)

الثالث : انه لم يسنده الفعل اليه اعتقادا بل اسنده حكاية لما يلزم على مذهبيهم جوازه كأنه قال
لهم : كيف تتكروا ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى لها ان يقدر على هذا واشد منه
واذا سلمتم انه لا يقدر على هذا فكيف تعبدونه وتدعونها ؟ ان ذلك يكون عين الجهل وغاية
الغباء وقد ذكر هذا الوجه كثير من المفسرين خلوا من الترجيح او التضييف
الرابع : ان اسناد الفعل الى الكبير مشروط بقوله " ان كانوا ينطقون " وقوله " فاسألوهم " جملة
معتزلة جعل النطق شرطا للفعل واراد به انهم ان قدروا على النطق قدروا على الفعل فلما ظهر
عجزهم عن النطق تبين عجزهم

عن الفعل ايضاً

وقد ضعف هذا القول ببعض المفسرين كالألوس الذي قال عنه : وهو خلاف الظاهر
الخامس : ان الكلام تم عند قوله " فعل " والضمير المستتر فيه يعود على فتى اوالى ابراهيم
وضمفه ظاهر ومن جهة ان كلا من فتى و ابراهيم مذكور في كلام لم يصدر بمحضر من ابراهيم عليه السلام
حتى يعود اليه الضمير

ونسب الي الكسائي : انه جعل الوقف على " فملة ايضاً الا انه قال : الفاعل محذوف اي فملة من فعله
والكسائي يجيز حذف الفاعل

وضمفه من جهة ان حذف الفاعل لا يجوز عند الجمهور وفيه تكلف ايضاً كما قال ابن حجر في فتح الباري
السادس : ان الوقف على كبيرهم واراد به عليه السلام نفسه لان الانسان اكبر من كل صنم

وهذا القول كما قال الألوس ضرب من الهذيان (١)

السابع : أن الفاء في فملة عاطفة وملة بمعنى لعله فخفف ويمزى للقرآن واستدل عليه بقراءة ابن السنيق
" فملة كبيرهم مشدد اللام "

وهذا تجريح في غاية البعد والاية عليه في غاية الغموض وفيه تحمل غير مقبول

وارجح هذه الأقوال هو القول الاول :

لان الخليل عليه السلام انما اراد ان يبين لقومه فساد اعتقادهم في عبادتهم الاصنام وذلك بحجة تلزمهم
واعتراف يصدر من جهتهم بعد التأمل في شأن الهتهم بانها لا تقدر على شيء لانها جماد وان كبيرهم

لا يصدر عنه هذا الفعل لانه مثلهم في الجمادية والمجز ومذ لك تقوم الحجة عليهم بانهم كيف يعبدون

مالا يصلح لها لمجزه عن جلب النفع و دفع الضرر يدل لهذا الايات التي تلي هذه الاية وهي قوله :

" فارجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال

افتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون " (٢)

الشبهة الخامسة

هذه الشبهة استند فيها الى ظاهر حديث روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم وفيه ان الخليل عليه الصلاة والسلام كذب حيث قال عن زوجته انها اخته والكذب ذنب
 وذلك فيما رواه البخارى بسنده عن ابي هريرة رضى الله عنان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال * لم يكذب
 ابراهيم الا ثلاث كذبات : تتبين منهن في ذات الله عز وجل قوله * انى سقيم * وقوله * بل فعله كبيرهم
 هذا * وقال : بينما هو ذات يوم وسارة اذ اتى على جبار من الجبابرة فقبل له : ان هذا رجل محط امرأة من
 احسن الناس فارسل اليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : اختى فأتى سارة فقال : يا سارة ليمس
 على وجه الارض مؤمن غيرى وفيرك وان هذا سألتى عنك واخبرته انك اختى فلانكذ بهنى فارسل اليها فلما
 دخلت عليه ذهب يتناولها بيعة فاخذ فقال : ادعى الله لى ولا اضرك فدعت الله فاطلق ثم تناولها
 الثانية فاخذ مثلها او اشد فقال : ادعى الله لى ولا اضرك فدعت الله فاطلق فوطأ بعض حجبته فقال :
 انك لم تأتبنى بانسان وانا اتيتنى بشيطان فاخدمها ها جرفاتته وهو قائم يعلى فأوصيا بيده مهيم ؟
 اى ما الخير : قالت رد الله كيد الكافر او الفاجر في نحره واخدمها جابر *
 ان قول الخليل عليه السلام عن زوجته سارة : ^{الجواب عن الشبهة} انها اخته ليس كذبا لانه انما يقصد الاخوة في الاسلام
 والدين الحق الذ كان عليه لا اخوة النسب والاخوة : تطلق على المشاركة في الصفات مجازا مرسلا
 واستمارة من المشاركة في النسب والله تعالى يقول * انما المؤمنون اخوة * وفي الحديث * المسلم
 اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله *
 ويدل على ان الخليل عليه السلام يقصد اخوة الدين قوله * ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وفيرك *

الفصل الرابع

شبهات حول لوط عليه السلام

آثار الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام حول لوط شبهتين

الشبهة الاولى

انه عرض على قومه اتيان الفاحشة مع بناته ودعاهم الى الزنا بهم فدا " لاضيفه وذلك اخذا من ظاهر قوله الله تعالى " ولما جاءت رسلنا لوطا من " بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصب وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يحملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيقي اليهن منكم رجل رشيد " (١) ومن ظاهر قوله تعالى ايضا " قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين " الجواب عن الشبهة

يجاب عن الشبهة باحد الجوابين :

الاول : ان لوطا عليه الصلاة والسلام لم يعرض بناته على قومه بالزنا وإنما بالترجيع واتيانهن من حيث امر الله وانما لم تصرح الآية بهذا لانه واضح لا يحتاج الى التخصيص عليه حيث لا يعقل ان ينهى نسي عن منكر ويدعو في نفس الوقت الى منكر اخر ومبهمات بالذات والمقام بمقام ترجيح النساء على الرجال لا كما يفعله قومه من ترجيح اتيان الذكران على ما خلق لهم ربهم من ازواجهم " اتاتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل انتم قوم عادون " (٢) ففي هذا المقام امر النكاح معتبر ومعلوم والاطهر ليس الا فيه " هن اطهر لكم " لافي الزنا ولا في اتيان الذكران لذا استغنى عن ذكره ويدل على ان لوطا عليه السلام انما عرض بناته بالترجيع امور :

الاول : تحليلة عرض بناته بقوله " هن اطهر لكم " ولاظهار في الزنا ولا يفهم من افضل التفضيل ان عمل قوم لوط ظاهر وان اتيان النساء بالترجيع اكثر طهرا منه لان افضل التفضيل ليس على يابة وانما هو بمعنى اصل الفملا ولا يدل على ان اتيان الذكور كان طاهرا

الثاني : انه لا يجهل بمن ينهى عن منكر ان يدعو في نفس الوقت الى منكر مثله او اشد وهنالك كيف

ينهى لوط عليه السلام عن اللواط ويدعو الى الزنا وكل منهما منكر فيجب تركه

الثالث : انه لو كان يدعو قومه الى الزنا لاحتجوا عليه بقولهم : الزنا واللواط حرامان في شرعنا

فكيف تدعونا الى ترك احدهما دون الاخر وكان لهم ان يقولوا له : انت تدعونا الى محرم هو الزنا

ونحن ندعو الى محرم هو اللواط فقد تساوتنا نحن وانت في هذا الامر فليست استجابتنا لك باولسى

من استجابتك لنا ولكن لم يقولوا شيئا من ذلك

ثم هو عليه السلام قال لهم عقب عرض بناته عليهم " اليهن منكم رجل رشيد " اي رجل يهتدى الى طريق

الحق وفعل الجميل والكف عن سوء فلو كان لوطا عليه السلام يدعو قومه الى الزنا لقالوا له : وانت الآخر

(١) سورة هود الايتان ٧٧ و ٧٨

(٢) سورة الشعراء الايتان ١٦٥ و ١٦٦

لست رشيدا حيث تدعوننا الى النسق ولكنهم لم يقولوا ذلك
الرابع : ان لوطا عليها السلام انكر على قومه اتيان الذكران وترك الزوجات في قوله " اتأتون الذكران
" لا المهن وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم برائتم قومه اذون "

فهذا صريح في انه يهيب على قومه لمريم : اتيان الذكران وترك الزوجات فهو اذن يدعوهم الى
اتيان ما خلق الله لهم من ازواجهم الى اتيان نساءهم الحلال وذلك تقبيح الاتيان الحرام وهو الزنا
ونقل ابن جرير عن ابن مسحاق انه قال في معنى هذه الآية : فاننا افدى ضيقى بهن ولم يدعهم

الا الى الحلال من النكاح (١)

وقال المصطفى : اخبر اصحابي بن بشر وابن عساكر من طريق جويهر ومقاتل عن الضحاك عن ابن
عباس قال : لما سمعت الفسقة باضياف لوط جاءت الى باب لوط فلققت عليهم الباب وذهب ثم اطلع عليهم
فقال : هؤلاء بناتي فعرض عليهم بناته بالنكاح والتزويج ولم يعرضها عليهم للفاحشة وكانوا كفارا
وبناته مسلمات فلما رأها بالبلاء وخاف الفضيحة عرض عليهم التزويج (٢)

وهنا يرد سؤال هو : كيف يعرض لوط عليه السلام على قومه الكفار التزويج بيناته المسلمات وهم يصح
تزويج الكافر بمسلمة ؟

ويجاب عن واحد جوابين

الاول : انه دعاهم الى التزويج بهن بشرط ان يقديروا الايمان واليه ذهب الزوجاج وهو مبنى على
ان تزويج المسلمات من الكفار لم يكن جائزا اذ ذلك
ويرى بعض المفسرين : ان ذلك القول من لوط عليه السلام لم يكن مجريا على الحقيقة من ارلنا فانكاح
يل اظهار الشدة امتناعا من ضيقهم طمعا في ان يرقوا له اذا سمحوا ذلك فتركوا ضيقه مع
استقرار العلم عنده وعندهم ان لا مفاخرة بينه وبينهم *

الثاني : ان تزويج المؤمنات من الكفار جائزا في شريعتهم وهكذا كان في اول الاسلام فقد زوج النبي صلى
الله عليه وسلم ابنته زينب لابن العاص بن الربيع وابنته رقية لعتبة بن ابي لهب قبل الوحي وكانا كافرين
الا ان عتبة لم يدخل برقية وفارقها بطلب ابيه حين نزلت سورة " تبت يدا ابي لهب " فتزوجها
عشان رضى الله عنه واما ابوالعاصي فكان قد دخل بزينب فلما اسرى بدر وقادى نفسه اخذ النبي
صلى الله عليه وسلم العهد عليه ان يرد لها اذا عاد وارسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة
ورجلا من الانصار في طلبها فجاء بها ثم ان ابا العاصي اسلم واتى المدينة فردها عليه الصلاة
والسلام اليه بنكاح جديد وقيد بالنكاح الاول

ولو ط وهو يعرض بنته او بناته الثلاث بالنكاح فانما يعرضهن على زوجين او ثلاثا قطاعين ففى
قوسهم (٣)

الثاني : في الاجابة عن الشبهة
ان لوطا عليه السلام انما يقصد ببناته نساء الامة فهو يمرض على الرجال ان يأتوا ازواجهم وكأنه يقول لهم
هولاء ازواجكم فأتوهن فهو اطهر لكم من اتيان الذكران
قال الزمخشري : " هولاء بناتي " اشارة الى النساء لان كل امة لولاد نبيها : رجالهم بنوه ونسأؤهم
بناته فكانه قال لهم : هولاء بناتي فانكحوهن وخلقوا بنى فالتتمضوا لهم (١)

وحكى هذا القول عن ابن عباس ومعيد بن جبير
قال السيوطي : اخبر ابو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على
قومه لا سفاحا ولا نكاحا وانما قال هولاء بناتي نسأؤكم لان النبي اذا كان بين ظهري قوم فهو ابوهم
قال الله تعالى " النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم وهو ابوهم في قراءة ابن ابي عمير
عنه

واخرج ابن جرير وابن ابي الحاتم عن سعيد بن جبير قال : انما دعاهم الى نسائهم وكنى بنى الموامته (٢)
والجواب الاول اقوى واقرب الى القبول انا اشارة بهولاء تكون للحاضرة ونساء الامة غير حاضرات ولا نسه
لو كان المقصود نساء الامة لكان في هذا الوقت : ازواجكم اللاتي خلق لكم ربكم اطهر لكم كما قال في
بواضع الخسري " وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم
ولانهم ردوا عليه بقولهم لقد علمت ما لنا في بناتك من حق " ولو كان المراد نساء الامة لما قالوا
عذرا اذ لهم الحق في ازواجهم
ومعنى الآيات :

ولما أتت رسل الله وما لا تكتمه لوطا عليه السلام ورأى ههنا تهم وجمالهم اخزن لانه حسب انهم انهم فخاف
عليهم حيث قومه وان يعجز عن مقاومتهم ومد افعتهم وضاق بكلماتهم صدره وقال : هذا يوم شديد شره
عظيم يأتوه وجاءه قومه بمد ان علموا : ان عند لوط اضيافا حسان الوجوه يسرعون كأنما يدغمون دفعا
ومن قبل جيتهم الى لوط كانوا يأتون الرجال في ادبارهم

فقال لهم لوط : لما جاءوا يراودونه عن ضيفه هولاء بناتي فتزوجهن فهن اطهر لكم
وأطهر " بمعنى انظف او احل فحلى الاول يراد بالتهارة : الطهارة بالحسية وبهى الطهارة عما نفسى
اللواط من الخبث والاذى وعلى الثاني : الطهارة المنهية وهى التنزه عن الفحش والاشم
" فاتقوا الله " باثباته عن عليه ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي او لا تخجلوني من الخزية
وهى الحياء في حق ضيوفى فانه اذا خزي ضيف الرجل او جاره فقد خزي الرجل
" اليس منكم رجل رشيد " اى يهتدى الى طريق الحق وفعل الجميل وترك سوء فبأمر بقية القوم
بالمعروف وينهاهم عن المنكر

فأجابوه : لقد علمت ما لنا في بناتك من حاجة لان اتيان الاناث غير محبب الينا وانما نحب ونبغى
اتيان الذكران وانك لتعلم هذا
اوالمعنى : ليس لنا في بناتك حق لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لا نجيبك الى ذلك
فلا يكون لنا فهمن حق

او انهم قافوا ذلك لان عادتهم كانت ان لا يتزوج الرجل منهم الا واحدة وكانوا كلهم متزوجين (١)
ولما لم يهتأهوا ولم يردعهم قوله ولم يقبلوا ما عرض عليهم من امر بناته

* قال لو ان لي بكم قوة او آوى الى ركن شديد *

والمعنى : لو ان لي بدفعكم قوة بالبدن او الولد او آوى الى عشيرة كثيرة لانه كان غريبا عن قومه شبه
العشيرة بركن الجبل في الشدة والمنعة وحذف جواب "لو" لدلالة الكلام عليه اي لحلت بينكم وبين
ما تريدونه من اضيافى

الشبهة الثانية

ان لوطا عليها السلام تمنى عشيرة كبيرة تدفع عنكم كذا افادت الاية السابقة - فهو اذن لم يلتجئ الى الله
ولم يعتمد عليه وحده ويشق بنصره له ويأن قوته سبحانه اجدى وانفع له من قوة الناس جميعا بل تمنى
عشيرة قوية يرى انها اجدى في دفع قومه عن اضيافه من الله
ثم ان هناك تعارضا بين هذه الاية وبين الحديث الذي رواه البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال "نحن احق بالله من ابراهيم اذ قال رب انسى كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن
ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا لقد كان ياوى الى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لاجبت
الداعى" فالاية تفيد انه ما آوى الى الله في دفع القوم عن اضيافه والحديث يدل على انه كان ياوى الى
المتعمالي دائما الذي هو اقوى الاركان *

الجواب عن الشبهة

يجاب عن الشبهة باحد اجوبة اربعة :

الاول : ان لوطا عليها السلام كان ياوى دائما الى المتعمالي وهو ما فاده الحديث وما صدر عنه في قوله
"او آوى الى ركن شديد" انما صدر في حال سهوة لما دهمه عما يجب ان يكون عليه من الاعتماد على
الله وحده والثوق بنصره له ولا مواخذة عليه في هذا الحال

ونقل ابن حجر عن الثوري قوله : يجوز انهما اندهش بحال الاضياف قال ذلك (٢)

الثاني : ان قوله "او آوى الى ركن شديد" كلام منفصل عما قبله والمعنى : ان لوطا عليه السلام

لما رأى سفاهة القوم واقداسهم على سوء الادب تغنى حصول قوة قادرة على الدفع عن اضياعهم استدارا على نفسه وقال : بل الاولى ان آوى الى ركن شديد وهو الاعتماد باللتمالي وعند ما يخبر عنه الحديث (١)

الثالث : انه لاجتراح على لوط عليه السلام في طلب قوة من النار تدفع عن اضياعه اذ لاحن على انمان يرى الحق مضيقا والباطل سائدا في الاستماعة باناس يحق بهم الحق ويبتل الباطل وقوة جندا لحق من قوة الله ولوط عليه السلام كان يأوى في واقع الامر ودون ان يدري الى ركن شديد هم الملائكة وهو ما يفيد الحديث

قال الامام ابن جرير

لاجتراح على لوط عليه السلام في طلب قوة من النار فقد قامت على " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " فهذا الذي طلب لوط عليه السلام

وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الانصار والمهاجرين ضممه حتى يبلغ كلامه به وانما اخبر عليه السلام ان لوطا كان يأوى الى ركن شديد يعنى من نصر الله له بالملائكة ولم يكن لوط علم بذلك ومن اعتقد ان لوطا كان تعتقد انه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر اذ نسب الى نبي من الانبياء هذا الكفر وهذا ايضا ظن سخيف اذ من المتع ان يظن برب اراه المعجزات وهو دائها يدعوا اليه هذا الظن (٢)

الرابع : انه التجأ الى الله في باطنه وهو ما يخبر عنه الحديث وقال او آوى الى ركن شديد " امام الاضياف اعتذارا

نقل ابن حجر عن النووي ايضا قوله : انه التجأ الى الله في باطنه واظهر هذا القول للاضياف اعتذارا (٣) وظهر لي رجحان هذا الجواب لاخير لامرين

الاولى : ان اللائق برسول الله ان يركن الى الله لا الى الناس اذ كان كرسول يقف وحده في مواجهة الكثرة الكبيرة من خصومه وضارفة فملى من كان يحتد ؟

والرسل عليهم الصلاة والسلام حين كلفهم رسما بالدعوة الى سبيله اعلمهم انهم هم بتأييده وغيابته حتى لا يخلقوا سلوة اقوامهم عليهم وهل كان مثل فرعون في الناس تجبر او طفيانا ؟ لقد طمان الله موسى وهرون عندما وجههما اليه انه مصهما " اذهب الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى - قالوا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى قال لا تخافا انى يحكما اسمع وارى "

والرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يلتجئون الا الى الله قال يعقوب " انما اشكوبنى وخزنى الى الله " وقال نبينا " اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا ارحم الراحمين "

الثانى : ان لوطا قدر في نفسه في هذه اللحظة ان اضيافة وهو لا يعلم انهم ملائكة سيتسائلون ولسو في انفسهم : اما لهذا الرجل ولدا او عشيرة تدفعه فقال هذا القول اعتذارا لهم بأن لا ولسد له ولا عشيرة تحميه اما في الباطن فملتجى الى الله .

أثيرت حول يوسف عليه السلام والسلم شبه كثيرة ، ونسب اليه ارتكاب أكثر من معصية ومن الانساف لهذا النبي الكريم سليل الكرماء أن نتناول هذه الشبه التي وجهت اليه افتراءً وهتاناً بما يوضح بطلانها ويسقطها عن درجة الامتداد بها ، والوقوع في شرك مخطئها ، والمرشحين لها .

الشبهة الاولى . —

أن يوسف عليه السلام لم يظهر حريته عند بيعه ، وذلك كتمان للدق ، وكتمان الدق ذنب ومعصية

الجواب عن الشبهة . —

أن يوسف عليه السلام لم يكن نبياً في هذا الوقت ، وإنما نبي بعد ذلك وأما قوله " وأوحينا اليه لتبئهم بأمرهم هذا " فإنه يحمل على وقت آخر (١) ثم إنه سكت عن إظهار حريته عندما بيع مخافة أن يقتله أخوته ، وهذا على أن الذي باعه أخوته — بعدما استخرج من البئر — والضير (وعو الواو) في " وأسروه بضاعة لهم

نقل ابن كثير من العوفي عن ابن عباس قوله : " وأسروه بضاعة " يعني أخوة يوسف ، أسروا شأنه وكتموا أن يكون آخاهم ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله أخوته ، واختار البيهقي ذكره لأخوته لوارد القوم فساد أصحابه " يابسون غذا غلام " يباع فبانه أخوته (٢)

وقال النسفي : أن أخوة يوسف قالوا للرفقة ، هذا غلام لنا قد أبقي بأشتره منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، (٣)

وقيل : أن السيمير للواردين والمعنى : وأسره الواردون من بقية السيارة ، وقالوا : اشترناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوه فيه إذا علموا خبره ، قاله — اعد والمدى وابن جرير (٤)

وعلى هذا لا يخلو أمر يوسف عليه السلام من واحد من اثنين : —

- ١ — أما أن يكون قد سكت عن اظهار حريته طمعا في النجاه ، إذ لو أخبرهم بحريته لتركوه في المدراء المقفرة ، حيث لا يكون لاخذة فائدة ، وفيها يتمرر للهلاك ، أما الذهاب معهم ، ولو عبداً يباع ويشترى فيه نجاه له من أخطار الصحراء ، وقد يكون ذهابه معهم هو السبيل لتحقيق رؤياه السقي بشرت بما سيكون له من شأن عظيم ، وسيادة على قومه بما فيهم أهله .
- ٢ — وأما أن يكون قد أخبرهم بحريته ، ولكنهم لم يعيروه اهتماماً ، ولم يعملوا بقتضى قوله طمعا فسيئته ، وهذا هو الذي سلمهم على أن يبيعوه بثمن قليل ، وإن يرتب حوائجه " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهين " .

وعلى أي من هذه الحالات فيوسف عليه السلام لم يرتكب معصية .

(١) عصمة الانبياء للفخر الرازي — ٤٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٢

(٣) تفسير النفسى ج ٢ ص ٢١٥

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٢

الشبهة الثانية

ان يوسف عليه السلام عزم وشرع في اتيان الفاخشة مع امرأتها المنزلة
 وذلك اخذا من ظاهر قول الله تعالى * ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه *
 نقل الفخر الرازي : ان الواحدى قال فى * كتاب البسيط * : قال المفسرون الموثوق بعلمهم
 المرجوع الى روايتهم : هم يوسف بهذه المرأة هما صحيحا وجلسن معها مجلس الرجل من المرأة
 فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه قال جعفر الصادق باسناد عن على عليه السلام
 انه قال : طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها انه هم ان يحل الثقة وعن ابن عباس رضى الله
 عنهما قال : حل الهيمان (١) وجلسن معها مجلس الخائن وهذه ايضا : انها استلقت له وجلسن
 بين رجلها يتزوج ثيابا

وروى ايضا : ان يوسف عليه السلام لما قال : ذلك لعلم انى لم اخنه بالخبث * قال له جبريل
 عليه السلام ولا حين همت يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك : وما برى نفسى *
 ثم قال : والذين اثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا اعرف بحقوق الانبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم
 عند الله تعالى من الذين تفروا لهم فته هذا خلاصة كلامه فى هذا الباب (٢)

وهؤلاء الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام ذكرنا فى تفسير البرهان فى قوله تعالى
 * لولا ان رأى برهان ربه * تفسيرات عدة وروايات شتى تخدم مدطعم وهاهى :
 ١ - ما اخرجاه ابو نعيم فى الحلية * عن على كرم الله تعالى وجهه : انها قامت الى صنم مكلت
 بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترت به ثوبا يهز بينها وبينه فقال عليه السلام : اى شىء *
 تصنعين ؟ فقالت : استحى من الهى ان يرانى على هذه السواة * فقال : كنت حين من صنم
 لا يأكل ولا يشرب ولا استحى انا من الهى الذى هو قائم على كل نفس وما كسبت ثم قال : لا تنالها
 حتى ابدا وهو البرهان الذى رأى *

٢ - ما اخرجاه ابن جرير وغيره عن ابن عباس : انه عليه السلام مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده
 على صدره

٣ - ما اخرجاه عن قتادة : انه قال : ذكر لنا انه مثل له يعقوب غاضا على اصبعه وهو يقول
 يا يوسف اتهم بعمل السفها * وانت مكتوب من الانبياء *

٤ - ما اخرجاه عن القاسم بن ابي بزة قال : نودى : يا ابن يعقوب لا تكوشن كالطير له ريش فاذا زنا
 قعد ليس له ريش فلم يمرض للندا * وقعد فرقع رأسه فرأى وجه يعقوب غاضا على اصبعه فقام
 مرغها استحيا * من ابيه الى غير ذلك (٣)

الجواب عن هذه الشبهة يكون بابطال هذا القول ، وبيان غم يوسف عليه السلام على الوجه الصحيح ،
والادلة على عصمته عليه السلام عن الهم بالزنا ، والبرهان على هذا
فهذا القول ونحوه : أن يوسف عليه السلام لم ياتيان الفاحشة مع امرأة العزيز ، باطل ، لأنه يتعارض مع ما تقر
نقلا ونقلًا من عمدة الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن الكبائر عمدًا •
وما أسنده أصحاب هذا القول الى علي وابن عباس رضي الله عنهما من أقوال تؤيده مدعاهم - على فرر صحبة
هذا السند اليهما - فلا يصح الاحتجاج بما حجت أنه تارة الثابت عقلا ونقلًا من عمدة يوسف عليه السلام
عن الهم بالزنا كما سيأتي •

على أن في النفس أشياء من صفة السند الى عذرين الصعابين الجليلين أنهما قالا هذه الاقوال التي
استند اليها أصحاب هذه الشبهة ، وأغلب الظن أنها مفتراه عليهما
وان تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام على النحو السابق يحتاج الى برهان صحيح عليه • ونحو
ليس في وسعهم ، إذ سيحسون برهاننا صحيحا - ارر وينقض ما دعوه
وكون ما ذكر قول لبعض المفسرين - كما ذكر الواحدى - ليس حجة ، فإذا كان قول بعض الصحابة أو التابعين
إذا عارض من كل وجه الثابت المقرر عقلا أو نقلًا ، ليس حجة وانما يريد على قائله ، ضمن باب أولى أقوال المفسرين
التي تكون على هذا النحو

وقبل الدخول في بيان معاني " الهم " وتحديد أيها النبي يوسف عليه السلام ، وإقامة الادلة على عصمته
عن الهم بالزنا ، أقدم الآية السابقة على آية الهم موصحا معناها ، وسنجد انها تصور أحداث الواقعة بها لا يدع
مجالا لهذه الشبهة ، وما يشتمها من جذورها الصارفة في أعمال الانتراء على أهل العصمة والعفصة ،
والنزاهة والبراهة •

قال تعالى " وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله أنه
ربي أحسن مشورا انه لا يفلح الظالمون " " هيت لك " " هلم وتعالى " احسن مشورا " تعهدى
وقامى •

فالله تعالى يخبر عن امرأة العزيز التي كان يوسف عليه السلام في بيتها ، والتي أوساها زوجها به خيرا
أنها راودته عن نفسه أى طالبتة بما تريد برفق ، وفعلت - كما قال الزمخشري - كما يفعل المخادى بصاحبه
عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده ، لانها احبته عبا طمك عليها أقطار نفسها ، حتى عطها
على أن تجعل له ، وغلقت عليه الابواب ، ودعت الى نفسها ، فاستجبت من ذلك أشد الاستجاب ،
واستجار بالله •

بما دعه وقال : اعوذ بالله مما تريد من متى فان زوجك قد احسن الى فلا اقابل احسانه بابلغ اساءة وهو اتيان الفاحشة معاهله لانه لا يفلح الخائثون او ان الله احسن مثوى يمحط قلب زوجك على حتى اكرمني وامرك باكرامى فلا اعصيه بارتكاب هذه الفاحشة الكبيرة انه لا يفلح الماصون لامر الله تعالى (١) فهذه الآية صريحة في ان يوسف عليه السلام رفض الاستجابة لدعوة امرأة العزيز امساء الى نفسها ولم تفلح معه وسائل الاغراء واطرة الخنزيرة بالفصل اولا والقول الصحيح ثانيا واعرض عن كل هذا ورفضه رفضا قاطعا ولم يكن اعراضه ورفضه ناشئا عن ضعف جنسى عنده او خوف من مفاجأة زوجها او احد من البشر فقد غلقت الابواب وتوفرت دواعى الامن من ذلك وانما كان ناشئا عن استحقاق هذا القبيح واستهجان مقابلة الحسنة بالسيئة ومعرفة عاقبة هذا الجرم الخطير والخوف من اللس السميع البصير ولا يصح ان يدعى مدح : ان المرادة هنا مفاعلة من الجانبين فهى قد وقعت من يوسف عليهما السلام كما وقعت من امرأة العزيز

فانها بنا ومن واحد هو امرأة العزيز كما ان المفاعلة في مواضع متعددة تكون من واحد مثل مطالبة الدائن بماطلة المديون وهذا والطبيب وغير ذلك بما يكون من احد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فهذه الافعال وان كانت عادية من احد الجانبين لكن اسبابها صادرة عن الجانب الآخر لذلك جعلت كأنها صلورة عنهما : اذ ان سبب الشئ يقوم مقامه ويطلق عليه اسمه مشـبـل ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن لما كانت سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فـقـيـل " اذا قمت الى الصلاة " فاذا قرأت القرآن "

وللافعال المذكورة هنا اسبابها صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن انما للماطلة من جانب الضمير والماطلة من الضمير انما للمطالبة من جانب الدائن وهذا اواة الطبيب انما للمرض الذى هو من جانب المريض

ومراودة امرأة العزيز هنا لجمال يوسف عليه السلام لان يوسف وقع منه طلب لها ويمكن القول : ان المفاعلة هنا معناها : اما المبالغة في رودها او الدلالة على اختلاف امرأة العزيز ويوسف فيه فانها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك فاندفع الاشكال (٢)

ولنتقل الى بيان معانى الهم وايها يصح وقوعه من يوسف عليه السلام قال تعالى " ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه " الهم : فى اللغة له معان اربعة :

الاول : المزم على الفعل : ففي لسان العرب : هم بالشئ * بهم هما : اذا نواه واراده وعزم عليه
قال تعالى في سورة المائدة * اذ هم قومان يبسطوا اليكم ايديهم * اي ارادوا ذلك وعزموا عليه
الثاني : خطور الشئ * باليان : فان صاحب لسان العرب والهم ما هم به في نفسه (١)
وقال اللطفي في سورة ال عمران * اذ هم طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما * فيها تان الطائفتان
قد خطر الفشل ببالهم ولو كان المراد هلعنا المزم لما صح ان يكون الله وليا لهم لان المزم على
الممصية معصية

ومنه قول كعب بن زهير : فكم فيهم من سيد متوسل

ومن فاعل للخير قد هم او عزم

الثالث : ان يكون بمعنى المقاربة

قان ذوالرمة اقول لمحمود بجرعاه مالك

وقد هم دسحى ان يلج اوائله

والدسح لا يجوز عليها المزم وانما اراد انه كاد وقارب

وقال الزمخشري : ويجوز ان يريد بقوله * وهم بها * وشارف ان بهم بها كما يقول الرجل

قتلته لو لم اخف الله يريد مشاركة القتل

الرابع : مهمل الطباع (٢)

قال الزمخشري : في معنى * وهم بها * مالت نفسه الى المخالطة وتازعت اليها

وقيل الكلام عن هم يوسف وانه باى هذه المعاني نذكرهم امرأة العزيز بيوسف وانه بمعنى المزم

وعوليين مطلقا بذات يوسف لان الذوات لا تراد فلزيد من تعلق العم بخير الذات وهو الفاحشة

دون غيرها للضر على ذلك في قوله تعالى * وراودته التي هو في بيتها عن نفسه * وفي قوله حاكيا عنهما

ولقد راودته عن نفسه فاستمع * وفي قوله حاكيا عنهما * انا راودت عن نفسه وانه لمن الصادقين *

واما هم يوسف عليه السلام فهن وقع أم لا ؟

قيل : انه لم يقسح

دليلة الاية * ولقد همت به * وتم الكلام به * وهم بهذا لولا ان راى برهان ربه * وجواب * لولا *

ههنا مقدم كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا ان فلانا خلصك

واعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة :

الاول : ان تقديم جواب لولا عاذا ولا يوجد في الكلام الفصح

الثاني : ان الهم تقع في جواب لولا فلو كان الامر كما ذكروا لجاءت الاية هكذا * ولقد همت به ولهم

بها لولا ان راى برهان ربه *

وهذا الوجهان ذكرهما الزجاج

الثالث : انه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله " لولا ان ارى برهان ربه " فائدة وقد رد على هذه الوجوه

على الاول : بتسلم ان تأخير جواب لولا ضمن جائز الا ان ذلك لا يمنع من جواز تفديمة اذا كان الاهتمام به اشد والامر هنا كذلك ان انه يقدم الالهم فالالهم

وعلى الثاني : بأن اقتران جواب لاو لا باللهم جائز وهذا لا يدل على ان مجيئه بخير الالهم لا يجوز ويؤيد هذا قوله تعالى " ان كادن لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها " سورة القصص

وايضا : لو لم يضمن المتقدم على " لولا " جوابا لها لكان جوابها محذوفا واذا دار الامر بين ان يكون جوابا محذوفا وبين ان يكون متقدما عليها " لولا " فالمتقديم اولى

وعلى الثالث : بأنه مهتم الهم يكون لقوله تعالى " لولا " افتراءى برهان ربه " فائدة هي : الاخبار بأن ترك الهم ليس ناشئا عن عجز جنس بل كان الله وطلبها لرضاه وشوايه وخوفا عن عقابه ومع هذا فانى ارجح ان الهم قد وقع من يوسف عليه السلام وان جواب " لولا " محذوف يدل عليه ما سبقها وسيوضح ذلك فيما بعد وما هو " هم يوسف " ؟

قيل : انه بمعنى مهل الطبع نقل النعنى عن الحسن قوله " هم الطباع مع لا متع وذكر الزمخشري : ان المراد بهم يوسف : ان نفسه مالت الى مخالطتها وتازعت اليها عن شهوة الشباب وهو يكسر عايه ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عبادة المخلصين (١) وهم يوسف عليه السلام بهذا المعنى غير تادح فيه لانه غير اختياري وغير مذموم اذا كف عنه بل هو مدحوش يثاب عليه صاحبه

قال الشهاب الخفاجى : والهم يكون بمعنى العزم المصم على امر ومعنى : مهل للبهيمى غير اختياري ونسبها بالمعنى الاول وهو ارادتها الفاحشة ونسبها بالمعنى الثانى وهو غير مذموم اذا كف عنه بل مدحوش يوجر عليه لو سلم (٢) واذا كان هم يوسف يفاير هم امرأة الفهزير فهلا وجد فى التعبير ما يشير الى تفايرهما ؟ نعم فى التعبير ما يشير الى هذا وهو عدم قرنها معا فى التعبير بأن يقال : ولقد هما بالمخالطة او هم كل منهما بالآخر ثم انه اكرر الاول دون الثانى

قال الالوس " وهم بها " مالى الى مخالطتها يقتضى الطبيعة البشرية كميل الصائم فى الهم الحار السى الماء البارد ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف . . وانما عبر عنه بالهم لجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به وقد اشير الى تفايرهما كما قال غير واحد حيث لم يلازم يجمعها فى قرن واحد من التعبير بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة او هم كل منهما بالآخر ولقد الاول دون الثانى (٣)

والهم : بمعنى حديث النفس لا يحيب أيضا يوسف عليه السلام ولا يطعن به في حقه نقل العلامة النجفي عن الشيخ ابن المنصور قوله : وهم بها هم خطرة ولا تنج للمبد نيمًا يخطر بالقلب ولا مواخذة عليه (١)

وذكر ابن كثير أن البغوي حكى هذا القول عن بعض أهل التحقيق أيضا يدل على عدم المواخذة بالمقاب على حديث النفس ماجا في حديث "الاسراء" وفرض الصلوات "الذي رواه مسلم في صحيحه عن انس بن مالك" ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرة ومن هم بشيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة " (٢)

وقسم بعض العلماء ما يخطر بالبال الى قسمين : الاول : ما استقرت عليه النفس وهو سيئة

والثاني : ما لم تستقر عليه وهو معفو عنه وهم يوسف بن القاسم الثاني

قال ابو بكر الباقلائي : ان ما يخطر بالبال اذا وطئت عليه النفس سيئة واذا لم توطن عليه فهو المعفو عنه وهم يوسف بن عذا القهيل المعفو عنه

واختار الشهاب الخفاجي تقسيم الامام الفزالي له الى اربعة اقسام وهم يوسف بن الانواع المعفو عنها وذلك توفيقا بين الحديث السابق وابية "وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله" فقال : ما تقدم في حديث مسلم "ومن هم بحسنة" واحاديث اخرى في معناه يدل على انه لا يواخذ به وقوله تعالى "وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله وقوله "لا يواخذكم الله باللفف في ايمانكم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم" (٣) ونحوه يدل على خلافه

والتوفيق بينهما ما قاله الفزالي : من ان اول ما يرد على القلب كروية امرأة على الطريق مالت اليها النفس ويسمى "حديث النفس وخاطرا

والثاني : ما يتولد منه من الرغبة واعادة النظر وهو الميل الطبيعي

والثالث : حكم القلب بأنه ينبغي ان يفعل وينبغي اعادة النظر

والرابع : التصمم على ذلك وترك الصوارف عنه كالحيا

والاول لا يواخذ به لانه لا يدخل تحت الاختبار وكذا هيجان النفس والميل والشهوة لانها ليست اختيارية وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم "عني عن امتي ما حدثت به نفوسها وهو الخواطر التي لا يتبها عزم" واما الاعتقاد وحكم النفس بأنه ينبغي ان يفعل فيكون اضطراريا ولا يواخذ به واختباريا فهو واخذ به والرابع : يواخذ به فان لم يفعل نظر فيه فان تركه خوفا من الله وتد ما على همه كتبت له حسنة لمجاهدته لنفسه وان تركه لماتق وعذر غير خوف من الله كتبت عليه وفي الحديث ما يدل على هذا التفضيل وهو كلام حسن (٤)

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٤ ٢٢٥٤

١٩٧

(٤) نسم الرضا ج ٤ ص

٢١٧

(١) تفسير النجفي ج ٢ ص

٣٩٢

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص

فهم يوسف عليه السلام على هذا التفصيل أيضا إنما هو من أجل لا يؤاخذ به ولا معصية فيه لأنه هو اللائق به وبرهان الله الذي رآه فصرف عنه حديث النفس على أن المهم حديث النفس أو أخضع ميله الطبيعي لقواه الروحية خضوعاً تاماً فلم يترتب عليه اثر عطفى على أن المهم مهل الطباخ هو :

التفكير فيما أودعه الله في قلبه المظهر من العلم بالخير والشر وواقبة كل منهما في حياتى الانسان الدينية والاخروية

وعلى حد قول المفسرين القدامى : هو : حجة الله في كمال قبح الزنا وسوء سبيله والعلم بما على الزانى من عقاب او تذكار الاحوال الرادعة عن الاقدام على المنكر او : هو النبوة المانعة من اتیان الفواحش

وقيل : انه عليه السلام رأى مكتوباً في سقف البيت * ولا تقرىوا الزنا انما كان فاحشة وساء سبيلاً * (١)
 واما المهم بمعنى المزم والتصميم على العمل قبل القطع لهن من جنسهم امرأة العزيز لان المهم يجب ان يحمل في حق كل انسان بما يلقى به واللائق بالمرأة التي تزينت ودعت الرجل لنفسها القصد الى تحصيل اللذة والتمتع والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى المخلوق لهدايتهم الى الخير وكفهم عن الشر . القصد الى زجر العاصى عن معصية لا الى الفاحشة *

وزجر هذه المرأة التي عرضت جمالها عليه في رفق وراودته التي هو في بيتها عن نفسه * ووفرت عنصر الامان من ان يراهما مخلوق * وغفلت الابواب وكاشفته بفرصتها في سراحة زان معها كل ما في طبيعتها المرأة من تصون وحياء ولما امتنعت وتأبى عمت بمخالطته بالقاء نفسها عليه ولمس طبيعته بطبيعتها لا يقاد النار في الهشيم وهي اخر محاولة ارادات بها نهي غرضها عندئذ عن يوسف عليه السلام على دفعها عن عرضها ان لم تدفع ولكن طالعه البرهان الالهي والعلم الذي امد به الله به فرأى في ضوءه ان تشاغله بدفعها قد يحدث تمزقاً في ثوبه من الالام وخاعة عندما تتعلق به فيستدل به على انه هو الذي ارادها بالموت وكان في علم الله تعالى ان الشاهد شهيد بأن ثوبه لو تمزق من امام فهو الخائن ولو تمزق من خلف فهي الخائنة فالله اعلم بهذا المعنى فلذا لم يشتغل يوسف عليه السلام بدفعها عن نفسه وضررها بل ولى هربها واسرع الى الباب يلتصق بالخلاص فسايقته اليه تريد منعه من الخروج فلم تستطع فجذبته من قميصه من دبر فمزقته وكان ذلك قرينة كما شهد شاهد من انفلها على انها هي التي ارادات ارغامه على الفاحشة وهذا الفهم هو الذى رجح عسدى

٤ - لان اللين يقدم عادة على المنف وقد تقدم اللين في نسجها وتذكيرها بحق صاحب الفضل عليها وسوء

عاقبة هذا الفكر قاتلا * معاذ الله انه ربي احسن شواى انه لا يفلح الظالمون * فلما لم يجد معها كل هذا وقصدت اليه تجذبه لنفسها او تلتقى بجنسها عليه لم يكن بد من دفعها بالمنف وضربها ان لم تدفع *

٢ - ولانه قد جرت عادة الانسان ايضا ان يلجأ الى الهرب ان وجد العنف لا يجدى ويوسف عليه السلام لما رأى برهان ربه تحقق ان استخدام العنف ليس فى صالحه وانه سيجعله مدينا فلجأ الى الهرب * وامتنقا الباب وقدت قصصه من دهر *

وبع ترجيحى لهذا القول الاخير فانه على اى من الاقوال الثلاثة التى ذكرناها اللهم فالمعصية مفهومة عن يوسف عليه السلام والهيم بالفاحشة مستبعد منه

وما هى الادلة على عصيته عليه السلام عن الهيم بالفاحشة

الاول : ان الزنا من الكبائر والخيانة من اقبح الذنوب ومقابلة الاحسان بالاساءة من الضكرات والهيم بالفاحشة التى نصبوه الى يوسف عليه السلام فيه كل هذا وهو لا يلقى بين لهوا انبياء فكيف بهم وهم المصلفون الاخيار الثانى : ان الله تعالى اتقى على يوسف عليه السلام ثنا عاطرا فى آيات كثيرة تقدمت فى الكلام عن اخلاقه المالية مثل * ولما بلغ اشده اتناه حكما وعلما وكذلك نجوى الحسنين * ومثل * انه من عبادنا المخلصين * ولا يلقى بحكمة اللطعالى ان يمدح انسانا عاصيا باعظم المدائح *

الثالث : ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت من احدهم زلة فانه يستعظمها ويتبسمها بالندم والاستغفار والتوبة ولو ان يوسف عليه السلام قصد اثيان هذه الكبيرة لاسرع بالندم والاستغفار والتوبة ولو حصل ذلك لحكاه اللطعالى كما حكى توبة آدم ونوح وذى النون وداود عليهم السلام من زلاتهم وحيث لم يحك الله عن يوسف توبة فقد تأكد يقينا انه ما قصد الفحشة

الرابع : شهادات كن من له تعلق بتلك الواقعة ببراءة يوسف عليه السلام

نقل الفخر الرازى عن القاضى ابن الطاهر الطوسى قوله : شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونصوة وملك وادعى يوسف ذلك واعترف له خصمة بمدق ما قاله مرتين وشهد بذلك رب العالمين الذى هو احد ق القائلين واعترف ابلير فكيف يلتفت الى قول هؤلاء الحشوية ؟

اما شهادة الزوج فقوله لعالى * فان انعم كيد كن ان كيد كن عظيم * هو يوسف اعرض عن هذا واستغفرو لذنيك انك كنت من الخاطئين *

واما شهادة الحاكم فقوله * وشهد شاهد من اهله ان كان قصصه قد من دهر *

وأما شهادة النسوة فقولهن " حاشى لله ما علمنا عليه من سوء "
 وأما شهادة الملك فقوله " انك اليوم لدينا مكين أمين "
 وأما دعاء يوسف عليه السلام ذلك فقوله " هي راودتني عن نفسي " وقوله " رب السجن احب الي مما
 يدعونني اليه " وقوله " ذلك ليعلم اني لم اخنه بالنسب "
 وأما اعتراف الخنم فقولها للنسوة " ولقد راودتني عن نفسي فاستعصم " وقولها " الآن حصح الحق
 انا راودتني عن نفسي "
 وأما شهادة رب العالمين فقوله " كذلك لتصرف عنه سوء الفحشاء "
 وأما اعتراف ابليس بذلك فقوله تعالى حكاية عنه " لاغوينهم اجمعين - الاعبادك منهم المخلصين "
 فيبين انه يخون الكسل الا المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى " انه من عبادنا المخلصين "
 فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات في براءة يوسف عن الذنوب
 ثم قال القاضي : وهؤلاء الطاعنون في يوسف ان كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله وان كانوا من حزب
 الشيطان فيجب ان لا يتركوا قوله " لاغوينهم اجمعين الا عبادك مطهر المخلصين " (١)
 فتثبت بهذه الدلائل ان يوسف عليه السلام بوى ما رماه به البهمن والفاحشة

الشبهة الثالثة

تقدمت :

شاح الحديث عنهم مرادة امرأة العزيز يوسف عن نفسه وفي نفس الوقت ظهرت الادلة على صدقه وثوابته
 فقرأ مع هذا ان يودعوه السجن الي حين ايها ما بأنه الذي راودها عن نفسها وانهم سجنوه عقابا على
 ذلك وفي الوقت الذي دخل فيه السجن دخله ايضا فتيان للملك ساقية وخبازة فرأى الساقية في منامه
 انه بمصر غنيا يصير خمرا ورأى الخباز في منامه انه يحمل قوى رأسه حلالا فيها خبز وصياح الطير تنهش
 منه وطلبا من يوسف عليه السلام ان يخبرهما بتأويل ما رآها فانه من المخلصين تعبیر الروى او من المحسنين
 الى اهل السجن بكرم خلقه وحسن معاملته
 وقبل ان يعبر يوسف عليه السلام للصاحبين رؤيتهما عرضهما ان ما يتمتع به من علم وخلق انما هو من عند
 ربه وانه سليل الانبياء وان ما يقوله لهما انما هو وحي من الله اليه وان الخير لهما وللناس جميعا ان
 يخلصوا عبادة الانداد والشركاء وان لا يعبدوا الا اياه وبعد ان بلغ دعوته في السجن عبر لهما رؤيتهما

فقال : أما احدكما - يرهق الساتي - فسيخرج من السجن ويمود الى عمه ، ويحقي سيده الخمر
 واما الاخر - يرهق الخباز - فيهلك ويطلب ، وتاكل الطير من رأسه .
 ثم اوصى الساتي أن يقص على سيده الملك قصته ، ويذكر هذه أن يوسف مظلوم في الواقعة التي
 اودع لأجلها السجن ، فانسى الشيطان الساتي ذكر يوسف ، ليه السلام عند الملك ، فالت ايلم
 السجن على يوسف حتى لبث فيه بنح سنين .

تقرير الشبهة :

أن يوسف عليه السلام عول على غير الله تعالى في الخلاص من السجن في قوله للذي كان معه وإن
 انه ناج " اذ نرى عند ربك " ، وينيف احباب هذه الشبهة الى هذا قولهم : ان السعير في " فاصصاه "
 عند النبي يوسف ، والمعنى ، فانسى الذي ان يوسف ذكر الله حين وكل امره الى غيره ، ورجع في كشف
 الشرعه الى مخلوق ، ولا يرح أن يعرض حاجته على احد سوى الله تعالى ، ولذا عوتب بأن لبث
 في السجن بنح سنين .

الجواب عن الشبهة

في الاجابة عن هذه الشبهة جرى البحث على انها مخالفة للاولى ، وجرى اخرون على أن اية توجيه
 مخالفة فعلية مذنب الاولين لا احسن على يوسف عليه السلام ، لأن مخالفة الاولى لا تقدر في عبادة
 الانبياء كما سبق ، وبيان ذلك : أن الاستمانة بالنار في دفع الظلم جائزة ، فالدينيا دار الاسباب
 لكن جواز ذلك انما هو لطامة البشر اما الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يصح أن يعرضوا حاجاتهم ،
 ويرجعوا في كشف الشرع عنهم الا الى الله تعالى وحده ، مسبب الاسباب .
 قال الرمخشري : كما اعطاني الله تعالى الانبياء على خليفته ، فقد اعطاني لهم احسن الامور
 وافلسها واولاها والاحسن والاولى بالنبي أن لا يكل امره اذا ابتلى ببلاء الا الى ربه ، ولا يعتمد
 الا به خصوصا اذا كان المعتنه به كافرا ، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا : لو كان هذا على الحق وكان
 له رب يغيثه لما استغاث بنا (١) .

وقيل : ان مخالفة يوسف عليه السلام للاولى هي في انه أخلى كلامه - وهو ياللب من الساتي أن
 يشرح حاله عند الملك - من ذكر الله تعالى مثل " انشاء الله " ، وكان الواجب عليه أن لا يفتي
 كلامه منه ، ذكره الفخر الرازي (٢) .

وذهب الفريق الاخر الى انه لم يقع منه عليه السلام مخالفة للاولى ، ويحمل قوله للشرابي على :
 انه قال ذلك ليتوصل به الى هداية الملك ، وعرض دعوته عليه ، كما توصل الى ايتاح الحق
 لباحبيه ، وهذا القول لا يبي حيان ، ولكن لم ينتسج به الالوسي : فقال : - بمد أن حكاه - ولا
 يخفى ان ذلك خلاف الظاهر (٣) .

الشبهة الرابعة

أن يوسف عليه السلام اخبر عن نفسه انها غير بريئة ، فهي اذن مدانة بأرتكاب ذنب يحتاج الى الب
مغفرته من الله الغفور الرحيم ، وذلك في قوله " وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي
ان ربي غفور رحيم " .

مقدمة الجواب عن الشبهة :

حكمت الآيات - قبل - رؤيا الملك ، وعرضها على العلماء والمفتين لتعبيرها فمجزوا عن ذلك
وقالوا : انها من الاباطيل التي تكون من حديث النفس ، او وسوسة الشيطان ، ثم اعترفوا بقصور
علمهم ، وانهم ليسوا بتأويل الاحلام بحالين ، فتذكر الناجي يوسف ، وصدقته في تأويل رؤياه
ورؤيا صاحبه ، وطلب أن يرسلوه اليه فارسلوه ، فأتاه وهو غر عليه الرؤيا ، فأولها له تأويلا أعجب به
الملك ، فأرسل لأخراجه من السجن ، واحتضاره اليه ، فرفض يوسف عليه السلام الخروج حتى تظهر
براءة ساحته كما روى به ، وسجن لأجله ، بسؤال النسوة عن شأنهن معه ، فاعترفت النسوة
بإمانته وبعفته " قلن حاشى لله ما طمنا عليه من سوء " واعترفت مهن امرأة المزبور بانها المتجنبة عليه
وانمن الصادقين في قوله " هي راودتني عن نفسي " قالت امرأة المزبور " الآن حصص الحق أنا
وراودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين " .

ثم يقول الله بعد ذلك " ذلك ليعلم أني لم اخنه بالخب ولا ان الله لا يهدي الكافرين - وما
أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم " .

الجواب عن الشبهة

ان هذا الكلام الذي حكاه الله عز وجل يحتمل انه من كلام امرأة المزبور ، ويحتمل انه كلام يوسف
عليه السلام ، وعلى كلا الاحتمالين فهراة يوسف مقررة واضحة ، لأنه على :
الاحتمال الاول : تكون امرأة المزبور تمتدز ما كان فيها في حق يوسف ، وشمترت بعدم براءتها وعلى
هذا يكون يوسف بريئة من كل البراءة ما نسب اليه ، ويكون المعنى : ذلك الذي قلت ليعلم يوسف
انني الآن لا اكدب عليه في غيبته ، وما أبرئ نفسي من الخيانة ، فاني قد خنته حين ادعيت عليه
زورا انه الذي اراد لي سوءا ، وقلت " ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا أن يمجن " وراودته
السجن ، وان كل نفس لامارة بالسوء الا نفسا رحمها الله بالمصيبة كفر يوسف ، ثم استغفرت منها ما
ارتكبت " ان ربي غفور رحيم " (1) .
هذا على أن الضميرين في " يعلم " و " اخنه " ليوسف

(1) تفسير النسفي ج ٢ ٢٢٦ ٢٢٧

ويرى ابن كثير : انهما للمزيو * والمعنى : انما اعترفت بهذا على نفس ليعلم زوجي اني لم اخنه بالذنب في نفس الامر * ولا وقع المحذور الاكبر * وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم اني بريئة .

ولست ابرئ نفسي * فان النفر تحدث وتنقض * ولهذا راودته * لان النفر اشارة بالسوء الا من عمه الله تعالى * ثم يرجعه بحجة السياق فيقول : وهذا القول هو الاشهر والاليق * والانصب بسياق القصة * ومعاني الكلام * وقد حكاه الماوردي في تفسيره * وانتدب لقصته الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فافرده بتخفيف على حدة (١) .

ولكني سأخالف ابن كثير في هذا وارجح غيره - كما سيأتي -

وطى الاحتمال الثاني : وهو انه كلام يوسف عليه السلام * فانه لا يوجب الحاق الفاحشة به لان المعنى عليه : ذلك الابتاع من الخروج * والب التثبيت من البراءة * ليعلم المزيو اني لم اخنه بظهور الذنب في مرضه * اولي علم الطلث اني لم اخن المزيو * فهذا القول " ليعلم اني لم اخنه " يدل على براءته * ساحته عليه السلام ان قد نفي الحيانة عن نفسه * والمهم بأمرأة المزيو * والقصود منها مقصد الرجل من السرانه اعظم الخيانة * والله يبطل كيد الخائنين * فلو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة * وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريئا مما نسبوا اليه * فهذا دليل على انه لم يخن ولم يهجم بالفاحشة .

ومعنى " وما ابرئ نفسي " اي من الميل الطبيعي مع الابتاع * او من حديث النفر * او من الصميم على نفسها لا من القصد الى المصيبة .

او * ان يوسف عليه السلام قال ذلك ههنا لنفسه البرهانة من كل سوء * وتوانحا لله تعالى بتحايا عن التزكية والاعجاب * او تحدثنا بنعمة الله تعالى * اي لا انزه نفسي من حيث هي هي * ولا اسند هذه الفضيلة اليها بقضى طبيعتها من غير توفيق من الله تعالى * بل انما ذلك بتوفيقه ورحته (٢) .

فكل من هذه المعاني يرى يوسف عليه السلام عما اتهم به كذبا .

وانا انتقلنا الى مقام الموازنة بين هذه الاقوال فانتا نجد :

قول ابن كثير : بانه من كلام امرأة المزيو * والضميرين للمزيو فيه بمد * اذ السياق لا يساعد عليه * والقول بانه كلام يوسف عليه السلام فيه ضعف ظاهر * ولا دليل عليه رغم دفاع الزمخشري بالنسفي * بان المعنى دليل عليه * قال الزمخشري : فان قلت : كيف صح ان يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟ قلت كقضى بالمعنى دليلة قاطعة الى ان يجعل من كلامه (٣) .

وذكر النفي نحو هذا * ورغم ان ابن جرير لم يحكى غيره * وروى عن ابن عباس ان يوسف لما قال " ذلك ليعلم اني لم اخنه بالذنب " قال له ملك من الملائكة : ولا يوم همت بها ؟ فقال

(٢) تفسير ابي السمود ج ٢ ص ٧٧

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٨١
(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٧٥

يوسف حينئذ : وبالبرى نفس ان النفس لامارة بالسوء* (١)

لأنه خبر غير صحيح وحمل في طياته دلائل رفضه حيث يعارض الآية الثابتة على ان يوسف لم يهجم

بالفاحشة مع امرأة العزيز وقد يكون مصدر عدم صحته احد الناقلين عن ابن عباس

وقد جمعه الزمخشري من تلفيق المظلة وهتهم على الله وعلى يوسف فقال : ولقد لفقت المبطلة

روايات مصنوعة فزعموا . . وحكاه ثم قال : وذلك لتهاقنهم على بهت الله ورسوله (٢)

ونسبة الفخار للرازي الى الحشوية وقال : وهذا من رواياتهم للخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب

محمّد بل هم يلحقونها بهذا الموضع سميا منهم في تحريف ظاهرا القرآن (٣)

وارجح : انه من كلام امرأة العزيز وعود الضميرين على يوسف استنادا الى ما يلي :

الاول : ان سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضوره الملك ولم يكن يوسف عليه السلام وقت هذا

الكلام حاضرا في المجلس بل حضره الملك بعد ذلك بدليل قوله بعد : * وقال الملك اتنوى به *

الثاني : جملة من كلام يوسف عليه السلام يحجج الى حذف كثير : من رجوع الرسول الى يوسف واخباره

بما قاله النسوة ثم اجابة يوسف ورجوع الرسول الى الملك ثانيا واخباره اياه بمقالة يوسف

عليه السلام ثم يقول الملك * اتنوى به استخلصه لنفسى * والحذف الكثير غير لائق في الكلام

وخاصة القرآن الكريم

الثالث : ان هذا المقام الاعتذار من امرأة العزيز : فانها بعد ان اعترفت بانها التي راودته عن نفسه

وانها التجنية عليه يصبح من المناسب ان تعتذر عن هذا بأن ضيورها قد استيقظ ونفسها

قد صلحت بعد ان كانت امارا بالسوء وفي هذا ما يشفع لها عند الناس وعند الله بمغفرة ذنوبها

* ان ربي غفور رحيم * والمغفرة تكون لمن اذنبوا عدي لا لمن كان برئها ممتدى عليه .

الرابع : كجملة من كلام امرأة العزيز يتمشى وما هو مقرر من عصمة الانبياء من غير حاجة الى تأويل او

محاولة توفيق اما جملة من كلام يوسف عليه السلام فيحجج الى تأويله بما يشق وعصمة الانبياء

عليهم السلام وبالا يحتاج الى تأويل اولى مما يحتاج

وعود الضميرين على يوسف اقوى لان السياق يعضده حيث ان الضمائر قبل ذلك راجعة الى

يوسف في * ما علمنا عليه من سوء * و * انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين *

(٣) مفاتيح الفيح ج ٥ ص ١٤٢

(١) جامع البيان لابن جرير ج ١٣ ص ١

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٧٥

الشبهة الخامسة

أن يوسف عليه السلام طلب الامارة ، وطلب الامارة مذموم ومنهى عنه ، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن جسد الرحمن أنه قال : قال لي رسول الله على الله عليه وسلم : يا عبد الرحمن لا تمنال الامارة ، فانك ان اعديتها عن مسألة وكلت اليها ، وان اعطيتها عن غير مسألة أفنت عليها (١) . ثم انه عليه السلام طلبها من مدائن كافر ، وطلب بالذات تولية أمر الخزائن وطلبها يورث التهمة وايضا قد مدح نفسه بقوله " اني حفيظ علم " والله تعالى نهى عن ذلك " فلا تزكوا انفسكم " ثم انه ترك الاستثناء في هذا قلم يقل : انسى حفيظ علم انشاء الله مع أن الله تعالى يقول " ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك فدا الا أن يشاء الله " وذلك كله في قوله " قال اجعلني على جزائن الارض اني حفيظ علم " .

الجواب عن الشبهة

انه قيل ان يطلب يوسف عليه السلام هذا المطلب كان قد تبين للملك في يوسف خصال طيبة منها : علمه ، حيث عبر الرويا تعبيراً مجزؤه القوم ، وشهد بصحته العقل . ومنها : صبره وشهاته حين كان في السجن وطلب الملك خروجه منه ، فلم يسرع الى الخروج وانما توثق حتى تذهب برأه ، مما نسب اليه . ومنها : حسن اديه حين ستر ذكر امرأة العزيز ، وتمرض لأمر سائر النسوة " فأساله ما بال النسوة الذرى تعلمن ايديهن " مع أن الهلا وصل اليه من جهتها بالذات . فلما نهر الملك هذه الفضائل من يوسف رغب في أن يجعله خالفاً لنفسه فطلب احضاره اليه ليكون من خاصه وأهل مشورته كما هو واضح من قوله " وقال الملك ائتوني به امتخلصه لتغيب فلما كلمه " أي خائبه وتحقق أن فضله وهلمه وما هو عليه من كمال خلق قال له " انك اليوم لدينا مكين أمين " ذو مائة هزلة ، وموتمن على كل شيء ، فمئذ طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه جزائن سر " قال اجعلني على جزائن الارض اني حفيظ علم " ان تولي الجزائن بالذات يمكن يوسف اجتيازه بالبلد المحنة الكبرى المهلكة . .

فهو عليه السلام لم يرفب في الامارة وطلبها لذاتها وانما لما توصل اليه من رهاية مصلحة الامة ودفع غائلة القدر والجوع عنها ، حتى يمكن التول أن هذا التصرف يسبح واجبا على يوسف لأنه هو " حفيظ علم " القادر على تجنب البلاد خطر القدر والضييق الشديد ، وغيره ليس ممن على مثل صفاته هذه لا يستطيع ما يستلزمه يوسف ما يجعل هذا التصرف واجبا عليه وهذا زال الاعتراض عليه

بطلب الامارة قال الزمخشري : انما قال - يوسف ذلك ليتوصل الى امثاله احكام الله باقامة الحق
وبسط العدل والتمكين ما لأجله بعث الانبياء الى المبادء ، ولعلمه ان احدا غيرهم لا يقوم مقامهم في
ذلك ، وطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا ،

واما تولية العمل من يد كافر ، فيكون تهما له ، وتحت امره ولامته ، فانه يجوز ان يتولى الانسان
المسلح هلا من جهة سلطان كافر او جاء زادا ضمن ذلك سبيلا الى الحكم بأمر الله ، ودفع الظلم ،
ولذا لم يتم ذلك الا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فلا مانع شرطا أن يستظهر النبي أو العالم به ، وقد
كان السلف يتولون القضاء من جهة البشارة والظلمة لهذا .

وقد قيل : كان الملك يسدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يراه فكان الملك في حكم التابع ليوسف
والمطيع له (١) .

واما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن سمره عن سؤال الامارة فقد اجاب عنه الالوسي :
بانه وارد في غيرهما نحن بصدده (٢) .

ويبدو لي أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عبد الرحمن بن سمره عن طلب الامارة ، لما يعلمه
فيه من ضعف عن القيام بامائها ووظائفها ، وقد صحح الرسول بهذا لا يبي نذر عدا ما طلب منه أن
يستعمله فقال له " يا أبا ذر انك ضعيف وانها امانة وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من اخذها بحقها
وأدى الذي عليه فيها " (٣) .

اما من يقدر على القيام بتكاليفها ومهامها ويكون أقوى من غيره على ذلك فلا بأس بطلبها ، وهنا
يوسف عليه السلام أقدر أهل مسربايمانه وحفظه وطمه على الامارة ووظائفها فطلبه لها اذن حمن ،
بل واجب لانها الطريق الى فعل الواجب لمن مصلحة الامة ودفع الشرور عنها وما لا يتم الواجب الا
به فهو واجب .

وقول يوسف عليه السلام عن نفسه " اني حفيظ عليم " ليس مدحا لنفسه بمقدار ما هو بيان لانصافه
بالصفتين اللزمتين لمن يقوم بهذا الامر ، اذ ان معنى " حفيظ " أمين أحفظ ما تستحفظنيه ومعنى
" عليم " عالم بوجوه التصرف ، وكأنه قلب على ظنه ضرورة ذكر انصافه بهاتين الصفتين ليعلم الملك منهما
قدرته على هذا الامر على أن مدح الانسان نفسه ليس مذموما الا من قعد به التناول والتفاخر ، والتوكل
الى ما لا يستحق ويوسف صلى الله لا يقصد هذا قطعا ، فدخه نفسه اذن ليس مجحا ، وانما المحرم
النهي عن مدح النفس وتزكيتها وهي لا تستحق ذلك واللوما كان على سبيل التناول والتفاخر .
قال النسفي في معنى قوله " فلا تزكوا انفسكم " وهذا اذا كان على سبيل الاعجاب أو الرياء لا على
سبيل الاعتراف بالنعمة فانه جائز ، لأن السيرة بالساعة اذ ذكرها شكر . (٤)

(١) الكشاف ج ٢ ٣٢٦
(٢) روح المعاني ج ٤ ٧٤
(٣) عجاج مسلم ج ٤ ٤٨٨ - ٤٨٩
(٤) تفسير النسفي ج ٤ ٢٠٨

وقبال ابن كثير في تفسير قوله " انى حفيظ عليهم " مدح نفسه ويجوز للانسان ذلك اذا جهل امره للحاجة (١) واما تركه الاستثناء فقد ظله الفخر الرازى : بانه لو ذكره لاحق فله الملك انه انما ذكره لملسه بانه لا قدر له على سبط هذه السلعة كما ينهض .

وكسب انهم ان السبب في تركه : هو : علمه بان الملك لكفره لا يستسيغ التمليد على مشيئة الله الواحد الاحد . يوسف عليه السلام يحاول ازالة الملك بكل رفق ولين لينسند اليه هذا الامر الذى في قيام يوسف به سلعة الخلق .

ثبت من هذا الامطن على يوسف عليه السلام في طلبه الامارة والتولية على الخزاء من ملك مصر .

الشبهة السادسة

ان يوسف عليه السلام طلب اخاه الشقيق من اخوته لابييه " قال ائتوني باخ لكم من ابيكم " فلما جاءه به حبسه عن الرجوع الى ابيه . ملح عليه بما يلحق اباه من الحزن . وفي هذا ضرر لابييه . وكانت حيلته لعين اخيه بوضع السقاية في رحله ثم اتهم اخوته بالسرقة . وهم لا يسرقوا شيئا ففي هذا تجن عليهم واما دلهم .

الجواب عن هذه الشبهة

ان يوسف عليه السلام انما فعل ما فعل من اللب اخيه من اخوته . وحبسه عن الرجوع الى ابيه مع علمه ما يلحق اباه من الحزن يوحى من الله تعالى اليه زيادة في امتحان ابيه ولم يعلم اباه خبره لتسكن نفسه . وزول حزنه . لانه امتنع من ذلك بأمر الله تعالى تشديدا على يعقوب عليه السلام .

واما جعل السقاية في رحله فالفرض منه التمسبب الى اختيار اخيه هذه . ويجوز ان يكون ذلك بأمر الله تعالى . ومن هنا هذا الشح في الجواب الفخر الرازى (٢) .

ويذكر الامام ابن حزم الظاهري : الى ان يوسف عليه السلام فعل ما فعل ليمود الى اخوته . ويكون ذلك ميبا لاجتماع بهم وجمع شمل جميعهم . وما قصد ان يعق بهذا اباه عليهما الصلاة والسلام (٣) ولا يستبعد عندى ان يكون يوسف عليه السلام قد قصد بهذا امرين :

الاول : التوفيق باخيه الشقيق والحفاظ عليه فهو يعلم انه انير ضد والده قرب الى قلبه وربما حمل هذا بينة الاخوة على الكيد له . كما كادوا ليوسف . فارتاد عليه السلام ان يضم احشاء اليه رفقاً به وحفاظاً عليه .
الثانى : ان يجمع شمل الامرة هذه . بحبب اخيه الشقيق هذه ثم مجى الاخوة الباقين اليه راجعين لللاقه معهم فيعلمهم بنفسه ويطلب اليهم احضار اهلهم اجمعين فتجتمع الامرة بعد التصرف للفرقة والايحاش

(٢) عصمة الانبياء للفخر الرازى ص ٥٢

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٨٢

(٣) الفصل ج ٤ ص ١١ - ١٣

ولا يمد في أن يكون ذلك من يوسف بأذن من الله لكن لا دليل عليه .

وأما نداء العنادى بأنهم سارقون ، فاما أن يكون من قبل المؤمن بناء على ظنه عند ما فقد الصواع عليه فلا اشكال واما أن يكون بأمر يوسف عليه السلام وهو الارجح وحيث أنه يواجه على احد الوجوه الاتية :
الاول : أن ذلك تورية مما جرى مجرى السرقة من فعلهم بميوسف .

الثاني : أن المعنى على الاستفهام كأنه قال : أكنتم لسارقون فاسقط عموة الاستفهام (١)

الثالث : أن المراد سرقة السقاية ، ولا ينزول للزوم الكذب ، لأنه اذ لم تكن مصلحة رخص فيهم والارجح هو الاول : ويراد بالسرقة اخذهم يوسف من ابيه على وجه الخيانة كالسرقة فهو الظاهر والموافق للسياق

يقول الزمخشري : وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوكل بها الى مصالح ومنافع دينية كقول له لا يوب عليه السلام " وخذ بيدك ضغنا فانسرب به ولا تخفت " لتخلص من جلدها ولا يحث ، وكقول ابراهيم عليه السلام عن زوجته - هي اختي - لتسلم من يد الكافر ، وما الشرائع كلها الا مصالح وطرق الى التخلص من الوقوع في المفاسد وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة لخبها مصالح عظيمة فجعلها سلا وذريعة اليها فكانت حمنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح - لما ذكرنا - (٢)

وتسمى يوسف عليه السلام بالسرقة

نسب اخوة يوسف عليه السلام اليه السرقة عندما ارادوا الصواع قد اخبر من وها بنيامين " قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل " يتصلون الى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل اخ له من قبل - يمتنون به يوسف عليه السلام - فهل سرق يوسف - كما قال اخوته ؟
لنستمع الى الروايات في ذلك أولا ثم للفظ هل يصح أن ينسب اليه السرقة على أي مرهها أم لا ؟
أولا : ثم اخبر ابن جرير وابن اسحاق وابن ابي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من الجلاء فيها بلغنى أن عمته كانت تحضنه ، وكانت أكبر ولد اسحاق عليه السلام وكانت اليها منطلقه ابيها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، فكانت لا تحب أحدا كحبها اياه ، حتى اذا شرع وقمت نفس بمقوب اليه ، فاتاها ، فقال يا أختاه : سلني الى يوسف فوالله ما اقدر على أن يخيبني ساءة فقالت : والله ما أنا بتاركته ، فدهه عدى اياما انظر اليه لعل ذلك يسليني ، فلما خرج بمقوب عليه السلام من عندها ، هدت الى تلك المنطقة فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٥٤
(٢) وصية الانبياء له ص ٥٣ - ٥٤
الكشاف ج ٢ ص ٣٨٣

منطقة أي - اسحاق - فانظروا من أخذها فالتصت ثم قالت: اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت : انه لسلم لي اصنع فيه ما شئت ، فانها بمقوب واخبرته الخبر فقال لها : انت وذاك ان كان فعل فامسكته ، فما قدر عليه بمقوب حتى ماتت .
ثانيا : وقال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجدته اي أمه فكسره (١) فعبه أخوته بذلك .

ثالثا : ويقول الالوسي : وأخرج غير واحد من زهد بن اسلم قال : كان يوسف عليه السلام غلاما صغيرا مع أمه عند خال له ، وهو يلعب مع الغلمان فدخل كنيسة لهم فوجد تنظالا صغيرا من ذهب فاخذه وذلك الذي عوه بسرقة .

رابعاً : وقال مجاهد : ان سائلا جاءه يوما فاخذ بيضة فناولها اياه .

خامساً : وقال سفیان بن عيينة : اخذ دجاجة فاعطاها السائل .

سادساً : وقال وهب : كان عليه السلام يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وقيل غير ذلك (٢) .

وعلى أي من هذه الأقوال فيوسف لم يسرق - في الحقيقة - ولا شيء مما ذكر يعود عليه بالذنب

والانتقاص وإنما الذي دفع أخوته لأن يقولوا ما قالوه عندما رأوا السواع قد اخذ من متاع بنيامين

هو : دفع المعرة من انفسهم ، وكأنهم يقولون : انا لسنا على طريقة بنيامين هذا في السرقة وانما هو

وأخوه - يوسف - المختصان بها لأنه من أم أخرى .

وهذا الدافع لاختوة يوسف أن يقولوا ما قالوا : لا يعفيهم من مسئولية التجنى على يوسف - البرى -

والافتراء عليه ثانياً بعد أن كذبوا - قبلاً - في قولهم لا يبيهم " انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند

متاعنا فأكله الذئب " وعندما " جاء " وأعلى قبيصه بدم كذب " وذلك لأنهم على ما هو الأرجح غير معصومين

وليسوا أنبياء .

الشبهة السابعة

أن يوسف عليه السلام رضى أن يسجد له ابواه والظاهر من هذا المجود أنه بوضع الجبابة على الارض والسجود بهذه السنة لا يجوز الا لله ، فيوسف عليه السلام رضى لنفسه بما لا يجوز الا لله ورضى بذلك من ابويه ، وحق الابوة عظيم ، فيوسف عليه السلام رضى لنفسه بما لا يجوز الا لله .

(١) تفسير ابن كثير ج٢ - ٤٨٦

(٢) روح المعاني ج٤ - ٩٤

وذلك كما يقول اللغز المألي " ورفع أبوه على العرش وخرأ له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي
من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاءكم من الهدوم من بعد أن نزع
الشیطان بيني وبين أخوتي أن ربي لطيف لما يشاء أنه هو العليم الحكيم "

وقبل الإجابة عن الشبهة أوضح معنى الآية فله مدخل في الجواب عن الشبهة

" أبوه " أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قبل ذلك والخالة تنزل منزلة الأم لشقتها وقيل : أباه وأمه
إذ لا دليل على موت أمه وظاهر القرآن يدل على حياتها

" على العرش " السرير الرفيع والمراد به هنا : السرير الذي يجلس عليه يوسف

" هذا تأويل رؤياي من قبل " هذا ما آل إليه امر رؤياي التي رأيتها وقصصتها عليك من قبل بقولتي

" أني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين "

" اليد " اليد بيضاء

" نزع الشيطان " أفسد وحرش

والمعنى :

لما طلب يوسف عليه السلام من أخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين رحلوا من بلاد كنعان قاصدين ببلاد
مصر وعندما أخبر يوسف باقترابهم خرج لتلقئهم ثم لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره
واجتمعوا إليه زاد أبوه تكريما فاجلسها على العرش وسجد له الأخوة الأحد عشر والأيوان وقال يوسف
لابيه يا أبت هذا ما آل إليه امر رؤياي التي رأيتها وقصصتها عليك من قبل بقولتي " أني رأيت أحد
عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " قد جعلها ربي صادقة وقد أحسن الله بي بأخراجي
من السجن بعد أن ابتليت به ولم يصرح عليه السلام بواقعة الجب حذرا من تشبه أخوته وتناهيها
لما جرى منهم وجاءكم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان وحرش بيني وبين أخوتي بأن وسوس
والقى في نفوسهم ما لقي ففعلوا بمقتضى وسوسته

يوسف عليه السلام لم يلق الشيطان في نفسه شيئا للأضرار بأخوته ولكنه قال ذلك تفاديا لتثريبهم أيضا

وذكره تعظيما لأمر الإحسان لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقفا من ربي عالم بخفايا الأمور مدبر لها

فصالحها لصحابها عليم وحده بوجوه الصالح يفعل ما يفعله على وجه الحكمة .

الجواب عن الشبهة

السجود الذي كان ليوسف عليه السلام اما ان يكون بمعنى التواضع ، او بالانحناء ، او بوضعي
الجباه على الارض .

بالاقل قارنوه قوم : فان السجود في اللغة : الخسوف . قال صاحب القاموس : سجد : خضع
وقال القرطبي : السجود معناه في كثره الصرب : التدليل والخسوف قال الشاعر
بجمع تفضل البلق في حجراته . . . ترى الاكم فيها سجدا للحوائس

والاكم : الجبال الصغار ، جعلها سجدا للحوائس لقصه الحوائس اجاها ، وانها لا تمتنع عليها
وعلى هذا القول يروى بالخروج : المروى في قوله تعالى " والذين اذا ذكروا بايات ربهم لم يخسروا
عليها عما وعيانا " اي لم يسيروا عليها كذلك .

ولكن الظاهر من لفظ الخروج : السقوط - قال الالوسي يضاف هذا القول : وانما تعلم
ان اللفظ ظاهر في القوط (٢) وعليه قد اعترض على يوسف عليه السلام

والثاني قيل : ايضا ، ويميل اليه الالوسي ولكن ظاهر النص " وخروا له سجدا " لا يساعده
ولهذا ضعفه الزمخشري والنسفي بقولهما : وخروا رعب سجدا ياها

والثالث : وهو : بأنه بوضع الجباه على الارض قال اخرون : وهو الذي يلزم عليه الاشكال وجواب
عنه جـ

اولها : ان السجود انما كان لله تعالى شذرا له من اجل وجدان يوسف ، وتكون اللام في قوله
" رأيتهم لي ساجدين " للتعليل

ونسبة الفخر الرازي الى ابن عباس ، ويستدل على صحته قول الله تعالى " ورفع يوفى على السرير
وخروا له سجدا " فهو يشعر بانهم صعدوا على ذلك السرير ثم سجدا له ، فلو انهم سجدا
ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير ، لان ذلك ادرخل في التواضع .

ويرى الفخر الرازي . ان هذا القول اولى الاقوال بالقول فيقول : وعندى ان هذا التأويل متعين
لانه يستبعد من عقل يوسف ودهنه ان يرضى بأن يسجد له ابوهم مع سابقته في حضرة الولادة والشهادة
المسلم والدين ، وكما ان النبوة (٢)

ثانيها : ان السجود لله شكرا لنعمه وجدان يوسف ، الا انهم جعلوا يوسف كالقبة ، وتكون اللام بمعنى
الى واستدل عليه الفخر الرازي بالقرآن وبالشمس ، اما القرآن ، فقوله تعالى " اقم الصلاة لادلوك
الشمس " اي عند ادلوك الشمس والصلاة لله لا للادلوك ، فاذا جاز ذلك فانهم يجوز ان يقام

(١) روح المعاني ج ٤ ص ١١٣
(٢) مفاتيح السبب ج ٥ ص ١٧١

الصلاة

صلبت للقبلة ، مع ان تكون لله تعالى ، لا للقبلة

واما الشمر فقون حسان ماكت اعرف ان الامر منصوب عن هاشم ثم منها عن ابي حسن

الهم اطي من على لقبلكم - واعرف الناس بالقرآن والسنة

وعلى هذا للمعنى " وخروا له سجدا " جعلوه كالقبلة ثم سجده والله شكرا لنعمه وهداه

واستحسن الفخر الرازي هذا التأويل وقال : وهذا التأويل حسن (١)

والشها : ان السجود لذريعتهم كان عندهم جائزا ، وكان تحية الملوك في زمنهم

قال الزمخشري :

ان السجدة كانت عند شجر جاري تجري التحية والتكريم كالقيام والمصافحة

وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من افعال شہرت في التعظيم والتوقير (٢)

ثم جعل الله تحية هذه الامة السلام الذين عوتجها اهل الجنة .

ونفى الالوسي عن قتادة قوله : بان السجود تحية الملوك عندهم ، واعطى الله تعالى هذه الامة

السلام تحية اهل الجنة كرامة منه تعالى عجلها لهم (٣)

ولم يذکر ابن كثير عند تفسيره لهذا الآية غير هذا الرأي ، وهو شمر باختباره له ، وترجمه على

ما عناه

ويقول : وكان هذا سابقا في شرائعهم ، اذ اسلموا على النبي يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزا

من لدن آدم الى شريفهم صلى عليه السلام فحرم هذا في الامة ، ووجد من السجود مخرجا بجنس

الرب سبحانه وتعالى .

ويستدل ايضا على هذا بحدِيثين

الاول : ان معاذ بن ابي سفيان رضي الله عنه قدم الشام فوجدهم يسجدون لاسماقتهم فلما رجع سجد لرسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا معاذ ؟ فقال : اني رأيتهم يسجدون لاسماقتهم ، وانست

أحق ان يسجد لك يا رسول الله فقال عليه السلام : " لو كنت آمرا احدها ان يسجد لاحد لا مسكوت

المرأة ان تسجد لزوجها لعظم حقه عليها "

الثاني : ان سلمان لقي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طريق الكوفة وكان حديث عهد بالاسلام -

فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " لا تسجد لي يا سلمان ، واسجد للنبي الذي لا يموت " (٤)

وهذا الذي اختاره ابن كثير هو رأي الاكثر .

وجانبه قوبان : بان السجود كان خاصا بآدم عليه السلام دون سواه

وقول ثالث : بان السجود كان جائزا من لدن آدم الى زمان يعقوب عليه السلام ، فكان سجود

ليوسف عليه السلام اخر ما ابيح من السجود للمخلوقين ، وحكى ذلك القوطي

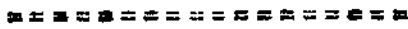
وارجح هذه الاقوال الثلاثة اولها . الذي هو رأي الاكثر لالة حديث معاذ وحديث سلمان عليه

(٣) روح المعاني ج ٤ ص ١١٤

(١) مفاتيح السري ج ٥ ص ١٧١

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩١

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٩٤



يستوقفنا في الابة الكريمة تون يوسف * من بعد ان نرى الشيطان يفتي من اخوته * والنز
 السبطين الذي هو : تسلطه بالوسوسة لم يكن بالنسبة ليوسف عليه السلام ، قد يهتك عنه - صرحا -
 ارتكاب معصية نفى انه من اخوته ، وهم فضلا الذين كان وا ليوسف ، والقوه في غياة الجب ، وكذبوا
 على ابيهم ، وعقوه فهن ، وقد صدقت منهم هذه الكهائس يصبح ان يكونوا انبياء ؟
 لقد تعددت مذاهب العلماء في هذا الموضوع ، فمن قائل بنوتهم ، ومن قائل بعدم
 نوتهم ، ومن متوقف عن الترجيح .

يحكى الخلاف ولا ينتصر لاي القولين ، ومن العلماء من لم يتعرض لهذا الموضوع (١)
 وهذا الفريق الاخير لا كلام لنا معه

والمتوقفون عن الترجيح تناقضت امامهم الادلة ، فلم يوجهوا احد القولين على الاخر كشمس الدين
 الاصفهاني الذي قال : لانسلم ان اخوة يوسف انبياء ، وان سلم انهم انبياء ، فما صدق منهم
 لم يكن نفى حال نوتهم (٢)

وكلامنا ينحصر مع الفريقين الاولين ، الذين نشأ الخلاف بينهم من اختلافهم في فهم الابة الكريمة
 " وتلك بغير بجهتكم ربك وعلمك من تأويل الاحاد بك ويتم نعمته عليك وعلى آل بقرتك كما أتيتها
 على ابيك من قبل ابراهيم واسحاق وان ربك عليهم جنيم "

فالذين قالوا بنوة اخوة يوسف ، فهو الاجتهاد ، انه : اعطاء الدرجات العالية ، والمكانة الرفيعة
 في قلوب الخلق ، وفهموا ان " اتما النعمة " بالنهية " ويستندون الى ما يأتي :

الاول : ان اتما النعمة عبارة عما تصير به النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان ، وهذا اذا
 في حق المبتسر الا النبوة ، فان جميع مناصب الخلق ناقصة بالنسبة اليها .

الثاني : التشبيه في قوله " كما أتتها على ابيك من قبل ابراهيم واسحاق " فان النعمة التامة
 التي خص بها امتياز ابراهيم واسحاق عن عامة الناس لهم الا النبوة ، فلزم ان يكون المراد بالتمسك
 النعمة هو النبوة ولزم الحكم بأن اولاد يعقوب لهم كانوا انبياء ، وذلك لانه قال " ويتم عليكم
 وعلى آل يعقوب وهذا يقتضي حصول تمام النعمة ، وهو النبوة لآل يعقوب والمراد بأن يعقوب
 سائر بيته او اهله من بنيه وغيرهم ، وترك الصلح به في حق من عدا ابناءه ، وهي معمولاه
 في حق ابناءه .

الثالث : ان يوسف قال " اني رأيت احد عشر كوكبا " وكان تأويله : احد عشر نفسا لهم فضل
 وكمال ويستضي بهمهم ونصحبهم اهل الارض ، لانه لاشي انبأ من الكواكب ، وبها يهتدى
 وذلك يقتضي ان يكون جملة اولاد يعقوب انبياء .

(١) الشهاب الخفاجي في نسيم الربيع ج ٤ ص ١٩٥

(٢) مطالع الانظار ص (٢١)

ومن اختار هذا القول الفخر الرازي ، الذي اضطر هو ومنه نحا نحوه ان يجيبوا عن الاعتراض
بأنهم : كيف يكونوا انبياء وقد فعلوا ما فعلوا ؟ بأن ذلك وقع قبل النبوة وعندهم ان المصصة
تعتبر وقت النبوة لا قبلها

الرابع : ذكر الاسباط وعددهم في القرآن عند ذكر الانبياء في قوله تعالى * قولوا آمنا بالله وما انزل
الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وهنري وما اوتى
النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن مسلمون (١)

وفي قوله تعالى ايضا * قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وهنري والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن مسلمون
مسلمون * (٢)

فقد جاء ذكر الاسباط في الايتين بين من اجمع على نبوتهم فقبلهم : ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب وهم هم موسى وهنري * ومن غيرهم * النبيون من ربهم * ونهوتهم باتفاق * فينبغي ان
ان يكون الاسباط وهم اولاد يعقوب لصلبه انبياء * والا كانت الآية مفككة النظم
والقائلون بأنهم ليسوا انبياء

فسوا الاجتهاء ، واتمام النعمة بتفسيرات غير التي تقدمت ذكرها في كتابها الى نفي النبوة عنهم وهي :
الاول : ان الاجتهاء : افاضة ما يستمد به لكل خير وكريمة ، واتمام النعمة عليه ، تخلوهم
من الحزن على اتم وجه بحيث يكون مع خلاصتها من يخضعه ، وهذا القول حكاية الالوسي .

الثاني : ان الاجتهاء : الاصطفاة للنبوة ، واتمام النعمة : سدادات الدنيا وسدادات الآخرة ،
اما سدادات الدنيا فما لاكتار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه ، واجداله
في قلوب الخلق وحسن الثناء ، واما سدادات الآخرة فالعمل الكثير والاخلاق الفاضلة وهذا التوسع
في طاعة الله - وقد حكاها الفخر الرازي (٣)

الثالث : الاجتهاء : الاصطفاة للنبوة ، واتمام النعمة بالطك ، ويكون ذلك بالنسبة للمطسوف
وهو آل يعقوب باقتناء آثاره من المزر والجاه والمال .

الرابع : الاجتهاء : الاصطفاة للنبوة ، واتمام النعمة تخليصه من المكاره ، والمعنى كما اركرمك
بك بهذه الرزية الدتعالى سجود اخوتك لك ، ورفعت شأنك عليهم حكومتك بالنبوة ، والمعلم السدي
تعرضه تأويل امثال هذه الرزبا ، واتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب بالخلاص من المكساره
وهي في حق يوسف عليه السلام معروفه ، وفي حق آل يعقوب الناقدة والقحط ، وتفرق الشمائل ،
اتماما كائنا كاتمام نعمته على ابيك - من قبل هذا الوقت - ابراهيم واسحاق .

واتمام النعمة على ابراهيم باقتناده خليلا ، او بانجائه من نار عدوه ، او بفداء ولده من الذبح ، او

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦

(٢) سورتان عمران الآية ٨٤

(٣) مفتاح الخيب ج ٥ ص ١٠٧

بأكثر من واحد من هذه

وتمام النعمة على اسحان باخراج يعقوب من عنده او بتتابع انبياء كثيرين من نسله ، او بخير ذلك ان ريت عليهم بكل شيء فاعل للأشياء حسبما تقتضيه الحكمة ، فيفضل ما يفعل جريا على مسسنتين علمه وحقيقته (١)

وأرجح انهم ليسوا انبياء لهذه الامور

الاول : انهم صدرت منهم بهائس ولا يجوز عند ورعنا من الانبياء منها

١ - الحسد : فقد حكى الله عنهم قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ، وهــــــــــــــ

بدل على ماكن في نفوسهم من الحسد ليوسف واضيقه ، والحسد من الكباير ، ولا يسكن قلبا مخلصا متحدا على صاحبه بالنهية التي هي اجل النعم وأرفصها ، واداهم الحسد التي سوء الأدب ، والتجزي على ابيهم .

٢ - والمحقوق له اذ قالوا (ان اهاننا لفي ضلال مبين) وفي هذا القول عدم رعاية لحرمة والدتهم وحقه عليهم وعقوب لور ، والمحقوق كبيرة مقوته تدن على خبث الطوية ، ولئن سلمنا بانهم لا يقصدون الضلل في العقيدة ، وانما الضلل في حب يوسف واخيه اكثر منهم فهذا يدل ايضا على

٣ - جهلهم الشنيع فان الحب ودرجاته المتفاوتة امر لا اختيار للانسان فيه ، ولا يلزم الانسسان على مالا اختيار له فيه ، ولئنهم لم يسموا اقربهم وجهلهم يرون ان قتله او الاذ هاب به بعد اذ عن والده يجعله ينسأه ، فتتحول محبته اليهم ، فاجتمعا وتشاوروا ورأوا

٤ - ان يقتلوا يوسف - او يطرحوه في ارض يهدية عن الصمران ، وعن أعين الناس فقتنا وشهه وحوش الصحراء وسباعها ، او يهلك جوعا وعطشا فقالوا " اقتلوا يوسف واطرحوه ارضا يخل لكم وجسه ابيكم " وكان اخناهم عليه الذي قال " لا تقتلوا يوسف والقوه في بياض الجب بلتقطه بعض السباع ان كنتم فاعلين " واحتياالا منهم لتعقبن غرضهم الخبيث ذهوا الي ابيهم

٥ - ليخدعوه ويكذبوا عليه قائلين " يا أيهانا مالك لا تأمننا على يوسف وانا له لناصحون سارسله معنا فدا يرتج ويلعب وانا له لحافظون (والله يعلم - والحوادث دللت - انهم ما انتروا له نصحنا ولا ارادوا منه لصبا ولا رعا ، ولا اهتموا له صيانة وحفظا ، ولئنهم بهتوا له الشر ، والله من ورائهم محيط . وبعد ان القوه في بياض الجب تصنعوا الحزن عليه ، وكذبوا في ادعاء تركه عند المتاع ، والففسلة عنه بالتسابق في الصدو ، او في الرمي ، فأكله الذئب ، وما أكله الذئب ، ولا شم ريحه ، وجاءوا بشاعد مختلق هو الدب على نصير يوسف " وجاءوا اهانهم عشاء بيكون - قالوا يا أيهانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين - وجاءوا على قبيصهم بدم كذب " ولكن يعقوب عليها السلام يحسن بكذبهم في ادعائهم ما دعوه ويقول " بل سئلتكم انفسكم أمرا فصلر جميل والنسب المستعان على ما تصفسون "

ثم هم ايضا الذين رموا يوسف عليه السلام بعد ذلك بالسرقه افتراء عليه . قالوا ان يسرق
فقد سرق آخ له من قبل " ولذلك قال يوسف عندئذ " انتم شريدون منا والله اعلم بما تصنون "
ولما ارس يوسف قميصه الى ابيه وفضلت به الميرقان ابوه " انى لاجد بين يوسف " فقال مسكت
حسرا من ابنائى له " تالله انك لفى علالك القديم " فهذه المعاصى منهم تتنافى وخلق النبوة وكمال
الانبياء

والدفاع عن هذا بانهم ما كانوا فى هذا الوقت انبياء . ثم نهتوا بعد ذلك ضعيف وعار عن الدليل
عليه

قال ابن كثير : ومن الناس من يزعم انهم اوحى اليهم بعد ذلك وفى هذا نظر ويحتاج مدعى
ذلك الى دليل

الثانى : ظاهر السباى يد على خذف نهيهم . اذا المختار فى الاجتهاد : انه الاصطفاة للنهوية
وفى اتمام النعمة انه : التخليص من المنازاة كما هو ابن كثير (١) وغيره

الثالث : ان لا يوجد نص محدد على نهيهم كما وردت النصوص المحددة بنهية يوسف عليه السلام
فى القرآن والسنة . اما القرآن فى قوله " ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف . . . " وفى
قوله (ولقد جاءك يوسف من قبل بالبينات فما زلت فى شك مما جاءك به حتى اذا هلك قلت لبيد
بهتت الله من بعدة رسولا . . . "

واما السنة فمنها ما رواه البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سئ رسول الله صلى الله
عليه وسلم : اى الناس اكرم ؟ قال اكرمهم عند الله اتقاهم ؛ قالو : ليهن عن هذا نسألك . قال :
فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . . . " (٢)

ولو كان اخوة يوسف انبياء لنعزل على نهيهم كما نص على نهيهم ، وخاصة عند ذكر الانبياء من ذريته ابراهيم
فى قوله " ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف "

الرابع : ان الله تعالى ذكره لا يهين من المحامد والثناء ما يناسب النبوة ، وان كان قبلها ، وقصد
اثنى نبينا ايضا على يوسف فيما رواه البخارى " اكرم الناس يوسف نبي الله . . . " فنولن اخوتهم
انبياء بشا ركوه فى هذا الكرم .

يلجى يذكر سبحانه من فضلهم ما يناسب النبوة وان كان قبلها . هل ولا ذكر عنهم توبة فى حين ان الانبياء
كانوا يتوبون من الزلات والادلة اثنى استند اليها القائلون بنهية اخوة يوسف مناقشة

اما الاو : فلان الاصل فى " الاجتهاد " المنسوب الى الانبياء عليهم السلام : انه اصطفاؤهم للنهوية
وعلى هذا لا يفسر اتمام النعمة ههنا بالنبوة ، ولا لزم التكرار ، وانما يفسر بخبرها .

والذغاب الى ان اتمام النعمة : هو ما يصير به تامة كاملة خالية عن جهات النقصان ، وما ذاك ففسى
عن البشر الا بالنبوة . فهم يحتمل القبول والرد ، والدليل اذا تطرق اليه الاحتمال يظل بمسسه
الاستدلال .

واما الثانى : فقولهم : ان النعمة التامة التى حظى بها امتياز ابراهيم واسحاق على سائر الناس ليس الا النبوة

تحكم هذا موجب ، فامتياز ابراهيم واسحاق عليهما السلام كان ينصم تامتكثيراً - كما سبق - والذهاب الى انها النبوة لا غير محتمل ، فقد يسلم دليل لهم

والا رجح في "آل يعقوب" انها هله من بنيه وغيرهم ، لانه لو كان المراد الابناء وحدهم لكان الاظهر الاخصر " وعلى اخوتك " بدل " وعلى آل يعقوب " فحقى على القول بأن اتمام النعمة بالنبوة لا تحدد النبوة في نبيه بل قد تكون في غيرهم من أهله ، والقول بأنه : ترك العمل به في حق من عدا

ابناء ، ، هو حق معمولاً به في حق ابناؤه قون بلا سند ، وتحكم هذا موجب واحتمال لا يسلم معه لك ليل وعلى ان "آل يعقوب" بنو خذاعة ، وتمام النعمة بالنبوة لا تثبت بنوتهم ايضاً لجواز ان يسبوا ويتم نعمته عليهم بالنبوة ، وعلى آل يعقوب بشي ، آخر كالاخذ من المكره مثلاً .

واما الثالث : وهو رؤيتهم كواكب ، والكواكب يهتدون بها ، فهم اذن يهتدون الى النبوة ، فلا يصلح ايضاً دليل على نبوتهم ، وانما يصلح دليل على مصيبتهم الى كونهم هاد بين الناس ، ولا يسلّم زو من عدا النبوة ، فالصحابة وتابعوهم باحسان ، والعلماء الموجهون الى الخير هاد بين الناس وليسوا بأنبياء ، ولا مانع ان يصير اخوتهم هاد بين الناس بعد ان وقع عليهم ما وقع ومن الله عليهم بالتوسعة والدليل المحتمل لا يصلح للاستدلال به .

واما الرابع : وهو ذكر الاسباط مع الانبياء في الابتنى - فدلهم على نبوتهم ، لان المراد من الاسباط ذرية يعقوب لا اولاده لصلبه : اي من عارن بها من ذريته

يقول الشهاب الخفاجي : ولا وجه لتفسير الاسباط بأولاد يعقوب لصلبه كما قال له ابن تيمية ، واصل السبط : الشجرة الملتفة الاغصان ثم اطلق على اولاد يعقوب لكثرتهم

والسبط : الحافد ايضاً ، كما قيل للحسن والحسين سبطاً رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى " وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً " (١) صريح في ان الاسباط : الجماعات

الكثيرة مطلقاً ، فتخصه بأولاد الصلب خطأ ولم يكن فيهم نبي قول موسى غير يوسف عليهما السلام (٢) ويقول ابن كثير : ولم يذكر سوى قولهم تعالى " قتلوا امناً بالله " . وهذا فيه احتمال ، لان بطرسون

بنى اسرائيل يقال لهم الاسباط ، كما يقال للتدريج قبايل ، وللمجم شذوب ، هذا كقولهم تعالى انه اوحى الى الانبياء من اسباط بنى اسرائيل فذكروهم اجمالاً ، لانهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل

من اخوة يوسف ولم يقم دليل على اعيان هؤلاء ، انهم اوحى اليهم (٣) وهذا يتوجه القول بأن اخوة يوسف عليهما السلام ليسوا بأنبياء ، وما صد عنهم لا يقدر في عصمته انبياء

والنبي الشيطاني في قوله " من بعد ان نزل الشيطان بيني وبين اخوتي " منهم الى يوسف لانه اليهم

(١) سورة الاعراف من الآية ١٦٠

(٢) نعيم الرياض ج ٤ ص ١٩٦

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٠

شبهات حول موسى عليه السلام

ان الطاعنين في عمارة نبياء عليهم الصلاة والسلام ، المفتابين على مقام المصطفين الاخبار يتنشقون بظواهر النصوص ، ويفهمونها فهما سقيما ويؤولونها تأويلا بعيدا عن المقصود منها ، والمسوقسة له ، وفي جانب موسى عليه الصلاة والسلام ارتفع صخبهم ، وعند فحجيجهم زاعين انه عليه السلام قد وقع في الاثم ، وارثكب المعصية في مواقف شتى ومواضع متعددة . وقد روا قائمة المفترسات بحادثة وكزه القبطى وقضائه عليه ، مصورين فريتهم على النحو التالي

الشبهة الاولى

ان موسى عليه الصلاة والسلام قتل قبلها لمجرده ان رجلا من شعبته استنصره عليه ، وذلك ينسبى قول اللطعمالى " ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى ففرض عليه قال هذا من عمل الشيطان انمعد وضعل مبهين - قال رب انى ظلمت نفسى فافقرلى فغفرله انه هو الشفيع الرحيم " (١) وهذا الذى قتله موسى عليه السلام اما ان يكون مستحقا للقتل اولا ، فان كان مستحقا للقتل فلم قال هذا من عمل الشيطان " و " رب انى ظلمت نفسى فافقرلى فغفرله " و " فماتت بها اذا وانا من الضالين " وان لم يكن مستحقا للقتل كان قتله معصية وقبل الاجابة عن الشبهة مبهين اولا : معنى الوكر : وثانيا : الدافع اليه ، وثالثا : معنى الا يتيسر اما الوكر : فهو الشرب بالكف مضمومة أصابعها ، وقال ابو حيان : الوكر : الشرب باليسر مجموعا أصابعها كمقد ثلاثة وسبعين وقيل : الوكر : الدفع اطراف الاصابع وفى القاموس : الوكر : الدفع ، والطعن والشرب بجمع الكف وعلى هذا فالوكر : ليس من باب الشرب الموء شربا واهلاكا ، ومن يريد ان يقتل انسانا فانسه لا يتقى بالوكر سهيلا موصلا اليه ، وانما يستخدم من وسائل الشرب الاخرى ، وأدواته الموء شربة ما يحقق القتل

رالدافع الى الوكر : هو : دفع ظلم هذا الذى من عدوه ، فهو - كما قيل - كان يريد تسخير الاسرائيل في حمل الحطب الى مطبخ فرعون ، ووجه فرعون وقومه معنى اسرائيل كان يتمثل فيه الظلم الصارخ لهم فقد فان فرعون يستنصر بنى اسرائيل ، فيذبح ابناءهم ويحتجى بنسبتهم ، كما حكى القرآن الكريم

ان فرعون علا في الارض ووجعل اهلها شعبا يستخفون طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم ان كان من المفسد بن (١)

المعنى

ودخل موسى المدينة وهى : مصر ، او : منف . من ارض مصر مختلفا فيما بين المشاءين او وقت القبول

وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة الا على تخف سئل فوجد فيها رجلين يقتلان : احدهما من بنى اسرائيل والاخر من القبط فطلب الاسرائيليين من موسى غوثه ونصروه على القبطى الذى يظلمه - ويكف - على ما قيل - حتى الحطب السى مطيح فرعون فحاول موسى عليه السلام كما القبطى عن عدوانه لكنه - لما قيل - تمادى وقال لموسى لقد همت ان احمله - الحطب - عليك فاشتد غضب موسى فوكز القبطى الذى تعدى اولا على الاسرائيلى وأغضب موسى ثانيا - فقتله - فقدم عندئذ موسى عليه السلام ، وقال : هذا القاتل الحاصل بغير قصد من تزهب الشيطان الذى وعد وظاهر للعداوة والاحلال ، ثم تخرج موسى الى الله ظالما مغفرتة وتفقرها الله له فانه الغفور الرحيم (٢)

الجواب عن الشبهة

ان هذا القبطى كان ظالما ممتدبا على الاسرائيلى فدخل موسى عليه السلام قاصدا لفسح الظلم عن المظلم لا اكثر من هذا ، وراى - ازا ممتدبا لا يعزى ولا يكف عن ظلمه - ان الوكر وسببته مناسبه فمد يده من يدهى ولا تنفح به النصيحة ، ولا تروعه الملامة ، ولا يقفه اللين لا يجدى منه - بعد هذا - ما هو اق من الوكر .

وماترتب عليه من القتل غير المقصود ، انما المقصود لفسح ظلم القبطى بوسيلة وآغا موسى مناسبه لم يجد مداما قن منها ، ولا تروى فواصلها الى القتل ، فهذا القتل من موسى عليه السلام خلاى الاولى ، لان امثاله ، لا يصح لهم ان يفصلوا بين خصمون بينى احدهما على الاخر ويكفوا الهاغى منهما الا بالنصيحة ، والموعظة الحسنة .

على القول بأنه صغير تقير حسنة ، لانه قتل خطأ ، فالصغيرة الخسبة لا يطعن بها فى حسنة موسى عليه السلام ، وعلى هذا فالشبهة بالصورة المتقدمة غير واردة علينا ، لان القتل كان خطأ ثم ان هذا القتل وقد سمع منه عليه السلام قبل الشهرة يدان على هذا الا : سياتى الايات ، فانه يفيد أن هذه الفتنة كانت قبل نزول موسى عليه السلام من مصر

(١) سورة القصص الاية ٤

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣

شرح الممانى ج ٦ ص ٣٣٥

وهجرته الى مد ين ه تلك الهجرة التي تم فيها التعرف بسيخها الكهبر في اعقاب سقائته
 لا ينتيه ثم اتفقا عليها على ان يرضى موسى عليه السلام اجابوا عند شيخ مد ين ثمانى حجج او عشرين
 صداقا لاحدى ابنتيه ه واتم موسى الاجل ورجل بزوجه فاذا بالنداء من شاطى وادى الطاسور
 الايمن فى الهجمة المباركة ه من قبل الله عز وجل بحمله الرسالة ويطغى به دعوة فرعون وولته اليه
 فيذكر موسى عليه السلام انه قتل منهم نفسا ويخشى ان يقتلوه به فيبر منه الله ويطمئنه بانهم
 لن يقتلوه " فذائك بربانا من ريت الى فرعون وولته انهم كانوا قوما فاسقين - قال رب انى قتلت
 منهم نفسا فأخاف ان يقتلن " الى قوله " فلا يملون اليكما بأياتنا انما ومن اتهمكما انزالهون " (١)
 ثانيا : قوله تعالى حناية عنه " ففهرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجرملى من المرسلين " (٢)
 فاذا كان ما وقع من موسى عليه السلام من الوكز الذى لا يقتل فانها ه والذى كان لدفع الظلم
 والعدوان فترتب عليها القتل خطأ - قد وقع قبل النبوة ه فلا يدعن به على موسى عليه السلام ه سواء
 كان خذاف الاولى ه او صغيرة

واما وصفه نفسه بالنزال فى فعلته هذه فى قوله - وقملت فعلتك التى فعلت وانت مسن
 الكافرين بلا قال فعلتها ه اذن وانا من الضالين " (٣) فان معنى : وانت من الكافرين : اى -
 لنعمتى ه وحق تبهتى فان فرعون كان المرئى لموسى عليه السلام الى ان كبر وبلغ - كما قال " ألم
 نريك فينا ولهدا ولهبث فينا من عمرك سنين "
 ومعنى : فعلتها اذن وانا من الضالين ه اى الذاهلين عن ان الوكز تسأتى على النفس او ان -
 المدافعة تغضى الى القتل ه وقد يوصف الذاهل عن الشى مهانه ضار عنه ه او من المخطئين
 اى لم اتسدد القتل ومع الوكز لهم ذنبا الا ان موسى عليه السلام استعظمه نظرا لملو شأنه
 فاستغفر منه ه واعتذره فى مقام الشفاعتهم الغيامة :
 قال القرطبى : قال قتادة : لم يزل صلى الله عليه وسلم يمد يده فقلت على نفسه محطبه بأنه قد ففر لسه
 حتى انه فى الغيامة يقول : انى قتلت نفسا لم أوامر بقتلها (٤) واما عدده على نفسه ذنبا وقال :
 ظلمت نفسى فافقرلى " من أجل انلا ينهضى لنهى ان يقتل حتى يؤمر وأبضا فان الانبياء يشفقون ما
 لا يشفى منه فيبرهم (٥)

- (١) سور القصص الايات من ٣٢ - ٣٥
- (٢) سور الشعراء الاية ٢١
- (٣) سور الشعراء الايات ١٩ - ٢٠
- (٤) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٢٢
- (٥) تفسير القرطبى ج ٥٥ ص ٤٩٢٢

الشبهة الثالثة

ان موسى عليه السلام التقى الالواح ، واخذ بشعر رأس اخيه هرون ولحيته بجره اليه كما قال تعالى " ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بعصا خلت مني من عندى اعجلتم امرى فكلمهم والتقوا الالواح واخذ برأس اخيه بجره اليه " (٢)

وفى لقاء الالواح ، وفيها كذب الله اعانتها ، واخذوا بواجب تعظيمها حتى على القول بعدم تكسرها وفى الاخذ برأس اخيه هرون ولحيته ايدي الموعوظين ، فان كان لهرون ذنب استحق به التآدي بيمين موسى فقد اذنب نبي ، وان لم يكن له ذنب فابداً موسى له بلا استحقاق ذنب ، فعلى اى منهما فقد عد الذنب عن نبي و يدل لهذا استغفار موسى لنفسه ولاخيه عقب هذا " فقال رب اغفر لى ولاخى وادخلنا فى رحمتك وانت ارحم الراحمين " (٢)

الجواب عن الشبهة

اما عن لقاء الالواح ، فانها يقتضى اعانتها وان كان السبب فى النائها غضبه على قومه الذى بين عهد والمجمل لما هو واضح من الاية القرآنية " ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا " . . . وما نقى عن الهمس : ان السبب فى الظلم موسى الالواح هو فضائل وجدها فيها لغير قومه فاشتد ذلك عليهم صديقا ، وقد عرفت ان جرير الطبرى فقال - بعد ان حتى القولين - : والذى هو اول سبب بالصواب من القول فى ذلك ان يكون سبب لقاء موسى الالواح كانه من اجل غضبه على قومه لحياته تهمس المعجز لان الله اخبر بذلك فى كتابه تعالى " ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا " . . . ونظروا لان العقل يقتضى بانه لا يستهين رسولى بذكرهم لانه الذى يدعو الى تعظيمهم ، والمقام بحقوقه فان لقاء موسى عليه السلام الالواح ينهض ان يشهد على انه لما رأى من قومه ما رأى غضب غضبا شديدا حيث قلدهن وهيرة من الشوك برب العالمين ، فمجل فى وضع الالواح لتفزع به فياخذ برأس اخيه ، فمبهر عن ذلك الوسخ الالتقاء تعظيما لفصل قومه الذى كان سببا له . وليس فى وضع الالواح اهانة لكلم الله .

وعلى القول بان معنى الالواح قد انكسر فلم يكن قصد موسى عليه السلام ان يتكسر ، ولا ظن توتيمه على ما فى ، وليس فى الامور المجلة فى الوسخ الناشئة من الشهرة لله تعالى

واما عن اخذ موسى عليه السلام بشعر رأس هرون عليه السلام ولحيته فقد اجيب عنه بأجوبة تمنع ان يكون اى منهما قد أتى ذنبا

الاول : ان لم يكن اخذ موسى برأس هرون عليهما السلام بجره اليه على سبيل الايداء بل كان يده الى نفسه

(١) سورة الاعراف الاية

(٢) جامع البيان ج ١٣ ص ١٢٢

لن يتفحص منه حقيقة حاله من في تلك الواقعة ، ويستكشف منه كيف وقعت ، فذات عرون ان يستفسر
بنو اسرائيل ان موسى يورده ، لانهم كانوا في غاية سوء الظن بموسى عليه السلام - حتى سئى
ان عرون عليه السلام غاب عنهم فيهم فقالوا لموسى : انت قتلته ، ولهذا قال هرون اشفاقا
على موسى عليه السلام " لا تأخذ بلحيتي " اي لئلا يظن القويك مالا يلقى "

الثاني : ان موسى عليه السلام لما قلب عليه الهم واستبلاء الفكر اخذ برأس اخيه لا على طريقة
الايداء بل كما يفعل الانسان بنفسه من عصب يده ، وشفته ، وقصم على لحيته ، الا انه نزل
اخاه منزلة نفسه ، لانه كان شريكه فيما بناله من خير او شر ، واما قوله " لا تأخذ بلحيتي
فلا يمنع ان يكون هرون خاب ان يتوهم بنو اسرائيل بسوء ظنهم انه منكر عليه ، ثم أخذ
في شرح الواقعة قائلا " يا ابن ام ان القوم استضعفوني "

وقال ايضا : " اني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل "

الثالث : ان موسى لما رأى جزع هرون عليهما السلام واضطرابهما لما جرى من قومه اخذ له ليتمكنه
من تلقه كما يفعل الواحد منا اذا اراد اصبح فضهان او تسكين مصاب
وهذه الاجهزة الثلاثة ذكرها صاحب المواظف وشارحه (١) ودنو بعضها الخذر الرازي في
تفسيره لكن لم يستحسنها بعض العلماء ، لا لمدى الذي رأى بعد ها وخروجها عن مذاق العقول
وانا مع لمدى في ان هذا الاجهزة بعيدة مكلفة واحسن منها

الجواب الرابع : ان اخذ موسى بلحية ورأس هرون عليهما السلام كان لشدة غضبه حين رأى قومه
قد عبدوا المعجن ولذئنه ان هرون ربما قصر في نهيههم عن ذلك

قال الزمخشري : " واخذ برأس اخيه " بضم واخيه " بجره اليه " بذواته ، وذلك لشدة
ما ورد عليه من الامر الذي استنفره وذهب بظننته ، وظننا بأخيه انه فرط في الك (٢)

والجواب الخامس : وهو : ان انكار موسى على عرون عليهما السلام لعدم لحاقه به حين
رأى قومه قد ضلوا وهذا الجواب ثاني جوابين ذكرهما ابن حزم الذي قال : والثاني ان يكسرون
هرون عليها السلام قد استحق في نظر موسى عليه السلام التكبير التأخيره عن الحاقه ان رأه
ضلوا ، فأخذ برأسه منكرا عليه ولونان هذا لان فعله موسى عليه السلام غضبا لونه عز وجل
وقاصدا بذلك وخاء الله تعالى ولسنا نهمت ، هذا من الانبياء عليهم السلام ، وانما نهمد القصص
الى المعصية (٣)

والذي أراه صحة ما تضمنه الجوابان : الرابع والخامس من جعلهما جوارها واحدا ، ويكون انكار
موسى على هرون عليهما السلام لان الواجب عليهما ، في نظر موسى ان يكف قومه عن عبادة المعجوسين
ان استطاع ، او يتحصالي جهنم الطور ان

(١) شرح المواظف المقصد الخامس ص ١٤٧

(٢) الشفاء ج ٢ ص ١٢٦

(٣) الفص لابن حزم ج ٤ ص ١٥

ان لم يستطع كفهم عن عباد المجرس

وهذا هو ما اتجهه صاحب المنار الذي قال في تفسير قوله تعالى " والقي الألواح واخذ برأس أخيه يجره اليه " : وطى الألواح من يده ، وليأخذ برأس أخيه ، واخذ بشعر أخيه بجره اليه .
بدواهته ، ان كان الواجب عليه في اجتهاد موسى ان يرد عليهم ، ويكفهم عن عباد المجل ان قد ر
كما فعل هوته حرقه والقائه في اليم - وان يتعمسه الى جهنم الظور ان لم يقدر كما حكى الله عنسه
في سورة طه " قال يا هرون ما صنعت ان رأيتهم علوا - الاتبعن أمصبت أمرى " والاجتهاد
بختلاف باختلاف احوال المجتهد بن ، فالقوى الشد يد الذنب للحق كموسى عليه السلام بشعره
لا بشعره من يغلب عليه الحظ ولين العريكة هرون عليه السلام (١)

فهذا الجواب الاخير هو الصحيح والمعنى عليه ، - ولنتك كما يهد منه - وهو صريح موسى
عليه السلام ، ويهد عن ساحتها لحوق ذنب به - اما موقف هرون عليه السلام فلم توضحه الاجابات
السابقة بهي ، ساحتها هو الآخر من لحوق ذنب به ، وهو رسون مثل موسى ، ان نسب اليه
تفسير في مثل هذا الموقف الخطير فانه يقدر في عيشته .

اذن فلا زان في الجواب عن الشبهة بقية تشمل هرون عليه السلام هل قصر في الحلول لقياس
قومه هرون عباد المجرس ؟ وهل قصر في عدم لحاقه بموسى عند جهنم الظور ؟

ان اندى بقرة الحق ويؤده النقل : ان هرون عليه السلام لم يقصر في نهى قومه عن اتخاذ المجل
وعبادته ، وانما بذل أقصى جهده للحيلولة دون ذلك ، لانه رسون مهتمة الاولى والاساسية
الديونية عباد الله وحده ، فلا يملك ان يسلط عن قومه وهم ينكصون على اعقابهم - مرتد بين
ايديهم ثم ان القرآن الكريم قد حكى عنه قوله لهم " يا قوم انما فتنتم به وان يكفم الرحمن فاتبعوني
واطيعوا أمرى " ولكنهم لم يستجيبوا له ، بل كادوا ان يقتلوه " قال ابن ام ان القوم استخضعوا
وكادوا يقتلونى " فكونهم قاربوا ان يقتلوه انما لانه حاقق معهم كثيرا حتى عاقوا به ونجح
ونهبه ذرها قاربوا ان يتخلصوا منه ويستكوه بالقتل

واما انه عليه السلام لم يتوبهم - بعد اى جاهد الرد لهم عن الضلال ويصيح موسى ، فلانه لم يرد
ان يخالف امر موسى عليه السلام له في قوله " أخلفنى في قوبى " ولانه خشى ايضا ان فارقههم -
ان يلومه موسى على هذا ، لانه تغرب بين بنى اسرائيل ولهذا رد على موسى عليه السلام لما قال
له " يا هرون ما صنعت ان رأيتهم علوا - الاتبعن أمصبت أمرى " بقوله " يا ابن ام لا تأخذ بلحيتى
ولا برأسى

(١) تفسير المنارج ٢٠٦ - ٢٠٧

اني خشيتان تقون فوقت بهن بنى اسرائيل ولم ترضى فطوى * (١) ان الذي لم يرتك به حيث استخلفت
 فيهم * وكان موسى لاخيه هرون اخلفني في قومي واصليح ولا تتبع سببي المفسد بن * (٢)
 وعلى هذا فهرون لم يقصر في شيء مما كان عليه ان يفعله وساحته برخصة من الذنب في هذا المقام
 كموسى عليهما الصلوة والسلم
 واستغفار موسى عقوب ما تقدم لنفسه ولاخيه عليهما السلم بقوله * رب اغفر لي ولاخى وادخلنا
 في رحمتك وانت ارحم الراحمين * (٣) لان الانبياء عليهم الصلوة والسلام يشفقون مما لا يشفقون
 منه غيرهم * ويندمون على مخالفة الاولى ويستغفرون منه * وكان الاولى بموسى عليه السلام ان لا يسيرون
 اخاه هرون * وان لا يظن به التقصير * ولكن شدة الغضب لله على قومه في اتخاذهم العجل جعلته
 يفسد هذا وهرون عليه السلم خالف الاولى بتركه العجل * وكان الاولى ان يحرقه وينصفه في البحر
 كما صنع موسى عليه السلم * وانظر الى الهك الذي ظلمت عليه عاقبا لنحرقه ثم لنفسه في -
 اليوم نسفا * (٤)

ولكن مما يشفع لهرون عليه السلم انطمن بالقوة والشدة التي بها موسى * فكان يخشى من القتل
 ما لا يخشاه موسى عليه السلم منهم

الشبهة الثالثة

ان موسى عليه الصلوة والسلام قد كلفه الله بدعوة فرعون وقومه الى عبادة تعبدانه وحدة فاعتذر
 موسى عن تحمل الرسالة * وطلب من الله ان يملك بها هرون * وذلك لقوله تعالى * وان نادى موسى
 موسى ان ائت القوم الظالمين * قوم فرعون الا يتقون - قال رب انى اخاف ان يكذبون - ويضيق
 صدرى ولا ينطق لساني فأرس الى هرون - ولهم على ذنبا خاف ان يقتلون (٤)

الجواب عن الشبهة

ان موسى عليه الصلوة والسلام لم يطلب اعفاءه من الرسالة * وتوجيهها الى هرون عليه السلم
 وانما طلب من الله ان يرسل معه اخاه هرون ليكون من بينهما رسولا * يتعاونان في دعوة قومه
 وقومه الى الله * واصلاح حال بنى اسرائيل *
 ولان مطلب موسى عليه السلم في حد ذاته وجبهه فقد اجاب الله * قال قد اوتيت سؤلك يا موسى
 ذلك * لان موسى عليه السلم كان في لسانه لثمة * قال سفيان * كان ذلك من اثر الجمرة
 التي وضعها في نفسه وهو صغير * وكان مع هذا بفق قوله * وليس كما قال فرعون لعن الله فيما حكاها
 منه القرآن الكريم * امانا خبر من هذا الذي عومهمين ولا يكاد يهين * اى ولا يكاد

(١) و (٤) سورة طه الايات من ٩٢ - ٩٢

(٢) (٣) سورة الاعراف الايات ١٤٢ * ١٥١

(٥) سورة الشعراء الايات من ١٠ - ١٤

يفصح عن كلامه فهو على حصر لانه سأل الله تعالى ان يحل عقده لسانه ليفقه الناس قوله " واحل عقده من لساني - بفقهوا قولى " (١) فاستجاب الله له ذلك " قال قتادة اوتيت سوطك باموسى .

فموسى عليه السلام تحقيق له مطلبه فبين له الابطاح والافهام بحيث لا يدق ان يرسل الله رسولا لا يستطيع افهام غيره " ولكن كان همون عليه السلام مع هذا أفصح من موسى ، والانصح يستطيع الابطاح والافهام اكثر ثم ان همون يكون معنا ويقوم الامر بموسى عليهما الصلاة والسلام ، ومصدقنا له فيما يقوله ، ويخبر به عن الله تعالى ، لان خبر الاثنين أنجح في النفوس من خبر الواحد " واخبر همون هو أفصح من لسانا فأرسله منى ردعا ، صدقنى انى أخاف ان يكذبون " (٢)

وأبنا : فان موسى عليه السلام قد قتل من قوم فرعون نفسا . هو الذى وكزه فقتل عليه ، ويخشى ان يقتلوه به فلا يتحقق المقصود من بعثته " قال رب انى أخاف ان يكذبون - ويضيق صدرى ولا ينطقى لساني فأرسل الى همون - ولهم على ذنب فأخاف ان يبتسلون " فان الفخر الرازى فى معنى الآيات : اعلم ان الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قومه فرعون طلب موسى عليه السلام ان يبعث معه همون المهم - ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وجعلها : انه لو لم يكن همون لا خلت المصلحة المصلحة من بعث موسى عليه السلام وذلك من وجهين :

الاولى : ان فرعون ربما كذبه ، والتذنب سبب لصين القلب ، وضيق القلب سبب لتجسر الكلام على من يكون من لسانه حسة ، واما همون فهو أفصح لسانا منى ، وليس فى حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا الثانى : ان لهم عندى ذنبا ، فأخاف ان يبادوا الى قتلى ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثته واما همون ظمى كذلك ، فبمحصل المقصود من البعثته . ثم يقول بعد ذلك : واعلم ان ظمى فى التماس موسى عليه السلام ان يضم اليه همون ما يدل على انسه استغنى من الذهاب الى فرعون ، بل مقصوده فيما سأل ان يقع ذلك الذهاب على اقوى الوجوه فى الوصول الى المراد (٣)

ثم ان ما يدل صراحة على عدم استغناء موسى من الرسالة ، وانما طلب مشاركتهمون له فى مهمته الصعبة قوله الذى حناه عنه الفراء الكريم " واجلس لى فزبوا من اعلى - همون اخى - اشد به ازوى - اشركه فى امرى - كى نصحب كثيرا - ونذكرت كثيرا - انك كنت بنا بصيرا - قال قد اوتيت سوطك باموسى " (٤)

وقد حكى هذه الشبهة عن أصحابها الفخر الرازى فى " عصمة الانبياء " وهو القاسم على بن الحسين البغدادى فى " تنزيه الانبياء " ثم أعانفا - بعد الاجابة عنها - ان موسى قد اذن لعنوان يسأل ضم أخيه همون فى الرسالة اليه قبل ان يسأل ، وصعدت له الاجابة ، ولكن لا يوجد نص يشهد به هذا الذى قاله ، فمن ابن لهما هذا .

(١) سورة طه الآيات من ٢٢ - ٢٦ (٢) مفاتيح الذهب ج ٦ ص ٣٩٩ - ٤٠٠
(٣) سورة القصص الآية ٢٤
(٤)

الشبهة الواهية

ان موسى عليه الصلوة والسلام لما جاء لميقات به الذي حدد له له لمصطبه التوراة • وهو تمام
أربعين ليلة ولكنه به بلا واسطه ولا كيفية طمع في رؤيته تعالى - لغلبه شوقه فسأل الرؤيه
بقوله " رب أرني انظر اليك فأجابه الله بأن الرؤيه غير جائزة " لن تراني " واعتقاد جواز
ملا يجوز على اللج تعالى كفر

وأضاف ابن حزم قوله عن أصحاب هذه الشبهة : وذكروا قون اللعز وجل عن بني اسرائيل " فقد
سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم " قالوا : وموسى
قد سأل به مثل ذلك فقال " أرني انظر اليك فان لن تراني " قالوا : فقد سأل موسى
عليه السلام امرا عوقب سألوه فيه (١)

الجواب عن الشبهة

ان موسى عليه السلام طلب رؤيه الله تعالى • وهى جائزة عقلا فى الدنيا • ولا ذنب فى
طلب الممكن وجواز الرؤيه عقلا فى الدنيا قام عليه الدليل العقلى والنقلى
الدليل العقلى : الله موجود • وش موجود تجوز رؤيته • فالله تجوز رؤيته
واما عدم رؤيته مع الموجودات كالروائح والاصوات فلأن الله لم يخلق فى العبد رؤيتها بطريق
جرى العادة •

الدليل النقلى : قون الله تعالى " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه به قال رب ارني انظر اليك فقال
لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني "
والاستدلال بالآية من وجهين

الاول : لو لم تكن الرؤيه بجائز لما طلبها موسى • لانه طلبها فالرؤيه بجائزة
والدليل على طلبها قوله " رب ارني انظر اليك " ودليل لزوم عدم الطلب لعدم الجواز - السدى
يعنى الاستحالة

هو : ان موسى عليه السلام اما ان يكون عالما باستحالة الرؤيه فيكون طلبه عبثا وهو محال عليه
او جاهلا باستحالتها فتلصق ان يكون نبيا لان النبي لا يد ان يعلم ما يجب فى حق الله • وما يستحيل
وما يجوز • ولا يجوز على احد من الانبياء الجهل بشئ من احكام اللوحية • وان فطلب موسى الرؤيه
دليل جوازها

الثانى : رؤيه الباري طقت على امر ممكن • وكل ما على على الممكن فهو ممكن • والرؤيه الباري ممكنة (٢)
وذلك : ان الرؤيه بطلقت على استقار الجبل " فان استقر مكانه فسوف تراني " واستقرار الجبل ممكن
بدليل قوله " جعله دكا " ولانه لا يتربط على وقوعه محال

(١) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٦ (٢) شرح البيهقى على الجوهره ص ١٠٦

والعدل على الممكن يمكن ، لان التعليق الاخبار بوقوع المعلق عند ثبوت المعلق عليه ، والمستحيلين لا يعلق على شيء : فالروية اذن ممكنة

واعترض الممتزلة المانعون للروية بتعليق كل من الوجهين

على الاول : بأن سؤال موسى عليه السلام لم يكن لنفسه ، بل لدفع قومه الفائلين " انا الله جهرة " وأما الروية بتاليه ، ليكون منعه ابلغ في دفعهم وردهم عما سألوه ، تنبيهها بالا على علي بن ابي طالب

ويجاب عن اعتراضهم هذا

بأن ما قالوه : خلاف الظاهر ، لان السؤال لتحصيل المسئور ، على ان قومه ان كانوا مؤمنين كفاهم قوله : انها ممنوعة ، وان كانوا كفارا لم يصدقوه في اخباره عن الله بانتاعها

وعلى الثاني : بعدم التسليم بأن الروية علق على امر ممكن ، وهو استقرار الجبل حال سكونه ، بل على محال لذاته وهو استقرار الجبل حال حركته

ويجاب عنه

بأن هذا خلاف الظاهر ، لان المذنب في الآية تعليق الروية على استقرار الجبل المطلق ، وافضل اطلق استقرار الجبل فانه ينصرف اليه ، وهو ساكن ، لا وهو متحرك لان الحركة والسكون لا يعقل اجتماعهما في آن واحد وعلى هذا فهو بتاليه ممكنة ، وموسى عليه السلام لم يمهله ان طلب الممكن ، وطالب الممكّن ليس خطأ ولا ذنبها ، واما تمتسه من هذا في قوله " سبحانك تبت اليك " فذاته سألها بدون اذن في السؤال وهذا الممتزلة :

ان الروية مستحيلة في الدنيا والاخرة

واقاموا على مذممتهم دليلها ونقلها

الدليل العقلي : ان الله تعالى لو كان مرثيا لكان مقابلا للرائي فيكون في جهة وحيز ، وهذا محال على الله ، فما أدى اليه وهو : رويته محال

ويجاب عنه

بأن لزوم المقابلة ممنوع فلزوم الجهة وانحيز ممنوع ، اذ الروية قوة بجملتها الله في خلقه ، ولا يشترط فيها مقابلة المرثي ، ولا لونه في جهة وحيز ولا غير ذلك

ولا يقاس القدح على الحاد في لزوم المقابلة ، لا اختزاف المرثي فبهما ، وما يلزم في رويته بالحوادث لا يلزم في رويته بتاليه ، فهو رويته بالحوادث بمضمونها يشترط فيها المقابلة والجهة والحيز وسقوط شعاع على المرثي وانعكاسه على المرثي ، وغير ذلك ، اما رويته بالحوادث لله تعالى فيصح ان تقع بدون شروطها ، لان الشروط عادة يجوز تخلفها ، وان فتجز رويته لله تعالى

وسؤال من سألوا رؤية الله تعالى جهرة ومنافقتهم بالصعقة * فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا
ارنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم * (١) انما كان بعد سؤال موسى عليه السلام لا قبله حتى
لا يقال انه سأل امرا عوقب ما ظنوه قبله

قال ابن حزم - مجيبا عما نقله من الشبهة عن اصحابها : وهذا لا حجة لهم فيه لانه خارج على وجهين
احدهما : ان موسى عليه السلام سأل الرؤية قبل سؤال بنى اسرائيل رؤية اللتعالى وقبل ان يعلم
ان سؤال ذلك لا يجوز فهذا لا مكروه فيه لانه سأل فضيلة عظيمة اراد بها علو المنزلة عند ربه تعالى
والثاني : ان بنى اسرائيل سألوا ذلك بتعنتين وشككا في الله عز وجل وموسى عليه السلام سأل ذلك على
الوجه الحسن (٢)

الشبهة الخامسة

وهي : واردة على موسى عليه السلام في قصة مع الخضر فقد روى البخاري عن ابي كعب الانصاري قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بيتا موسى في ملائكة اسرائيل اذ جاءه رجل فقال : هل تعلم
احدا اعلم منك؟ فقال موسى : لا فأوحى الى موسى : بلى عبدنا خضر فعلم موسى السبيل الى لقائه
فجعل الله له الحوت آية * (٣)

فلما فقد الحوت بمجمع البحرين والتقى موسى بالخضر طلب منه ان يتبعه ليعلمه ما عليه ربه فحذره الخضر
من عدم الصبر معه فوعده موسى بأنه سيصبر والله يعصى للخضر امرا بمشيئة اللتعالى * متجدني انشاء الله
صابرا ولا اعص لك امرا فأشترط عليما الخضر ان لا يسأله عن شيء * ابتداء حتى يكون الخضر هو الذي يبينه
من غير سؤال وما ان ركب السفينة وخرقها الخضر حتى يادر موسى بالانكار عليه قائلا اخرقتها لتفرق
اهلها * مخالفا شرطة مع الخضر

وايضا : قال له * لقد جئت شيئا امرا * اي منكرا او عجبا ثم قال له بعد ان قتل الغلام * لقد جئت
شيئا نكرا * وفعل الخضر لم يكن منكرا فكان كلام موسى خطأ
كذلك وصف موسى عليه السلام نفس الغلام بأنها زكية ولم تكن كذلك فهذه جملة ما أخذ على موسى *

الجواب عن الشبهة

ان قول موسى عليه السلام للخضر * اخرقتها لتفرق اهلها * في حين انه خرقها لمصلحة لا يملها موسى
وانه مخالف للشرط السابق بينها قد صدر نسيانا حيث قال * لا تأخذني بما نسيت * والنسيان جائز
على النبياء في غير التليخ والشرح * قال ابو القاسم علي بن الحسين الهندي : ان النبي لا يجوز
عليه النسيان

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٩٨

(١) سورة النساء الآية ١٥٢

(٢) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٦

فيما يؤديه عن الله تعالى ، او في شره ، او في امر يقتضى التنفير عنه ، فاما فيما هو خارج عما ذكرناه ، فلا مانع من النسيان . الا ترى انه اذا نسي او سها في ما كلفه او مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فان ذلك غير متنع " ١ " .

واما قول موسى للخضر : لقد جئت شيئا امرا " و " شيئا نكرا " فقد اراد انه منكر من حيث الظاهر على معنى ان من نشر الى ظاهر هذه الواقعة ولم يعرف حقيقتها حكم عليها بانها شي " منكر او اراد عجبا ، فان من رأى شيئا عجيبا جدا فانه قد يقول : هذا شي " منكر ، وفصل الخضر لما كان باصر الله لم يكن منكرا في الحقيقة " ٢ " .

وزاد الفخر الرازي جوابا اخر هو : ان الكلم على حذف حرف الشرط فكانه قال : ان كنت قتلتسه طالما فقد جئت شيئا نكرا " ٣ " .

واما وصف موسى عليه السلام النفس بكونها فاكية فعلى سبيل الاستفهام لا على سبيل الاخبار او انه ايضا : اجرى الامر على ظاهره ، فان ظاهر امر السلام عدم ارتكاب ذنب . قال ابن حزم : وتكلم موسى عليه السلام على ظاهر الامر ، وقد ران الخدم زكى ، اذ لم يعلم له ذنبا ، وكان عند الخضر العلم الجلى بكفر الخدم ، واستحقاقه القتل فقصد موسى عليه السلام به ، وكلمه في ذلك وجه الله تعالى والرحمة " ٤ " .

الشبهة السادسة

ان موسى عليه السلام لم يطلع ملك الموت حين ارسله الله اليه ليقبض روحه ، وتعدى عليه بلده وفقا عينه فقد روى البخارى عن طريق طاوس عن ابن هريرة موقوفا قال : ارسل ملك الموت الى موسى عليهما السلام فلما جاءه صكه فرجع الى ربه فقال : ارسلتني الى عبده لا يريد الموت فقال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غفلت يده بكل شجرة منه قال : اي رب . ثم ماذا قال : ثم الموت قال : فالان .

ورواه البخارى ايضا من طريق مصعب بن عمير عن امام عن ابن هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم موصول الاسناد مرفوعا بنحو روايته عن ابن طاوس " ٥ " .

وقبل الجواب عن الشبهة نذكر معاني بعض الفاظ الحديث " صكه " ضربه على عينه ، وبعض الروايات بلفظ " فلطمه " واللفظ ضرب الوجه بباطن راحة اليد وزيادة " فقا عينه " وفقا العين اخراج حدقتها التي بها تبصر .

٣ - عصمة الانبياء ص ٦٢

٤ - الفصل لابن حزم ج ٢ ص ١٦

٥ - صحيح البخارى ج ٢ ص ١٦١

١ - تنزيه الانبياء ص ٨٤

٢ - شرح المواضع المقصد الخامس ص ١٤٧

" متن ثور " المتن : الشهر ، وهيل مكتف الصلب بين الحصب واللحم
 " فلان " شرف زمان ، وهو اسم لنزمان الحال الفاصل بين الماضي والمستقبل " ١ "

الجواب عن الشبهة

يجاب عن الشبهة بلحد جوابين :-

الاول :-

ان الله تعالى لم يبعث ملك الموت لموسى عليهما السلام ونوبريد قبض روحه وقت المرة الاولى
 وانما بعث اليه اختبارا وموسى ما كان يعلم حينئذ انه ملك الموت ، لانه جاء مصورا بصورة
 انسان ، فلما راي موسى انسيا يريد الاعتداء عليه دافعه بحيث ان الانسان مأمور بدفع الضد و
 عن نفسه وقد اباح الشارع فقأ عين الناسر في دار السلام بخير اذن .
 وقد جاءت الملائكة الى ابراهيم والى لوط عليهما السلام في صورة ادميين فلم يعرفاهم ابتداء ولو
 عرفهم ابراهيم لما قدم اليهم الماكول ، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من فوهه هذا مضمون كلام
 ابن خزيمة وزاد عليه الخليلي : ان موسى دفعه عن نفسه لما ركب فيه الحده ، وان الله ارد عين
 ملك الموت ليعلم موسى انه جاء من عند الله فلهذا استسلم حينئذ .

الثاني :-

انما علمه لانه جاء لقبض روحه من قبل ان يخيره ، لما ثبت انه لم يقبض نبي حتى يخير فلهذا
 لما خيره في المرة الثانية اذعن " ٢ " .
 وارجح الجواب الاول على الثاني : لان موسى عليه السلام يستبعد منه وهو رسول ان يلدس
 ملك الموت حتى ولو اراد قبض روحه من غير ان يخيره ، لانه يعلم ان ملك الموت لا يقبض روح انسان
 الا بامر الله تعالى ولانه لو كان يعلم انه ملك الموت لقال له : كيف تقبض روحي وانا نبي - قبل ان
 تخبرني والانبياء لا يقبضون حتى يخبروا ، فالاصح انه لم يعلم - في المرة الاولى . انه ملك الموت ،
 ومن حق الانسان مدافعة المعتدي وبدليل استدلاله له لما عرف انه ملك الموت جاء لقبض روحه
 وحكى القاضي عياض في " الشفا " جوابا اخر عن ابن عائشة : مضمونه : ان الصك معنوي وان اللطم
 بالحجة وان الذي فقي هو عين حجة " ٣ " .
 ولكنه جواب ضعيف ياباه صريح الحديث وخاصة قوله فيه " فرد الله عينه " .
 قال ابن حجر : وزعم بعضهم : ان معنى قوله ! فقط عينه " ابدل حجتي ، وهو مردود لقوله فسي
 نفس الحديث " فرد الله عينه " ٤ "

١- فتح الباري لابن حجر ج ٦ ص ٣١٥ - ٣١٦ ٢- الشفا ج ٢ ص ١٦١

٤- فتح الباري ج ٦ ص ٣١٧

ونسيم الرياحين ج ٤ ص ٢٠١

٢- فتح الباري ج ٦ ص ٣١٦

الفصل السابع

مانصب الى داود عليه السلام وتوجيهه

نصب الى داود عليه السلام انه اتى ذنبا اشفق منه ، واستغفر به فغفر له ، وذلك اخذا من قول الله تعالى ^١ " وقل انك نبأ الخصم اذ لصروا للمحراب اذ دخلوا على داود ففرج منهم " قالوا لا تخف خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشددوا واهدنا الى سواء الصراط - ان هذا اخى له تسع وتسعون نجمة ولى نجمة واحدة فقال انقلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ملك بسؤال نجمتك الى تعالجه وان كثيرا من الخلداء ليهنن بعضهم على بعض الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتلين مآبهم ومن داود انما فتناه فاستغفر به وخر راکما واناب فنفرتنا له ذلك وان له عندنا لزلزلى وحسن مآب - يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ^٢ فهذه الايات تتحدث عن حادثة تتعلق بداود عليه السلام ترتب عليها من داود ان الله قد فتته فاستغفر به واناب اليه فغفر الله له .

وهذه الحادثة قد اختلفت اقوال العلماء والفسرين فى بيانها . وسامرض لهذه الاقوال وما نجده منها متعارض مع ملامات العقل السليم ، والنقل الصحيح رفضناه ، وما نجده متوافقا معها قبلنا . وهذه الاقوال : بعضها ينسب الى داود عليه السلام كباثر الذنوب ، والبعض الاخر ينسب اليه - فقل الصغيرة والبعض الثالث : ينفى عن داود عليه السلام الكبيرة والصغيرة وقد قسمها الى هذه الاقسام الثلاثة الفخر الرازى .

القسم الاول :-

ان داود عليه السلام قد عشق امرأة اوريا ، واحتال لقتله حتى يتيسر له التزوج بها ، وتفصيل هذه الحادثة وسببها تنقله عن ابن جرير الذى ذكر : ان سبب فتنة داود عليه السلام انه تذكر ما اعطاه الله ابراهيم واسحق ويوسف من حسن الثناء الباقى لهم فى الناس فتمنى مثله ، فقبيل له انهم امتحنوا فصبروا فقال الله ان يبئلى كالفى ابتلوا ويمبلى كالفى اعطوا ان شوهر روى عن ابن عباس انه قال : ان داود قال : يا رب قد اعطيت ابراهيم واسحق ويوسف من الذكر ما لو ددت انك اعطيتنى مثله ، فقال الله : انى اعطيتهم بما لم اعطك به ، فان شئت اعطيتك بمثل ما اعطيتهم به ، واهل بيتك ما اعطيتهم . قال : نعم . قال له : فاعمل حتى ارى .

بلائها فكان ما شاء الله ان يكون هو طال ذلك عليه فكان ان ينساه فبينما هو في محرابه اذ وثقت عليه حمامة من ذهب ف اراد ان ياخذها ففلات الى كوة الحراب فذهب ليأخذها فلما سارت فاطلع من الكوة فرأى امرأة تتخجل فنزل نبي الله صلى الله عليه وسلم من الحراب ف ارسل اليها فاجابته ففما لها عن زوجها وعن شأنها فاخبرته ان زوجها غائب فكتب الى امير تلك المدينة ان يؤمره على الصلح ليملك زوجها ففعل فكان يصاب اصحابه وينجو وربما نصره وان الله عز وجل لما رأى الذى وقع فيه داود اراد ان يستغفبه فبينما داود ذات يوم في محرابه اذ تصور عليه الخصمان من قبل وجهه فلما رآهما وهويقرا فزع وسكت وقال : لقد استضعفت في ملكي عتسى ان الناس يتصورون على محرابي . قالوا : له لا تنف خصمان بنى بعضنا على بعض ولم يكن لنسبنا يد من ان ناتيئك . فاسمع منا . قال احدهما : ان هذا اخي له سمع وتسمون نعمة انى ولسى نعمة واحدة فقال : اكفنيها . يريد ان يتم بها مائة وهو تركى ليس لى شىء وعزنى فسى الخطاب قال : ان دعوت ودعا كان اكثر وان بدلت وبدلتك ان اشد منى فذلك قوله " وعزنى في الخطاب " قال له داود : انت كنت احوج الى نعتك منه ولقد سألتك بسؤال نعتك الى نماجه والى قوله " وقليل ما هم " ونسى نفسه صلى الله عليه وسلم فقدر الملكان احدهما الى الاخر حين قال ذلك فتبسم احدهما الى الاخر فراه داود ومن انما فتن فاستغفره وخسر رانما واناب اربعين ليلة حتى نهت الخفرة من دموع عينيه ثم شدد الله له ملكه " ١ "

فهذه القصة كما ذكرها ابن جرير لا يصح ان نتخذ بها فهلاذنها اوضح من ان يخفى ويضج بطلانها من تحييصها سندا ومتنى .

اما السند فقلناه لم يثبت فيها عن نبينا صلى الله عليه وسلم حديث يجب اتباعه ولهذا فانسه لم يذكر هذه القصة احد من اصحاب الكتب الستة واما الحديث الذى رواه ابن ابى حاتم ففيه صحيح بالسند ، لانه فى اسناده ابن لهيعة ، ويزيد الرقاشى ، وكل منهما ضعيف .

ذكر القاسمى فى تفسيره . نقلا عن السيوطى فى " الاكليل " قوله : القصة التى يحكونها فى شان المرأة وانها لما عجبته وانه ارسل زوجها مع البحث حتى قتل اخرجهما ابن ابى حاتم من حديث انس مرفوعا وفى اسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشى وهو ضعيف ، واخرجهما من حديث ابن عباس موقوفا " ٢ "

وعلى هذا يكون من ذكرها من المفسرين انما اخذوها عن الاسرائيليات قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون .

هذه قصة أكثرها ماخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المصنف حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن ابي حاتم هنا حديثا لا يصح عنده . ولأنه من رواية يزيد الرقاشي عن انحرش بن الله عنه ويؤيد وان كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الائمة فالاولى ان يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وان يرد عليها الى الله عز وجل ، فان القران حق ، وما تضمنه فهو حق ايضا ، وما ذكره موثوقا منها على بعض الصحابة كما بين بهاس فلا يستبعد - لوضوح السند اليه - انه اخذه عن التوراه او عن حكي عنها .

هذا وينبغي ان يعلم ان اليهود يتمدون بهذا في حق داود عليه السلام ليصلوا من ذلك الى الدلعن في عيسى عليه السلام لانه من ذريته .
نقل القاسمي عن البقاعي . قوله : في تفسيره " وتلك القصة وامثالها من كذب اليهود ، واخبرني بعض من اسلم منهم انهم يتمدون بنا على حق داود عليه السلام ، لان عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا سبيلا الى الدلعن فيه " ٢ .

وهي هذا فهذه القصة - على النحو السابق - لم ينص الله تعالى في القران الكريم عليها ، ولم ترد عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح ولا حسن ، فهي اذن مختلفة مقتراه للنيل من نبي الله داود عليه السلام فلا يصح ان نتخذ بها ، وانما نتشدد على من يروجها ويفسبها كما فعل على ابن ابي طالب رضي الله عنه .

قال ابو السمود : واما يذكر من انه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه . . . الى اخر القصة فانه مبتدع مكره ، ومكر مخترع بشما مكره ، تمجده الاسماع وتفرغه اللجاج ، ويل لمن ابتدع واشاه ، وتبا لمن اختره واذاه ، ولذلك قال على رضي الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين ، وذلك حد القرية على الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم " ٣ .

واما من ناحية المضمون :

فهذه القصة تضمنت نعمة هذه المعاصي الكبيرة الى داود عليه السلام

اولها : - نوره الى زوجته رجل اخر يتصد غير كريم .

ثانيها : - حسده الرجل على زوجته ، والرغبة فيها لنفسه .

ثالثها : الاحتيال لقتل زوجها حتى قتل بنحير حتى .

وعد قامت الادلة المقلية والنقلية على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الكباثر مما يحكم

بالهدلان على اي قصة تتضمن وفوج كهيرة من احد هم

٢ - محاسن التاويل للقاسمي ج ١ ص ١٤١ ص ٥٠٦١

١ - تفسير ابن اثير ج ٤ ص ٣١

٣ - تفسير ابوالسمود ج ٤ ص ٢٨٨

كذلك ما يرد هذه القصة على النحو السابق المبيح

فان الايات التي سبقت قصة الخصم الذين تصوروا انحراب وايات اللاحقة لها تفضيان لداود عليه السلام بالبراهمة بما نسب اليه مما لا يليق به من عدة وجوه :

الاول :- ان قبلها امر الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ان يصبر على ما يقتربه عليه كفسار منه وان يقتضى بداود وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام في الصبر على مشاق تبليغ الدعوة الى الله تعالى " اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود " ولو ان داود عليه السلام ارتكب الكبائر لما كان من الحكمة امر نبينا صلى الله عليه وسلم بالاعتداء به في الدهر ، اذ كيف يقتضى في الصبر بمن لم يصبر عن المحصية .

قال الفخر الرازي :- امر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقتدى بداود في الصابرة مع المكابدة ، وتوكلنا : ان داود لم يصبر على مخالفة النفس ، بهن سعى في اراقة دم امرى مسلم - لشرف شهوته ، فكيف يليق باحكام الحاكمين ان يامر محمدا افضل الرسل بان يقتضى بداود فسعى الصبر على بلعة الله .

الثاني :- ان الله تعالى وصف داود عليه السلام بالعبودية وانما الى ذاته والنقصود بيان انه كامل في العبودية والكامل في العبودية لله هو الذي يؤدي الداعات ، ويحترز عن المحاصي ، فلان لم يجتنب داود عليه السلام المحاصي ، فانه لا يكون كاملا في عبوديته لله تعالى ، وانما يتوسون عهد نواه وشهوته .

الثالث :- انه لو صحت هذه الحادثة يكون داود عليه السلام باحتياله على قتل اوريا " فانزاله ولو كان اذا لندم داود واستغفر منه ، والغران لم يحكى استغفاره من قتل اوريا وانما استغفاره على فرض صحة هذه الحادثة - من الاستغفار على زوجته - فهل يترك الاستغفار من الذنب الاشد ويستغفر ما هو اقل منه .

الرابع :- ان الله تعالى مدح داود عليه السلام قبل قصة الخصم الذين تصوروا انحراب باوصاف حميدة لا يتاتي معها صدور هذه المحاصي منه في قوله تعالى " اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الاید اي انه اواب - انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالمشى والاشراق والليل محشورة كل له اواب - وهددنا ملكه واتيناه الحكمة وفضل الخطاب " من هذه الصفات :-

١ - " ذا الاید " اي القوة والمراد القوة في الدين ، لان القوة في الدنيا كانت عاقلة للملوك .
٢ - " اواب " استحقوا بها مدحا ، والقوة في الدين : هي الصنم الشديد على اداء الواجبات وترك المنكرات ، فكيف يوصف بها من لم يملك منع نفسه عن الميل مع الهوى والشهوة .

- ٢ - * انه اواب * والاواب الرجاع ولا يتصور من الرجاع الى ذكر الله تعالى ان يرغب في زوجة رجل آخر وتشتد به الرغبة الى حد محاولة الاستيلاء عليها عن طريق تدمير زوجها للقتل
- ٣ - بأنه قد سخر بعض مخلوقاته * انا سخرنا الجبال معه يسبحون بالعشى والاغصان والطير محشورة كل له اواب * واللائق بين سخر الله له هذه الجبال الا شيئا ان يقابله بالشكر والطاعة لا باسراع الهوى والشهوة
- ٤ - تشديد ملكة * وعدنا ملكة * وليس المراد منه انه شد ملكه باسياب الدنيا وحدها فان ذلك حاصل للملوك الكفرة بل المراد : تشديد ملكة في الدين والدنيا ومن شدد الله ملكة في الدين لا يمجز عن صنع نفسه عن القتل والنهب
- ٥ - اتياؤ الحكمة * واتيناؤ الحكمة * والحكمة : اسم جامع لكل ما ينهى علما وعيلا فكيف يعقل انه انصف بالحكمة مع ارتكابه مالا يصدر الا من الجهلاء الحملي كما تتزاع زوجة مجاهد مخلص والاحتياال لقتله *
- ٦ - اتياؤ فصل الخطاب * وفصل الخطاب * قال ابن عباس : بيان الكلام او معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير صموة في ذلك
- وقال ابن مسعود والحسن : علم الحكمة والبصيرة بالقضا
- قال الالموني معنى * فصل الخطاب * انه الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاقد والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدبير الملك والمشورات او انه فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل (١)
- ومن كان هذا شأنه لا يجوز على انسان مهما كان فيهم حقه وظلمه لسلطة نفسه
- الخامس :
- ما ذكر ايضا بعد قصة نيا الخصم يدل على براءة ساحة داود عليه السلام ما نسب اليه في هذه القصة من وجوه :
- ١ - ان داود عليه السلام قال : وان كثيرا من الخلفاء ليس في بعضهم على بعض الا الذين آمنوا * فاستثنى الذين آمنوا عن البعض ولو كان مرتكباً ما ذكرته القصة لكان باغياً فيلزم الحكم على نفسه بعدم الايمان او نقصة ولا يجوز هذا على نبي
- ٢ - ان اللعز وجل قال عنه * وان له عددا لؤلؤي وحسن مأب * فهذا انما يستقيم لمن يفعل الأموريات ويجتنب المنهيات اما من يسمي في قتل غيره والمدوان عليه في زوجته فسلا يستحق القربة وحسن المرجع في الجنة - اذ كيف يعتمدون عن الله بمصيته وزهده الله
- رفعة وشوية (٢)

السادس :

ان قبل هذا بالقصة صفات مدح وبعدها صفات مدح فلو كانت هي تقتضى الذم لاختلط المدح بالذم بطريقتي لا تتفق وما عرفه عن القرآن الكريم من حسن الترتيب وروعة التنسيق .

ومن هذا يتضح بطلان القصة على النحو السابق وتضمن براءة داود عليه السلام مما نسب اليه فيها القسم الثانى :

وفيه ينسب الى داود عليها السلام الصغيرة ويدخل تحته عدة اقوال

القول الاول : ان داود عليه السلام سأل رجلا ان ينزل له عن امرأته ففعل الرجل وتزوجها داود قال الزمخشري : كان اهل زمان داود عليه السلام يعال بعضهم ابعضا ان ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا اعجبتهم وكانت لهم عادة في المواصاة بذلك قد اعتادوها وقد روينا ان الانصار كانوا يراسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق ان عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له * اوريا * فاحبها فسأله النزول عنها فاستحيا ان يرده ففعل فتزوجها وهي ام سليمان فقيل له : انه معظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة معائك لم يكن ينبغي لك ان تسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة النزول عنها لك بل كان الواجب عليك مخالفة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به (١)

والكلام على هذا من باب ضرب المثل فليس هناك خصوم حقيقة بنى بعضهم على بعض وانما هما ملكان اختلفا القصة لتنبه داود على ما وقع منه وكذا بالنماج عن النساء ومعنى * اكفليتها * انزل لى عنها وقد استحسنت هذا القول بمغزى العلماء كآبى جعفر النحاس الذى نسبته الى عبد الله بن مسعود وابن عباس حكى ذلك القرطبي قائلا : قال ابو جعفر النحاس : فاما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم منهم عبد الله ابن مسعود وابن عباس فانهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على الانبياء وعليه على ان قال للرجل انزل لى عن امرأتك . قال ابو جعفر : فعائبة الله عز وجل على ذلك ونهيه عليه وليس هذا بكبير من المعاصى ومن تخطى الى غير هذا فانما يأتى بما لا يصح عن عالم ولحقه فيه اثم عظيم (٢)

وقد عول على هذا القول ايضا القاضى عياض حيث قال بعد ان حكاه عن ابن عباس وابن مسعود وهذا الذى ينبغي ان يعول عليه من أمره (٣)

وأرى ضعف هذا القول لأن

أولا : ينسب الى داود عليه السلام ما لا يليق به اذ لا يليق بداود عليه السلام ان يطمع فى زوجة رجل

ليس له غيرها ووضعا الى ما عنده من النساء لانه ان داود عليه السلام يستحي من ربه ان يراه طامعا
في زوجة رجل ليس له غيرها ومن الناس ايضا : ان يجدوا نبيهم الذي يدعوهم الى اللقاعة وملكهم الذي
يزجرهم عن التطلع لحقوق الآخرين غير قنوع وغير مراع لحقوق غيره

ثم ان الله تعالى قد ملاء قلوب الانبياء عليهم الصلاة والسلام غنى وقناعة بما عندهم
وشانها : انه يجوز اصحاب القون السابق لدليل على ان ذلك كان جائزا في شريعتهم
وان ما نصل الى الصحابين الجليلين ابن مسعود وابن عباس ان صح انهما قالاه - ليس مستندا الى نص
من القرآن صريح او حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فرفع فلم يبق اذن الا انهما نقلاه عن بعض اهل
الكتاب او انا جهاد خاص منهما وهذا وذلك لا يكفينا في بوضوح له خطره كهذا خاصة اذا كان يلحق بنبي
من انبياء الله عليهم الصلاة والسلام علا يلقى به

وان تأييد هذا القول بأن له نظيرا من حالة الانتصار في عرض بعضهم التنازل عن زوجاتهم للمهاجرين
كما حدث من سعد بن الربيع لبعيد الرحمن بن عوف الذي لم يقبل هذا فاليك دليل على ان ذلك كان
جائزا في شريعتهم لا اختلاف شرائع الانبياء في كثير من الاحكام " لكن جعلنا منكم شرعة ومنهاجا "
وللفرق بين حالة الانتصار وحالة داود عليه السلام فالانتصار هم الذين رغبوا في التنازل عن بعض زوجاتهم
بطيب نفس لاخوانهم المهاجرين اما داود عليه السلام فهو الذي طلب من تزوج المرأة التنازل عنها وهزل
يصح ان يكون سنيح غير الانبياء اكرم ونفوسهم اسقى من صنيع الانبياء ونفوسهم ؟ كلا

القول الثاني :

ان اوريا خطب المرأة ثم خطبها داود عليه السلام فآثره اعلمها فكان ذنبه ان خطب على خطبة اخية
المؤمن مع كثرة نساءه

وعلى هذا القول يكون معنى قوله " وعزى في الخطب " غلبني في الخطبة اي خطبت المرأة وخطبها هو
فخطبني خطابا بمعنى غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني

وقد حاول البعض الدفاع عن هذا القول بأن الخطبة على خطبة الاخر قد تكون جائزة عندهم او بان
داود عليه السلام ما كان يعلم ان المرأة مخلوقة لغيره

قال الشهاب الخفاجي : واما الخطبة على الخطبة فانها وان كانت حراما عندنا بغير رضی و فراغ فلعلمه
جائز عندهم او لم يعلم بما اعلمه الله به (١)

ولكني ارى ضعف هذا القول والدفاع عنه بما سبق غير معلم ان تتوقف صحة هذا القول على الجزم ببيان
خطبة المؤمن على خطبة اخية بغير رضاه لاجل ان لا يجرى الاحتمال ثم ان في الخطبة على خطبة

الاخر اينذا له واضرار به وتمدد على حقه ولا يباح في اي شريعة اينذا للمؤمن للمؤمن وتمدد به على حقوقه او على ان داود عليه السلام لم يكن عالما بخطبة الاخر وهذا ايضا فيه بحد لان الخطبة من الامور التي لا تخفى وعلى فرض خفاؤها في بعض الاحيان فالمفروض ان يسأل نبي الله اهل المرأة هل هي مخطوبة أم لا؟ كما هو معتاد الناس في كل زمن ان اراد احد هم خطبة امرأة لا يعرف هل خطبت لغيره ام لا؟ فانه يسأل اهلها عن ذلك وهل يكون داود عليه السلام دين ماعليه الناس او تخفى عليه مثل هذه الامور الاولى ولهذا لا استطيع اعتذار البعض عن داود عليه السلام بأنه لم يكن عالما بخطبة المرأة وان عتاب الله له انما كان لانه يمكنه ان يعرف ذلك ولم يفعل كالنبي الطبري الذي نقل عنه القرطبي قوله " في احكامه ذكر المحققون الذين يرون تنزية الانبياء عليهم السلام عن الكبائر ان داود عليه السلام كان قد اقدم على خطبة امرأة قد خطبها غيره يقال : هو " اوريا " فما ان القوم الى تزويجها من داود راغبين فيه وزاهدين في الخاطب الاول ولم يكن بذلك داود عارفا وقد كان يمكنه ان يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك من حيث اعجب بها اما وصفا او مشاهدة على غير تمدد وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير وذلك الخاطب للمرأة له فنيبه الله تعالى على ما فعل بما كان من تصور الملكين وما اورداه من التشبه على وجه التعريض لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة ويستغفره من هذه الصغيرة (١)

القول الثالث :

ان داود عليه السلام احب بقلبه ان يستشهد الرجل ليمتزوج بأمراته لانه صرح به وياشر اسبابه ذكره الفخر الرازي بقوله : ان داود عليه السلام كان عالما بحمن امرأة اوريا فلما سمع انه قتل غم له لئلا يطعمه الى نكاح زوجته فموتب عليه بنزول الملكين (٢) واضعف هذا القول لاسرورها :

- ١ - ان داود عليه السلام على هذا القول لم يصرح بحبه للمرأة ومحبة القلب لا يعلمها الا الله ولا يعلمها احد غيره فما دام داود لم يصرح بذلك فمن اين عرفها اصحاب هذا القول
- ٢ - ان قوله " فقال اكفانيها " يفيد ان صاحب التمع والتسمين طلب من صاحب الواحد ان ينزل له عنها ثم لم يكف بمجرد الطلب بل حاجة في ذلك وغلبة فيه فكيف يعبر عن مجرد الميل القلبي بالفاظ تفيد الطلب والالحاح والمحااجة والمغالبة ؟

٣- أن الميل القلبي ، لا ذنب فيه ، لأنه لا قدرة للإنسان عليه ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها فلماذا اعتبره داود عليه السلام ذنبا واستغفر منه

القول الرابع :

أنه كان في شريعة داود : أن الرجل اذا مات وخلف امرأة فأولياؤه أحق بها الا أن يرغبوا عن التزوج بها ، فلما قتل أوريا خطب داود عليه السلام امرأته ظاناً أن أولياؤه يرغبوا عنها فلما سمعوا بخطبة داود لها ، وكانوا لم يرغبوا عنها في واقع الأمر - منعتهم هيئته أن - يخطبونها (١) حكاه الألبوس وضمف هذا القول من جهتين :

الأولى : أنه من أئسن لأصحاب هذا القول العلم بأن ما ذكره كان في شريعة داود عليه السلام ، ولا نمر على ذلك في القرآن او في حديث صحيح عن نبينا صلى الله عليه وسلم الثانية : أنه يبعد من مثل داود عليه السلام هذا الظن إذ يمكنه أن يقطعه باليقين وسأل أولياؤه زوجها الذين هم أحق بها - هل لهم رغبة في المرأة أم لا ، فان عادة عامة البشر اذا أراد أحدهم التزوج بامرأة توفي عنها زوجها أن يسأل : هل لأحد من أقارب زوجها أو حتى أقاربها رغبة فيها أم لا وداود عليه السلام لا يخيب عنه مثل هذا ، ولا هو أكثر تهافتا على الزواج الى الحد الذي ينسى فيه مثل هذا السؤال

القول الخامس :

أنه كان في عبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين اليه فنظر الى المرأة ليمررها بمينها ، وهو نظر مباح فمالت نفسه ميلا طبيعيا اليها ، فشغل عن بعض نوافله فموتب لذلك محكاه الألبوس (٢) وضمف هذا القول يعلم مما سبق مخاصة وأن الفاظ الآيات لا تساعد عليه ، بل تتعارض معه وعلى هذه الأقوال فالذين تسوروا المحراب ملائكة والخصومة من باب ضرب المثل وليست حقيقية والنماج كناية عن النسوة

القسم الثالث : ويقضى بأن ما وقع من داود عليه السلام ليس كبيرة ولا صغيرة وفيه أقوال .

الأول : ما ذكره ابن حزم وفيه تقسيم ما تناولته الآيات الى قسمين :

أحدهما : نبال الخصم وقال فيه : كان ذلك الخصم قويا من بنى آدم بلا شك مختصمين في نجاج من الفهم على الحقيقة بينهم ، بنى احدهما على الآخر ، على نبال الآية وكذب من قال : انهم كانوا ملائكة

وثانيهما ظن داود أن الله قد فتنه ولم يكن كذلك ، فاستغفر الله منه ، ففغر الله له وقال فيه : وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام * وظن داود انما فتناه * وقوله تعالى * فغفرنا له ذلك * فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أن يثبت الله قلبه على دينه *

فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن ، إذ لم يكن ما أتاه الله تعالى من ذلك فتنة (١)

فعلَى قول ابن حزم هذا ، لازمة من داود وإنما ظن أن الله امتحنه بالملك العظيم ولم يكن كذلك فاستغفر الله تعالى من ظنه

وهذا القول وإن كان يجرى في معنى الآيات على الظاهر إلا أنه خلاف الظاهر من أن الآيات كلها تحكى قصة واحدة وأن فتنة داود عليه السلام إنما هي فيما جاءه الخصم من أجله

القول الثانى :

أن قوما من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا بنى الله داود وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويستغفر بطاعة ربه فاتتهضوا الفرصة لذلك وتسوروا المحراب فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بما قصر الله تعالى من التحاكم فلم غرضهم فقصد أن ينتقم منهم ، ثم عفا عنهم واستغفر ربه فهذا الاستغفار لواحد من أمور

١ - أن يكون لما عزم عليه من الانتقام منهم ، وتأديبهم لحق نفسا الذى فيه غضب لها ، فالاستغفار لهذا .

٢ - أن يكون لما دخل قلبه من العجب ، حيث أنه عفا عنهم مع إرادتهم قتله ، ثم أناب الى الله واعترف بأن أقدامه على المفعول يكن الا بتوفيق الله فغفر الله له ذلك الخاطر

٣ - أن يكون من همه بالانتقام منهم ثم تذكر أنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشرفمفا عنهم ثم استغفروا من تلك الهمة

٤ - أن يكون لمن قصدوا قتله حيث تابوا الى الله وطلبوا منه ان يستغفر الله لهم ، فاستغفروا لاجلهم وعليه فمعنى قوله تعالى " فغفرنا له " فغفرنا ذنبهم لأجله وسبب دعائه لهم

وعلى هذا القول ، فالخصومة مفتعله من الذين تسوروا محرابه عندما رأوه مستيقظا وانتفضت دبرهم وقد حكاه الألويس والنيسابورى ، واختاره صاحب المواقف وانتصر الفخر الرازى لكون الاستغفار

المتسورين المحارب لا لنفسه (٢)

تفسير الألويس ج ٧ ص ٣٤٥
(٢) غرائب القرآن ج ٢٧ ص ٩٠-٩٢
شرح المواقف ص ١٤٩
عصمة الأنبياء ص ٦٩-٧٠

(١) الفصل ج ٤ ص ١٨-١٩

وهناك اقوال اخرى تجعل الخصومة حقيقية بين طرفين : أحدهما ينسب على الآخر فلم يكن بد من عرض المشكلة على داود عليه السلام ولو في غير وقت التقاضي منها

القول الثالث

أن الخصمين كانا من الانس وبينهما خصومة على الحقيقة وكانا اما خليطين في غم واما أن احدهما موسر وله نساء كثيرة والاخر ممسر ليس له الا امرأة واحدة فاستنزله عنها فزع داود عليه السلام لدخولهما عليه في غير وقت التقاضي أن يكونا مفتالين وذب داود أنه تمجّل في الحكم ونسب المدهى اليه الى الظلم قبل أن يسأله حكى هذا القول الزمخشري (١) وغيره

ويستأنس أصحاب هذا القول بتوصية الله بشيخ داود على الله عليه وسلم فيما يتعلق بالاحكام في قوله " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى " اذ يدل على أن ما صدر منه قبل من قبل ما وقع له في الحكم بين الناس (٢) واعتبر الفخر الرازي قضا داود عليه السلام لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الثاني من باب ترك الأفضل فقال : يمد ان حكى هذا القول : ان هذا من باب ترك الأفضل والأولى (٣) ولكني لا اطمئن الى ان قضا داود عليه السلام لاحد الخصمين قبل سماع كلام الثاني من باب ترك الأولى اذ أن فيه مضيمة للحقوق ويتنافى مع أوليات القضا بين الناس واذا فعل ذلك قاض من عامة البشر ليس منبى فانه يصاب عليه ويظمن به في حقه فما بالك بالأنبياء عليهم السلام الصلاة والسلام

والقول الرابع :

أن الخصومة حقيقية بين اثنين من الانس وثمة داود كانت في ظنه ان المتسورين المحراب جاءوا لاغتيا له ولم يكن هذا الظن مطابقا للحقيقة لذا استغفر الله تعالى منه قال أبو حيان : والذي يذهب اليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الانس دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم مفتالونه اذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قهر الله تعالى ولم يقع ما كان ظنه فاستغفر من ذلك الظن حيث أخلف ولم يكن ليقع مظلومته وخر ساجدا ورجع الى الله تعالى فغفر له ذلك الظن

ولذلك أشار بقوله " ففغرنا له ذلك " ولم يتقدم سوى قوله " وطن داود الجأفتاه " ويملم قطما أن الانبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أنا لوجوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ولم نشق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به اليهم فما حكى الله تعالى في كتابه يبر على ما أراده تعالى وما حكى القصص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه (١)

وهذا القول هو أرجح الأقوال جميعها عندى لأنه يتضمن تنزيه ساحة بنى الله داود عليه السلام عما يخل بمنصب النبوة - ويتلأم مع الصفات الحميدة التي وصفه الله بها قبل ذكر نبأ الخصم ولا يرد عليه الا

١ - قوله " قال لقد ظلمك بسؤال فضحكك الى تماجه " وفيه تظلم المدعى عليه قبل أن يسأله

٢ - وقوله " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى

فيظلمك عن سبيل الله " الذي يفيد أن ما قبله من قبيل ما وقع له في الحكم بين

الناس

ويمكن دفع الأول : بأن داود عليه السلام ما قال ذلك الا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في

القرآن لأنه معلوم

أو : أنه على تقدير : أن صح ذلك فقد ظلمك هذا صاحب الكشاف وصاحب الانتصاف (٢)

وأبو حيان أيضا الذي قال : ليس هذا ابتداء من داود عليه السلام اثر فراغ لفظ المدعى ولا فتيا

بظاهر كلامه قبل ظهور ما يجب فقيل : ذلك على تقدير : أي لئن كان ما تقول لقد ظلمك

وقيل : ثم محذوف . أي فأقر المدعى عليه فقال : لقد ظلمك ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف

المدعى عليه لأنه معلوم من الشرائع كلها هان لا يحكم الحاكم الا بعد اجابة المدعى عليه (٣)

ودفع الثاني : بأنه من باب الحث على الاستمرار على ما هو عليه : أي استمر على ما انت عليه

من الحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى ونظيره أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالتقوى ونهييه

عن موافقة الكافرين والمنافقين في قوله تعالى " يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين "

أي استمر على ما انت عليه من تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين إذ أن نبينا صلى الله

عليه وسلم لا يتصور منه أنه أخل بالتقوى أو وافى أعداء دينه بل هو في الذروة من تقوى ربه

بمخالفة أعدائهم

ومع ترجيحي لهذا القول على غيره من الأقوال فاني لا اتسعد أيضا

القول الخامس :

أن المتسورين المحراب ملكان أرسلهما الله ليمرضاً على داود عليه السلام قضية ليس لها وجود في الخارج وإنما هي مخترعة قصد بها تدريب داود عليه السلام في الأحكام فغلبا ظلم المدعى عليه قبل أن يسمح منه أنه رك عليه السلام أنه امتحن بما عرض عليه فاستغفر ربه من ذلك فغفر له وذلك ليتجنب داود الوقوع في مثل ذلك مستقبلاً

نقل القاسمي عن البقاعي في تفسيره " قوله : وقوله تعالى " فغفرنا له ذلك " أي الوقوع في الحديث عن اسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام وذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام ولما ذكر هذا ربما أوهم شيئاً في مقامه صلى الله عليه وسلم فدفعه بقوله " وإن له عندنا لنزلي وحسن مسأب " (١) وقوله تعالى " يا داود انا جعلنا خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " تحذيراً لداود من الوقوع في مثل ذلك مستقبلاً عندما يحكم في قضايا الناس ومعه أن عرضنا لمختلف الأقوال في نبال الخصم الذين تسوروا المحراب وقتته داود بهذه الحادثة نجد أن بعض الفاظ الآيات بحاجة إلى إيضاح لهذا فإني أتمرض لذلك ذكراً تفسيراً مختصراً للآيات

قال تعالى " وهل أتاك نبال الخصم إذ تسوروا المحراب "

ظاهرة الاستفهام ومعناه : الدلالة على أنه من الإنباء العجيبة

" والخصم " الخصم " والخصم في الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف

ومعنى خصمان : فريقان

" إذ تسوروا المحراب " تصمدوا سورته ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع " وأن " متعلقة

بمخذ وف أي نبال تحاكم الخصم و " المحراب " الشرفة أو المسجد أو صدر المسجد

" إذ دخلوا على داود ففرغ منهم " بدل ما قبله أو ظرف لتسوروا وفرغه منهم لانهم نزلوا

عليه من فوق على خلاف المادة والحرس حوله في غير يوم الحكومة والقضاء

" قالوا لا تخف " وذلك لما رأياه قد ارتاع من دخولهما عليه من غير الباب

" خصمان " نحن فوجان متخاصمان على تسمية صاحب الخصم خصماً

" بنى بمضنا على بمض " تمدى أحدنا على صاحبه بخير حق

" فاحكم بيننا بالحق " فاقض بيننا بالعدل " ولا تشطط " ولا تجر ولا تسرف في حكمك بأميل

منك مع أحدنا على صاحبه إذ الشطط مجاوزة الحد وتخطى الحق
 " وأهدنا إلى سواء الصراط " وأرشدنا إلى وسط الطريق وسجته والمراد : عين الحق ومحضه
 " إن هذا أخي " المراد : أخوة الدين أو أخوة الصداقة والالفة أو أخوة الشركة والخلطة
 لقوله " وإن كثيرا من الخلطاء "

 " له تسع وتسعون نجمة ولي نعمتواحدة " النجمة : هي الانثى من الضأن وقد يكنى بها عن
 المرأة والكناية والتعريض بأبلغ في المقصود
 " فقال أكفنيها " ملكنيها وحقيقته : اجعلني أكفها كما أكفل ماتحت يدي وعن ابن عباس
 رضي الله عنهما : اجعلها كفلي أي : نصيبي
 " وعزني " غلبي " في الخطاب " غلبي في مخاطبته أي محاببة بأن جاء بحجاج لم أقدر
 على رده أو في مغالبتة أي في الخطبة يقال : خطبت المرأة وخطبها هو . فخاطبني خطابا
 أي غالبني في الخطبة فغلبي حيث زوجها دوني
 " قال لقد ظلمك بسؤال نعمتك إلى نعاجه " جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام
 البالغة في انكار فعل صاحبه وتهجين طمعه في نجمة من ليمرله غيرها مع أن له قطيعا منها
 والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بالسي لتضمنه معنى الاضافة والضم
 " وإن كثيرا من الخلطاء " الشركاء الذين خلطوا أموالهم " ليبي " ليتعدى
 " بعضهم على بعض " غير مراعاة لحق الصحبة والشركة
 " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات " منهم فانهم يتحامون عن البيه والعدوان
 " وظن داود انما فتناه " الظن : مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة
 أي علم بما جرى في مجلس الحكومة اننا ابتليناه
 " فاستغفر ربه وخر راكعا " أي ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خرا للسجود
 راكعا أي مصليا " وأتاب " رجع إلى الله تعالى
 " فغفرنا له ذلك " الذي استغفر منه
 " وإن عندنا لزلزلى " لقربة وكرامة بعد المغفرة " وحسن مأب " وحسن مرجع في الجنة
 " يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض " استخلفناك على الملك في الأرض
 " إننا كنا خليفة ممن كان قبلك من الانبياء القائمين بالحق

فاحكم بين الناس بالحق * بحكم الله اذ كنت خليفة او بالمدل
 * ولا تتبع الهوى * عوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا
 * فيضلك عن سبيل الله * فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق
 * ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب *
 ان الذين يعملون عن سبيل الله وذلك الحق الذي شرعه لمبادئهم وبالعمل به
 فيجورون عنه في الدنيا لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله
 بما نسوا أمر الله أي بما تركوا القضاء بالمدل والعمل بطاعة الله (١)

قضاء داود في حادثة الحرث والغنم

وما نسب اليه فيها

قضى داود عليه السلام في حادثة الحرث والغنم بقضاء مخالفه فيه ابنه سليمان عليه السلام
 ثم اخبر الله تعالى أنه فهم سليمان القضاء فيها مما يفيد أن داود عليه السلام أخطأ في
 ذلك كما يؤخذ من قول الله تعالى
 * وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شامدين ففهمناها
 سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * (٢)
 وبيان لهذا على الوجه المقبول واللائق في حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام نذكر الحادثة
 وقضاء داود فيها وقضاء سليمان ووجه قضاء كل منهما
 على حادثة الحرث والغنم عن ابن عباس وقتاده * الخطيب الشريفي قائلا : قال ابن عباس وقتاده
 ان رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما : صاحب حرث والآخر صاحب غنم
 فقال صاحب الزرع : ان هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقمت في حرثي فأفسدته ، فلم تبق منه
 شيئاً فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث
 فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال سليمان : لو
 وليت أمرهما لقضيت بغير هذا ، وروى انه قال : غير هذا أرفق بالفرحين فأخبر بذلك
 داود فدعاه فقال : كيف تقضى ؟ وروى : أنه قال : بحق النبوة والابوة الا ما أخبرني
 بالذي هو أرفق بالفرحين . قال : ادفع الغنم الى صاحب الحرث ، فينتفع بدها وسلمها

(١) تفسير ابن جرير وابو السمود والنسفي

(٢) سورة الانبياء الايات ٧٨ و٧٩

وصرفها ويذر صاحب الفخم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته
 دفع الى أهله واخذ صاحب الفخم غنمه . فقال داود : القضاء ما قضيت (١)
 كما قال تعالى " وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفثت فيه غنم القوم " انتشرت فيه ليلا
 بغير راع

" وكما لحكمهم " لحكم الحاكمين والستحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص الشامل لاختصاص
 القيام واختصاص الوقت

" شاهدين " حاضرين علما أى : كان ذلك بملئنا ومراى منا لا يخفى علينا علمه
 وقال الفراء : جمع الاثنين فقال " لحكمهم " ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع
 " ففهمناها سليمان " علمنا سليمان القضية وألهمنا هاهنا فان حكومة سليمان أرفق بالفرقتين من
 حكومة داود

ويجوز كل من القضاء بين

وجه قضاء داود عليه السلام أن الضرر لما وقع بالفخم سلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال
 ابو حنيفة في العبد اذا جنى على النفس يدفعه السولى بذلك أو يفديه

وعند الشافعى : يبيحه في ذلك أو يفديه

ولعل قيمة الفخم كانت على قدر النقصان في الحرث

ووجه قضاء سليمان عليه السلام : أنه جعل الانتفاع بالفخم متبايل ما فات من الانتفاع بالحرث

من غير أن يزول ملك المالك عن الفخم وأوجب على صاحب الفخم أن يعمل في الحرث حتى

يزول الضرر والنقصان الذى أصابه

مثاله : ما قال أصحاب الشافعى فيمن فصب عبدا فأبى من يده أنه يضمن القيمة فينتفع بها

المفصوب منه مقابل ما فوته الفاصب من منافع العبد فاذا ظهر العبد ترادا (٢)

وحكم هذه المسألة لو وقعت في شريعتنا عند ابي حنيفة وأصحابه : أن لاضمان بالليل

أو النهار الا ان يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله على الله عليه وسلم

" جرح المجرم جبار " (٣) أى هـ

وعند الشافعى وأصحابه : أن فيها الضمان بالليل اذا امتداد ضبط الدواب ليلا وذلك قضى

النبي صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته . فقال : على أهل الاموال

حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل (٤)

ويبدو لي بعد هذا ان قضاء داود عليه السلام كان صوابا لا مريئاً :

١ - قوله تعالى بعد ذلك * وكلا آتينا حكما وعلما * ان هو يفيد أن قضاء داود هذا كان عن

حكم وعلما وأن قضاء يتصف صاحبه بهاتين الصفتين يكون صوابا

٢ - ذكر ما سخر له من المخلوقات عقيب هذا في قوله * وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير

وكنا فاعلين وعلماؤه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون * (١) فهو يشعر

بأن الله قد سخر له هذه الاشياء لانه جد يرب بذلك ، حيث يحكم بالحق ويقضى بالعدل ما وسعه

ذلك وأن قضاء سليمان عليه السلام هو الا صوب لقوله تعالى * ففهمناها سليمان *
وهنا يأتي دور السؤال عن هذا القضاء أكان بوحى أم باجتهد ؟

وقد ذهب البعض الى انه كان بوحى الا أن قضاء داود نسخ بقضاء سليمان

ورآى آخرون : أنه كان باجتهد الا ان اجتهاد سليمان أوفق وارفق (٢)

والقائلون : أن القضاءين بالوحى وأن قضاء داود نسخ بقضاء سليمان يفسرون قوله * ففهمناها سليمان *
على انه بمعنى : أوحينا اليه

ومن هؤلاء الجبائي الذي بنى قوله تارة على : أن الاجتهاد غير جائز من الانبياء ، تارة اخرى : على

ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم في الجملة لكنه غير جائز في هذه المسألة

اما قوله : ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء فقد سبق كما سبق ايضا الرد عليه

واما قوله : ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم في الجملة الا انه في هذه المسألة غير جائز فقد

استدل عليه بأمر

الاول : أن الذي وصل الى صاحب الزرع من منافع الغنم مجهول المقدار فلا يصح جعله عوضا

عما اتلف من الزرع

الثاني : أنه لو كان باجتهد من داود لكان اما صوابا واما خطأ فان كان صوابا لزم أن لا ينقض

لان الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد وان كان خطأ لزم ان يتوب منه ويبين الله تعالى توبته

كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لكن لم يحدث شي من هذا بل مدحهما الله

بقوله * وكلا آتينا حكما وعلما * فدل هذا على انه لم يكن باجتهد

الثالث : لو كان باجتهد لكان الحاصل منه ظنا لا علما والله تعالى قال * وكلا آتينا حكما وعلما *

الرابع : قول الله تعالى * ففهمناها سليمان * يدل على انه لم يكن باجتهد

(١) سورة الانبياء الآيات

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١٠١

وأرجح أن هذا القضاء كان باجتهاد لأمير —
 الاول : لأن لو كان بنص عند داود عليه السلام لوجب أن يكون النص الناسخ له نازلا أيضا على
 داود لا على سليمان عليهما السلام
 الثاني : أن الله تعالى مدح كلا منهما عقب ذلك بقوله * وكلا آتينا حكما وعلما * ولو كان قضاؤهما
 عن طريق النص لما استحق هذا المدح انما استحقاق المدح على البراعة في الاستنباط
 واستخلاص الحكم الذي لا نص فيسـ

الثالث : قول سليمان عليه السلام في هذه الحادثة : غير هذا ارفق وقوله في بعض الطرق أرى
 أن تدفع ٥٠٠ الخ — ومناشدة داود لسليمان عليهما السلام اظهار ما عنده ولو كان
 عند سليمان نص فيها لا ظهره من يد * الامر ولما انتظر مناشدة والده له ان يحرم كتمان
 النص وخاصة عند الضرورة له *

الرابع : ان الظاهر ان سليمان عليه السلام لم يكن نبيا وقت هذه الحادثة وانما نبى بعد ذلك
 فقضاؤه كان باجتهاد وقضاء داود باجتهاد أيضا ضرورة عدم جواز نقض حكم النص بالاجتهاد (١)
 وأما تفسير القائلين بأن القضاء كان بوحى قوله * ففهمناها سليمان * بأنه اوحينا اليه فقيه بعد
 وأما الوجوه التي استند اليها الجبائي فمردود عليها بما يأتي :

على الاول : بأن الجهالة في القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجملات وحكم المصراة
 وعلى الثاني : بأنه لا مانع من ان ينقض الاجتهاد الصائب بالاصوب ولو فرض ان اجتهاد
 داود كان خطأ فالخطأ في الاجتهاد ليس معصية

وعلى الثالث : بأن الظن في القياس واقع في طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به
 وعلى الرابع : أن من يجتهد ويعمل فكرة فيؤديه اجتهاده الى حكم ما فانه يكون بتفهيم من الله
 فاجتهاد سليمان عليه السلام ووصوله الى الحكم الذي قضى به انما هو بتفهيم الله وتبينه
 له طريقه ويرى اختار الفسرا ابو السمود : ان حكم سليمان بالاستحسان وحكم داود بالقياس
 فقال : ان رأى سليمان استحسان كما ينبغي * عنه قوله * ارفق بالفريقين * ورأى داود قيسا
 كما أن المبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند ابن حنيفة الى المجنى عليه او يفديسه
 او يبيمه في ذلك او يفديه عند الشافعي وقد روى انه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت
 باا سليمان فقد استحسنت حيث جعل الانتفاع بالغنم بازا * ما فات من الانتفاع بالحرث من غير
 ان يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم ان يعمل في الحرث الى ان يزول الضرر
 الذي آتاه من قبله (٢)

الفصل الثامن

الشبهات الواردة على سليمان عليه السلام

يرجع المسلمون في فهم آيات القرآن الكريم - فيما يرجعون إلى الرويات الصحيحة عن نبيينا على الله عليه وسلم وإلى ما تلقوه ببعض الآيات من الضوء على بعضها الآخر فتحدد وتوضح معانيها وإلى ما اثر عن بعض الصحابة المشهود لهم بالعلم والفقه في الدين وإلى عدل لولات الالفاظ من جهة اللغة وذلك في اطار عدم اصطدامها بما تقرره عقلا ومشروعنا وفيما يختص بفهم الآيات التي تحكى تصرفات واعمال الانبياء عليهم الصلاة والسلام ينبغي أن يستقى ذلك من المصادر السابقة وعند تعذر المأثور يكون الاجتهاد في فهمها انطلاقا من مدلولات الالفاظ اللغوية وفي حدود ما تقرره عقلا وشروعا من عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من المعاصي

ولكننا نجد تفسيرات لا تستند إلى المأثور الصحيح ولا تنضبط بضوابط المقررات لدى العقل والشرع كذلك التي فسرت بها آيات متعلقة بسليمان عليه السلام منها قوله تعالى " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب - ان عرض عليه بالعرش الصافنات الجياد فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب - ردها على فطقق مسح بالسوق والاعناق " (١)

فان الفهم الذي افتقد ما صح اثرا وما سلم عقلا وشروعا تأدى باصحابه إلى الظمن على سليمان بهذه الشبهة.

(الشبهة الاولى)

واثر نقلها عن النيسابوري الذي حكاهما عن اصحابها في قوله : قالوا : روى ان سليمان غزا اهل دمشق ونصيبين فأصاب الف فرس وقيل ورثها عن ابيه فقدم يوما بعد الظهر واستعرضها فلم يزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وذلك قوله " حتى توارت " أي الشمس . بدليل ذكر المشى " بالحجاب " حجاب الافسق

وقيل : " حتى توارت " الخيل بحجاب الليل وغفل عن المصراو عن ورد من الذكران له وقت المشى فقال : اني احببت حب الخير . وهو يتضمن معنى فعل يتمدى بمن . أي : أنبياء حب الخير عن ذكر ربي وجعلت حبها مغنيا عن ذكر ربي فأغتم لها فاته فاستردها وعقرها تقربا لله . ذلك قوله " فطقق مسح " (٢)

فهذه الرأية تنسب إلى سليمان الغفلة عن صلاة المصراو عن ذكر له ثم قطع اعناق الخيل

(١) سورة صر الآيات من ٣٠ - ٣٣

(٢) غرائب القرآن ج ٢٣ ٩٩ - ١٠٠

وعرقية ارجلها * وهو منهي عنه الجواب عن الشبهة
 لم يرد عن نبينا صلى الله عليه وسلم حديث يفيد هذا الذي فكره
 والفاظ الآيات لا تحدده شي الاخرى
 وهما هي الالفاظ وما تدل عليه

* المشى * من زوال الشمس الى آخر النهار وقال الراغب : من زوال الشمس الى الصباح
 * الصافنات * نائب الفاعل والشافن من الخيل : الذي يرفح . احدى يديه او رجله ويقف على مقدم
 حافرهما وقال ابو عبيدة : هو الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على طرف الحافر فهو المخيم
 * الجياد * جمع جواد للذكر والانثى وهو : الذي يسرع في مشيه وقيل : هو الذي يوجد بالركض
 ووصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية * اذا وقت كانت
 ساكنة مطمئنة في مواقعها واذا جرت كانت سراطا خفانا في جريها والخيل تمدح بالسكون في الموقف
 وبالسرعة في الجري

فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب *
 * الخير * كثر استماله في المال * ومنه قوله تعالى * ان ترك خيرا * وقوله * وما تنفقوا من خير
 يعلمه الله * وقوله * وانه لحب الخير لشديد *

وقال البعض : الخير : المال الكثير
 وانسراد هنا بالخير ^{الخيل} والعرب تسمى الخيل الخير وحكى ذلك عن قتاده والسدي ولعل لذلك
 لتعلق الخير بها (١) وقد روى البخاري بسنده عن عروة بن الجعد عن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : * الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة * (٢)
 * عن ذكر ربي * يجوز في * عن * ان تكون تعليلية وعلى هذا يكون المعنى : اني احببت الخيل
 لامر ربي بذلك فهو قد امر بارتباطها في سبيل الله او ان ذكر الرب هو : التوارة والمعنى احببت
 الخيل بسبب كتاب الله وهو التوارة فان فيه مدح ارتباطها وقد روى هذا عن ابي مسلم (٣) وعلى
 القول الآخر وهو : ان * عن * ليست تعليلية وان * احببت * مضمن معنى فعل يتعدى بمن
 والمعنى : انبت حب الخير عن ذكر ربي او جعلت حب الخير مجزيا او مغنيا عن ذكر ربي
 فعلى هذا ايضا لا يلزم ان يكون سليمان عليه السلام قد فاتته صلاة العصر او ورد من الذكر بسبب
 استمرار الخيل * يتبين هذا ما بعده وهو

" حتى توارت الحجاب " قيل الضمير رني " توارت للشمس ، وان كان لم يجز لها ذكر لسبق ما يدل عليها وهو قوله " المشى " وقد انتصر لهذا القرطبي فقال :

الاكثر في التفسير ان التي توارت بالحجاب هي الشمس وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها وتعلق بذكرها مثل قوله تعالى " ما ترك على ظهرها من دابة " على ظهر الارض وتقول العرب : هاجت باردة . اي هاجت الريح باردة . وقال تعالى " حتى اذا بلغت الحلقوم " اي بلغت النفس الحلقوم وقال تعالى " انها ترمي بشرر كالقصر " ولم يتقدم للنار ذكر وقال الزجاج : انما يجوز الاضرار اذا جرى ذكر الشئ " او دليل المذكور وقد جرى ههنا الدليل وهو قوله " بالمشى " (١)

وعلى هذا يكون في قوله " توارت بالحجاب " استعارة تسمية فقد شبه غروب الشمس في مغربها بتوارى المخيأة بحجابها والمعنى : استمر عرض الخيل حتى غربت الشمس .

وهنا يصرون على ان صلاة العصر قد فاتت سليمان ومن اين لهم ان سليمان كان مفروضاً عليه صلاة العصر

وحتى على القول بعود الضمير الى " الصافنات " فهم يتمسكون ايضا بأن سليمان فاتته صلاة العصر قال الزمخشري : وقيل الضمير للصافنات اي حتى توارت بحجاب الليل بمعنى : الظلام وتصميما منهم على ان سليمان عليه السلام فاتته صلاة العصر ينتزهون من قول سليمان " اني احببت الخير عن ذكر ربي " اعترافا بما وقع منه من الاشتغال باستعراض الخيل وتندما عليه وتمهيدا لأمره - بعد - بردها وعقرها

" ردها على فطفق مسحاً بالسوق والاعناق "

" الكلام على اضرار القول - كما ذكر الزمخشري . اي ردها على . وقال ابو حيان : لا يحتاج الى الاضرار ان الجملة مندرجة تحت حكاية القول في قوله تعالى " فقال اني احببت " والهاء في " ردها " للصافنات " اي ردها على الخيل التي عرضت على " فطفق " من افعال الشروع والتعريف في " السوق والاعناق " للمهد اي شرع يمسح سوقها واعناقها وهنا ايضا يذهب البعض الى ان المسح : التقطيع . قال الزمخشري في تفسير " فطفق مسحاً " فجعل يمسح بالسيف بسوقها واعناقها بمعنى يقطعها (٢)

ولماذا لا نذهب الى ان المسح : كان ياليد اى جعل يمسح اعرافها وعراقيبها حبا وتكريما لها
فهذا هو الاليتق بنبى يمد لاعدائه بالاستطاع من قوة ومن رباط الخيل ليخص دين الله ويرهب
اعداءه وفيه البمد عن نسبة الظلم الى سليمان بديج خيل بدون ذنب جنته
فهذا القول هو الاقرب ولا ظهر وقد قيل به : قال ابن جرير : وقال آخرون : بل جعل يمسح
اعرافها وعراقيبها حبالها (١)

فها نحن قد وجدنا ان اصحاب هذه الشبهة : ليس لهم مستند من حديث صحيح عن نبينا
صلى الله عليه وسلم او اثر معتد عن بعض اصحابه

ثم ان مدلولات الالفاظ ليست محددة فيها ذهبوا اليه وانما ما قالوه فى معانى الالفاظ محتمل
ومحتمل بعيد ويجمله فى غاية البمد انه يتعارض مع ما تقرر عقلا وشرطا من عصمة الانبياء عليهم
الصلاة والسلام عن المحاصى

وحتى رأى الجمهور فى تفسير الآيات لا اطمئن اليه كل الاطمئنان رغم الاعتذارات فيه عن سليمان
وها هو رأى الجمهور :

ينقله ابو حيان فى قوله : قال الجمهور : عرضت عليه الخيل تركها ابوه له فأجريت بين يديه
عسفا فتشاغل بحسنها وجربها ومحبتها عن ذكر له فقال * ردها على * فطفق يضرب اعناقها
وعراقيبها بالسيف • لما كانت سبب الذهول عن ذلك الذكر فابده الله تعالى اسرع منها الريح (٢)
واعذر الجمهور عن ترك سليمان عليه السلام صلاة المصربانه كان نسيانا فقال ابن كثير : ان أكثر
من واحد من السلف والمفسرين قال : انه اشتغل بمرضها حتى فات وقت صلاة المصربان الذى
يقطع به : انه لم يتركها عمدا بل نسيانا كما شغل النبى : به السلام يوم الخندق عن صلاة المصربان
حتى صلاها بمد الفروب • وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه • روى البخوارى بسنده عن
جابر بن عبد الله ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جاء يوم الخندق بمد ما غربت الشمس فجعل
يسب كفار قريش ويقول : والله يا رسول الله ماكدت اصلى المصرب حتى كادت الشمس تغرب
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

* والله ما صليت بها * فنزلنا مع النبى • بطحان فتوضأ نبى الله للصلاة وتوضأنا لها ف صلى المصرب
بعد ما غربت الشمس ثم صلى بمدها المصرب (٣)

(٣) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٢

(١) جامع البيان ج ٢٣ ص ١٠٠
(٢) النهر الماد من البحر المحيط ج ٧ ص ٣٩٤

ثم يقول ابن كثير : ويحتمل انه كان سائفا في ملتهم تأخير الصلاة لمذر الفزرو والقتال والخيل تراء للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء ان هذا كان مشروفا ففسخ ذلك بصلاة الخسوف ومنهم من ذهب الى ان ذلك في حال المسايقة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضی اللہ عنہم في فتح تستر وهو مشغول عن مكحول والاوزاعي وغيرهما والاول اقرب لانه قال بعمده * ردها على فطرق مسحا بالسوق والاعناق (١) * ومن الجمهور من ذهب الى ان ذبح سليمان للخيل كان قربانا وكان هذا مشروفا في دينه

قال الالوسى - بعد ان ذكر ان المراد بالمسح القطع - وقد جعلها عليه السلام بذلك قربانا لله تعالى وكان تقرب الخيل مشروفا في دينه (٢)

ولئن سلم للجمهور اعتذاره عن ترك سليمان صلاة المصير بالنسيان فلا يسلم له ذبح الخيل لان فيه أولا : كونه شغل بها حتى نسي الصلاة لا يدعو الى التخلص منها تقريبا أو غيره لان النسيان يرفع اثم التأخير

ثانيا : تضييع عدته في جهاد اعداء الله والحفاظ على دينه ولا يفعل هذا عاقل فضلا عن النبي اذ ان الخيل وقتها عدة لا يستهان بها في قتال الاعداء وفي ذبحها اضعاف لقوة يحتاج اليها قطعا في مواجهة اعدائه وتمكين للعدو من نفسه

ثالثا : انه لو كان المراد بمسحه بالسوق والاعناق تقطيعهما الذي يتطلب جهدا كبيرا ومشقة شديدة لكان يكفي سليمان عليه السلام ان يصعد الى بعض رعيته بهذا ولا يحمل نفسه هذه المهمة الشاقة اما مسحها بيده فامر سهل ويناسب ان يباشره عليه السلام بنفسه رابعا : من اين للجمهور دليلهم على ان تقرب الخيل كان مشروفا في دينه ؟ فان قالوا : بان الدليل هو فعله عليه السلام فيرد عليهم : بان قوله * فطرق مسحا بالسوق والاعناق * ليس نسا محذورا في الذبح وانما يحتمل المسح باليد وهو الاقرب - فلا يصلح دليلا لهم *

خامسا : ان الارجح في عود الضمير في * توارت * للخيل لا للشمس لذكر الخيل صريحا فسمى الصافنات * الجياد * ولانها الاقرب الى الضمير في الذكر والانصب في عود الضمير ان يكون الى اقرب مذكور - قال السيد الجرجاني في * شرحه على المواقف * : ان الضمير يحتمل ان يعود الى الشمس اذ قد جرى ماله تعلق بها وهو المشى وان يعود الى الصافنات وهو اولى لانها مذكورة صريحا دون الشمس وايضا : هي اقرب في الذكر من لفظ المشى فالمعنى حينئذ : انه امر يرد لها فلما وصلت اليه اخذ يمسحها (٣)

لهذا قاضي آري : ان معنى الآيات - بما تندفع به الشبهة السابقة وما ينزه ساحة سليمان عليه السلام عما لا يليق بمنصب النبوة - على النحو التالي :

ان رباط الخيل كان مندوما في شرعهم كما في شرعها - ثم ان سليمان عليه السلام اعدادنا للقوة في سبيل الله جلس بالمشى على كرسيه - وامر باحضار الخيل وذكر انه لا يحبها لأجل الدنيا وحظ النفس وانما يحبها لامر الله وتقوية دينه وهو المراد من قوله * اني احببت حب الخير عن ذكر ربي * أي آثرت حب الخير ولزمته لان ربي امرني بارتباطها ولم تصدر هذه المحبة الشديدة الا عن امره وما زالت تضرع عليه الخيل وأمر باعدادها وسيرها الى ان غابت عن بصره ثم قال * ردوها علي * أي امر الرافضين ان يردوا الخيل عليه فلما عادت عليه شرع يمسح بسوقها واعناقها تشريفا لها واظهارا لادورها الكبير في دفع العدو اولانه كان اعلم باحوال الخيل وامراضها وعيوبها ففعل ذلك ليصرف السلام منها من المعيب أو : وسم اعناقهن وارجلهن فجعلهن في سبيل الله ومحبوسة على الجهاد لتقوية دينه وما يرجح هذا القول : بالاضافة الى انه الاظهر والمناسب لمنصة الانبياء *

انه مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل جعل يمسح اعناقها وعراقيبها حبالها وهو مروى عن ابن عباس وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية لان نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ان شاء الله ليعذب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالا من ماله بغير سبب سوى انه اشتغل عن صلاته بالنظر اليها ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر اليها (١)

وايضا : مدح الله تعالى سليمان عليه السلام بأنه * نعم العبد * وأنه أوأب * في قوله * ووهبنا * لداود سليمان نعم العبد انه أوأب *

فالخصوص بالمدح محذوف : قيل : سليمان وقيل : داود والاول أولى لأنه اقرب المذكورين ولأنه قال بعده * انه أوأب * وداود سبق وصفه بأوأب في قوله * واذكر عبدنا داود ذا الابد انه أوأب * فلو كان * أوأب * هنا صفة لداود للزم التكرار اما ان يكون صفة لسليمان فلا تكرر ويلزم كون الايمن شبيها بأبيه في صفات الفضل والشرف وهو الانسب ووصف سليمان بأنه أوأب في مدح عظيم له انه رجاء الى الله تعالى بطاعته وذكره

و"اذ" ظرف لثمم أو : أبواب أي هو مستحق للمدح أو أبواب وقت أن عرضت عليه الخيـل
 ما يحمده أن يكون في عرض الخيل ترك للصلاة أو الذكـر إذ كيف يمدح في حال كان فيها
 تاركا للصلاة أو ذكر وعلى القول بأن "اذ" منصوب بالذكر والتقدير : اذكر سليمان اذ عرض
 عليه فهو يدل أيضا على انصاف سليمان عليه السلام باخلاق فاضلة وافعمال محمودة فـى
 قصة عرض الخيل نظير ما سبق في شأن داود عليه السلام في قوله " اصبر على ما يقولون
 واذكر عبدنا داود ٠٠ الآيات "

اذ لا يناسب ان يأمر الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم بذكر سليمان ليقتدى به في حال
 كان فيها مرتكبا المناهي والمسكرات

ولنستمع الى العلامة ابن حزم في رده على هذه الشبهة بقوله

وهذه خرافة موضوعة مكذوبة سخيـفة باردة قد جمعت اثنان من القول والظاهر أنها ممن
 اختراع زنديق بلا شك لان فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها واتلاف مال منتفع به
 بلا معنى ونسبة تضييع الصلاة الى نبي مرسل ثم معاقبة الخيل على ذنبه لا على ذنبها وهذا
 أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين فكيف بنبي مرسل ومعنى هذه الآية ظاهر بين وهـو :
 أنه عليه السلام اخبر انه احب حب الخير من اجل ذكره حتى توارت الشمس بالحجاب
 أو حتى توارت تلك الصافنات الجياد بحجابها ثم امر بردها فطفق مسحها بسوقها واعناقها
 بيده برايتها واكراما لها

هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره وليرف فيها اشارة اعلا الى ما ذكره من قتل الخيل
 وتمطيل الصلاة وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول
 الله صلى الله عليه وسلم (١)

وقبل ان انتقل عن هذه الشبهة أشير الى قول ضعيف هو : ان الهاء في " دروها " للشمس
 والخطاب للملائكة أي قال للملائكة : ردوا على الشمس لا صلى العصر فرددت الشمس له
 قال القرطبي : ذلك من معجزاته وقد اتفق مثله لنبينا فقد خرج الطحاوي عن أسماء بنت عميس
 أن نبينا أوحى اليه ورأسه في حجر على فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال الرسول : اللهم
 انه كان في طاعتك وطاعة رسولك فارد عليه الشمس فطلعت على الجبال والارض - بعد ما غربت
 وذلك بالصباح في خيبر (٢) وهذا القول ضعيف جدا والحديث يبد وأنه من وضع الرافضة
 اشأوهم في حب علي وقد قال الدارقطني : ان في سننه " احمد بن داود وهو متروك الحديث
 كذاب وقال ابن حبان : كان يضع الحديث وقال الامام احمد : لا اصل له (٣)

الشبهة الثانية

وقد عرضت لأصحابها عند فهمهم لقول الله تعالى
 "ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب - قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي
 لاحد من بعدى انك انت الوهاب" (١)

قالوا : أخبر الله تعالى في الآيتين انه فتن سليمان وألقى على كرسيه جسدا وأنه عليه
 السلام أناب الى الله وطلب منه المغفرة وهذا يدل على صدور ذنب منه عليه السلام

الجواب عن الشبهة

في الإجابة عن هذه الشبهة نذكر ما صوره كثير من المفسرين ذنب سليمان عليه السلام
 وسبب وقوع هذا الذنب استنادا الى اقوال كعب الاحبار ووهب بن غنيمه واقوال بعض التابعين
 وتابعيهم - ثم نحكم على ذلك بما يتفق ومسلمات العقل السليم والنقل الصحيح ونذكر الوجه
 الصحيح في فتنة سليمان وأسباب ترجيحها

قال البسملي :

ان الجسد الذي ألقى على كرسى سليمان هو شيطان تمثل بانسان وتسلط على ملك سليمان
 والسبب في ذلك قول سليمان عليه السلام للشيطان : كيف تفتنون الناس ؟

نقل ابن جرير عن مجاهد : انه شيطان واسمه اصف تمثل بانسان وان سليمان قال له : كيف
 تفتنون الناس ؟ قال : أرنى خاتمك اخبرك فلما اعطاه اياه نبذه اصف في البحر فساح سليمان
 وذهب ملكه وقعد اصف على كرسيه ومنحه الله نساء سليمان فلم يقربهن وأنكرته - قال : فكان
 سليمان يستطعم فيقول : أتعرفوني ؟ أطمعوني . انا سليمان . فيكذبونه حتى أعطته

امرأة يوما حوثا يطيب بطنه فوجد خاتمه فنى بطنه فزجع اليه ملكه وفر اصف فدخل البحر فارا (٢)
 وقيل : في سبب فتنة سليمان عليه السلام : أن احدي زوجاته طلبت منه ان يقضى لاختها
 في خصومة بينه وبين آخر فقال لها : نعم ولم يفهم

روى ابن جرير عن السدي : أنه كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة
 وهي آثر نساءه عنده وأمنهن عنده وكان اذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأتها
 عليه أحدا من الناس فهو رها فجاهته يوما من الايام فقالت : ان اخي بينه وبين فلان خصومة
 أحب ان تقضى له اذا جاءك فقال

لهذا : نعم ولم يفعل فأبتلى وأعطاهما خاتمه ودخل لحاجته فخرج الشيطان في صورته
 وأخذ الخاتم وكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما (١)
 وقيل :

ان فتنة سليمان عليه السلام : هي أخذ الشيطان خاتمه من تحت فراشه وتسلطه به على
 ملكه والسبب في ذلك : احتجاج سليمان عن الناس ثلاثة أيام
 قال الألبوس : اخرج عبد بن حميد والحكم الترمذي من طريق علي بن زيد عن سميد
 ابن المسيب : ان سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله تعالى
 اليه : أن يا سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تنصف مظلوما
 من ظالم وكان ملكه في خاتمه وكان اذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاء الشيطان
 فأخذه فأقبل الناس على الشيطان ، فقال سليمان : يا أيها الناس انا سليمان نبي الله
 تعالى فدفعوه فمأج أربعين يوما فأتى أهل سفينة فأعطوه حوتا فشقها فاذا هو بالخاتم
 فيها فتختم به ثم جاء فأخذ بناصيته فقال عند ذلك * رب هب لي ملكا لا ينهني لأحد
 من بعدى * (٢)

وقيل :

ان سبب فتنة سليمان : هو سجود احدى زوجاته وجوارها لتمثال ابنيها في بيته أربعين ليلة
 وهو لا يعلم

نقل القرطبي عن شهر بن حوشب ووهب بن منبه : ان سليمان عليه السلام سبي بنت ملك
 غزاه في البحر في جزيرة من جزائر البحر يقال لها : سيدون فالحقت عليه محبتها وهي تعرض
 عنه لا تنظر اليه الا شزرا ولا تكلمه الا نذرا وكان لا يرقا لها دمع حزنا على ابنيها وكانت فسى
 غاية من الجمال ثم انها سألته أن يصنع لها تمثالا على صورة ابنيها حتى تنظر اليه ، فأمر
 فصنع لها فمظنته وسجدت له وسجدت معها جوارها . وصار عنها محبوبا في داره وهو
 لا يعلم حتى مضت أربعون ليلة وفشا خبره في بني اسرائيل وعلم به سليمان فكسره وحرقه
 ثم ذراه في البحر (٣)

وذكر البعض :

أن سليمان عليه السلام لما افتتن بسجود زوجته للتمثال في بيته سقط الخاتم من يده وتكرر
 سقوطه ولم يثبت ، فأيقن بالفتنة ، فاستغفر ربه وقام أعف في ملكه حتى

تاب الله عليه

نقل ذلك النعماني عن الثعلبي الذي قال : ان سليمان لما افتتن بأخذ التمثال في بيته سقط الخاتم من يده فأخذه سليمان فأطاده الى يده فسقط فلما رآه لا يثبت في اليد ايقن بالفتنة فقال له آصف : انك لمفتون . فتب الى الله واشتغل بالمعبادة وانا اقوم مقامك الى ان يتوب الله عليك فقام آصف في ملكه اربعة عشر يوما وهو الجسد الذي التقى على كرسيه فرد الله اليه ملكه واثبت الخاتم في يده (١)

وقيل :

ان سبب فتنة سليمان هو قتله الخيل ظلما

نقله القرطبي عن كعب الاحبار الذي قال : انه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه .

وما قيل :

في فتنة سليمان عليه السلام ان الشيطان كان يأتي نساءه ومن حينئذ افتنة
ذكر ابن كثير ان ابن ابي حاتم روى بسند قوي الى ابن عباس انه قال : اراد سليمان عليه الصلاة
والسلام ان يدخل الخلاه فأعطى الجراد خاتمه وكانت الجراد امرأته وكانت أحب نساءه اليه
فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فأعطته اياه ، فلما لبسه دانت له
الانس والجن والشياطين فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاه قال لها : هاتي خاتمي
• قالت : قد اعطيته سليمان • قال : انا سليمان • قالت كذبت • ما أنت بسليمان فجمسل
لا يأتي أحدا يقول له : انا سليمان الا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة • فلما رأى
ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله عز وجل

قال : وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما اراد الله تبارك وتعالى ، أن يرد على سليمان
سلطانه التقى في قلوب الناس انكار ذلك الشيطان • قال : فأرسلوا الى نساء سليمان فقالوا
لهن : أتتكرن من سليمان شيئا ؟ قلن : نعم • انه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا
قبل ذلك فلما رأى الشيطان انه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فأمر الشياطين فكتبوا
كتبا فيها سحر وكفر فدفعوها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقروها على الناس ، وقالوا :
بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويخلبهم فأكفر الناس سليمان عليه الصلاة والسلام فظلم
يزالوا يكفرون وحدث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سكة فأخذته • • ثم
حكى اشتغال

سليمان بحمل السمك واخذه سمكة أجره على ذلك فوجد في بطنها الخاتم فلبسه فعاد اليه ملكه . (١)

ومع أن المفسرين قد نقلوا هذه الاقوال الا انهم لم يرتضوها ولذا كروا عليها - بعد نقلها - بالنقد والابطال

وابطال هذه الاقوال يتم على النحو التالي

أولا : أن ماورد فيها لم يذكره الله تعالى فلم يبين سبحانه في كتابه : الفتنة . ماهي ولا الجسد الملقى على كرسى سليمان ما هو :

قال أبو حيان : نقل المفسرون في هذه الفتنة والقاء الجسد اقوالا يجب براءة الأنبياء منها . يوقف عليها في كتبهم وهي مما لا يحل نقلها وهي اما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ولم يبين الله الفتنة ماهي ولا الجسد الذي القاه على كرسى سليمان (٢)

ولم ينقل عن نبينا صلى الله عليه وسلم حديث يبين الفتنة والجسد الملقى على كرسى سليمان على نحو ما جاء في هذه الاقوال فما مستند أصحاب هذه الاقوال اذن فيما قالوه ؟

أغلب الظن ان مستندهم هو : ما نسب الى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره وهو لا يكفى سندا في هذا الموضوع الخبيره فقد ذكر بعض العلماء الاجلاء أن صحة نسبة الخبر الى ابن عباس غير مسلمة وأن دعوى قوة السند اليه غير مسلمة ايضا كما جاء عن ابن عباس نفسه أن ذلك من أخبار كعب الأخبار التي رواها عن كتب اليهود وهي زاخرة بالباطيل قال ابن كثير : والظاهر : أنه انما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما - أن صح عنه - من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان فالظاهر انهم يكذبون عليه وقد رويت هذه القصة من قوله عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسميد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاه من قصص أهل الكتاب (٣)

ويرى الأوس : أن نسبة الخبر الى ابن عباس لا تسلم صحتها وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده اليه وان قال بها من سمعت وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرازق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب ومعلوم أن كعبا يرويه عن كتب اليهود وهي لا يوثق بها (٤)

ثانيا : هذه الاقوال مبنية على أن ملك سليمان يرتبط بخاتمه فصلا دام

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٦
(٢) روح المعاني ج ٢ ص ٣٥٥

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦
(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٣٩٢

معها الخاتم فالملك ثابت مستقر له وان فقد الخاتم سلب منه الملك وليس لهذا سند من العقل
او النقل
فالعقل يستبعد أن يرتبط ملك سليمان بخاتمه كما أنه لم يرد عن الله عز وجل ولا عن نبيه
صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن ملك سليمان مرتبط بخاتمه ولو كان في ذلك الخاتم
المس الذي يقولون لذكره الله عز وجل في كتابه
ثالثا : بيان الآيات شاهد ببطان هذه الاقوال فان الآيات قبل ذكر الفتنة واللقاء
الجسد والآيات بعده تدفع أن تكون الفتنة واللقاء الجسد على نحو ما ورد في هذه الاقوال
والآيات السابقة تحكي : أمر الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على
ما يقوله كفار قريش وغيرهم . وأمره أن يذكر من ابتلى فصبر من اخوانه الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام - كداود - وسليمان - وإيوب نيا مريم . ولا يتأتى التأمر بهم إلا وقد صدرت
عنهم الاعمال الفاضلة لا الاعمال المشيئة
والآيات اللاحقة تدل على أن تسخير الريح والشياطين لسليمان عليه السلام إنما كان
بعد الفتنة واللقاء الجسد

رابعا : يترتب على صحة ما في هذه الاقوال وقوع المنوع عقلا وشرعا
ذلك أنه يترتب على صحتها أن يمثل الشيطان بصورة النبي وهو ممنوع عقلا وشرعا حيث
يؤدى الى باطل وهو عدم الوثوق بالشرائع وقد قامت الادلة الصحيحة على صحة الشرائع
والوثوق بها - وما يؤدى الى الباطل ممنوع
والشيطان لا يتصور بصورة النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا المنامية روى البخارى
بسند من أن عمر رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من رأى في المنام
فقد رأى . فان الشيطان لا يتخيل به (١)
وإذا كان الشيطان ممنوعا من هذا في الرؤيا المنامية ، فهالأولى هو ممنوع من التمثل بالنبي
في حال اليقظة - وما ثبت لنبي يثبت لشيره إذ لا فرق
ويترتب على صحة ما في هذه الاقوال أيضا تمكن الشيطان من أن يتصور بصورة ^{حقيقية} يتوَقَّع
بها بنفسه الضرب بالنبي - وهذا ممنوع - يدل لذلك الحديث الذي رواه البخارى بسند .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان غريتنا من الجن تفلت على البارحة
لبقطع على علاتي ، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من
سوارى المسجد حتى تنظر بالليله كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان * رب اغفر لى وهب
لى ملكا لا ينفى لأحد من بمدى فردته خاسئا * (١)

وفى رواية الامام مسلم عن أبي الدرداء * أن ابليس جاء بشباب من نار ليجمعه فى وجه الرسول
فلم يمكنه الله من ذلك

وفى رواية الامام احمد عن أبي سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم أهوى بيده
على ابليس فما زال يخنقه حتى وجد برد لعابه بين اصبعيه - الابهام والتى تليها ولولا
دعوة سليمان عليه السلام لربطه باحدى سوارى المسجد حتى يتلاعب به صبيان المدينة (٢)
فاذا كان الشيطان لم يتمكن من الحاق ضرر شئنا صلى الله عليه وسلم ، بل أمكن الله
نبينا منه فانه لا يجوز قبول ما ألحقه الشيطان من ضرر بسليمان عليه السلام

كذلك يترتب على صحة ما فى بعض هذه الأقوال : تسلط الشياطين على نساء الأنبياء بالفجور
بهن وهذا لا يجوز مطلقا بل فى غاية التبجح واذا كما لم نسمع أن شيطانا تمكن من الفجور
بامرأة من عامة النساء فكيف يتمكن من الفجور بامرأة نبي واهذا القول اذن الا من اختلاق
الزنادقة

قال أبو حيان : ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكره ، كمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس
أمره عند الناس ويحتقدون أن ذلك المتصور هو النبي ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بأرسال
نبي وانما هذه مقالة مستترقة من زنادقة السوفسطائية * نساء الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها (٣)
ونقل الزمخشري عن العلماء المثقنين عدم قبول مثل هذا وقولهم بأن هذا من أباطيل
اليهود وان الشياطين لا تتمكن من مثل

فقال : بعد أن ذكر ما قيل فى أمر الخاتم والشياطين - ولقد أبى العلماء المثقنون قبوله
وقالوا : هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الافاعيل وتسلط
الله اياهم على عباده حتى يقموا فى تضيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن
قبيح (٤)

ونقل الفخر الرازى عن أهل التحقيق استبعاد ما فى هذه الاقوال من عدة وجوه

(٣) البحر المحيط ج ٧ ص ٣٩٧
٧٣

(٥) الكشاف ج ٤ ص ٧٣

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٦٣
٣٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧

الاول : أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شئ من الشرائع فلعل هؤلاء الذين رأوهم الناس في صورة محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الاغواء والاضلال ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكليسة

الثاني : أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع الملوك والزهاد وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يعزق تضانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك في حق آحاد الملوك فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى

الثالث : كيف يليق بحكمة الله واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ولا شك أنه قبيح الرابع : لو قلنا : أن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه والانبياء معصومون من الكفر بالدلة القطعية - وأن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه (١)

وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع فقد كان الجن يخفون لسليمان عليه السلام التماثيل " يحملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل " أما السجود للصورة فلا يأذن فيه نبي الله لأنه كفر وإذا كان بخير طمعه فلا ذنب عليه

ومعد أن انتهينا من عرض الاقوال الباطلة فلنعمد الى الاقوال التي ذكرها المحققون - على تفاوت نيبا بينها قوة وضعفا لكنها كلها متفقة على عصمة سليمان عن المصيبة

الاول :

أن سليمان عليه السلام ترك الاستثناء عندما قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله - ولم يقل ان شاء الله

ومستند هذا القول ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه : ان شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل شيئا الا واحدا ساقطاً أحد شقيه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله (٢)

وروى " ستمين " وروى أيضا " تسعين " وقال ابن حجر : أنه الأسح

" لأطوفن " هو كناية عن الجماع

"تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله" هذا قاله علي سبيل التمني للخير وانما جزم به
 لأنه غلب عليه الرجاء لكونه قصد به الخير وأمر الآخرة لا لغرض الدنيا
 "فقال له صاحبه ان شاء الله" قال التتوي قيل المراد بصاحبه الملك وهو الظاهر من لفظه
 وقيل : القرين ، وقيل : صاحب له آدمي
 "فلم يقل" بين في الرواية الأخرى بقوله "فمنسى" فقد روى مسلم بسنده عن أبي
 هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال سليمان بن داود نبي الله : لأطوفن الليلة على
 سبعين امرأة كلهن تأتي بسلام يقاتل في سبيل الله "فقال له صاحبه أو الملك : قل ان شاء الله
 فلم يقل . ونسى . فلم تأت واحدة من نساءه الا واحدة جاءت بشق غلام فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : ولو قال ان شاء الله لم يحدث . وكان دركا له في حاجته (١)
 وصنى قوله "فلم يقل" أي بلسانه لا أنه أبى أن يفوض إلى الله بل كان ذلك ثابتا في قلبه
 لكنه اكتفى بذلك أولا ونسى أن يجربه على لسانه لما قيل له لشيء عرض له (٢) والنسيان ممفوس
 عنه

فهذا الحديث بين المراد بالفتنة في الآية وانها : ترك الاستثناء نسيانا واستخفاره بنفسه
 وقوله "رب اغفر لي" لأنه ترك الأولى والانبيا يستخفرون من ترك الأولى نظرا لسوء مقامهم
 والجسد على هذا : هو الشق الذي ولد له والقائه على كرسيه هو وضع القابلة له عليه ليهراه
 الثاني :

أن سليمان عليه السلام لم يتوكل على الله في أمره الذي غذاه في السحابة هبوطا عليه من
 مضرة الشياطين فالتقى على كرسيه ميتا
 وقد حكاه الزمخشري في قوله : كان من فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين : أن
 عاشر لم تنفك من السخرة فسهلنا أن نقتله أو نخبله . فملم ذلك فكان يخذوه في السحابة
 فما راعه الا أن التقى على كرسيه ميتا فتنبه على خطائه في أنه لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه
 واناب (٣)
 الثالث :

أن فتنة سليمان عليه السلام هي مرضه الذي صار به على كرسيه من الضعف كأنه جسد بلا روح ثم
 رجع إلى صحته
 وقد حكى هذا القول الألبوس عن قوم فقال : وقال قوم : مرض سليمان عليه السلام مرضا كالانصاء
 حتى صار على كرسيه كأنه جسد بلا روح وقد شاع قولهم في الضميف : لحم على وضم وجسد
 بلا روح

فالجسد الملقى على الكرسي : هو عليه السلام نفسه ، وروى ذلك عن ابي مسلم وقال في قوله تسلياً
 " ثم اناب " رجع الى الصحة وجعل جسداً " حالاً من مفعول القينا المحذوف كأنه قيل " ولقد فتنا "
 سليمان " اي ابتليناه وامرضناه والقيناه على كرسية ضميماً كأنه جسد بلا روح ثم رجع الى صحتسه "
 وهذا القول ظاهر الضعف لامور :

احدها : انه لو كان المراد مرض سليمان لذكر المفعول ، اذ ذكره يحدد المعنى ولجاءت اية " ولقد
 فتنا سليمان والقيناه على كرسية جسداً "
 ثانياً : - قوله " ثم اناب " فانه يدفعه لان الانسب في لغة الانابة هقيب ذكر فتفتان يكون معناه :
 الرجوع الى الله تعالى .

ثالثها : - قول سليمان عليه السلام بعد ذلك " رب اغفر لي " دال على ان الذي صدر ممنه قهراً
 ترك الافضل وليس المرض من هذا القبيل .

ومن الموقل في الضعف القول الثاني وذلك من وجوه ايضا

الاول : - يبيح ان يبلغ الخوف بنهي الله سليمان عليه السلام من مضرة الشياطين لابنه الى حد ان يامر
 بالسحاب بحفنه وتخذيته ، وهزل الشياطين يمجزها بلوغ السحاب والوصول الى من فيه لو فرض .
 كما انه من الصعب ان تصور مولوداً يمكنه ان يعيش في السحاب وتخذي فيه .

الثاني : - انه لا يستند الى حديث صحيح مرفوع الى نبينا صلى الله عليه وسلم حتى يقبل ويلمان اليه
 واذا كان الالوسي قد نقل : انه روى عن الشعب ، وعن ابي هريرة ايضا الا ان هذا لا يكتفي فسي
 الاعتماد عليه تفسيراً للاية في موضوع تخيير كهذا ، وبالاضافة الى ما فيه من مجازاة المقل .

الثالث : - ان تخيير الريح انما كان بعد فتنة سليمان عليه السلام كما هو سياق الايات فكيف يصح القول
 : بان سليمان امر الريح ان تحفنه ابنة وتخذيته وتنفذ الريح امره قبل ان يسخرها الله له تجرى بها امره
 حيث اراد .

ومن هذا يتبين رجحان القول الاول وان فتنة سليمان هي فترك الاستثناء وكان نسياناً وان الجسد
 الذي القى على كرسية : هو شق الولد الذي وضعت القابلة له عليه ليراه ورجحانه لامرين .

الاول : ان هذا القول يستند الى حديث صحيح مرفوع الى نبينا صلى الله عليه وسلم واضح التفكير
ماكان بالحديث الصحيح المرفوع .

الثاني :- ان مايلحق سليمان عليه السلام عليه هو ترك الاولى ، وهو لايقدم في عصمة الانبياء وعلى
ان ترك الاستثناء كان نسيانا - كما راينا في رواية مسلم - فلا شيء فيه اصلا لانه لايقدم في عصمة
الانبياء عليهم الصلاة والسلام صدور الصغيرة غير الخمسة عنهم سهوا وقد وقع مثل هذا من نبينا
صلى الله عليه وسلم فيما ذكره محمد بن اسحاق في سبب نزول سورة الكهف حين ماله قريش عيين
فتية ذهبوا في الدهر الاول ومن رجل لماوف بلغ مشارق الارض وفارها وعن الريح فقال لهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم " اخبركم غذا عما مالتن عنه " ولم يستثن فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة
لا يحدث الله له في ذلك وحيث جاءه جهيريل عليهما السلام بسورة الكهف " ١ " .
وفيها نهى الله عن ترك الاستثناء في قوله " ولا تتولن لشيء انى فاعل ذلك غذا الا ان يشاء
الله واذكر ربك اذا نسيت "

وقيل " : ان معنى " واذكر ربك اذا نسيت " اذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكره له مما يفيد ان
النسيان يقع . ويقع في الاستثناء ، وعلاجه شرعا تداركه عند ذكره ، فلولا انه يقع لما بين الله علاجه .

الشبهة الثالثة

وهي متوهة من ظاهر قول الله تعالى :

" قال رب اغفرلى وهبلى ملكا لاينبئى لاحد من بعدى " ٢ "

والشبهة من شقين : ا .

الاول :- وقد اخذ من ظاهر قوله " وهبلى ملكا " : هو كيف اقدم سليمان عليه السلام على طلب
الدنيا مع ذمها من الله تعالى وحقارتها عنده .

الثاني :- وقد اخذ من ظاهر قوله " ملكا لاينبئى لاحد من بعدى " وهو : ان فيه الحمد والحرص
على الاستئثار بالنعمة وهذا ذم .

الجواب عن الشبهة

يجاب عن الشق الاول بانه عليه السلام طلب ملك الدنيا ليقيم فيه بحقوق الله تعالى وحقوق الصباد
ويجاهد نفسه ، ويحترز عن لذات الدنيا مع القدرة عليها ليحتم اجره وتعلم منزلة عند ربه وعلم الاجر
وعلو المنزلة بمقدار مجاهدة الانسان نفسه واعترازه عن شهواتها .

مع القدر رتبها وليعلم الناس ايضا ان زخا وفالدنيا لا تمنع من القيام بحقوق الله وحقوق المباد
فيكون قدوة لملوك الدنيا .

قال القرطبي : ان ذلك محمول عند العلماء على اداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكة وترتيب منازل
خلقه واقامة حدوده والحفاظة على رسومه وتمظيم شمشيره وظهور عبادته ولزوم طاعته ونظم قانسون
الحكم النافذ عليهم منه وتحقيق الوعود في انه يحملها لا يفلم احد من خلقه حسب ما صرح بذلك
لملائكته فقال : اني اعلم ما لا تعلمون .

وحوش سليمان عليه السلام ان يكون سؤاله طلبا لتفعل الدنيا لانه هو والانبيا ازهد خلق الله فيها
وانما سأل ملكها لله كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله فكانا محمودين مجابهن الى ذلك فاجيب
نوح فاهلك من عليها واعطى سليمان الملكة (١)

ويجوز ان يكون طلبه عليه السلام ملك الدنيا بأمر من الله عز وجل على الصفة التي علم الله انسه
يضبطه عليها ويجاب عن الشق الثاني : بأن سؤال سليمان عليه السلام جاء بهذه الصفة ليكون
معجزة له تدل على نبوته لاحدا اذ كان قيل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين فلما دعا بذلك
سخرت له وتسخيرها من خوارق الماديات فكان معجزة له وهو من الملك الذي لم يخطئه غيره .
ويرى البعض ان سليمان عليه السلام طلب هذا معجزة له لانه نشأ في بيت الملك والنبوة فطلب على
حسب القدر ملكا يفوق المالك ويبلغ حد الاعجاز ويكون دليلا على نبوته فذلك معنى قوله لا ينهني
لاحد من بعدى (٢) وهو للزمخشري .

ويرى آخرون : انه طلب ذلك معجزة لانه كان زمن الجبارين وتفاخرهم بالملك ومعجزة كل نبي
من جنسهما اشتهر في عصره فلما اشتهر السحر في عهد موسى عليه السلام جاءهم بما يتلقف ما
اتوا به ولما اشتهر الطب في عهد عيسى عليه السلام جاءهم يا براه الاكبه والابرس واحياء الموتى
ولما اشتهر في عهد نبينا صلى الله عليه وسلم الفصاحة اتاهم بكلام لم يقدروا على اقصر فصل من
فصوله ومن هؤلاء الالوسي ويجوز ان يكون قد اراد سليمان عليه السلام بسؤاله ملكا عظيما فقال
لا ينهني لاحد من بعدى * ولم يقصد بذلك الا اعظم الملك وسمته كما تقول لفلان ماليس لاحد من
الفضل والمال وربما كان للناس امثال ذلك ولكك تهيد تمظيم ما عنده .

(١) الجامع لاحكام القرآن ج ٦٢ ص ٥٦٤٨
(٢) الكشاف ج ٤ ص ٧٤

(٢) روح المعاني ج ٧ ص ٣٥٦

ويجوز ان يكون مراد سليمان عليه السلام ان تكون له من ربه مزية خالصة يختص بها كاختصاص غيره
من الرسل بخواص من الله كالخلقة لابراهيم والتكليم لموسى ونحوها قائم قيامه بأمر الملك الذي طلبه
على وجه العدالة والاستقامة يكون خاصة له لم تتحقق لغيره *
وقد ذكر هذا القول صاحب "الشفاء" واستدل عليه شارحه "الشهاب الخفاجي" بحديث
غريبت الجن الذي اراد ان يقطع على الرسول ليلانه ونصه *
كما رواه البخاري بسنده عن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان
غريتا من الجن ثقلت البارحة ليقطع على صلاتي فامكنتني الله عنه فاخذته قارده تان اربطه على
سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فتذكرون دعوة اخي سليمان * ربه لى ملكا
لا ينبغى لاحد من بعدى فتردته خاسئا * (٢)

فهذا يدل على انه خاصة له خصه الله تعالى بها وهذا لا يخفى افضلية نبينا على سليمان عليهما
السلام لانه قد يكون في المفضول ما يحرى في الفاضل وقدم عليه للسلام طلب المغفرة على طلب الملك
جرما على عادة الانبياء * في تقدّمهم امر دينهم على امور دنياهم *

ولان الاستغفار يفتح ابواب الخيرات ان قلما ينفك الانسان عن ترك الاولى فاذا زال عنه شوم ذلك
بالاستغفار انفتح عليه ابواب الخير والى هذا نبه نوح عليه السلام قومه قائلا ما حكاه عن القرآن
الكريم " فقلت استغفروا ربكم انه كان عقارا يرسل السماء عليكم مددرا وهم مددكم باموال وبنين وجعل
لكم جنات وجعل لكم انهارا ولما بالغ سليمان عليه السلام في صفة هذا الملك الذي طلبه اتى في
صفته تعالى باللفظ الدال على المبالغة فقال انك انت الوهاب اى الكثير الهبات ولا تتماظم عنده
هبة وقد حقق الله تعالى لسليمان عليه السلام ما طلبه في قوله
" فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب - والشياطين كل بناء وفواسق واخرين مقرنين
في الاصفاد - هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وان له عندنا لولقى وحسن ما ب" (٣)

الفصل التاسع

يونس عليه السلام وما ظمن به في حقه

ارسل يونس عليه الصلاة والسلام الى اهل نينوى من ارض الموصل وكانوا يعبدون الاصنام فاخذ يدعوهم الى الايمان بالله وحده وترك ما هم عليه فأخبرهم ان العذاب سيحيثهم بعد ثلاث ان لم يؤمنوا فقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فان اقام معكم وبين لظهوركم فلا عليكم وان ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فاصبحوا فلم يجدوه فتابوا الى الله ودعوه وفرقوا بين الامهات والاولاد من الناس والبهائم ورد في السطالم في تلك الحالة فتوة قوم يونس كانت لهم حين لم يجدوا يونس عليها السلام بينهم وقبل ان ينزل بهم العذاب وانما رأوا مقدمته وعلامته ولو رأوا عين العذاب ما تنفصم الايمان كما لم ينفخ فرعون ان يكسانه حين ادركه الفرق ويكون معنى قوله تعالى " الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي " لم تنزل بهم العذاب الذي انذرهم به نبيهم ان ينزل بهم لانهم رأوه عيانا وهذا فرق قوم يونس غيرهم من سائر الامم بانهم آمنوا قبل ان ينزل بهم العذاب فتنفصم ذلك فلم ينزل بهم وغيرهم من الاقوام ما آمنوا الا بعد مماينة العذاب فلم ينفصم ذلك وأما يونس عليه السلام فقد ترك قومه وذهب عنهم غاضبا عليهم لطول بقائهم على الكفر وركب سفينة وجرى له ما اخبرت عنه هذه الآيات

" وان يونس لمن المرسلين اذ ابقى الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالنقمة الحسوت وهو ملهم "

" ابقى " هـ ر ب

قال الزمخشري : وسى هويه من قومه بغير اذن ربه ابا قالا على طريقة المجاز

وقال المبرد : اصل ابقى تباعد ومنه غلام ابقى

" الفلك " السفينة واحد وجوه يذکر ووثق والمشحون المملوء

والمعنى : ان يونس عليه السلام ترك قومه متباعدا عنهم وركب سفينة متلثة بمن فيها من الراكبين واطحمت من الامتعة فلججت بهم فخافوا الفرق فاقترعوا ركبوا السفينة على قذف بعضهم في البحر تخفيفا على الفلك فوقمت القرعة فيها وقامت على يونس عليه السلام

ساهم فكان من المدحضين "

" ساهم " هـ ر ب قال المبرد واصله من السهام التي تجال والمدحضين المقلوبين واصله من الزلق كما قال الفراء اي ان يونس عليه السلام كان من المدحضين المنزلقين الى البحر وكان في انتشاره الحسوت الذي ابتلمه جزاء له على فعله ما يلام عليه وهو تركه قومه مغاضبا لهم من غير ان

ان ياذن الله له في ذلك وهو ما يدل عليه قوله * فالتقمة الحوت وهو عليم *
 أي ابتلعه الحوت وقد أتى بما يلام عليه ومع ذلك ألهم الله الحوت أن لا يكسر له عظاما ولا يهشم له
 لحما ولم يطل مكث يونس عليه السلام في بطن الحوت وإنما كانت مدة قصيرة وقصر مدة المكث في بطن
 الحوت وعدم اللبث فيها إلى يوم القيامة يرجع إلى عطف الصالح الذي كان يعمل في الرخاء
 قال تعالى * فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون *
 والتسبيح هنا الذكر وقيل الصلاة وقيل الدعاء

قال الزمخشري : في تفسير الآية : فلولا أنه كان من المسبحين * من الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح
 والتقديس وقيل : من المصلين وعن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة
 وقيل هو قوله في بطن الحوت * لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين * (١)
 ولا أخير أرجح لتصريح الآية بعدها باستجابة الله دعائه وإنجائه من الخنم عقوب ذلك بالدعاء
 * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين *

ثم قال تعالى * فنبتناه بالمرء * وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين *
 * فنبتناه * القيناء وقيل طرحناه

* بالمرء * المكان الخالي كما قال البهره وقال ابن عباس : هي الأرض التي ليس فيها نبات ولا بنا *
 * وهو سقيم * ضعيف البسطن
 وقال في هذه السورة * فنبتناه بالمرء * وقال في سورة * ق * لولا أن تداركه نعمه من ماله لنبت
 بالمرء وهو مذموم * وإيضاح ذلك * أن الله عز وجل أخبرنا أنه نبت بالمرء وهو غير مذموم
 ولولا رحمة الله عز وجل لنبت بالمرء وهو مذموم كما بينته سورة * ن * والقلم *
 * وانبتنا عليه شجرة من يقطين *

* اليقطين * شجر الدباء (وهو القرع) وقيل غيرها

والمعنى : وانبتنا عنده كقوله تعالى * ولهم على ذنب * أي عندى وقيل : عليه بمعنى له - شجرة
 من يقطين يستظل بورقها وتتخذى بشرها

* وارسلناه إلى مائة الف أو يزيدون فأأنوا فنمناهم إلى حين * (٢)

قال ابن عباس : إن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبت الحوت وقد يكون مستند هذا القول
 ١ - أن هذه الآية جاءت بعد الآيات التي حكى قصة يونس والقائه الحوت ثم طرحه بالمرء

٢ - الترتيب الذي جاء عليه الآيات في سورة "ن والقلم" تفاسير لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت
اذ نادى وهو مكظوم لولا ان تداركه نعمة من ربه لتبذ بالصرار وهو مذموم فاجتباها ربه فجعله من
الصالحين " (١) على ان الاجتياها للنسوة

ولكن ارجح من هذا الرأي القائل : ان يؤمن عليه السلام قد ارسل قبل ان يلتقمه الحوت لما أتى :
١ - الآيات من سورة الصافات نصت على انه كان من المرسلين حين ابوا الى السفينة
" وان يؤمن لمن المرسلين - ان ابوا الى الفلك المشحون "

٢ - قوله تعالى في سورة " الانبياء " وذا النون اذ ذهب مغاضبا ٠٠ " الاتيان يدل ايضا على ان
المغاضبة لقومه كانت قبل ان يلتقمه الحوت ونادى بما نادى به ومغاضبته لقومه كانت لا عرضهم عن
اتباعه وعبادة رسوله

واما قوله في سورة الصافات وارسلناه الى مائة الف او يزيدون بعد ذكر الآيات التي حكى قصته وانتقام
الحوت له وطرحه بالصرار فالمراد به بيان ان قومه الذين ارسل اليهم كانوا كثيرين اما الارسال
في هذه الاية فهو عينه الارسال الذي ذكر قبل وان قيل : بأنه ارسال ثان اليهم فالامر لا يحسدوا
ان يكون يؤمن عليه السلام قبل ان يلتقمه الحوت كان رسولا

واما الآيات من سورة القلم فان الاجتياها فيها بمعنى : ان الله تاب عليه من زلته وحقاه من هفوته
فجعله من المستكملين لصفات الصلاح ولم يبق له زلعة (٢)

وقال ابن كثير : ولا مانع ان يكون الذين ارسل اليهم اولا امر بالعودة اليهم بعد خروجه من الحوت
فصد قوه كلهم وآمنوا به

" او يزيدون " اي ارسلناه الى جماعة لورايتهم لقلتم : هم مائة الف واكثر وانما خوطب العباد على
ما يعرفون فالشك بحسب تقدير المخلوقين
" فآمنوا فتمنناهم الى حين "

أي آمن هؤلاء القوم الذين ارسل اليهم يؤمن عليه السلام جميعهم فتمنناهم الى انتها آجالهم
أو : ان يصيروا الى الجنة او النار

الشبهة القائلة بصدور المصيبة من يؤمن

تمسك القائلون بوقوع الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بطواهر الآيات السابقة وقوله تعالى
وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه ٠٠ الاية بأن يؤمن عليه السلام قد عصي
به وذلك من وجوه :

الأول : ان يؤمن عليه السلام قد غاضب ربه كما قال * اذ ذهب مناغيبا * ومغاضبة الله من اعظم الذنوب
وعلى تقدير : ان المغاضبة كانت مع المقوم ففي ذلك محذور ايضا لان الله تعالى قال * فاصبر لحكم ربك
ولا تكن كصاحب الحوت * وهو يقتضى ان ذلك القمل من يؤمن كان محظورا
الثانى : ان يؤمن عليه السلام قد شك في قدرة الله تعالى عليه كما قال * فمن ان لنقدر عليه وذلك
من اعظم الذنوب

الثالث : انه اعترف بوقوع الظلم منه في قوله كما حكاها الله عنه * اى كسفن الظالمين * والظلم ذنب
كبير والنظام ملعون * الائمة الله على الظالمين *

الرابع : ان الله طاقه بالقائه في بطن الحوت والمعقوبة انما تكون على الذنب
الخامس : انه اتى ما يلام عليه بدفعه تعالى * فالتقى الحوت وهو لم * ولا معنى لذلك الا صدور
الذنب منه

السادس : ان الله تعالى نهى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن التشبه بيؤمن في قوله * ولا تكن
كصاحب الحوت * ولا معنى للنهى عن التشبه به الا انما تشبه ذنبا

الجواب عن الشبهة

يجاب عن هذا الوجه بما يأتى :

عن الاول : ان المغاضبة انما كانت لقومه ومعهم فهم قد اغضبه عليه السلام باصرارهم على الكفر وهو قد اغضبهم
اغضبهم بمقاومته لهم لخطيئتهم حلول المذاب عليهم هدها ومن ليبت مسمية

١ - اما لان الغضب لم يكن منهيا عنه فظن انه جائز حيث لم يكن الا لله ومن اجل دينه

قال الزمخشري : ان يؤمن برب بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكرها واقاموا على كفرهم فراغهم وظن

ان ذلك يسوغ حيث لم يفعله الا غضبا لله وانفة له بئنة ومغضا للكفر وأهله (١)

وعلى هذا يكون من باب الخطأ في الاجتهاد وهو لا يقدر في عصمة الانبياء عليهم الصلوات والسلام

٢ - واما لان خروج يؤمن عليه السلام مغاضبا لقومه من باب مخالفة الاولى اذ كان الاولى له ان يصاهر

و ينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا امر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم

ان يصبر على اذى قومه وشهاده ان يتمجل في الغضب عليهم قائلا له * فاصبر لحكم ربك ولا تكن

كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم * ابا صبر على اذى قومك لقضاء ربك بما هم وتأخير تصرفك

عليهم ولا تكن كيؤمن في الضجر والمجلة والغضب على القوم

فان المطلوب من الانبياء هو الصبر على اذى اقوامهم وعدم المهاجرة عنهم الا بعد ان يأذن الله تعالى لهم في ذلك و اراد الله تعالى بهذا الامر والتبني لتبنيهم محمد صلى الله عليه وسلم افضل المنازل واعلاها .

وحكى ابن جرير الطبري : ان مفاضة يونس عليه السلام كانت لربه اذ كشف عنهم العذاب بعد ما وعدهموه ورجعه وانتصر له فقال :

اختلف اهل التأويل معنى ذهابه مفاضا وعن كان ذهابه وهى من كان غصبه

فقال بعضهم : كان ذهابه عن قومه وياهم غاضب ورواه عن ابن عباس

وقال آخرون : ذهب عن قومه مفاضا لربه : اذ كشف عنهم العذاب بعد ما وعدهموه ورواه عن

ابن عباس كما رواه عن سلمة وفيه : فخرج يونس ينظر المذاب فلم ير شيئا قال : جربوا على كذبا

فذهب مفاضا لربه حتى آتى البحر

ثم يقول ابن جرير : وهذا القول اعنى قول من قال : ذهب عن قومه مفاضا لربه اشبه بتأويل الاية

وذلك لدلالة قوله " فظن ان لن نقدر عليه " على ذلك

على ان الذين وجهوا تأويل ذلك الى انه ذهب مفاضا لقومه انما زعموا انهم فعلوا ذلك استكارا

منهم ان يفاضة نبي من الانبياء ربه واستمظا ما له وهم بقيلهم : انه قد ذهب مفاضا لقومه قد دخل

دخلوا فن امر اعظم ما انكروا وذلك ان الذين قالوا : ذهب مفاضا لربه اختلفوا في سبب ذهابه

كذلك

فقال بعضهم : انما فعل ما فعل من ذلك كراهة ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم

واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى دفع به عنهم البلاء

وقال بعض من قال هذا القول : كان من اخلاق قومه الذين قارقهم قتل من جربوا عليه الكذب

عسى ان يقتلوه من اجل انه وعدهم للمذاب فلم ينزل بهم ما وعدهم من ذلك

وقال آخرون : بل انما غاضب ربه من اجل انه امر بالمصير الى قوم لينذهم باسهم ويدعونهم اليه

فسأل ربه ان ينظره فلم ينظره فذهب مفاضا

ثم يقول ابن جرير مرجحا هذين القولين ونضيفا القول الاول الذى يذهب الى ان المفاضة كانت

من قومه : وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبي الله يونس يمشى الا وهو دون ما وصفه

بما وصفه الذين قالوا : ذهب مفاضا لقومه لان ذهابه عن قومه مفاضا لهم وقد امره الله تعالى

بالمقام بين اظهروهم ليلفسهم رسالته ويخذهم باسهم وعقوبتهم

على تركهم الايمان به والنمل بطاعته لا شك ان فيه ما فيه ولو لا انه قد كان على الله عليه وسلم
 اتي ما قاله الذين وصفوه باتيان الخطيئة لم يكن الله تعالى ذكره ليما فيه المقومه التي ذكرها
 في كتابه ووصفه بالصفة التي وصفه بها فيقول لئيبه على الله عليه وسلم " ولا تكن كصاحب الحوت اذ
 نادى وعموكظوم " ويقول " فالتقمة الحوت وهو لم يم " فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه
 الى يوم يمشون " (١)

فها عواين جرير يرى : أن يونس عليه السلام قد اتى الخطيئة بدليل العقوبة التي عوقب بها والوصف
 الذي وصف به في القرآن الكريم وهذه الخطيئة تكون اشنع واشد على القول بأنه غاضب قومه وتكون اخف
 وايسر على القول بأنه غاضب به ولهذا فهو يختار ان مفاضلة يونس عليه السلام كانت له
 ولكن ارجح ان المفاضلة كانت للقوم ويوجه على واحد من التوجيهين السابقين لأنه لا يليق بمن
 ان يفاضل به فما بالك ينهى اختاره الله ورفع درجاته
 والجواب الثاني :

انه ليس معنى " فظن ان لن نقدر عليه " فظن انه يحجز به فلا يقدر عليه لان هذا وصف ليونس
 عليه السلام بأنه جهل قدرة الله تعالى وهذا كفر ولا يجوز ان ينسب يونس الى الكفر وقد اختاره
 الله لرسالته وانما المعنى : فظن ان لن نعاقبه بالتضييق عليه من قلوبهم : قدرت على فلان اذا
 ضيقت عليه كما قال تعالى : " ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف نفسه الا يساها
 سيجعل الله بعد عسر يسرا " وكما قال سبحانه ايضا " واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ومن
 اعانني " ان ضيق عليه رزقه

وقد اختار هذا المعنى ابن جرير ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : ظن يونس ان لن يأخذه
 المذاب الذي اصابه (٢)

وقريب من هذا ما قيل : ان المعنى : فظن ان لن نقض عليه المقومة " فتفسر القدرة بالقضاء
 قاله ابن عباس في رواية عنه (٣)

والتضييق الذي اصاب يونس والمشقة الشديدة التي قدرها الله عليه هي حصوله عليه السلام نسي
 بطن الحوت : روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : انه دخل يوما على معاوية بن ابي سفيان رضي
 الله عنهما فقال معاوية : لقد ضمنت اموال القرآن البارحة ففرقت فيها فلم اجد لنفسي خلاصا الا بك

قال : وما معنى يا معاوية ؟ فقرا الآية وقال : او ظن نبى الله ان لا يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس
هذا من القدر لا من القدرة (١)

وهناك قول آخر لابن زيد : ان معنى الآية على الاستفهام والتقدير : افظن ان لن تقدر عليه
ويضعفه : انه ليس فى الآية دليل على ان المراد الاستفهام

قال ابن جرير : واما ما قاله ابن زيد فانه لسؤال لو كان فى الكلام دليل على انه استفهام حسن ولكنه
لا دلالة فيه على ان ذلك كذلك والمرب لا تحذف من الكلام شيئا لهم اليه حاجة الا وقد ابقت دليلا
على انه مراد فى الكلام وليس فى الآية دلالة على ان المراد الاستفهام (٢)

وحيث قد ظهر بطلان القول : ان المعنى : ظن عجز الله تعالى وضع القول بالاستفهام فانه يبقى
اعتماد القول : بان المعنى فظن ان لن يضيق الله عليه : بمقابلة

وعن الثالث : ان الظلم الذى نعبه يؤمر عليه السلام الى نفسه لا يصح اخذه على ظاهره وانما
هو بمعنى اللغو الذى هو : وضع الشئ فى غير موضعه مطلقا فيشمل الذنب وغيره ويونس جمل
الخرىج عن قومه بدل الصبر عليهم وتحمل اذا عم فكان المناسب منه البقاء بين ظهرانيهم متحملا عنهم
واذا عم حتى يأذن الله له فى المهاجرة عنهم الا انه تعجل الخرىج والذهاب عنهم ضيقا وتجربا تبينتهم
واصرارهم على الكفر فهو اذن قد وضع الخرىج عن قومه موضع البقاء بينهم

ويجيب عن الرابع

بأنه على التسليم بان الظلم فى البحر والتقام الحوت له كان عقوبة على خروجه عن قومه بخير اذن
فان هذه العقوبة لم تكن على معصية كبيرة او صغيرة وانما كانت على ترك الافضل وهو البقاء مع قومه
فقد ظن يؤمر عليه السلام انه يجوز له ان يخرج عن قومه فضياله وانفقه لدينه ولكن لم يكن ظنه هذا
صحيا ولم يكن خروجه مائسا وانما كان البقاء معهم هو الاولى والانصاف

وللجواب عن الخامس : بان العلامة كانت بسبب ترك الاولى او الختلا فى الاجتهاد
وعن السادس : بان يؤمر عليه السلام لم يكن مذتبا ومنه نبينا عند الله عليه وسلم عن التثبته بسببه
فى ترك مداومة وملازمة قومه والصبر عليهم الذى هو خلاف الاولى كما امر بهذا ابطلت شبهة القائلين
بوقوع الذنب من يؤمر عليه السلام وثبتت عصمته

الفصل المباشر

شبهات حول خاتم الأنبياء

ان من يريد عادقا مخلصا ان يفهم آيات القرآن الكريم فانه يسلك السبل المؤدية اليه ويستحسب الوسائل المعينه عليه وفي محددة وميسورة لمن يريد ها .

وليس من بينها الآثار غير الصحيحة فانها تضل الانسان عن الفهم الصحيح بدل ان تقويه اليه وما يوسف له ان يمضأ من المؤمنين بل من المفسرين للقرآن الكريم يتمسك بهذه الآثار غير الصحيحة ويحكمها في تفسير كلام رب العالمين الى حد يجعل تفسيرهم مجافيا للعقل والمنطق السليم - ولا يشفع لهؤلاء حسن النية وسلامة المقصد فقد تترتب عليهما من النتائج الضارة والثمار المرة ما يترتب على التصدي للكلام في القرآن بصوه نبيسة

بل قد تكون نتيجة الاول اشد ضررا واضطرابا من الثاني ذلك ان كلام رجال الاسلام عن الاسلام والقرآن تسبقه الثقة فيهم والاطمئنان اليهم فيؤخذ كلامهم بأخذ القبول والتسليم به اما كلام اعداء الاسلام عن الاسلام ونبيه وقرآنه فيحبه الشك فيهم والتوجس منهم فيوضع كلامهم على بساط المناقشة والتأمل الذي يميز خبيثة من طيبسة

ثم ان طعنون المستشرقين على الاسلام وسهامهم التي توجه اليه من نواحي مختلفة قد يكون منطلقها مثل هذه الآثار غير الصحيحة في تفسير القرآن الكريم واسهل طرق الهجوم على شي ما كان له دعامة من داخله وكثيرا ما تلقف اعداء الاسلام خيوطا من هذه الآثار غير الصحيحة ونسجوا منها ثيابا اليسوعيا الاسلام وظهروه من خلالها

ولقد توجهت اهتمامات المستشرقين جلاضافة الى الطعن في القرآن دعامة الاسلام الاولي ومجزته الكبرى الى القدح في نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدق بذلك تفويض الدين الاسلامي مسن اساسه ونم في هذا السبيل يركزون جهود اكبرى حول الآيات المتعلقة بنبينا صلى الله عليه وسلم لكي يصيبوا الهدف من ناحيتين بطمعة واحدة ويصيدوا عصفورين بحجر واحد ومن ذلك " فرية الفرانقي " وغيرها

وستتصدى لها باذن الله وترفيقه بما يبين وجه الحق ويخزي الباطل ويهزقه وما يجعل سهامهم تطير في الهواء او ترصد اليهم فتصيبهم انفسهم ولا تصيب غيرهم وهي نفسها واهلها جنت براقش

(فريضة اعتداج الضرائيق)

أولا :

تشبهت بعض المستشرقين بما ذكره بعض المفسرين وكتاب السيرة من قصة الضرائيق وهذا تحمل طمعا في القرآن بأن الشيطان القى فيه ما ليس منه وطمعا في الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مسدح الاغنام بكلام اجراء الشيطان على لسانه واوهم انه من القرآن وفي هذا ما يرفع الثقة بالرسول في كل ما يلفه عن ربه بل وفيما بلغته الرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله

وقد ذكروا هذا عند تفسير رسول الله تعالى

(وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امته فيتنسج الله ما يلقىسى

الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليهم حكيم * (١)

ذاهبين الى ان * حاشا للضرائيق * هو سب نزول الآية وقصروا الآية على مقتضاه من ان الشيطان القى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ صورة * النجم * عندما بلغ في قراءته * اقرايم اللات والمزى - وثناة الثالثة الاخرى * هاتين الجملتين

تلك الضرائيق الملقى - وان شفاعتهن لترجى فتكلم بهما ففزع المشركون لمدح النبي آلهتهم واعتسم الرسول لما قال له جبريل بعد ذلك - ما جئتكم بهما فسلوا الله من غم هذه الآية ومن ذكر هذا المفسر ابن جرير الطبري الذي رواه عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناي من اندية قريش كثير اهلك فتمنى يوشك ان لا ياتيه من الله شيء فيثفروا عنه فانزل الله عليه * والنجم اذا هوى - ماضل ساحبكم وما غوى * فقرأوا الرسول على الله عليه وسلم حتى اذا بلغ * اقرايم اللات والمزى وثناة الثالثة الاخرى * القى عليه الشيطان كلمتين تلك الضرائيق الملقى وان شفاعتهن لترجى فتكلم بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها فمسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعا معه ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته فمسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود ففرضوا بهما تكلم به وقالوا : قد عرفنا ان الله يحيى ويميت وهو الذي يخلق ويرزق ولكن الهتنا هذه تشفع لنا عنده اذ جعلت لها نصيبا فنحن معك قالا : فلما امسى آتاه جبريل عليهما السلام فمصرعهما السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين القى الشيطان عليه قال : ما جئتكم بهاتين فقال رسول الله

على الله عليه وسلم : افتريت على الله وظلت على الله ما لم يقل فأوحى الله اليه * وإن لآله ولقنتوك
عن الذي أو حينا اليك لتفتري علينا غيره * الى قوله * ثم لا تجد لك علينا نصيراً * فما زال مقموماً
مهموماً حتى نزلت اليه * وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فسى
انتهه فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * قال فسمع من كان من المهاجرين
بأرض الحبشة ان اهل مكة قد اسلموا كلهم فرجعوا الى مشائركم وقالوا : هم احب اليها فوجسوا
القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما لقي الشيطان (١)

وروى ابن ابي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة * النجم *
فلما بلغ هذا الموضع * اقرايم اللات والعزى وثناة الثالثة الاخرى * قال : قال الشيطان على لسان
تلك الضرائيق العلى - وان شفاعتهم ترتجى * قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا
فانزل الله عز وجل هذه الآية وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي * الآية (٢)

ورواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن ابي بصير بن خالد عن شعبة عن ابي بصير عن سعيد بن
جبير عن ابن عباس فيما احسب الشك في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة * النجم *
حتى انتهى الى * اقرايم اللات والعزى * وذكر بقية (٣)
ومعنى الآية عند هؤلاء * كما ذكر ابن جرير

لم يرسل يا محمد من قبلك من رسول الى امة من الامم ولا نبي محدث ليس يرسل الا اذا تمنى والتمنى :
اما حديث النفس فيكون تمنى النبي صلى الله عليه وسلم هو ما حدثته نفسه عن محبته مقاربة قومه في نكر
آلهتهم ببعض ما يحبون وهي بعد الاحوال محبته ان لا تذكر آلهتهم بمسوا

واما ان التمنى : بمعنى القراءة والتلاوة فيكون التمنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا
اذا تلا كتاب الله وقرأ او حدث وتكلم القى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه او في حديثه الذي
حدث وتكلم فيذهب الله ما يلقى الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويطلبه ثم يحكم الله آياته بأن
يخلص آياته كتابه من الباطل الذي القى الشيطان على لسان نبيه (٤)

وما سبق يتبين ان القائلين بوقوع حادث الضرائيق : يستندون الى :
الانصار الذين نقلوها

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩
(٤) جامع البيان ج ١٧ ص ١٣٣ - ١٣٤

(١) جامع البيان ج ١٧ ص ١٣١
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩

- ٢ - قوله تعالى " وان كادوا ليفتنوك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا " وقوله " وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . . الاية " .
- ٣ - انه السبب في عود مهاجري الحبشة بعد ان تراس اليهم خبير الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش على اثر ذكر آلهتهم بخير

الرد على فريسة امتداح الفرانبيق

انما قال للحقيقة نذكر وثوبك ان نبينا صلى الله عليه وسلم لم يذكر آلهة المشركين بخير ولم يمدح الفرانبيق وان حاد بالفرانبيق على النحو السابق مطعون فيه من جهات ثلاث

الاولى : جهة السند والمتن : الثانية : جهة معارضته للقرآن : الثالثة : جهة معارضته للعقل اما من جهة السند

فرواياته مرسله : رواية ابن جرير ورواية ابن ابي حاتم مرسله ايضا

قال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرجوا احد من اهل الصحة ولا رواه ثقة بسند متصل وانما اولع به ومثله المفسرون المورخون (١)

واما رواية البزار المتصلة فلم تدخل من الضعف الذي يتمثل في الآتي

١ - تفرد امية بن خالد بنقل الحديث مستندا عن شمعة عن ابي بشر عن سميد بن جبير عن ابن عباس بن زهير امية بن خالد يرويه مرسل عن سميد بن جبير عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير ذكر ابن عباس

٢ - وقوع الشك في حديث شمعة فسميد بن جبير وان كان مستندا لكما تردد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة في هذه القضية او بخيرها

٣ - رواية الكلبي لهذا الحديث عن ابي صالح عن ابن عباس مضممة ايضا : بان الكلبي غير ثقة وان ابا صالح له يسمي من ابن عباس ففيها انقطاع (٢)

١ - فقد حكى صاحب " الشفا " ان المرفوع فيه حديث شمعة عن ابي بشر عن سميد بن جبير عن ابن عباس فيها احسب الشك في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة

وقال ابو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره الا هذا ولم يستند به عن شمعة الا امية بن خالد وغيره يرسله عن سميد بن جبير وانما يعرف عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس (٣)

وقال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين قصة الفرانتيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة التي
ارض الحبشة ظنا منهم ان مشركي قريش قد اسلموا ولكنها من طرق كلها مرسله ولم ارها مستندة
من وجه صحيح (١)

وقال الفخر الرازي : روى عن محمد بن اسحاق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال : هذا من
وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا

وقال الامام ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم اخذ يتكلم
في ان رواية هذه القصة مطعون فيهم (٢)

فها نحن وجدنا حديث الفرانتيق روى مرسلًا وروى مقطعا وروايته متصلا فيها الضعف السابق والمرسل
قد اختلف في الاحتجاج به

فذهب بمسالم الحديثين الى عدم الاحتجاج به لان الراوي المحدث قد يكون غير ثقة والمبررة في
الرواية بالثقة فان الامام مسلم : ان المرسل في اصل قولنا وقول هذا العلم بالاخبار ليس بحجة
وقال ابن الصلاح : وان ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه : هو الذي استقصر
عليه آراء جماعة حفاظ الحديث وثقاد الاثر وقد اولوه في تعانيفهم

وذهب آخرون الى الاحتجاج بالمرسل : ذكر ابن الصلاح ان الاحتجاج بالمرسل مذهب المالكية
وابن خنيفة واصحابهما (٣)

ولست مع الذين يرفضون الاحتجاج بالمرسل كلية ولا مع الذين يحتجوا به بكل انواعه فانه ينتهز
التفرقة بين مراسيل التابعين ومراسيل الصحابة

وحتى مراسيل التابعين استحسن التفصيل الذي ذكره الامام الشافعي في الاحتجاج بها في قوله :
ان مراسيل كبار التابعين حجة ان جاءتهم من وجه آخر ولو مرسله او اعتضدت بقول صحابي
او اكثر العلماء او كان المرسل لوسى لا يمسى الا ثقة فحينئذ يكون مرسله حجة ولا ينتهز الى رتبة
المتصل

واما مراسيل غير كبار التابعين فلا اعلم احدا قبلها (٤)

ومراسيل الصحابة مقبولة وحتج بها لان اكثر رواياتهم عن الصحابة وكلهم عدول فجهالتهم لا تضر
ورواياتهم عن غيرهم نادرة واذا رووها بينهم وفي الصحيحين من مراسيل الصحابة الكثير وحدث
الفرانتيق ليس مرسل صحابي حتى يحتج به

(٣) اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٤٨
(٤) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث
٤٩

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩
(٢) غنائج الذهب ج ٦ ص ١٩٤

والمنقطع كذلك من أقسام الضعيف فلا يحتج به
 إذ هو : ما لم يشمل أسناده بأى وجه كان فيشمل المرسل والمفضل والمعلق لان عدم الاتصال صادق
 بما اذا كان الساقط واحدا او اثنين او اكثر وسواء كان السقط في اول السند او في وسطه او في آخره
 الا ان الغالب استعمال المنقطع فيما دون التابعى عن الصحابى بأن يرويه واحد من اتباع التابعين
 فمن يمدهم عن الصحابى كمالك عن ابن عمر وقيل : هو : ما سقط منه راو واحد غير الصحابى . فملى
 هذا يكون مقابلا للمرسل والمفضل ورواية حديث الفرائق من طريق الكلبى عن ابي صالح عن ابن
 عباس فيها انقطاع لان ابا صالح لم يسمع من ابن عباس

موقف ابن حجر من حديث الفرائق

اعتمد ابن حجر حديث الفرائق مع اعترافه بضعفه وحجته في هذا كثرة طرقه وان الضعيف يقوى اذا كثرت
 طرقه فقال :

وكلها سوى طريق سميد بن جبير اما ضعيف ^{واما} منقطع لكن كثرة الطرق تدل على ان اللقمة اصلا مع ان
 لها طريقين آخرين مرسلين : رجالهما على شرط الصحيحين : احدهما ما أخرجه الطبري من طريق
 يونس بن يزيد عن ابن شهاب . حدثني ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه
 والثاني ما أخرجه ايضا من طريق المعتمر بن سليمان وحطاه بن سلمة فرقها عن داود بن ابي هند
 عن ابي العالية الى ان يقول : وهي مراسيل يحتج بثلاثها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به
 لاعتقاد بعضها ببعض (٢)

مناقشة ابن حجر

يمكن مناقشة الامام ابن حجر في قوله هذا على النحو التالي :
 أولا : ان طريق سميد بن جبير وهو المتصله - مطمون فيها بالشك كما سبق
 ثانيا : كل طريق هذا الحديث ما عدا طريق سميد بن جبير اما ضعيف واما منقطع باعترافه والضعيف
 والمنقطع لا يحتج بأيهما
 ثالثا : لا توافق ابن حجر على ان كثرة الطرق تدل على ان اللقمة اصلا فقد توضع قصة وتروى بتسرق
 متعددة فكثرة الطرق لا تكفي وحدها للاعتداد بما جاء به

رابعاً : ان حديث الفرائيق ليس مرسل صحابي حتى يحتاج به وانما مرسل تابعه وفي الاحتجاج به خلاف كما سبق .

خامساً : اغفال البخارى ومسلم واصحابنا من ذكر حديث الفرائيق يدل على عدم صحته اذ لو كان صحيحا لا خرجوه او بعضهم فقد ذكرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه عندما قرأ سورة النجم روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس .

وروى ايضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : اول سورة انزلت فيها سجدة * والنجم * قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه الا رجلا رأيت اخذ كفا من تراب المسجد عليه فرأيت بعد ذلك قتل كافرا وهو امية بن خلف (١)

ومعلوم : ان عصاة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الكذب في التبليغ والتقول على الله مالم يقل فسجد ثبت بالادلة القاطعة : المعجزة والاجماع فاي دليل اخر يماقضها لا يقبل فما بالك عندما يكون هذا الدليل الآخر حديثا مرسل انه احرى ان لا يقبل

الطعن في حديث الفرائيق من جهة المتن :

بالاضافة الى الطعن السابقة في سند الحديث وجهت طعون الى متنه باختلاف كلماته

حكى القاضى عياض عن القاضى بكر بن الصلاء قوله بضمف ثقته واضطراب رواياته وانقطاع استاده واختلاف كلماته فقال يقول الله في الصلاة وآخر يقول : قالها في نادى قومه حين انزلت عليه السورة وآخر يقول قالها وقد اعابته سنة وآخر يقول : بل حدث نفسه نفسها وآخر يقول : ان الشيطان قالها على لسانه وان النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا اقرأتك وآخر يقول : بل اعلمهم الشيطان ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأها فلما بلغ النبي ذلك قال : والله ما هكذا نزلت الي غير ذلك من اختلاف الرواة (٢)

وجاءت كلمات الحديث في بعض الروايات : تلك الفرائيق الملقى ... وان شفاعتهن لترجى

وهي بعد آخر : تترضى وهي رواية : لترجى وهي بعد عن الطرق زيادة : مثلهن لا ينسى : وهي بعضها نقصا ذكر : ان شفاعتهن لترجى دون ذكر الفرائيق او الفرائيق

فهذا الاختلاف بين الروايات يجمعها الحديث مضطربا

فالحديث المضطرب هو : الذي اختلف الرواة فيه سواء كان الاختلاف في السند او

في المتن أو في كليهما وقع الاختلاف بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص وابدال أو مكان آخر
والتصحيح في السند أو المتن
والاضطراب موجب لضعف الحديث لا شمار به بعدم ضبط الراوي ومن شروط الصحة أن يكون الراوي
ضابطاً

وحكم الحديث بالاضطراب : ترك العمل به أن لم يترجح إحدى الراويين المختلفتين على الأخرى
يكون رايها أحفظ من راي الرواية المخالفة لها أو أكثر صحة للمرور عنه ، وإذا ترجحت
أحدهما بشئ من ذلك فالحكم للراجح فيحصل به ويترك المرجوح وحينئذ يخرج عن كونه مضطرباً (١)
وهذا الحديث إذا قارناه كما جاء في رواية الطبري وأمثلة بها جاءت به رواية البخاري وغيره من
أصحاب الكتب الصحيحة فإننا نجد بينهما فرقا كبيرا : رواية الطبري وأمثلة ثبتت حادث الفرانيق
ورواية البخاري لم يشر إليه ورواية الثقة مردودة أن خالفت رواية من هو أوثق وهذا يكون حديث
الفرانيق شاذاً بل من القسم المردود

فإن الحديث الشاذ فسان : الأول مقبول : وهو الذي لا يخالف رواية من هو أحفظ وأضبط منه بأن
يروى حديثاً يتفرد به ولا يرويه غيره ويعدل ضابط فهذا صحيح مقبول ويدخل في أفراد الثقات
الثاني : ما خالف رويته من هو أحفظ وأضبط منه وهذا هو المردود والمردود من قسم الضعيف
الذي لا يحتج به ويلحق به الفرد الذي ليس في رواية ما يكون جابراً لما يوجب التفرد والشذوذ
من التكرار والضعف (٢)

وهذا التسليم بأن رواية الطبري ثقات فرواية البخاري أوثق منهم فيكون الحديث شاذاً لا يحتج به
بالإضافة إلى أنه مضطرب كما سبق
وهذا طمأن في حديث الفرانيق سنداً ومتناً

(معارضة حادث الفرانيق للقرآن)

في القرآن الكريم آيات متعددة تنفي ما ادعى من حادث الفرانيق وتأتي عليه من القواعد
أولها : قوله تعالى * وأن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا
لا تأخذوا خليلاً * ولو لا أن تهتاك لقد كنت تركمن اليهم شيئاً قليلاً . . . إذا لانفكك ضعف الحياة
وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً *
فالآيات تنفي أن الرسول لم يقرب من الميل اليهم ، لتثبيت الله إياه ولو أنه فعل لاذقه الله ضعف الحياة
وضعف الممات لكن الله لم يذقه هذا العذاب فهو أدن لم يقرب من الميل اليهم لتثبيت الله له فهذه
الآيات لا يحتدل بها لاثبات حادث الفرانيق بل لا يظاله يقول القرطبي : وما يدل على ضعفه
حديث الفرانيق . . . أيضاً

وتوسعة من كتاب قوله تعالى * وان كادوا ليفتنوك * الآية فانهما تردان الخبر الذي روي
لان الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنوه حتى يفتري وانه لولا ان ثبت لكاد يركن اليهم فمضمون
هذا وفهمه ان الله تعالى عصه عن ان يفتري وشبهه حتى لم يركن اليهم قليلا فكيف كثيرا وهم يرون
في اخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه قال عليه الصلاة والسلام
افتريت على الله وقتت مالم يقل * وهذا ضد مفهوم الآية وهي تضيف الحديث لو عني فكيف ولا صحة
له (١)

ثانيها : قوله تعالى * ولو تقول علينا بعض الاقاويل لا خذنا منه بالبين ثم لقطعنا منه الوتين *
فالآيات تغيد ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لو افتري على الله مالا يصح نسبه اليه لاهلكه
وعذبه وما يستطيع احد من الناس ان يدفعه هذا وحيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يهلكه الله
بلم يحدبه فهو ان لم يقل على الله مالم يقفه الله
قال ابن كثير : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كما يزعمون مفتريا فزاد في الرسالة او قصر منها
او قال شيئا منجده فنسبه اليه ولو لم يكن ذلك لما جلتاه بالمقومة وما يقدر احد منكم على ان يحجز بيننا
ويجته اذا اردنا به شيئا من ذلك والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد لان الله عز وجل مقرر له
ما يلفه عنه ويهد له بالمعجزات الباعرات والدلالات القاطعات (٢)

ثالثها : قول الله تعالى * والنجم اذا هوى - ما ضل صاحبكم وما غوى - وما ينطق عن الهوى - ان
هو الا وحى يوحى فقد اقسم الحق سبحانه بالنجم على ان نبينا صلى الله عليه وسلم راشد تابع للحق
ليس مضال ولا غاوى وانه ما يقول قولا عن هوى وفرض اما يقول ما امر بتبليغه الى الناس كاملا مؤفورا - من
غير زيادة ولا نقصان وعلى هذا فالزيادة التي جاءت في قصة القرآنيق باطله لا اصل لها لانها
عن هوى لا عن وحى والله قد اقسم بان ما ينطق به رسوله عن وحى لا عن هوى
رابعا : قول الله تعالى في وصف القرآن الكريم * لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد * فعلى الباطل هو الشيطان فقد ثبت ان الشيطان لا يستطيع ان يغير فسي
القرآن الكريم شيئا والتالي : لا يستطيع ان يلقى في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ان الباطل
الذي من امامه هو النقصان والذي من خلفه هو الزيادة فيكون القرآن الكريم محفوظا من النقصان
فيه والزيادة عليه وقصة القرآنيق فيها زيادة في القرآن ما ليس منه فهي اذن باطله
قال علي بن محمد المعروف بالخازن : قيل : الباطل : هو الشيطان فلا يستطيع ان يغيره
وقيل : انه محفوظ

من ان ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه او يزداد فيأتيه الباطل من خلفه فعلى هذا يكون معنى الهاطل الزيادة والنقصان (١)

خامسها : قول الله تعالى * انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون * (٢)

نزلت هذا الآية على اثر استهزاء المشركين بنبينا على الله عليه وسلم في قولهم الذي حكاه القرآن عنهم * يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون *

ولهذا رد الله عليهم بقوله * انا نحن * مؤكدا انه هو المنزل على وجه الحقيقة وانه هو الذي نزله

مخفوطا من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتعريف والتبديل وحادثه

الضرائق فيه زيادة فهو باطل لان القرآن محفوظ من الزيادة

قال الخازن : الضمير في * له * يرجع الى الذكر يعني : وانا للذكر الذي انزلناه على محمد لحافظون

يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتعريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه

الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق من الجن والانعام ان يزيد فيه او ينقص منه حزنا واحسدا

او كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها

التعريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقي موقفا على

الابد محروسا من الزيادة والنقصان (٣)

سادسها : قول الله تعالى * واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن

غير هذا او بدله قل ما يكون لي ان ابديه من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي انى اخاف ان

حسبت ربى عذاب يوم عظيم * (٤)

والمعنى : واذا تتلى على اعدائنا آياتنا الطاهرة في دلالتها على وحدانيتنا ووحدة نبوة محمد

على الله عليه وسلم قال الذين لا يؤمنون بالبعث ائت بقرآن ليس فيه ذم آلهمنا او بدل منه

ما نكره وائت بخيره من عند نفسك

فامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم ليس لي ان اغيره من قول نفسي لانه ليس من عهدي

وانما هو من عند الله فالتصرف فيه الى صاحبه وهو الله لا الى * ان اتبع الا ما يوحى الي * اى

ما اتبع في شئ * ما افعل واترك الا ما يوحى الي في القرآن من غير تغيير له في شئ * (٥)

ولو ان الشيطان القبل على لسان النبي ما ذكر في حديث الضرائق لكان على الله عليه وسلم

غير متبع ما يوحى الله اليه ولكن متبعا ما يوحى الشيطان والنبي صلى الله عليه وسلم متبع ما وحاها

الله وحده اليه

(١) لهاب التأويل في معاني التنزيل ج ٤ ص ٩٢ (٢) تفسير الخازن ج ٣ ص ٩٤

(٣) سورة الحجر الآية ٩ (٤) سورة يونس الآية ١٥

(٥) مراح لبيد لمحمد النووي والهجيز في تفسير القرآن

المعز للواحد ج ١ ص ١٤٤

وأما معارضة هذه القصة للمقل فمن وجوه

الأول : أنه لا يخلو من أن يتكلم بها النبي **صلى الله عليه وسلم** عبدا أو جبرا أو سهوا وكل ذلك مستنع فالرسول **صلى الله عليه وسلم** لم يتكلم بها
 وبما أن ذلك أنه لا يجوز أن يتكلم بها عبدا لأنه كفر ولا نبيا عليهم الصلاة والسلام معصومون عن
 الكفر بالأدلة الظاهرة وكذلك عن الكذب في التبليغ ولا يجوز أن يتكلم بها جبرا بحيث يجزيها
 الشيطان على لسانه من غير أن يفد على الامتناع منه لأن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله
 الخالصين * أن عبادي ليس ملك عليهم سلطان * فكيف يكون له سلطان على النبي **صلى الله عليه وسلم**
 ولا يجوز أن يتكلم بها سهوا لأن الأنبياء معصومون من الكذب في جميع الأحوال وسهوا
 إذ لو جاز عليهم لادى إلى قدم الوثوق في كل ما يبلغونه وذلك يبطل الشرائع (١)
 الثاني : سياق سورة النجم لا يحتمل مسألة الفرانيق فإنه يجري بقوله تعالى * أفرايت اللات
 والمزى وثناة الثالثة الأخرى - الكم الذكرو له والاثني - تلك إذا قصة ضيزى - أن هسي
 إلا اسماء - سيموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتمون إلا الظن وما تهوى
 الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * فهذا السياق صريح في أن اللات والمزى وثناة اسماء
 سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان وهذا ذم لها وهل يستقيم
 ذمها في آيات متوالية مدحها في خلال تلك الآيات بالملو ورجاء شفاعتها ؟ أن سياق
 هذا شأنه سياق متناقض مضطرب لا يسلم به العقل ولم يصهد مثله النسي القرآن الكريم إطلاقا
 الثالث : ما عرف عن النبي **صلى الله عليه وسلم** طيلة حياته من الصدق يدفع ما تحمله قصة
 الفرانيق من الكذب على الله والتقول عليه ما لم يقله : قال الأستاذ محمد حسين هيكل : بقيت
 حجة قاطعة تدل على استحالة قصة الفرانيق * هي حياة محمد نفسه فهي منذ طفولته وسباه
 وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط حتى سعى الامم فهل يصدق انما ان يقول على ربه ما لم
 يقل (بما كان ليذر الكذب على الناس وكذب على الله - انه الذي قال * والله لو وضعت
 الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك
 دونه * فهل وهو الصلب في الحق الذي لا يداجي فيه يحقل ان يقول على الله ما لم يوح اليه
 ويقوله ليتقويه أسما من الدين

وعو التوحيد الذي بعثه الله به هدى وهشوى للمؤمنين (١)

فالرسول على الله عليه وسلم قد هدده كاهنكة وتوعده بأشد العقوبة على عيب دينهم ونام آلهتهم فلم يأبه بوعيدهم وتهديدتهم بولغا نفسه على تحمل هذا الامر والمضى قدما فى ذم آلهتهم والدعوة الى عبادة الله وحده مهما جر عليه ذلك من متاعب والآم نهمل يحقل ان يتراجع عن هذا وهولب دعوته وصميم رسالته ؟

ثم انما لذى كان اذا عرب بالاعنام اعرض عنها ولم يقبل بوجهة اليها مع ان قومه وعدوه بالايان لوا قبل بوجهة اليها قال القشيري : ولقد طالبتة قريش وثقيف اذا عرب آلهتهم ان يقبل بوجهة اليها ووعده بالايان به ان فعل ذلك فما فعل ولا كان ليفعل (٢)

الرابع : وقد نقله الاستاذ محمد حسين شيكل عن الشيخ محمد عبده حين كتب يفتد قصة الفرائيق بأن وصف العرب لآلهتهم بانها الفرائيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خلدتهم ولا كان جارها على المنتهم وانما ورد الفريوق والفريوق على انه اسم لطائر مائى اسود او ابيض والشاب الابيض الجميل ولا شى من ذلك يلائم معنى الآيية او وصف الآلهة عند العرب فالقصة اذن لا اساس لها (٣)

الخامس : ان قصة الفرائيق لم تستغل سلاحا للتشهير ضد الرسول على الله عليه وسلم فهى اذن لم تقع لان اعداء الاسلام من المشركين واليهود والنافقين كانوا احرصوا لنا على الظلم فى الرسول على الله عليه وسلم لا قل مغمز فلو ان مسألة الفرائيق كانت حقيقة واقعة لادوا بها للمسندين عياجا وضجيجا على الرسول على الله عليه وسلم كما حدث فى مسألة تحويل القبلة الى الكعبة ولكن لم يحدث هذا فهى اذن لم تقع

السادس : منع الشيطان من اصل الالقا اولى من تمكنه منه ثم نسخه قال الفخر الرازى : ان احكام الآيات بازالة ما يلقه الشيطان عن الرسول اقوى من نسخه بهذه الآيات التى تسمى الشبهة معها فاذا اراد الله احكام الآيات لثلاث يلهن ما ليس قرآنا ر يقرآن فبان منع الشيطان من ذلك اصلا اولى (٤)

ومن هذا يتبين ان قصة الفرائيق موضوعة اذ كيف تصح عهد ممارسة للقرآن ولادلة العقليية فان الحد يث اذا عارض القرآن او الدليل الملقى حكر عليه بالوضع

بقى : الرد على ما روجبه به المستشرقين كالسير ولهم موهب ودلوا به على سحة وقوعها وفساد عودتها مما جرى الحيف بان عودتهم كانت لسببين : اولهما : اسلام عمر بن الخطاب وحيته التى جملة يملن اسلامه ويناضل قريشا حتى على والمؤمنين عند الكعبة عند ثا اهدت قريش ان ايداءها لمحمد

بأحسانه

٤٤٧٧

(٣) تفسير القرطبي ج ٤٩ ص ١٩٤

(٤) مفتاح الغيب ج ٦ ص ١٩٤

١٦٧

(١) حياة محمد ص ١٦٧

١٦٧

(٢) حياة محمد ص ١٦٧

تد لا يكون في عالجها ولا يبلغها ما ربهما ففقتا ايذاهما للمسلمين وثما تبهت عن وسيلة في محاربة
محمد بتحقيق ربهما ولا يكون فيها ضرر عليها وتخفيف الايذاء هو ما علمه مهاجرو الحبشة ودعاهم السن
المودة الرا مكنه

السبب الثاني : ان الحبشة شهدت بها وقتل ثورة على التجاشي يقال ان عطفة على المسلمين احسد
دواعيها ما حدا بالمسلمين الى التفكير في ترك موطن الفتنة وللحاق باهل بيته في وقت هدا فيه تيسار
ايذاء المسلمين في مكة (١)

وعلى هذا فتأييد حد يظن ان يبق بحاد معودة مهاجرو الحبشة في غير موضعه
وان في ما معنى الآية

ان معنى الآية يتوقف على تحديد معنى كلمة "التمنى"
وقد جاءت في اللغة لامرين : احدا كما قاله الفراء ^{مورث النفس} والثاني : القراءة قال تعالى " ومنهم اميون لا يعلمون
الكتاب الا امانى " اي الا قراءة لان الامى لا يعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان
ابن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما اتمنى كتاب الله اول ليلة - وآخرها لاق حمام المقادر
فعلى ان التمنى هو حد يظن النفس والملق شيطان الجن

يكون معنى الآية : وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ايمان قومه وهدايتهم القى
الشيطان الى اوليا يسهه شيئا فيمنى الله تعالى تلك الشبه وحكم الآيات الدالة على ذلك (٢)
ويجوز ان يراد من الشيطان شيطان الانس كالضربين الحارث فقد كان يلقي الشبهة الى قومه والى
الوافدين يثبطهم بها عن الاسلام

قال ابو حيان : فذكر الله تعالى مسلاة لتببه باخبار من مضى من الرسل والانبياء وهو انهم كانوا حريصين
على ايمان قومهم تخمين لذلك مثابرين عليه وانه ما منهم احد الا وكان الشيطان يراغبه بترتيب الكفر
لقومه ويثذ لك اليه والقاه في نفوسهم

كما انه سلك الله عليه وسلم كان من احرص الناس على هدى قومه وكان فيهم شيئا يثبطون الحارث
يلقون لقومه وللوافدين عليه شيئا يثبطون بها عن الاسلام ولذلك جاء قبل هذه الآية " والذيين
سموا في آياتنا عما جزين " وسميهم بالقاه الشبه في قلوب من استمالوه ونسب ذلك الى الشيطان
لانه هو المقوى والمحرك شيططين الانس للانفسوا - كما قال لاغونهم

ومعنى " فيمنى الله ما يلقى الشيطان " يزيل تلك الشبه شيئا فشيئا حتى يعلم الناس كما قال " ورأيت
الناس يدخلون في دين الله افواجا " ثم يحكم الله آياته " معجزاته يظهرها محكمة لا ليعرفها

" ليحمل ما يلقي الشيطان " من تلك الشبه وخارج القول " فتنة " لمرض القلب والاسهه ولعلم من
 اوتي العلم ان ما تعنى الرسول والنبي من هداية قومه وامانتهم هو الحق
 وهذا الآيسة ليس فيها استناد شديد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انها تضمنت حالة من كان قبله
 من الرسل والانبيا اذ اتبعوا (١)

وذكر القرطبي معنى آخر للآيسة طرانا التمنى هو حد يثبته النفس قال : والمعنى عليه ان النبي صلى
 الله عليه وسلم كان اذا حدث نفسه القى الشيطان في حديثه فيقول : لو سألت الله عز وجل ان يفتنيك
 ليتسع المسلمون وعلما الله عز وجل ان الصلاح في غير ذلك فيبطل ما يلقي الشيطان
 ونقل عن الحسن بن عبيدي قوله : كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا صيفرت يدها من المال ورأى ما
 يا عبايه من سوء الحال تمنى الدنيا بقلبه وهذا وسوسة الشيطان
 ثم نقل ترجمته النحاس لهذا المعنى فقال : قال النحاس : وهذا من احسن ما قيل في الآمة واعلاه
 وأجله (٢)

وعلى هذا المعنى للتمنى فلا علاقة للآيسة بقصة الفيرانيسقي
 وعلى ان التمنى بمعنى القراءة فقد فسرت الآية بعدة مسان
 احدها : وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا قرأ شيئا من الكتاب القى الشيطان الشبه فيها
 بقروءه على اوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاءهم كما قال تعالى " وان الشياطين ليهوحنون
 الواو لياتهم ليجادلوكم " وقال سبحانه " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى
 بعضهم الى بعض زخرف القول عزورا " وهذا كقولهم عند سماع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم
 " انكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم " ان عيسى عبد من دون الله وكذلك الملائكة عبادا من
 دونه فان كان هؤلاء في النار فتحت ترضى ان تكون معهم
 " فينسخ الله ما يلقي الشيطان " ان يبطل ما يلقيه من تلك الشبه وهذا يدب به بتوفيق النبي صلى الله
 عليه وسلم لرده او بانزال ما يرد ثم يأتي الله بآياته محكمة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه (٣) واختار
 هذا المعنى الالوس .

ثانيها : ما ذكره جيعت المفسرين كالخضر الرازي والتلمني والقرطبي والالوس وحكاه ابن حجر الذي
 قال : وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن فارتدده الشيطان في سكتة من السكتات
 وتطرق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه فظننها من قوله واشاعها . قال : وهذا
 احسن الوجوه

وأستحسنه أيضا ابن العربي الذي قال : هذه الآية تعرض غرضها دليل على صحة مدعىها أصل
 في براءة النبي صلى الله عليه وسلم ما نسب إليه انه قال : * الى ان يقول *
 فهذا تعرضي ان الشيطان زاد فقال الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم لا ان النبي قاله وذلك ان
 النبي كان اذا قرأ تلاقرا مقطعا وسكتا في مقاطع الآف سكوتا محصلا وكذلك كان حديثه
 مترسلا فيه متأثرا فتتبع الشيطان تلك السكته التي بين قوله * ومائة الثالثة الاخرى * وبين قوله
 لكم الذكر وله الاثنى * فقال يحاكي صوت النبي صلى الله عليه وسلم
 ويسبب الفرائقة العلى - وان شفاعتهن لترتجى (١)

وحسنه كذلك القرطبي فقال : بعد ان ذكره وهذا التأويل احسن باقيل في هذا كما ان التعنى
 له يبرز غيره واستأمر له بأن الشيطان كان يتكلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ويسمع
 كلامه فقد نادى يوم لحدس : الا ان محمدا قد قتل وقال يوم بدر : لا غالب لكم اليوم من الناس
 وان جار لكم *

ومر الآية عليه بقوله * فينسخ اللعنا لقي الشيطان * يذهب به ويطلبه ويخبر انه من الشيطان
 * ثم يحكم الله آياته * يثبتها وحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان * واللطميم * بما اوحى
 الى نبيه ومقصد الشيطان * حكمهم * لا يدعه حتى يكشفه ويزيله

ثالثها : ان المتكلم بهذا الكفرة فانه عليها السلام لما انتهت في قراءة هذه السورة الى هذا الموضع
 وذكر اسماء آلهتهم وقد علموا من آياته انه يعيها قال بعضهم : تلك الفرائيق العلى فاشتبه
 الامر على القوم لكثرة عياهم ولفظهم على عادتهم في قولهم * لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه *
 ونسب ذلك للشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك او المراد بالشيطان : شيطان الانس (٢)
 وأميل : الى ان يحسن التمنى حديث النفس وان معنى الآية * وما ارسلنا من قبلك لرسول
 رسول ولا نبي الا اذا تعنى * ايمان قومه وهدايتهم الى الشيطان الى اولياك شيئا لترتيب
 الكفر والتشكيك في آيات الله المنزلة على رسله وانبيائه لهداية الناس فيزيل الله تلك الشبه
 يظهر على السنة انبيائه آياته محكمة لا يسرف فيها دافعة لتلك الشبهة ويطلب لها ويدل لهذا المعنى
 عندي الآية التي قبلها وهي * والذين سموا في آياتنا مساجزين اولئك اصحاب الجحيم *

الرسول وسماه آيات من القرآن

توهم الهمض من ظاهر قول الله تعالى

* سقرتك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى *

ان الرسول على الله عليه وسلم قد نسي بعض آيات القرآن الكريم لان الله تعالى قد وعده باقراءه القرآن فلا ينساه الا ان تتعلق مشيئة الله بنسائه بعض آيات القرآن الكريم فحينئذ ينساه وطلى ذلك يجوز ان يكون الرسول قد نسي آيات من القرآن الكريم وهذا يزعم الثقة فيما ييلفه الى الناس وهذا الوهم لا يثبت امام الفهم الصحيح للآية الكريمة * الا ما شاء الله * فانه لا يبقى لهذا الوهم اثرا وما هو المعنى :

* سقرتك فلا تنسى *

علاقتها بما قبلها : امر الله نبيه على الله عليه وسلم بتسبيحه في قوله * سبح اسم ربك الاعلى * لانه سبحانه متره ذا عوفاة عن النقائص ويشغف بالكالات التي عنها قد رثه على كل شئ * ووحتمته بخلقه وهدايته لعباده ويكمل التسبيح والذكر بقراءة القرآن وحتى يطمئن الرسول بأنه سيقرا القرآن كاملا لا ينسى منه شيئا وعده الله تعالى باقراءه وعدم نسيان شئ * منه ثم ان في هذه الآية بيانا لهداية الله تعالى رسوله لتلقى الوحي وحفظ القرآن اثربيان هدايته العامة لجميع مخلوقاته والاقراء : من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام فانه الوسيلة في الوحي او : بالالهام والمعنى سحجملك قارئا بالهام القراءة في الكتاب من غير تعظيم من احد كما هو المادة فقد قيل انه عليه السلام كان يقرأ الكتابيسة ولا يكتب

* فلا تنسى * اما نهى او خبر فعلى انها : نهى يكون المعنى فلا تنفل قراءته وتكريره حتى

لا تنساه واثبتت الالف في * فلا تنسى * وان كان مجزوما بلا الناعية لتحديد رؤس الآي (١)

ضعف هذا القول : بأن فيه ارتكاب جازات في الآية : منها ان النسيان ليس في قدرة الانسان فلا يصح الامر به ولا النهي عنه الا ان يحمل على كثرة القراءة والتعاهد التي تنافي النسيان وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ ومنها : ان تجعل الالف مزيدة للفاعلة وهو ايضا خلاف الاصل (٢)

وعلى انها خبر تكون الآية بشارته من الله ووجهه من الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سيقوى حفظه
للقرآن حتى لا ينساه وهذا تكون الآية معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم من وجهين
الاول : حفظه للقرآن مع انه ابي خارق للعادة :

الثاني : انها اخبار عن امر سيقع في المستقبل اذ هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وقد فتح كما
أخبر والقول بانها خبرا ارجح لامر اولها : لا تتوجه عليه اعتراضات على الآية بينما على القول بانها
للهي ترد الاعتراضات السابقة

ثانيها : ان في خبرتها تأييد للرسول وكل ما يدل على اعجاز القرآن وصدق الرسول فهو اولي

ثالثها : ان القول بخبرتها يفتق وقوله تعالى * لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه *
وقوله تعالى * ولا تمجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك وحيه *

وقد نزل لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم اثنا عشر سنة تلقى الوحي من جبريل عليه السلام يقرأ معه من

شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشد الله تعالى الى ما هو الاسهل والاخف في حقه لئلا يثقل عليه

ف قيل له * ولا تمجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك وحيه * وقيل له ايضا * لا تحرك به لسانك لتعجل

به ان علينا جمعه وقرآنه * ان علينا ان نجمله في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير ان تنسى منه شيئا

(١) روى البخاري بسنده ان ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفثيه اذا انزل

عليه فقيل له : لا تحرك به لسانك * يخشى ان ينفلت منه * ان علينا جمعه * ان نجمله في صدرك

* وقرآنه * ان تقرأه * فاذا قرأناه يقول : انزل عليه * فانه يقرأه * ثم ان علينا بيانه * ان نبينه

على لسانك (٢)

وروى الامام احمد بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يعالج عن التنزيل شدة فكان يحرك شفثيه قال : فقال لي ابن عباس : انا احرك شفثي كما كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يحرك شفثيه وقال لي سعيد : وانا احرك شفثي كما رأيت ابن عباس يحرك شفثيه

فانزل الله * لا تحرك به لسانك * الايات : فكان بعد ذلك اذا انطلق جبريل قراءه كما اقرأه

وروى ابن ابي حاتم ايضا بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انزل عليه

الوحي يلقي منه شدة وكان اذا نزل عليه عرف في تحريكه شفثيه يلقى اوله ويحرك به شفثيه خشية ان

ينسى اوله قيل ان يقرغ نسين آخره فانزل الله تعالى * لا تحرك به لسانك لتعجل به (٣)

" فلا تنسى - الا ماشاء الله "

اختلف في هذا الاستثناء فهو على حقيقته أم لا

قال البعض : انه على حقيقته ومعنى الآية على احد هذه الوجوه

الاول : سنقرئك القرآن فلا تنسى شيئاً منه الا ماشاء الله فتنساه ويرفع حكمه وعلاوته فالمستثنى هو ما نسخه الله من القرآن فرفع حكمه وعلاوته

وقد رجح هذا القول ابن جرير فقال : والقول الذي هو اولى بالصواب عندى قول من قال :
معنى ذلك : فلا تنسى الا ان نشاء نحن ان ننسكه بنسخه ورفعنا وانما قلنا ذلك اولى بالصواب
لان ذلك اظهر معانيه (١)

الثانى : ان المراد بالاستثناء القلة والندرة ذكره الزمخشري

الثالث : ان النسيان الذى افاده الاستثناء : هو الذى يحقبه التذكر لا النسيان التام الذى
هو محو الشئ من الذهن بالكلية لان النسيان التام يخل بوظيفة التبليغ ويزعزع الثقة بالقرآن
اما النسيان الذى يحقبه التذكر فهو جائز

بمعنى الآية : سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله ان يغلبك النسيان عليه ثم يذكر به بعد اصاب
بنفسك واما بغيرك

وقال آخرون : الاستثناء ليس على حقيقته

قال النزاهة وجماعة : ان هذا الاستثناء صلة فى الكلام على سنة الله تعالى فى الاستثناء وليس
ثم شئ ابيح استثناءه

وقال الزمخشري : الفرض نفى النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه : انت سهى فيما املك

الا ماشاء الله • ولا يقصد استثناء شئ وهو من استعمال القلة فى معنى التفى (٢)

ولا استثناء على هذا انما لبيان : ان الله تعالى لو اراد ان يصير نبيه صلى الله عليه وسلم
ناسياً لذلك لقد راعيه كما قال سبحانه " ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك "
والله تعالى لم يشأ ذلك

تسبب النسيان انما هو من فضل الله تعالى واحسانه لا من قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقد قوى هذا القول اصحابه بما قيل فى قول الله تعالى فى اهل الجنة " خالد بين فيها مادامت

السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ *
 من ان الاستثناء ليس على حقيقته وإنما المقصود بانهم فيها هم فيه من النميم لهم امرا واجبا
 بذاته بل هو موكول الى مشيئة الله تعالى
 وقد ضعف هذا القول بمصر المفسرين **ابن حبان** الذي قال : **وقول القراء** والزمخشري يجمـسـل
 الاستثناء كلاً استثناء وهذا لا ينهض ان يكون في كلام الله تعالى بل ولا في كلام فصيح (١)
 وأرجح : ان الاستثناء على حقيقته وان النسيان الذي افاده الاستثناء هو الذي يحق التذکر
 لا النسيان التام لا مور :

١ - ان الاصل ابقاء الاشياء على حقيقتها وحيث يمكن هنا ابقاء الاستثناء على حقيقته مع عدم الاخلال
 بالبدا المقطوع به : وهو عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام في مجال التبليغ عن الله تعالى فلا
 داعي للخروج به عن حقيقته

٢ - ان النسيان الذي يحق التذکر لا ضمير فيه ولا يخل بوظيفة التبليغ ولا يزعم الثقة بالنبي او القرآن
 ولو قومه من الرسول فائدة هي : ان **يسن لنا** روى مالك في الموطأ ان رسول الله على الله عليه وسلم
 قال : **اني لا انسى او انسى لاسن** * (٢)

٣ - ان هذا القول تؤيده احاديث متعددة منها : **ما رواه البخاري** بسنده عن عائشة رضي الله عنها
 قالت : **سمع النبي على الله عليه وسلم رجلا يقرأ في المسجد فقال** : **يرحمه الله لقد اذكرني كذا وكذا**
آية من سورة كذا *

ومنها **ما رواه البخاري** وسلم : **ان نبينا على الله عليه وسلم قال** : **انا انا بشر انسى كما تنسون** *
 وذكر ابن حجر : **ان في قول الرسول هذا** : حجة لمن اجاز النسيان على النبي على الله عليه وسلم
 فيما ليس طريقه البلاغ مطلقا وكذا فيما طريقه البلاغ لكن بشرطين : احدهما انه بعد ما يقع منه
 تبليغه والاخر انه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكرة اما بنفسه واما بخبره وهل يشترط في هذا
 الفور؟ قولان : فاما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان اصلا (٢) وعلى هذا فليس في الآية ما يدل
 على ان النبي صلى الله عليه وسلم نسي آيات من القرآن الكريم نسيانا تاما يقدر في عصمته في التبليغ
 وكيف يكون هذا والله قد تكفل بحفظه * **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** * وامنه من نسيانه ما
 الوجه السابق * **لا تحرك به لسانك لتعجل بها ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه** - ثم ان
 علينا بيانه *

المبوس والتولى عن الأعمى

قال الله تعالى

"عسى وتولى - أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتغفمه الذكرى أما من استغنى فانت له تصدى وما عليك إلا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى - فانت عنه تلهسى كة أنها تذكرة فمن شاء ذكره" (١)

روى في سبب نزول هذه الآيات أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يدعو بعض زعماء قريش إلى الإسلام وطبع في إسلامهم الذي يكون من شأنه أن يؤدي إلى إسلام من وراءهم فأقبل أبى أم مكتوم الأعمى واسمه : عبد الله بن عمرو وقيل : عمرو بن قيس - وهو من أسلم قديماً وأخذ يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه وقول : أقرئني وعلمني ما علمك الله تعالى والرسول مشغول بدعوة القوم والح ابن أم مكتوم وودد الرسول لو يكف ساعة تلك ليتمكن من إتمام مخاطبته للقوم وتحقيق رغبته في هدايتهم ولكن ابن أم مكتوم يكرر طلبه أثناء تشاغل الرسول بالقوم فكره الرسول - فطمسه لكلامه فمبوس وأعرض له فنزلت الآيات

روى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى "عسى وتولى" جاء أبى أم مكتوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلم أبى بن خلف فأعرض عنه فانزل الله عز وجل "عسى وتولى - أن جاءه الأعمى" فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه (٢)

كذلك روى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال : نينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجى عنده ابن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص على أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أم مكتوم يسعى وهو يناجيه فقبله عبد الله يستغنى النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن وقال : يا رسول الله : علمني ما علمك الله فأعرض عنه رسول الله وعسى في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله - نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أنزل الله تعالى عليه "عسى وتولى - أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى - أو يذكر فتغفمه الذكرى" فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال له " ما حاجتك هل تريد من شيء ؟" وإذا ذهب من عنده قال هل لك حاجة في شيء ؟" وذلك لما أنزل الله تعالى "أما من استغنى فانت له تصدى وما عليك إلا يزكى" (٣)

ومعنى الآيات

كلح وقلب وجهه - النبي على الله عليه وسلم وأعرض لان جاءه الاعى وهو ابن ام مكتوم والتمبير
 عنه بالاعى للاشعار بمذره في الاقدام على قطع كلام الرسول على الله عليه وسلم حين تشاغله بالقوم
 وأى شىء يجملك دارها بحال هذا الاعى لعله يتطهر بما يتعلمه منك من دنس الجهل او يتمم
 فتتفهم الموعظة اى انك لا تدري ما هو مترقب منه من ترك او تذكر لو دبرت باحدث هذا منك وفى
 الآيسة تصريح واشعار بأن من تعدى على الله عليه وسلم لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى
 منهم التزكى والتذكر

اما من استغنى عن الايمان وهما عندك من المعلوم والسارف التى يندطون عليها القرآن قال ابن عباس
 " استغنى عن الله وعن الايمان بما لا ينفعه فانت تتعرض له وتقبل عليه وتهتم بارشاده واستصلاحه
 وليس عليك بأس فى ان لا يتزكى بالادب حتى يبعثك الحرص على اسلانه الى الاعراض عن السلم
 فما عليك الا للبلاد

وأما من جاءك مسرعا طالبا لما عندك من احكام الرشد وخصال الخير وهو يخاف الله تعالى او اذية
 الكفار فى الاتيان او المطار والكبوة ان لم يكن معه قائد فانت تتشغل عنه
 " كلا " اى لا تفعل بمددا مثلها وهو بالخفة فى ارشاده على الله عليه وسلم الى عدم معاودة
 ما عوتب عليه .

أن هذه الآيات خاصة والقرآن العظيم كله عامة موعظة يجب الاتماظ بها والسمل بموجبها
 فمن شاء من عباد الله ان يتزكى ذكره واتمظ به (١)
 فالشبهة اذن

أن محوس النبي على الله عليه وسلم فى وجه ابن ام مكتوم والاعراض عنه والتشغل بمن استغنى ذنب
 ولهذا عاتب الله نبيه عليه

وتدفع هذه الشبهة بأن الرسول على الله عليه وسلم كان وهو يدعو زعما قريش الى الاسلام انما
 يقوم بواجب تبليغ الدعوة " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن "
 " يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك " وانتبهز فرصة لقائه بسادة قريش وخصائهم له

والخ في وعظهم وأرشادهم وحرص على هدايتهم * ان تحرص على هدايتهم فان الله لا يهدي من يضل *
 وكان يؤلمه كفرهم * لملك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين *

وطمع هذه المرة في ملامتهم ورجا باسلامهم اسلام من وراءهم فيكون هذا خير للاسلام والمسلمين
 اما ابن ام مكتوم فكان مسلما وتسلمه من الرسول يمكن ان ينتهي غير هذا الوقت الذي شغل فيه الرسول
 بدعوة زعماء قريش ثم ان ابن ام مكتوم الح وكبر الدليل في اثبات انشغال الرسول بامر قومه وشأن
 المشغول بالاهم اذا طلب منه المهم ان يوجه ويمرغ عنه الى ان ينتهي مما يشغله لهذا اعترض
 عنه الرسول وتصدى للكفار فمات به الله عز وجل على انه ترك الاولى

اذ الاولى والمطالب به الرسول هو البلاغ * ما على الرسول الا البلاغ * اما الهداية فهي الى الله
 * لير عليك هدايتهم ولكن الله يهدي من يشاء * * * * * * انك لا تهدي من امتن احببت ولكن الله
 يهدي من يشاء * وهو اعلم بالمهتدي * * * * * * ولو شاء الله لجمعهم على الهدى *

اما وقد بلغ الرسول فليس عليه بعد شيء * ولا عليه بأس في ان لا يعلموا * وما عليهم الا يركي *
 اما تذكير المؤمنين فهو بالاضافة الى انه واجب على الرسول هو نافع للمؤمنين منفعة محققة
 * وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين * وهذا الاعس الذي جاء ينشد التزكية والذكري سينتفع بها
 لانه جاء ساعيا لها باحثا عنها وشأن الطالب لشيء اذا وجدته ان ينتفع به * وما يدريه علمه يركي *
 او يذكر فتتفعه الذكرى *

قال النيسابوري : فائدة الارشاد والتعلم بالنسبة الى هذا الاعس امر معلوم والنسبة الى اولئك
 امر معلوم لانه جاء طالبا مسترشدا وهم جاءوا مستهزئين معاندين وترك المعلم للموهوم خان عن
 طريق الاحتياط

ومضيف النيسابوري وجها آخر في مخالفة الاولى في هذه القصة هو :

لا يخفى ان نظر النبي صلى الله عليه وسلم كان على امر كل من هو : رجاء اسلام قريش فانه في الظاهر
 اهم من اجابة رجاء اعس على الفور الا انه سبحانه عد هذا الجزئي كلها منه جهة اخرى هي : تطيب
 قلوب الفقراء والضعفاء واعمال جانب اهل الضنى والثراء فان هذا ادخل في الاخلاص وابتغاء
 رضوان الله وذلك فتلته التهمة والرياء (١)

ويرى البعض : ان هذه الآيات لا تدل على وقوع معصية ومخالفة من الرسول على الله عليه وسلم
وانما لاعلام الرسول بحال الفريقين : فريق ابن ام مكتوم وانه الذي ينتفع بالذكور وفريق الكفرة
وانه الذي لم يتركى ولين يستجيب له عوتك وموعظتك ولهذا فهو حقير لا وزن له ولا يستحق الالتفات
اليه - قال صاحب الشفا : واما قوله * عيسى وتولى * الآية فليس فيها اثبات ذنب له بل اعلام
له صلح الله عليه وسلم ان ذلك التسدي له ممن لا يتركى وان السواب والاولى لو كشف لك حال
الرجلين بالاقبال على الامسى وفعل النبي صلى الله عليه وسلم لما فعل وتسد به لذلك الكافر كان طاعة
له تعالى وتبليغا عنه واتلاقا له كما شرعه الله له لا معصية ولا مخالفة له وما قصه الله عليه من
ذلك اعلام بحال الرجلين وتوبيخ الكافر ولاشارة الى الاعراض عنه بقوله * وما علمك الا يركى * (١)

كذلك لعكس القاضى عياض فى الشفا قولا عن ابي تمام (الشاعر صاحب كتاب الحماسة) هو ان الذي
عيسى وتولى هو الكافر الذي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم :
لكنه قول ضعيف لمخالفته ظاهر الآيات ولذا قال عنه على القارى : وهذا التأويل مخالف لظاهر
التنزيل بل كان فى مقام النزاع ان يكون مخالفا للاجماع
وضمفه ايضا الشهاب الخفاجى بانه يخالف السياق وما عليه المفسرون فيقول : وهو قول فى غاية
الضعف بعيد من السياق والذي عليه المفسرون انه النبي صلى الله عليه وسلم وفى القام الكلام له بدون
الخطاب اكرام له صلى الله عليه وسلم عن ان يواجه بالمتبلا بها لغة فى المتبلا لانه فيه بحرارة
ومع ايمان هذا القول فى الضعف بما سبق فانا نرى ابا القاسم على بن الحسين البغدادي ينتصر له
معللا مذهبه بوجوده ثلاثة اولها : ان العبوس ليس من صفات النبي مع الاعداء ولا مع المؤمنين
ثانيها : ان التصدي للاغنيا والتلهى عن الفقراء ليس من اخلاقه بل المعروف عنه التخين والتعطى
على المؤمنين .

ثالثها : انه صلى الله عليه وسلم مبعوث للدعاء والتبهي فكيف يقول له ربه * وما علمك الا يركى *
ثم يحكى قولا آخر هو : ان هذه السورة نزلت فى رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان منه هذا الفعل المنصوت فيها :
ثم يعقب على هذا بقوله : ونحن ان شككتنا فى عين من نزلت فيه فلا يتبغى ان نشك فى انها لم يمن
بها النبي صلى الله عليه وسلم واى تنفير ابلغ من العبوس فى وجوه المؤمنين والتلهى عنهم والاقبال على
الاغنيا الكافرين والتصدى لهم وقد نزه الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم عما دون هذا فى التنفير
بكثير (٣) ولكن ما ذهب اليه ابو القاسم البغدادي اضعف من ان يخفى

قبول الفداء من أسرى بدر

عاتب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في شأن أسرى بدر في قوله تعالى
 " ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله
 عزيز حكيم " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " فكلوا مما غنم حلالا طيبا
 واتقوا لله أن الله قهور رحيم " (١)
 والشبهة التي أثارها البعض حول قوله تعالى " ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في
 الأرض " سورها فهو حق منهم على النحو التالي :
 ان مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم كانت في مرحلتين : مرحلة القتال وجب فيها أعمال القتل
 في العدو وترك الأسر لقوله تعالى " فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان " فالأسر ممتنع
 ومرحلة ما بعد القتال : وهذه يجب فيها قتل الأسرى وحرمان استيقظهم وأخذ الفداء منهم لعدة
 أمور :
 أولها : قوله تعالى " ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض " أى يبالغ في قتل
 الأعداء ويكثر منهم .
 ثانيها : قوله تعالى " تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة " وعرض الدنيا الذى لم يرض عنه
 الله هو الفداء .
 ثالثها : قوله تعالى " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " الذى يفيد أن
 المسلمين كانوا يستحقون المذاب بسبب أخذ الفداء لولا ما سبق من كتاب الله
 رابعها : بكاء النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر بعد أخذ الفداء وسببه إذ قال عليه السلام
 لعمر " أبكى لذي " عرض على أصحابك من أخذ الفداء .
 خامسها : قول النبى صلى الله عليه وسلم بعد أخذ الفداء " لو نزل عذاب من السماء أنجا منه
 غير عمر " .
 وسورها فريق آخر بانها مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم في مرحلة ما بعد القتال التي تشمل
 في استبقاء الأسرى وأخذ الفداء منهم وهي ممتنع للوجوه السابقة .
 والرد على الفريق الأول :
 بأنه لا مخالفة من النبى صلى الله عليه وسلم في مرحلة القتال فاما قوله تعالى " فاضربوا فوق الأعناق
 واضربوا كلهم كل بنان " بعد التسليم بأن الأمر فيها للمسلمين لا للملائكة - فقد نفذ المسلمون
 إذ قتلوا من أعدائهم عددا كثيرا تارب السبعين وما أسروا الا بعد أن أعلوا القتل في عدوهم

وعلى فرض : انه وقعت مخالفة لهذه الآية وانه كان يجب القتل وحده من غير اسرفان هذه المخالفة ليست من النبي صلى الله عليه وسلم وانما من اصحابه الذين باشرنا القتال اما النبي صلى الله عليه وسلم فقد بلغهم امر الله " فاضربوا فوق الاعناق " ثم جلس في عرشه الذي اعد له بينما اصحابه يضرهون رؤس الاعداء وراقبهم فلم ياصرون بخير علمه (١)

واما قوله تعالى " ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يشن في الارض " فانها تدل على انه بعد الاتخان في المدد ويجوز اسره وقد اشحن الصحابة في عدوهم فليس بالاسرى بعد هذا معصية قال الفخر الرازي في تفسيره : ان قوله " ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يشن في الارض " يدل على انه كان الاسرى مشروطا ولكن بشرط سبب الاتخان في الارض والمراد بالاتخان القتال والتخويف الشديد ولا شك ان الصحابة قتلوا يوم بدر خلعة عظيمة وليس من شرط الاتخان في الارض قتل جميع الناس ثم انهم بعد القتل الكثير اسروا جماعة فليف يمكن التمسك بهذه الآية في ان ذلك الاسرى كان ذنبا ومعصية (٢)

وهذه الشبهة القائلة بوقوع المخالفة في مرحلة القتال ايضا ببنية على ان معنى قوله تعالى " ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يشن في الارض " انه لا يصح اسر المدد والا بعد الاتخان وكثرة القتل فيه اما قبل الاتخان فلا يصح الاسر

ولكن المعنى الظاهر للآية هو : ما صح وما استقام لنبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ان يكون له اسرى حتى يبالغ في قتلهم ويكثر من صحتهم بذل الكفر ونقل حوزة وحرز الاسلام ويستولى اعلاه (٣) فالقتل المأمور به الانبياء هو قتل من وقموا في الاسر فملاى في مرحلة ما بعد القتال لا القتل الذي يكون قبل الاسر وحال القتال - وهذا المعنى هو الذي اميل اليه ان يساعد

اولا : الفاظ الآية

ثانيا : الحديث الذي اخرجه مسلم (٤) ودلالته من عدة وجوه

الاول : ان استشارة الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه كانت فهم يفعل بالاسرى بعد حضورهم بين يديه ان قال ابن عباس راوي الحديث - فلما اسروا الاسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسي بكر وعمر : ماترون في هؤلاء الاسارى ؟

الثاني : قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر وقد رآه يبكي فساله عن سبب بكائه : ابكى للذي عرض على اصحابك من اخذهم النساء

(٣) روح المعانيه لللالوس ج ٣

(١) تنزيه الانبياء لابي القاسم علي بن الحسين البغدادي ص ١١٢

(٢) مفتاح النيب ج ٤ ص ٣٩٨

(٤) كتاب الجهاد والسير حديث ٤٥٥ ج ٤ ص ٣٧٦ - ٣٧٧

فقد نصر على أن سبب بكاؤه أخذ الفداء وليس الأسر
 الثالث : قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه لو نزل عليه من السماء ما نجا منه غير عمر
 وذلك أن رأى عمر كان قتل من وقصوا في الأسر ولو كانت مخالفة في الأسر لقال : لما نجا منه غير
 الذين لم بأسروا والآن فلنعمد الى شبهة القائلين : بأن مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت
 في مرحلة ما بعد القتال والتي تتمثل في استبقاء الأسرى دون قتل وإخذ الفداء منهم
 والرد عليها على النحو التالي :

أولا : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده نصر فيما يصنع بالأسرى ولذلك استشار أصحابه
 ولو كان عنده نصر لأمضاه ولم يستشر - يتبين لنا هذا من الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن
 ابن عباس قال : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبكر وجه رماثون فسي
 هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا نبي الله هم بنوا الصم والمشورة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون
 لها قوة على الكفار فمضى الله أن يهديهم للإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن
 الخطاب ؟ قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تنكنا فنضرب أعناقهم
 فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان * نسيما لمر * فاضرب هقه فان هؤلاء أئمة الكفر
 وسناد يد ها فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الفدى جئت
 فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يكيان قلت : يا رسول الله أخبرني من أدى شي
 تبيكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاؤك بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت ليكائكما ؟ فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : ابكي للذي عرض على أصحابك عن أخذهم الداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه *
 الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله * وانزل الله عز وجل * ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن
 في الأرض * الى قوله * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا * فاحل الله الثمينة لهم (١)
 وأما قوله تعالى * فاضربوا فوق الأعناق واضربوا مشهم كل بضآن * تكليف مختص بحالة الحرب ولا يتناول
 ما بعد ها .

قال الفخر الرازي : ان قوله * فاضربوا * تكليف مختص بحالة الحرب عند اشتغال الكفار بالحرب
 فأما ما بعد انقضاء الحرب فهذا التكليف ما كان متناولا له (٢)

ثانياً : أن وجهة نظر القائلين باستحقاق الاسرى واخذ الفداء منهم كانت تحقيق أمرين :
 الاول : المال والمسلمون بحاجة اليه ليقتفوا به على جهاد أعدائهم خاصة وأنه ينتظر جهاد مرير
 وظويل له أعجابه وتكاليفه

الثاني : اسلم هؤلاء الاسرى فان تركهم احياء قد يعظفهم الى الاسلام او يخرج من اسلامهم
 من يدين بالاسلم وسلحة الرسالة في اسلام الكفار اكثر من استئصالهم وهذا هو الذي حدا
 بالرسول صلى الله عليه وسلم الى ان يدعو الله بهداية قومه عندما كانوا يشتهون عليه ويولمونه
 بدل ان يدعو الله باهلاكهم واستئصالهم .

ثالثاً : حكم الرسول صلى الله عليه وسلم باخذ الفداء كان لموافقة اكثر الصحابة ابا بكر عليه
 فلا ذنب على الرسول في ان يميل الى رأى الاغلبية فان من المعروف انه عند الاستشارة وانقسام
 المستشارين في الرأى يحمل برأى الاكثرية وهذا ما فعله الرسول
 وكون اكثر الصحابة رغبوا في عرض الدنيا واختاروا اخذ الفداء من اجله جعل اللوم يتوجه اليهم
 في الاية الكريمة " تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة " لا الى الرسول اذ لا يتوسر
 منه ارادة عرض الدنيا ولو كان كذلك لجاأت الآيه بصيغة " تريد " او " يريد " وانما كل ما صدر
 منه انه مال الى رأى الاكثر

يدل لهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم في سبب بئانه " ابكى للذي عرض على اصحابك
 من اخذهم الفداء " ولكن كيف توفق بين قول المصنف تعالى " تريدون عرض الدنيا " وهو يفيد
 انهم مالوا الى اخذ الفداء لتجرد رغبتهم للدنيا وبين قول ابى بكر : ارى ان تأخذ منهم فدية
 فتكون قوة لنا على الكفار وهو يفيد ان الباعث على اخذ الفداء غوا التقوى به على الجهاد في
 سبيل الله ؟

يبدو لي أن الصحابة الذين رأوا اخذ الفداء وهم الاكثرية ما جعل الرسول يرجح رأيهم
 ويميل اليه - لم الباعث عندهم جميعها على اخذ الفداء - واحداً وانما اختلف عند ابى بكر
 وعليه الصحابة عنه عند العدة الكثيرة من باقى الصحابة فمئذ الاولين كان التقوى به على مجاهدة
 الكفار وعند الاخرين كان الاستفادة بسال الفداء في شئون دنياهم ونواصي محيشتهم وهو محسب
 اللوم في الاية اذ ينهى ان تكون رغبات السلم متجهة اولاً وقبل كل شىء الى اعزاز الدين " من قاتل
 قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " اما الانتفاع الشخصى باموال الفنائم
 فينبغى ان يكون تابعا وعرضا غير مقصود

وقد اراد الحكم الخبير تربية المسلمين في اول مواجهة مع عدوهم فتركهم يجتهدون في امر لانص
 فيه .

فإذا اخطأوا فيه وعوتبوا على خطيئهم فإن الله على أن يظلموا طيلة حياتهم النصابة لله
 حذرين من الاخطاء التي تعرضهم لضبط الله وجزاءه تجردت في رغباتهم واغراضهم لله لا الدنيا
 رابعاً : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اختار رأى ابي بكر لصوابه في نظره به لئلا يظلم الله
 أباً بكر بابهيم وعيسى عليهما السلام كما مثل عمر بنوح وبوصى عليهما السلام فإذا ما أخذ الرسول
 برأى رآه صواباً بعد الاجتهاد واعمال الفكر والاستشارة فليعلم الدنيا في هذا أخرج احمد والترمذي
 وحسنة والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر جئنا بالاسارى
 وفيهم المباس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماترون في هؤلاء الاسارى ؟ فقال ابو بكر
 رضي الله عنه يا رسول الله قوسك واعلك استيقم لعل الله ان يثوب عليهم وقال عمر رضي الله عنه
 يا رسول الله : كذبوك واخرجوك وقتلوك قد همم فاضرب اعناقهم وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه
 يا رسول الله انظر واد يا كثير الحضب فاضربه عليهم ناراً فقال المباس وهو يسمع ما يقول : قطعت
 رحمتك فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً فقال اناس : يأخذ بقول ابي بكر وقال
 اناس : يأخذ بقول عمر وقال اناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة فخرج رسول الله فقال : ان الله
 تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون الين من اللين وان الله سبحانه ليشهد قلوب رجال فيه حتى تكون
 اشد من الحجارة مثلك يا ابا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال : من تعنى فانه منى ومن عسانسى
 فانك غفور رحيم * ومثلك يا ابا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : ان تمذبههم فانهم عبادك وان تخفر
 لهم فانك ائتت العزيز الحكيم .

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام اذ قال : ربنا اطمعنا على اموالهم واشدهد على قلوبهم فلا يؤمنوا
 حتى يرووا العذاب الاليم ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال : رب لا تخذ رعلى الارض من
 الكافرين دياراً * انتم عالة فلا يفلتن احد الا بفداء او ضرب عنق فقال عبد الله رضي الله عنه : يا رسول
 الله الاسهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في
 يوم اخوف من ان تقع على الحجارة من السماء منى في ذلك اليوم . حتى قال رسول الله الاسهيل
 ابن بيضاء (١)

فهذا الحديث يفهم منه ان كلا الرأيين : رأى ابي بكر ورأى عمر رضي الله عنهما كان صواباً عند النبي
 فإذا اخذ بأى منهما بعد الاجتهاد والموازنة فلا ذنب عليه ولا معصية منه والعتاب الموجه اليه
 في هذه الاية عتاب على ترك الاولى والاولى وعدم الاولى يشتركان في كونهما مباحين وانما يعاتب
 على ترك الاولى لا على سبيل العقوبة بل على سبيل الحث على فعل الاولى (٢)

والأولى هنا - الأخذ بوجهة نظر عمر رضي الله عنه لأن هؤلاء الأسرى زعماء الشرك وقتلهم اضافة
 له كما انهم ظالموا اذوا الرسول على الله عليه وسلم والمسلمين فمن العدل استئصالهم جزاء لهم
 على جرمهم ولهذا جاء القرآن بموافقة عمر على رأيه الذي هو انسب في وقت كان فيه المسلمون
 قلة يتهددهم خطر الكفار الذين كانوا كثرة تعمل على محو الاسلام والقضاء على دولته الناشئة
 اما بعد هذا وعندما تغيرت الاحوال وضحى الاسلام منيما ودولته قوية الاركان ستينة النبيان
 فانه يستوى قتل الاسرى واستيقظهم * فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اخذتموهم
 فشدوا الوثاق فاما من بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها *

هذا ومن المعلوم ان مخالفة الاولى لا تقدر في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والخطأ
 في الاجتهاد من الانبياء لا اثم فيه ولا يطمئن به في حقهم والله لا يقرهم عليه بل ينههم اليه
 واذا كان أي نبي اذا اجتهد عرضة لان يعيب وأن يخطئ * فلماذا يكلهم الله عز وجل الى الاجتهاد
 الذي قد يخطئون فيه ولماذا لا يصفهم بالوحي الذي يفصل في الامور ولا يحجج الى الاجتهاد ؟
 ان لله عز وجل حكما في ان يترك اي رسول يجتهد ثم ينهيه ويماتيه اذا أخطأ نهيهم بعضها
 بالنسبة لنبينا صلى الله عليه وسلم - وغيره من الانبياء مثله على النحو التالي :

الحكمة الاولى

اقامة دليل على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوديته وأنه مع كونه رسولا لم يتجاوز ان يكسبون
 عبدا يعيب ويخطئ * كما يعيب البشر ويخطئون وذلك حتى لا يفتتن به أحد من اتباعه بنسبته الى
 الله تعالى على وجه يتجاوز أن يكون رسوله كما حدث عن النصارى في شأن عيسى بن مريم عليه السلام

الحكمة الثانية

البرهنة على امانة الرسول صلى الله عليه وسلم في ابلاغ الرسالة وعدم كتمانها شيئا مما انزل اليه
 من ربه اذ لو كتم شيئا لكم آيات المتاب على ما خالف فيه الاولى
 روى البخاري عن انس بن مالك قال :

جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : * اتق الله وامسك عليك زوجك *
قال انس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كائنا شيئا لكم هذه الآية (١) *

الحكمة الثالثة

تشجيع الامة على الاجتهاد واعمال الفكر فيما يعرض لها من قضايا واحداث لا يجدون فيها نصوما
فان الاحداث تتجدد ولا تنتهي عند حد فكيف يواجهها المسلمون ولا تصور عليها فيها اذا لم
يجتهدوا وليتمروا على احكامها ثم ان خطأ الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض اجتهاده يكون
سلوي لمن يجتهد فم يخطئ في اجتهاده ولو لم يخطئ الرسول لتألم كل من يخطئ في اجتهاده
من امتهم

وذكر بعض المفسرين ان العتاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا له وتقدير الآية * ما كان لاصحاب
نبي * مستدلين بمبيضة الجمع في * تريدون * عرض الدنيا * ولو كان العتاب للنبي لقال * تريد * وان
الصحابه هم الذين رغبوا في اخذ الفداء ولكن هذا الرأي خلاف الظاهر كما قال الألبوس (٢) من
جهة ومن جهة اخرى مما روي حديث * مسلم * السابق الذي يفيد ان الرسول صلى الله عليه وسلم هو
الذي حكم بأخذ الفداء بعد استشارة اصحابه فرأى الصحابة غير ملزم له اما حكمه فهو الحاسم الملزم
لغيره فالعتاب ان وجه اليهم *

كذلك يدفع حديث مسلم السابق وسياق الآية رأى القاضى علاء الدين القائل : بأنه ليس في الآية عتاب للنبي
وانما بيان لخصوصية له من بين سائر الانبياء هي حل اخذ الفداء من الاسرى فكانه قال : ما كان هذا
النبي غيرك وكما قال صلى الله عليه وسلم * احلت لي الفنائم ولم تحل لنبى قبلى *

وعلى هذا فالمقصود بالخطاب في قوله * تريدون عرض الدنيا * من تجرده غرضه لعرض الدنيا من الاصحاب
وليس المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ولا عليه اعطابه (٣)
وهذا القول ضعيف والاصح القول الاول

والمعنى - كما قال ابن جرير : ما كان لنبي ان يحتبس كافرا قد ر عليه وسار في يده من عبدة الاوثان
للفداء او للمن وانما قال الله ذلك لنبيه ان قتل المشركين الذين اسرهم يوم بدر ثم فادى بهم كان
اولى بالصواب من اخذ الفدية منهم واطلاقهم * حتى يثخن في الارض * أى يبالغ في قتل المشركين
فيها ويقهرهم غلبة وقسرا

* تريدون * ايها المؤمنون * عرض الدنيا * ما عرض للمم * منها من مال وتمام اي تريدون ياخذكم الفداء
من المشركين متاع الدنيا (٤)

والحكم السابق اثباته في اللوح المحفوظ والذي لولاه لمسه المذاب هو : ان لا يعذب قوما قبل
البيان لهم امرا او نهيا

او : ان لا يعذب المخطئ في مثل هذا الاجتهاد : او ان لا يعذب المسلمين ورسول الله فيهم

او ان لا يعذب اهل بدر (٥)

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٤٠٢
(٢) روح المعاني ج ٣ ص ٢٦١
(٣) الشفا ج ٢ ص ١٥٩
(٤) جامع البيان ج ١٤ ص ٥٨
(٥) روح المعاني ج ٣ ص ٢٥٩

وما بعدهما

زواج الرسول بزینب بنت جحش
وما اثر حولها

ان بعض الذين تعدوا تفسير القرآن الكريم وتحملوا امانة الكشف عن معانيه تقصدت منهم اقوال وآراء اتخذت قوما بعد منطلقا لضجيج اهل البيت وصيحات هستيرية تطمن في الاسلام وترسى بالبهنان اكرم الناس خلقا واحمدهم سيرة من ذلك اقوال تفسير الطبري والزمخشري ومن على شاكلتهما حول الآية الكريمة * واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد معها وطرا زوجها كما لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا نهيهم وطرا وكان امر الله مفعولا * (١) فقد فسر قوله تعالى * وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه بما لا يليق بمقام نبينا على الله عليه وسلم وما يتنافى والمقطع به من عصمة الانبياء اذ ذكرت ان نبينا على الله عليه وسلم رأى زينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة على حالة جعلت قلبه يتعلق بها ويود لو فارقتها زيد فمتزوجها وخشى ان يقول الناس امر رجلا بطلاق امراته وتكفها حسين طلقها والله احق ان تخشاه من الناس وفي هذا طعن على نبينا على الله عليه وسلم فتح الباب لاعداء الاسلام والساعين للنيل منه من المستشرقين وغيرهم فاتخذوه دعامة لتجنيتهم وتساخيمهم وهناك ما ذكره ابن جرير الطبري في تفسير الآية :

قال : يقول تعالى ذكره لنبينا على الله عليه وسلم عتابا من الله له * واذكرا يا محمد اذ تقول للذي انعم الله عليه بالهداية وانعمت عليه بالمشق يعنى زيد بن حارثة مولى رسول الله على الله عليه وسلم * امسك عليك زوجك واتق الله وذلك ان زينب بنت جحش فيما ذكرناها رسوا الله على الله عليه وسلم فاعجبتته وهي في حبال مولاه فالتقى في نفس زيد كراحتها لما علم الله ما وقع في نفس نبيه ما وقع فاراد فراقها فذكر ذلك لرسول الله على الله عليه وسلم زيد فقال له رسول الله امسك عليك زوجك وهو على الله عليه وسلم يحب ان تكون قد بانته منه لينكحها * واتق الله وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك * وتخفى في نفسك ما الله مبديه يقول : وتخفى في نفسك محبة فراتة اياها لتتزوجها ان هو فارقتها والله مبدي ما تخفى في نفسك من ذلك * وتخشى الناس والله احق ان تخشاه * وتخاف ان يقول

الناس : أمر رجلا يطلاق امرأته ويكفها حين تلقها والله أحق أن يتخاضه من الناس
وروى عن قتادة : عن ابن وهب الذي قال : قال ابن زيد : كان النبي صلى الله عليه وسلم قد
رجع زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يمسده
وعلى الباب ستر من شعر فرففت الريح الستر فأنكشف وهي في حجرتها حاضرة فوق أعقابها
في قلب النبي صلى الله عليه وسلم فلما وقع ذلك كرهت إلا أن خرجا فقال : يا رسول الله اني أريد
أن أفارق عاحيتي . قال : مالك أرايك عنها شي ؟ قال : لا والله ما أرايني منها شي . يا رسول
الله ولا رأيت الا خيرا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك واتق الله (١)

وما ذكره الزمخشري قريبا من هذا فقد قال :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت في نفسه فقال : سبحان
الله مقلب القلوب وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قيل ذلك لا تعيد لها ولو أرادتها لا خطبها
وسمعت زينب بالتسبيح فذكرتها لزيد فظن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لرسول الله اني أريد أن أفارق عاحيتي . فقال مالك
أرايك عنها شي ؟ قال : لا والله ما رأيت عنها الا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذي
فقال له أمسك عليك زوجك واتق الله .

ثم يقول : ما أراد بقوله " واتق الله " قلت : أراد واتق الله فلا تطلقها وقصد نهى تنزيهه لا تحريم
لان الاولى ان لا يطلق وقيل : أراد واتق الله فلا تدمها بالنسبة الى الكبر واذا الزوج
فان قلبك : ما الذي اخفى في نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها وقيل : مودة مفارقة زيد اياها
وقيل : علمه بأن زيدا لم يطلقها وسينكحها لان الله قد أعلمه بذلك (٢)

فقد وضع من اقوال هذين المفسرين ومن ثنا نحوها كالخطيب الشريفي والتمساحوري والنسفي
والواحدى ومحمد نووى الجاوى انهم ينسبون الى النبي صلى الله عليه وسلم
١ - تعلق قلبه بزينب بنت جحش عندما راعا في ثياب تكشف عن محاسنها وجمالها وانه تناهها
لنفسه وود لو يطلقها زيد فيتزوجها

٢ - أنه اخفى في نفسه امرا وظهر خلافه - اخفى محبتها والرغبة في طلاقها ليترجها وظهر
الحرص على بقائها مع زيد بقوله " أمسك عليك زوجك " وخشى ان يقول الناس : أمر رجلا
بطلاق امرأته ويكفها حين تلقها وكان عليه ان يخشى الله وحده وليس الناس

وحتى يتبين وجه الحق في هذه المسألة بما ينزهه صاحبه النبي صلى الله عليه وسلم نسب إليه فيها نذكر
أولا : ان نبينا صلى الله عليه وسلم ^{لم يكن} يفتنون بالنساء أو يبدل قلوبهم بنظر الجميلات أو يتزوج ل مجرد
الشهوة

ثانيا : موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من زواج زيد بن زينة ^{خاتمة}
ثالثا : الامر الذي اخفاه الرسول واظهر خلافه وخشى فيه الناس وسبب هذا منه وحكمه
اما الاول :

فان نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة تقوم على اساس من احترام آدميتها والهربها وجبر خاطرها
وعيانتها عن الاشتهان والضياع ولهذا ظل بجناح رحمة احدي عشرة زوجة ما كان دافعه الى الارتباط
بين شهوة عارمة يهدد اشباعها وانما انسانية سامية ابت الا ان تجبر خواطرهن وتعمل من رزئت نفسى
الزوج واقتقدت المائل منهن ومستدل على ذلك بوجوه اخذنا انه قضى سبع قرن من الزمن هي فترة
الشباب المارم والرجولة الفتيه زوجا لامرأة واحدة هي خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وكانت
تكبره بخمسة عشر عاما حتى توفيت عن عمر يناهز الخامسة والستين بينما هو فى الخمسين من عمره
فلو انكسبان رجلا شهبانيا كما يزعم المشركون وتتمهم فيه المستشرقون لما قطع بزوجة واحدة طيلة
شبابه فى حين ان بيته تار من تهديد الزوجات الذي لا حصر له كما أنه باقراهم جميعا كان عزوا عن
الخمير واللبو واليسمر ومقارفة الفجور والزنا وكل ما يتهلى به الشباب ان من يقطع بزوجة واحدة فترة شبابه
حتى الخمسين لا يصدق العقل ان تعيسه بله الشهوة ^{بمعد الخمسين الى حد ان يجمع}
المديد من النساء فى عسمة لقفا لذته الجسدية وشهوة انبيسية (١)

ثانيا : ان مشاغله صلى الله عليه وسلم فى فترة ما قبل الازميين لا تكاد تذكر بجانب مشاغله الكثيرة فى
السهد المدنى الذي عدد فيه زوجاته والانسان عندما تكثرت اعباءه تغيرت رغبته فى النساء اما عندما تخلو
حياته من المسئوليات وتخف عن كتفه اثقال الحياة واعاؤها فان همته تتجه الى النساء وتفكيره يتسبح
فى خدمة شهوته فلوان نبينا صلى الله عليه وسلم كان شهبانيا فظهر هذا منه فى فترة ما قبل الازميين
ثالثا : ان اكثر من تزوجهن بعد خديجة قد تخطهن مرحلة الشباب وكن غير جميلات والشهبان

أما ينصنف إلى الثابتات الجميلات

أما أمثال سودة بنت زمعة وأم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش فإلا يقول منصف أن الاقتران
بينهن كان يدافع الشهوة فلم يكن لهن من الجمال والذوات ما يحفز إلى اتخاذهن زوجات إنما
تزوجهن على الله عليه وسلم ليمولهن حيث فقدن العائل *

أما سودة بنت زمعة فكانت امرأة متقدمة في السن ليس لها جمال ولا شباب فقدت زوجها السكران
ابن عمرو العاصري وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة وقيمت سودة بعده
ارملة منقطعة لا مال لها تعيش منه وليس من أهلها من يرق لحالها فكفرهم وأسلامها ولا شك أنها بين
أهلها ستعرض للضبط المنيف لتترك إسلامها فتزوجها الرسول على الله عليه وسلم لينقذها من هذه
الحياة القاسية ويروضها خيرا عما فقدت من الزهر والمائل

وأما أم سلمة هندی فكانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن المخيرة ابن عم الرسول وأخيه فسي
الرضاعة هاجرت إلى الحبشة ثم عاد على أمل انتهاج الأرملة فإذا هي أشد تمقيدا من قبل فهاجرت إلى
يثرب وهناك أبلى زوجها في بدر وأحد بلاء حسنا وتبع بانتصاره على بني أسد بعد شهرين من أحد
لكه بعد عودته أدى ثمن النسر من حياته فمات على أثر انفجار جرحه القديم وترك أم سلمة وقد تقدمت
سنيها وكثر عيالها عند ذلك رأى الرسول الإنسان أن يمد يده إلى ارملة أخيه في الرضاع وأبن عمته
المهاجر الشجاع يطلب يدها ليموضها عن فقيدتها ويكفي عيالها فرأت أم سلمة أن كبر سنها وكثرة
عيالها عب على الرسول لكنه أصر على المواساة والبر فأثلا : أما أنك مسنة فانا أكبر منك وأما العيال
فألى الله ورسوله فهل بعد هذا يتقول أفاك أن هذا الزواج كان الدافع إليه الولع بالنساء

وأما رمة بنت أبي سفيان فقد تزوجت من عبد الله بن جحش الذي أسلم فأعلنت رمة معه إسلامها رغم
أنف أبيها زعم الفئة المشركة في ذلك الحين وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة لكنه تخلى عن العقيدة
فتنصر وتخلت عنه فقيمت في دار القبية وحيدة لا زوج يحميها ومولها ولا أهل يؤمنونها فأى خذلان
أوجع لها من هذا ولكن صاحب القلب الكبير والنفس الكريمة يرفض أن يدع رمة لخذلانها الموجع
فبعث إليها يخطبها لنفسه ويكفل النجا شرفي تزوجها منه ولما طادت شهدت المدينة احتفالا رائعا
بسرورها

ولا ننسى ان هذا العمل الجليل من النبي صلى الله عليه وسلم من شأنه ان يثير راغبات ابي سفيان ويرغبه ويحول قلبه وعشيرته الى الاسلام ان لم يكن عاجلا فأجلا فقد يرا لصاحب هذه الريحيسة والناخسوة .

فزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من ام حبيبة قبل جلول واقع وساكنين من عشيرتهم ووجهه فتوسبونه الى عرش الشهوة وزينب بنت خزيمه التي تسقيت بأم المساكين لشدة حبها للفقراء وعطفها عليهم ومرتأ بهم وقد تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ليمولها اذ لم يكن لها عائل يمد فقده زوجها عبيدة بن الحارث شهيدا يوم بدر ولم تكن ذات جمال ولا شباب ويقال انها لم تكلم في بيت النبوة الا اسابيع معدودة ثم توفيت .

وجوهية بنت الحارث سيدة بني المصطلق وصفية بنت حبي بن اخطب سيدة بني النضير تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم على اثر انهزام قوسها ووقوعها في ذل الاسر وهوان السبي والرحمة تقضى بالقالة عشرة المنزوا ذل اما "جوهية" فان قوسها بني المصطلقين قد هزمو هزيمة منكرا اوسقت سبايا ومنهن "جوهية" ابنة زعيمهم الحارث بن ابي ضرار ووقعت عند توزيع السبايا من نصيب ثابت بن قيس فمرض عليها ان يكاتبها لا نها لا تطيق وهي بنت العز والجاه ان تعامل معاملة الرقيق فيستمتعن بالخدمة فذهبت الى الرسول صلى الله عليه وسلم تستعينه على امرها ولكن اريحية الرسول كانت اسمى من معاناة هينة فلتكن بخير يتجاوزها الى قوسها في الدين والدنيا وقد كان دفع قديتها الى ثابت بن قيس فمات حرة وتزوجها واصبحت زوجة القائد المنتصر وقد كانت ابنة القائد المنهزم وأم المؤمنين بعد ان كانت كافرة واصبح قوسها اسمها رسول الله بعد ان كانوا اعداءه وسبب هذه المساهرة . اعتق اهل مكة بيت من قوسها واسلم ابوها وسائر بني المصطلق فبهل يصح القول بعد هذا ان الزواج بجوهية كان عن شهوة جامحة وأما عافية بنت حبي بن اخطب فقد وقعت ضمن نساء خيبر في ذل السبي وسهانة الاسر وهي بنت سيد وزوجة سيد من سادات خيبر وانسانيتها المالية تأبى ان تتركها امسة تشهن وتذل بعد ان سقط في اليدين ابوها وزوجها واخوها وانما تجبر قلبها الكبير ربتحبر ثم بزواج نصير به اعز ما كانت في قوسها وموضع الاحترام والتهجيل فصحيح انها كانت جميلة ولكن لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد مجرد الجمال لعشر عليه في احدى قريباتها الجميلات ولكن كان كما عرف عنه يكرم عزيز قوم ذل

واما عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت عمر فكان الزواج بهما لتأكيد الروابط مع صاحبيه الكبيرين بملاقة المساهرة وما يدل على ان الزواج باحدهما لم يكن دافعة الشهوة ان عائشة قد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سن السادسة ودخل بها في سن التاسعة

ولو كان قصد الرسول صلى الله عليه وسلم من الزواج مجرد التمتع بالبراءة لما خطب فتاة ينتظر على الدخول
 بها ثلاث سنين وإنما يحد من أول الأمر إلى التزويج بثلاثة من المشركين أو حولها أكثر نضجا
 وأوفر شبابا ولا يوجب الاقتران بها إلى فترة خطبة تمت ثلاث سنين
 وإنما تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ليؤكد الصلة بابيها الذي كان صاحب الأول له وليكون هذا
 الزواج تكريما لابيها على موافقه الشرففة الكبيرة في مؤازرة رسول الله وخدمة الاسلام
 وحفصة بنت عمر تزوجت بموت زوجها خنيس بن حذافة السهمي بعد قتل من موقعة بدر وقيل احد من
 جراحت اعابته فيها وسنها يبلغ الثامنة عشرة وليس من الانصاف لايلة مجاهد شابة ان تظل تقاسى
 لوعة التزويج لذا فقد عرضها ابوها الذي يحمل مسئوليتها وقلقه تزويجها في مثل هذا السن بالاضافة
 الى قلة نسيانها من الجمال على ابي بكر رضي الله عنه فتركه فغاصبها النبي عثمان رضي الله عنه فاذا
 به يرفض عرض صاحبه معتذرا بأنه لا يريد التزويج هذا الوقت فكانتا صديقتين قاسيتين من اعز اصحابه
 لقي بعدهما عمر رسول الله وقلبه يدمى من ألم الاعراض والرفض وكياته يهتر قلنا وضبا ولم يردك الرسول
 ذلك فطمأن عمر وواساه قائلا : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة
 ودخلت حفصت بيت النبوة لا بدافع من عرامة الشهوة وإنما من نبالة النخوة
 وميمونة بنت الحسارث فقد تأيمت من ابي رهم وعندما دخل المسلمون مكة سنة سبع لعمرة القضاء
 اعجبها مظهر المسلمين وهم يهتفون ويلهون فصاحت من فوق ظهر بيميرها : البعير وما عليه للرسول
 ورسوله وما كان من خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخذلها ويخيب رجاءها فحقق رغبتها في شرف
 امومة المؤمنين ومن البين ان من داعى تعدد أزواجه عليه السلام ان يجتمع في بيت النبوة مثل هذا
 الهمدد الكثير من النماء لينقلن ما يرينه ويسمنه من الهدى النبوى واحكام الشريعة الى المسلمين
 والمسلطات فيتبصر انتفاع الامة بذلك
 وايضا ليكون عدل الرسول صلى الله عليه وسلم بين زوجاته المثل الحى والتقدوة الحسنة لمن يضطر من
 المسلمين أن يحدد زوجاته (١)

موقف الرسول من زواج زيد بن زينب

زينب بنت جحش ابنة عم الرسول على الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب ربيت على مرأى من الرسول وسمع وشهد ما تحبو من الطفولة الى النضج وتنمو من الصبا الى الشباب وكانت منه بمنزلة البنت أو الأخت الصغرى فكان يحرفها حق المعرفة قبل ان تتزوج زيدا وحسب يدى ما هى عليه من جمال فلو كان جمال المرأة يبهر الرسول وميل قلبه لخطبها لنفسه وتزوجها ولكنه ليس كغيره من الذين يفتنون بالجميلات ولهذا خطبها لمولاه وتبناه زيد بن حارثة فاستنكفت وقالت : انا خير منهن حسبنا وأبى اخوها عبد الله بن جحش حيث ان زيدا ليس كبقوا لها ولكن الرسول على الله عليه وسلم امر على هذا الزواج لتزول الاعتبارات القائمة على المصيبة وحدها ويدرك النامر جميعا : ان لا فضل للمصرى على عجمى الا بالتقوى : وهو يرى : أن لا يكره على هذا امرأة من غير ائمه فلتكن ابنة عمته من التى يطبق عليها أولا النقص لتقاليد العرب فى هذا المجال وتزول قول الله تعالى : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من امرهم ومن وحى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا * (١)

ولم يكن امام عبد الله واخته زينب بعد نزول هذه الآية الا الاذعان فقالا رضينا يا رسول الله
وسنى زيد بن زينب ————— (٢)

الأمير الذى أخفاه الرسول وأظهر خلافه

بعد أن تزوج زيد بن زينب لم يسلم له قيادها ولا لان باباؤها بل جعلت تخفى عليه بنسبها واعلم الله نبيه على الله عليه وسلم ان زيدا مهين لزيد بن زينب وأنه سيتزوجها بعده ومع هذا كان اذا جاء زيد يشكو الى النبي سوء معاملتها له ويأذنه فى تطلقها يقول له النبي " امسك عليك زوجك واتق الله " ويخفى النبي فى نفسه ما اعلمه الله به من تطلق زيد لها وتزوجه بها خشية قالة الناس ان محمدا تزوج من كانت زوجة تبناه وكان على الرسول ان لا يهين اهتماما لقول الناس ما دام ذلك بأمر الله فهو الاحق وحده ان يخشى وليس الناس

قال ابن حجر العسقلانى : اخبر ابن ابى حاتم هذه القصة من طريق الصرى ولفظة :

بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرسول اراد ان يزوجه زيد بن حارثة مولاه فكرمت ذلك ثم انها رضيت بما صنع وسئل الله فزوجها اياه ثم اعلم الله عز وجل نبيه — بعد — انها من أزواجه فكان

يستحي أن يأمره بطلاقها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجته وأن يتقى الله وكان يخشى الناس من عصيها عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه وكان قد تسبى زيد * (١)

فأذى كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم هو : أخبر الله إياه أنها ستصير زوجته والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه

هذا هو الأسلم والأصح وليس رواه عبدالرزاق عن معمر بن قتادة قال : جاء زيد بن حارثة فقال يا رسول الله : أن زينب اشتد على لسانها وأنا أريد أن أطلقها فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله * قال : والنبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يطلقها ويخشى قالة الناس (٢) وقد رده القاضي عياض فقال : ولا تسترب في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الظاهر وأنه يأمر زيدا بما ساءها وهو يحب تطلقه إياها كما ذكره جماعة من المفسرين

ثم قال : وصحح هذا القول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا * وكان أمر الله بضمولا * أي لا بد لك أن تتزوجها ووضح هذا أن الله لم يهد من أمره معها غير زواجه لها فدل أنه الذي إخفاء عليه الصلاة والسلام ما كان أعلمه الله به (٣)

فأعلم أنه يبدى ويظهر ما إخفاء ولم يظهر غير تزوجها منه فقال * زوجناكها * فلو كان الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو حبة طلاقها لكان يظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر الله بظهوره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه إنما عتب على إخفاء ما أعلمه الله تعالى أنها ستكون زوجة له وعتاب نهيها صلى الله عليه وسلم على قوله لزيد * أمسك عليك زوجك * معلوم بأنه سيطلقها وتزوجها هو بعده عتاب على ترك الأولى

وقد علم أبو المصعب : قول النبي لزيد * أمسك عليك زوجك * وقد أخبره الله بأن زيدا سيطلقها ويتزوجها هو بأنه أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها فأبدي له زيد من التفرقة عنها والكراهية فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها .

وأما أمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه لأقامة الحجج وصرفة العاقبة ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن . فليس في مخالفة متملق الأمر لتملق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما (٤)

(٣) الشفا ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٣
(٤) أحكام القرآن ج ٣ ص ١٥٢٢

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٤٠٣
(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٤٠٣

ولكن يرد قول ابن المسيب هذا قوله تعالى (وتخشى الناس) فهو صريح في أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما قال لزيد * أمسك عليك زوجك * خشية مقالة الناس ولا يصح أن يفهم من قول الله تعالى * والله أحق أن تخشاه * أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخشى الله .

فانه يخشى الله تعالى كما قال * انا اخشاكم لله واتقاكم له * ولكن لما خشى الناس أيضا في هذا الأمر كان مخالفا الأولى إذ الأولى أن يخشى الله وحده ولا يخشى احدا معه كما قال تعالى * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله

الحكمة في هذا الزواج ابطل آثار التبنى

يتضح هذا من قول الله تعالى * فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذ قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا *

أي زوج الله نبيه صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد وانقضت عدتها منه لكي لا يتسبون للتبني ما للابن الحقيقي من حقوق الميراث والنسب وانما حق المولى والاخ في الدين * وما جعل ادعياءكم ابنائكم ذلكم قولكم بما فواهم *

ولا يستطيع احد أن ينقض تقاليد الاجيال المتوارثة الا الرسول نفسه بقوة عزيمته وحكم بوقته في التشريع والقدوة حتى يكون ادعى لقبول الناس

وكان ما قضى الله من قضاء كائنا لا محالة فقضاءه في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي كائن * وكان أمر الله مفعولا * وما يقضى بما لله انما يكون لحكم سامية لا كما يزعم المشركون والمستشرقون من ان الدافع الى زواج الرسول بن زينب هو الافتتان بها والاعجاب بجمالها .

قال الله تعالى " يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضات ازواجك والله غفور رحيم (١) " فهم البعض من عتاب الله نبيه على ان محرم على نفسه ما احله الله ابتغاء مرضات ازواجه انه ارتكب ذنبا قال الزمخشري : كان هذا ما حرمه الرسول على نفسه من ملك اليمين او المصل زلة منه لانه ليس لاحد ان يحرم ما احل الله لان الله عز وجل انما احل ما احل لحكمة ومصلحة عرفها في احلاله فاذا حرم كان ذلك قلب المصلحة ففسدة (٢)

ولدفع هذه الشبهة وما قاله الزمخشري نذكر سبب النزول : وهو يوضع ما حرمه الرسول على نفسه مما كان حلالا له وحنوا الرسول صلى الله عليه وسلم وتلطفه في معاملة زوجاته حتى كان يرضيهن بما يشق على نفسه فنقول : وردت روايات في صحيح البخاري مسلم تفيد ان ما حرمه الرسول على نفسه هو المصل كما وردت روايات اخرى في غيرهما تفيد ان ما حرمه الرسول على نفسه هو وطء جاريته ما يرتفع ذكر كلا منهما لتعرف من الموازنة بينهما ايها اصح ثم لتعرف ايها اكثر توافقا وانسجاما مع الفاظ الاية حديث العسل :

روى البخاري بعنده عن عائشة رضی الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا فهدى زينب ابنة جحش وهكت عندها فتواطأت انا وحفصة عن اتينا دخل عليها فلقلل له : اكلت مفاخير ابي اجد منك ريح مفاخير قان : لا ولكني كنت اشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن اعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك احدا (٣)

وقد روى مسلم في صحيحه روايتين : اولاهما كهذه تفيد ان التي سقت الرسول المصل هي زينب بنت جحش وان المتظاهرتين عليه هما عائشة وحفصة والرواية الثانية تفيد ان التي سقت المصل هي حفصة وان المتظاهرات عليه من نسائه سودة وعائشة وسمية وهي :

روى مسلم بعنده عن عائشة قالت / كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والمسل فكان اذا صلى العصر دار على نسائه فهدنو مشهن فدخبت على حفصة فاحتبهن فهدها اكثر مما كان يحتبهن فسألت عن ذلك فقيل لي : اهدت لها امرأة عن قومها عكة من عمل فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة فقلت : اما والله لاحتالين له ففكرت ذلك لسودة وقلت : اذا دخل عليك فانه يهدنو منك فتولي له يا رسول الله اكلت مفاخير ؟ فانه سيقول لك لا فتولي له : ما هذه الريح ؟

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه ان يوجد منه الريح فانه يقول لك سقتني حفصة شربة
عمل فقولي له : جرت نحلته المرفط وسأقول لك له وقوليه انت يا سفية فلما دخل على سودة قالت
تقول سودة والذي لا اله الا هو لقد كذبت ان ابادتني بالذي قلت لي وانه لعلى الباب فرفقا منك فلما
دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله اكلت مخافير ؟ قال : لا قالت : فما هذه الريح ؟
قال سقتني حفصة شربة عمل قالت : جرت نحلته المرفط * فلما دخل على قلت له مثل ذلك ثم دخل على
صفية فقالت يمثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت : يا رسول الله الاسقبك منه ؟ قاتة لا حاجة لي به
قالت : تقول سودة : سبحان الله لقد حرمناه قالت : قلت لها : اسكتي (١)

* المخافير * جمع مغفور يضم الميم هو سمع حلو وله رائحة كريهة ينضجها شجر يقال له المرفط يضم الميم
والفاء يكون بالحجاز

وقيل : المرفط نبات له ورقة عريضة تفتتر على الارض له شوكة جعنا * ثمرة بيضاء كالقطن مثل زر القيسر
خبث الراهضة

* جرت نحلته المرفط * اكلت المرفط ليسير منه العسل والحلوا * عفا كل شي * حلو (٢)
والحديث الاول الذي فيه ان المتظاهرتين : عائشة وحفصة ارجح لانه :
١ - الذي يتوافق مع لفظ الآية * وان اتظاهروا عليه *

٢ - ومع الحديث الذي رواه الامام احمد في مسنده عن ابن عباس انه سأل عمر رضي الله عنهما عن المرأتين
اللتين نزلت فيهما الآية * ان تتوا الى الله * فقال : هما عائشة وحفصة
وعلى هذا فالذي اسره النبي الى بعض ازواجه هو شرب العسل فلما نبات به واطلمه الله عليه عرف بمضه
وهو : كت شربت عملا عند زينب بنت جحش فلن اليهود واغرض عن بعض قوله عليه الصلاة والسلام
* وقد حلفت *

حديثها ريبسة

روي النسائي بمسنده عن ابن عمر مالك بلفظ * ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهامة يطؤها فليس
تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فانزل الله عز وجل * يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك الآية (٣)
ورواه ابن جرير ايضا بعدة روايات منها : ما رواه بمسنده عن ابن عباس قال : قلت لعمربن الخطاب من
المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة وكان بد * الحديث في شأن ام ابراهيم القبطية اسابها النبي صلى الله

عليه وسلم في بيت حفصة في نوبتها فوجد حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت الى شيئا ما جئت الى احد من ازواجك في بيوت وفي ديري وعلى فراشي قال : الا ترضين ان احرمها فلا اقربها ؟ قالت بلى فحرمها وقال لها * لا تذكرى ذلك لاحد * فذكرته لعائشة فاظهره الله عليه فانزل الله تعالى * يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضات ازواجك الايات كلها قبلنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن يمينه واصاب جاريتك (١)

رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بام ولده مارية في بيت حفصة فوجدته حفصة معها وكانت حفصة غابت الى بيت ابيها فقالت له : تدخلها بيتي ما صنعت بي هذا من بين نساءك الا من هو انى عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهي على حرام ان قرنتها قالت حفصة : وكيف تحرم عليك وهي جاريتك ؟ نحلف لها الا يقربها فقال النبي صلى الله عليه وسلم * لا تذكرى لاحد * فذكرته لعائشة فآلى لا يدخل على نساء شهره فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة فانزل الله عز وجل * لم تحرم ما احل الله لك * الاية (٢)

وفي هذه الروايات ان دخول الرسول صلى الله عليه وسلم بمارية في بيت حفصة انما كان في يوم حفصة ولكن في رواية اخرى ان ذلك كان في يوم عائشة في بيت حفصة (٣)
كذلك تحفيد الروايات السابقة ان الذي اسره النبي صلى الله عليه وسلم الى حفصة هو : تحريم مارية على نفسه لكن اخبر ابن مودجة عن ابن عباس وابن ابي حاتم عن مجاهد ان النبي صلى الله عليه وسلم امر الى حفصة تحريم مارية وان ابا بكر وعمر يريان الناس بعده فامرت ذلك الى عائشة فصرفت بعضه وهو امر مارية واعرض عن بعض وهو : ان ابا بكر وعمر يريان بعده مخافة ان يفشو (٤) وقيل بالعكس اي عرف البعض الذي هو ولاية ابي بكر وعمر عن بعده واعرض عن البعض الذي هو امر مارية وهناك قول ثالث : بان الاية نزلت في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها ارضا لازواجك

روى ابن ابي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : نزلت هذه الاية * يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك

(٣) روح المعاني ج ٩ ص ١٠٥

(٤) روح المعاني ج ٩ ص ١٠٨

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٠٥

(٢) الجامع لاحكام القرآن ج ٢٢ ص ٦٦٥٢

في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم (١)

وقد ضعف العلماء هذا القول . قال ابن كثير : وهذا قول غريب وقال ابن الصوي : أما ما روى ان الآية نزلت فن الموهوبة فهو ضعيف في السند ضعيف في المعنى . أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواه . أما ضعفه في معناه فلان رد النبي صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريما لها لان من رد ما وهب له لم يحرم عليه انما حقيقة التحريم بعد التحليل (٢) ولهذا فنحن نستخدمه ويبقى معنا القولان : الاول وهو تحريم المسمل والثاني وهو تحريم مارية .

اما الاول : فان رواياته وردت في الصحيحين واما الثاني فرواياته في غير الصحيحين ولهذا ترى القاضي عياض يرجح ان الآية في قصة المسمل لا في قصة مارية كما ان النسائي يصف اسناد عائشة في المسمل بأنه جيد في غاية الصحة وفي شرح النووي على صحيح مسلم قال القاضي : ان الصحيح في سبب نزول الآية انها في قصة المسمل لا في قصة مارية المروي في غير الصحيحين ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح قال النسائي : اسناد حديث عائشة في المسمل جيد صحيح غاية (٣) ولكن يكر على الاول امران اولهما :

ان الامتناع محلل في الآية بائتنا . مرضات الزوجات واعتناق الرسول صلى الله عليه وسلم عن المسمل بعد ان اخبرته زوجاته بأن رائحته غير طيبة كان لكراهية صلى الله عليه وسلم الشديدة لكل ذي رائحة خبيثة فلقد عرف عنانه بحجبه ان يوجد منه الريح الطيبة او يجدها ويكره الريح الخبيثة لمناجاة الملك فليحذر ان تحريمه ما احل الله على هذا القول لا يتنا . مرضات ازواجه ثانيهما : قوله " واذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثا فان الحديث الذي اسره هو : شرب المسمل عند زنتب او حفصة وهذا لم يكن سرا غائبا عن بعض زوجاته حتى يظلمهن عليه بل كان معلوما لدى زوجاته قبل ان يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك الروايات السابقة فمن هذا نرى ان حديث المسمل اقوى من جهة رواية الشيخين له وحديث مارية اكثر موافقة لالفاظ الآية ولا يفرضه الا ان امتناع الرسول عن وطئها حرمان لها من حقها المشروع ولا يسمنا ازاء هذا الا القول بأن الآية نزلت بعد القصتين فاقصر بمضال الرواة على احدهما والبعض الآخر على نقل الاخرى

واعتناع الرسول صلى الله عليه وسلم مما احله الله له ارضا لا زواجه كان لما دأب عليه من الحنو على زوجاته والتلطف في معاملتهن وتحمل ما يشق على نفسه في سبيل راحتهم يدل لذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس عن امرئ من مرضى الله عنهما قال : والله ان كلنا في الجاهلية ما نعد للنساء امرا حتى انزل الله فيهن ما انزل وقسم لهن ما قسم . قال : فيبيننا

٢٧٤ (٣) النووي على صحيح مسلم ج ٣ ص ٢٧٤

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٨٧
(٢) احكام القرآن ج ٤ ص ١٨٣٣

انا في امر اتامرہ اذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا قال : فقلت لها : مالك ولما ههنا فيما تكلفك في امر اريدہ فقالت لى : عجبا لك يا ابن الشطاب ما تريد ان تراجع انت وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظن يومه غلظبار فقام عمر فاخذ رداً مكنه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنيه انتك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظن يومه غضبان ؟ فقالت حفصة والله انا لتراجعہ فقلت : تعلمين انى احذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم (١)

فامتاع الرسول صلى الله عليه وسلم عما يحبه وتعرضه لما يشق عليه من اجل ارضاء زوجاته كان امرامصهودا منه الا ان الاولى بالنسبة للشئ الذى امتنع منه هنا عدم الامتناع منه فلما ترك الاولى وامتنع منه عوتب نظرا لسمو مقامه .

وعد الزمخشري له زلة وتعليلة بما علل به زله من الزمخشري نفسه ولهذا رد عليه ابن القيم في الانتصاف بقوله ما اطلقه الزمخشري في حق النبي صلى الله عليه وسلم تقول واقتراء والنبي منه براء وذلك ان تحريم ما احله الله على وجهين :

الاول : اعتقاد تبوت حكم التحريم فيه فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بعمة الايمان وان صدر سلب المؤمن حكم الايمان

الثانى : الامتناع عما احله الله عز وجل كقوله تعالى " وحرمتنا عليه المراضع من قبل " ان منعنا لاغير وقد يكون مؤكدا باليمين مع اعتقاد حله وهذا مباح صرف وحلال محض

ثم يقول : فعلى القسم الثانى تحمى الاية والتفسير الصحيح يحضده فان النبي صلى الله عليه وسلم حلف بالله لا اقرب ما رتولما نزلت الاية كفر عن يمينه ويدل عليه " قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم "

وهذا المقدار مباح لهم في ارتكابه جناح وانما قيل له " لم تحرم ما احل الله لك رفقا به وشفقة عليه وتنويعها لقدرة ولنصبه ان يراى مرضاة ازواجه بما يشق عليه " الى ان يقول : والزمخشري حمله على المحمى الاول ومعاذ الله ان يعتقد النبي تحريم ما احله الله له " وما هذه من الزمخشري الاجراءة على الله برسوله (٢)

وقيل : ان ذلك كان صغيرة ولكنه ضعيف والاصح : انه ترك للثولى والانبيا يعاتبون على ترك الاولى قال القرطبي : وقد قيل ان ذلك كان ذنبا من اصفائير والصحيح انه معاتبة على ترك الاولى .
وانه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة (٣)

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٦٦٦٣

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٢٤
(٢) الانتصاف ج ٣ ص ٢٤٤ - ٢٤٥

الاذن لبعض المتخلفين عن تبوك

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ان الروم يمدون العدة لقتاله ويجهزون جموشهم للانتفاض على المسلمين وما أن الهجوم افضل ومائل الدفاح فقد امر رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه بالاستعداد والتجهز لغزو الروم وذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة يقول ابن هشام : وذلك في زمن عمرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلا والحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون للشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها الا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لعمد الشقة وشدة الزمان وكثرة المد والذى يصد له ليتأهب الناس لذلك اهبطه فامر الناس بالجهاز واخبرهم انه يريد الروم (١) وسارع المسلمون بالتجهز وقد مررتهم ايديهم بالاذن لاهل الحاجة والفاقة ليعينوهم على الجهاد مسابقين الى مغفرة من ربهم وجنة عرضها كعرض السماء والارض لكن المنافقين وهم لا يصدقون بوعد الله ومغفرته وحنته تواصلوا بالتخلف وقال بعضهم لبعض : " لا تفرؤوا في الحر " فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الغزو ومعتذرين بعدم الاستطاعة " لو استطعنا لخرجنا معكم " والواقع انهم كاذبون في اعتذارهم فهم يستطيعون الخروج " والله يعلم انهم لكاذبون " فأذن لهم الرسول في القعود بناء على ما بدوه من عذر فنزلت الآية الكرمة

" عفا الله عنك لم اذن لك لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " (٢)

والمعنى : كما قال ابن جرير : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في اذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك وفي التخلف عنك من قبل ان تعلم صدقهم من كذبهم واكان ينبغي لك ان تأذن لهم في التخلف عنك اذ قالوا لك : لو استطعنا لخرجنا معك " حتى تصرف من له المذر منهم في تخلفه ومن لا عذر له منهم فيكون اذنك لمن اذنك له عنهم على علم منك بعذره وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقا وشكا في دين الله (٣)

وقد تمسك الطاعنون في عصاة الانبياء بهذه الآية في الظمن على نبينا من وجهين :

الاول : قوله تعالى " عفا الله عنك " والعفو يستدعي سابقا المحصية

الثاني : قوله تعالى " لم اذن لك لهم " فهو استفهام انكارى يفيد ان ذلك الاذن كان محصية

والججججواب :

بأن اذن الرسول في التخلف لمن اعتذروا بعدم الاستطاعة ليس محصية لانه لم يخالف نهيها

تقدم له وإنما ترك في هذا الأمر لاجتهاده والاتساع في اجتهاده يحكم بحسب ما يظهر له والرسول صلى الله عليه وسلم كيشرك قد أظهر له هؤلاء التامر انهم لا يستطيعون الخروج معه للفرز والنافقين كانوا مبالغة في التوبة والخذاع واخفاء حقيقتهم يحملون بالله على ^{مليقون} :

" اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون " فلا جرم ان يمدقهم كل مسن يسممهم والنبي كيشرك لا اطلاع له ^{عليه} بما كان منهم الا فيما يظلمه الله عليه منهم وحتى وقت الاذن لهم في التخلف لم يكن قد اظلمه الله على انهم منافقون كاذبون

فلا محصية اذن من النبي صلى الله عليه وسلم وإنما مخالفة لاولى اذ كان الاولى له ان يتوقف عن الاذن لهم حتى يتكشف امرهم ويتبين الصادق في المذرم من الكاذب يقول الالوس :

المعنى : لم سارعت الى الاذن لهم ولم تتوقف حتى ينجلي الامر كما هو قضية الحزم اللائق بشأنك الرفيع (١) اذ لو توقف الرسول صلى الله عليه وسلم في الاذن لهم بالتخلف لظهروا على حقيقتهم واتضح نفاقهم انه كانوا مصرين على القمود عن الفرز وان لم يأذن لهم فيه الرسول قال مجاهد : نزلت هذه الآية في اناس قالوا : استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اذن لكم فاقعدوا وان لم يأذن لكم فاقعدوا (٢)

فيكون قمودهم عن الفرز رغم عدم الاذن فيه فاضحا لا يريد كاشفا نفاقهم وفي ذلك مسحة للاسالم والمسلمين حتى لا يتخذون بهم بعد ذلك

وعلى هذا فقوله " عفا الله عنك " اي ما سدر عنك من مخالفة الاولى و " لم اذنت لهم " انكار ^{عليه} الرسول الاذن في التخلف الذي هو خلاف الاولى ويرى البعض ان قوله " عفا الله عنك " لا يدل على محصية ولا على عتاب بل يدل على مبالغة الله في تعظيم نبيه وتوقيره كما يقول الرجل لغيره : اذا كان معظما عنك عفا الله عنك ما عنمت في امرى ورضى الله عنك ما جوابك عن كائن وعافاك الله ما عرفت حتى فلا يكون ^{غيره} الفرض من هذا الكلام الامهدا التبجيل والتعظيم ومن هذا القبهل مارواه عبد الرازق عن ابن عيينه ^{عن} عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد عجبتم من يوسف عليه السلام وكرمه وصبره والله تعالى يفر له حين سئل عن الهرات المجاف والسمان ولو كنت مكانه ما اجبتهم حتى اشترط ان يخرجوني (٣) واما قوله " لم اذنت لهم " فيدل على المعاتبة على ترك الاولى

ومن ذهب الى هذا القول الفخر الرازى (٤)

وتدحكي القاضى عياض قولا اخر : بأن الآية فوق انها لا تدل على سابقة محصية لاندل على المعاتبة بفعل خلاف الاولى لانه صلى الله عليه وسلم كان خيرا بين الاممسن : ^{العلماء}

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ٤٨١
(٤) مفاتيح الغيب ج ٤ ٤٥٥ - ٤٥٦

(١) رون المعاني ج ٣ ٣١٦
(٢) التفسير ابن كثير ج ٢ ٣٦٠

اذن لهم في التخلف وإنشاء للمس يأذن فقد قال الله تعالى : * فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أخذ لهم أهله الله بما لم يطالع عليه من سرهم انه لو لم يأذن لهم لقمدها وقتل عن علماء الصلف قولهم كان ينبغي صلى الله عليه وسلم ان يفعل ما شاء فيما لم يتزل عليه فيه وحى يبين حكمة حيث أذن له في الاجتهاد والمجتهد يحكم بما يرى انه مناسب

ومعنى * عفا الله عنك * على هذا لم يلزمك ذنبا (١)

وقول القاضي عياض هذا فيه ضعف من جهتين

الاولى : ان الآية ظاهرة في المتاب على ترك الاولى والناظها تدل عليه بوضوح وتلمس غير هذا في الآية فيه بعد *

الثانية : ان الآية التي معنا نزلت قبل اية النور التي فيها تخيير الرسول بين الاذن وعدمه

قال قتاده : عاتبه كما تصحون ثم انزل التي في سورة النور فخصص له في ان يأذن لهم ان شاء

فقال : فأذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم * (٢)

وعلى هذا فارجح الاقوال في الآية انها تدل على المتاب على ترك الاولى ولا تدل على سابقة مصيبة

هذا وان بدء الله نبيه بالمفوق قبل المتاب في هذه الآية * عفا الله عنك لم اذنت لهم * لطف منسبه

سبحانه مع نبيه واكرام له وتعلم لنا ان نحن الادب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم ولكن للزمخشري

في تفسير هذه الآية عبارتان فهما سوء ادب في حق نبينا صلى الله عليه وسلم وما كان له ولا لغيره

ان يقولها ولهذا فقد استقبحها العلماء المنصفون المقدرين نبيهم حق قدره المارفون ما يجب له

من التظيم والتوقير

اولهما : قوله : ان * عفا الله عنك * كناية عن الجنابة لان المفهوم مرادف لها :

وقد عقب على هذه العبارة احمد بن النير الاسكندري قائلا : ليس له للزمخشري ان يفسر هذه الآية

بهذا التفسير وهو بين احد امرين : اما ان لا يكون هو المراد واما ان يكون هو المراد ولكن قد اجعل

الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب وخموصا في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم فالزمخشري

على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام ولقد احسن من قال في هذه الآية :

ان من لطف الله تعالى بنبيه ان يدهاه بالمفوق قبل العتب ولو قال له ابتداء : لم اذنت لهم ؟

لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام فمثل هذا الادب يجب احتذاه في حق سيد البشر عليه افضل الصلاة

والسلام (٣)

الثانية : قوله عقب العبارة السابقة : ومناه : اخطأت وبشما نعمت

وقد عقب عليها الشيخ محمد عليان المرزوقي قائلا : خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرأفة وفسره المصنف

بخطاب الغلظة والقسوة وشتان ما بينهما (٤)

وقد احسن الامام ابن النير والشيخ محمد عليان صنعا في تعقيبهما على الزمخشري الذي تجاوز حده

مع افضل الخلق *

(١) الشفا وشرحها نسيم الرياني ج ٤ ١٧٧ - ١٧٨ (٣) الانتصاف على الكشاف ج ٤ ص ٢١٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٠ (٤) حاشية الشيخ عليان على الكشاف

استغفار الرسول عن مخالفة الأولى

في القرآن الكريم آيات تأمر الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم بالاستغفار من ذنبه وآيات تعهد ان الله تعالى غفر له ذنبه وكل ذلك يدل على وقوع ذنب منه أمر بالاستغفار عنه وغفر له الله من هذه الآيات قوله تعالى "فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" (١) *

وقوله تعالى "انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما يراى الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيفا" (٢) *

وقوله تعالى " ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهره" (٣) * على تفسير الورد بأنه الذنب

وقوله تعالى " انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" (٤) * ففي الآيتين

اختبار من الله انه يصر لتبنيه امر الفتح ليغفر له ذنوبه ما تقدم عنها وما تأخر

وتدفع الشبهة التي طرأت للبعض من فهمهم لهذه الآيات بوجه من الوجوه الأتية :

الأول : ان المقصود أن نهيانا صلى الله عليه وسلم لو وقع منه ذنب لكان مغفورا له وغير مؤاخذ به لكنه

لم يقع منه ذنب كما انه لو وقع منه الذنب لانقض ظهره لكنه لم يقع فلم ينقض ظهره

ولو وقع على سبيل الفرض للزم الاستغفار عنه وكسره القاضي عياض

الثاني : ان الذنب الذي قبل النبوة لا مؤاخذ به لانه لا شريعة تلزم احكامها وما بعد النبوة فالرسول

محصون منه فالمعنى ليغفر لك الله ما كان قبل النبوة بحووه وهو الذي كان ينقض ظهر الرسول ويكرب

نفسه عندما يتذكره بعد البعثة نظرا لسوء مكانته فوضع الله عنه وما كان بعد البعثة ببركة حراسة

المصمة فالمغفرة كناية عن عدم المؤاخذة ذكره القاضي عياض والفخر الرازي والالوس

الثالث : المراد ذنوب المؤمنين من امته واضيفت ذنوب الامة اليه للصلة الاكيدة بين الرسول وامته فهو

مسئووه ما هم مسؤولهم وهو الشفيح لهم والمعنى : ليغفر الله لامتك ما صدر ويصدر منها

والمراد : ان رحمة الله لهذه الامة اكبر

والمراد بيومه على هذا : رفع غائلته في الدنيا عن العذاب الما قبل ما دام صلى الله عليه وسلم

فيهم وما داموا يستغفرون فقد قال سبحانه وما كان الله ليخذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم

يستغفرون * وقد ذكره الفخر الرازي في تفسيره والخطيب الشريفي في تفسيره والقاضي عياض في

" الشفا " وابوالقاسم البغدادي في تنزيه الانبياء * والالوس الذي ضعفه بقوله : ولا يخفى بعد هذا

الوجه (٥)

الرابع : حفظ الرسول صلى الله عليه وسلم من الذنوب قبل النبوة وعصمته منها بعد ما فلا تقع منه

(٣) سورة الشرح الايتان ٣٥٢

(٤) سورة الفتح الايتان ٢٥٩

(١) سورة محمد الاية ١٩

(٢) سورة النساء الايتان ١٠٦٤١٠٥

(٥) ربح المعاني ج ٩ ص ٤٠٢

وضع الوزير على هذا الرسول كناية عن عصمته عن الذنوب

قال ابو حيان : " ووضعتنا عنك وزرك " كناية عن عصمته عن الذنوب وتطهيره من الابدناس عبر عن ذلك بالخط على سبيل البالفة في انتقاء ذلك كما يتناول القائل : رفعت عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر منه زيارة على طريق البالفة في انتقاء الزيارة منه (١)

ويرى الفخر الرازي : ان طلب الرسول الشفران معناة : المعصمة منه وعدم وقوعه فقد قال : الاستخفار طلب الشفران والشفران هو الستر على القبيح ومن هم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الشفران " واستخفر لذنبك " ان لا تصحنا وذلك قد يكون بالمعصمة منه فلا يخفى فيه كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات (٢)

الخاص : ان الذنب هو : مخالفة الاولى وهو ليس بذنب حقيقة وانما بالنسبة الى مقام الرسول العالي وانقاص ظهره به لاستخفاه اياه وقد حكى هذا القول ابن جرير والخطيب الشيرازي وصاحب الشفا وشارحاه وهذا القول : هو اظهر الاقوال عندى واسمونها

وامر الرسول بالاستخفار في الامة الكريمة " واستخفر لذنبك ان اللعان غفورا رحيم " لا يستلزم وقوع الذنب من الرسول يتبين هذا من ذكر سبب نزولها والتي قبلها وهو :

ان طعمة بن ابيرق لما سرق درعا وطلبت منه رضى واحدا من اليهود تبك السرقة ولما اشتد الخسومة بين قومه وبين قوم اليهودى جاء قومه الى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه ان يبرىء صاحبهم ولحق هذه الخيانة باليهودى فقال الرسول الى تصديق المسلمين وادانة اليهودى لما كان يثقل على المسلمين في ذلك العهد من الصدق والامانة وعلى اليهود من الكذب والخيانة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الايات بشئ وتلما توقف وانتظر الوحى والفرض من النبي في قوله " ولا تكن للخائنين خصيما " هو : ان لا يحسن الظن بقوم لجرسرت انهم مسلمون وان لا يظهر منه للميل الفطرى والدينى اثر ما في مجلس القضاء وان لا يساعد من يظنون انه صاحب الحق بل يسوى بين الخصمين في كل شئ حتى تظهر براءة احدهما وخيانة الاخر (٣)

ويكون امر الله نبيه بالاستخفار من ذلك

اما لانه حسن الظن بقوم لانهم مسلمون وود لو ثبت براءتهم

(٣) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٩٧

(١) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٨٨
(٢) مفتاح النيب ج ٧ ص ٥٢١

أو لان القيم لما شهدوا على سرقة اليهودى وعلى براءة طعمة من تلك السرقة ولم يظهر للرَسُول
 صلى الله عليه وسلم ما يوجب القُدْح في شهادتهم ثم بأن يقضى بالسرقة على اليهودى ثم لما اظلمه
 الله تعالى على كذب اولئك الشهود عرف ان ذلك القضا لو وقع لكان خطأ فكان استغفاره بمسبب
 انه هم بذلك الحكم الذى لو وقع لكان خطأ في نفسه وان كان معذورا عند الله
 او ان الاستغفار ليس لنفسه وانما لاولئك الذين يدافعون عن الجانى وهو طعمة ويهدون ان يظهر
 براءته من السرقة (١)

هذه هي المحامل التي ينبغي ان تحمل عليها الآيات السابقة وسها يتأكد ان الرسول صلى الله عليه
 وسلم لم يقع منه الذنب وغيره من الذنوب عليهم الصلاة والسلام جميعا مثله
 واذا فسر الورد في الآية الكريمة " ووضعتنا نك ووزك " بالحمل الثقيل فلا مجال لتوهم وقوع ذنوب
 من الرسول حيث يكون معنى الآية :

وحططنا عنك حملك الثقيل الذى جعل لظهرك نقبضا اى صوتا والنقبض : صوت المحامل والرجال والنفاس
 فنقبض الظهر : ما يسمع من مفاصله من الصوت لثقل الحمل
 وامناد الانقاض للحمل اسناد للسبب فهو مجاز
 ولكن ما هو المراد بالحمل المنقض هنا ؟

اختلفت فيه الاقوال ونسوت منها مايلي :

الاول : ماكان يضايق الرسول صلى الله عليه وسلم ويثقل على نفسه من اصرار قومه على الكفر ولما دبرهم في العناد ورفض الحق فاذا الله منه هذا بتيسير نشر الدين واسلام بعضهم وذكر هذا الوجه : الالوس وابو القاسم البغدادي والمضد الايجب ففى شرح المواقيف :

قد جاء الوزر بمعنى الثقل كقوله تعالى " حتى تضع الحرب اوزارها فجاز ان يكون ههنا مستعملا للثقل الذى كان عليه من الغم الشديد لاصرار قومه على انكاره والشرك بالله ولصدم استطاعته على تنفيذه امر الدين فلما اعلى الله شأنه وشد ازره فقد وضع عنه وزره وثقله ويقوى هذا التأويل قوله تعالى " ورفضنا لك ذكرك " وقوله " وان مع المرمر يمرا " (١)

الثانى : ان وزره : تها لكه عليه السلام على اسلام اولى العناد ووضعه عنه عدم تكليفه الا بالابلاغ دون الهداية فليل له " ان عليك الا البلاغ " لست عليهم بصيطر ذكره النيسابورى (٢)

الثالث : الوزر : ماثقل ظهره من اعباء الرسالة ووضعه تيسير اباؤها للناس ذكر هذا النيسابورى والالوس والفخر الرازى الذى قال :

المراد منه تخفيف اعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بامرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها فسهل الله تعالى ذلك عليه وحط عنه ثقلها بأن يصرها عليه حتى تيسرت له (٣)

الرابع : الوزر هو : الحيرة التى كانت له قبل البعث وطلبه شريعة يحمل بها ووضعه عنه انزال شريعة اليه بددت حيرته وسكنت نفسه ووضحت عنهما لنفسه وللناس معه

ومن ذكر هذا الوجه الفخر الرازى والقاضى عياض والالوس والنيسابورى الذى قال :

المراد : ازالة الحيرة التى كانت له قبل البعث كان يريد ان يمهّد ربه وماكانت نفسه تسكن الى الشرائع المتقدمة لوقوع التحريف فيها (٤)

والاعام محمد عبده ذكر هذا ايضا فقال : وقد شرح الله صدر نبيه باخراجه عن تلك الحيرة

(١) شرح المواقيف للجرحانى المقصد الخامس ص ١٥٦ (٣) مفاتيح الشيبان ج ٨ ص ٤٢٩

(٤) غرائب القرآن ج ٣٠ ص ١١٦

(٢) غرائب القرآن ج ٣٠ ص ١١٦

التي كان يضيف لها صدره بما كان يلاقه في سبيله من جمود قومه وخذلهم فكان يلتصق الطريق لهدايتهم فعلمه الله كيف يسلك الى نفوسهم وهداهم بالوحي الى الدين الذي ينقذهم به من الهلكة التي كانوا اشرفوا عليها وقد كان ما يهيمه من امرهم حملا ثقيلا عليه فوضعه الله عنه وازاحه عن ثقله بقيادة الله له في سبيل تجايتهم وتمسدهم بالوحي كلما التبس عليه امر او ضاع عليه مذهب فبهذه الهداية التي تكفل له بها قد وضع عنه ذلك العبء الثقيل كما قال " ووضعتنا منك وزرك الذي انقض ظهرك " (١)

الخامس : ان يكون هذا وعدا للرسول صلى الله عليه وسلم بازاحة الثقل عن ظهره بانتشار الدين واعلاء شأن الاسلام وقد تحقق هذا الوعد بعد الهجرة اذ دخل الناس في دين الله افواجا ذكر هذا الوجه الشيخ شاكراً محمود عطية (٢)

وهناك اقوال اخرى عدا هذه الخمسة ذكرها بعض المفسرين اضربت عنها صفحا لضعفها وعدم الاقتناع بما تضمنه ويحسد الى ان اية الفتح لذكر المقصود بالفتح وهل هو سبب للمغفرة ام ليس بسبب فنقول : الفتح : هو الظفر بالبدن هوة او صلحا او بغير حرب لانه مطلق مالم يظفر به فاذا ظفر به فقد فتح واختلف في هذا الفتح فروى قتادة عن انس : انه فتح مكة وقال مجاهد : انه فتح خيبر وقيل : هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الاسلام التي يفتحها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم

وهذه البلاد لم تكن فتحت بعد نزول الاية فتكون عدة للرسول بالفتح وحي به على لفظ الماضي لانها في تحققها بمنزلة الكاشفة كآنة تعالى قال : انا فتحنا لك في حكنا وتقديرنا وما قدره وحكم به فهو كائن لا بحالة وقال اكثر المفسرين : هذا الفتح هو صلح الحديبية وهو الاصح وخور رواية عن انس وقال الزهري لم يكن فتح اعظم من صلح الحديبية وذلك ان المشركين اختلطوا بالمسلمين فسموا كلامهم فتكهن الاسلام في قلوبهم فاسلم في ثلاث سنين خلق كثير فعز الاسلام بذلك واكرم الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بالفتح ليس سببا للمغفرة والتقدير : انا فتحنا لك فتحا مهيئا فاستغفر ليغفر لك الله وشله " اذا جاء

تسر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا فسيح بحمد ربك واستغفره " وقيل : الفتح لم يكن ليغفر له بل لتنام النعمة وهداية السراط المستقيم والنصر المميز ولكنه لما عد عليه هذه النعم وعلمها بما هو اعظم النعم كأنه قيل : بحرنا لك الفتح لتجمع لك بين عز الدارين وانوار المآجل والجل .

وقيل : ان الفتح سبب للمغفرة من حيث انه جهاد للمعد وفيه الثواب

وقيل : من حيث انه كان سببا لدخول مكة والطواف بالبيت واداء فريضة الحج والعمرة (٣)

(٣) تفسير الخازن والنسفي على هامشه ج ٤ ص ١٥١ - ١٥٢

(١) تفسير جزي عم ص ١١٦
(٢) بوقالقرآن من عصمة الانبياء

ويعد ان انتبهنا من دفع الشبهة التي اثارها بعض من الناس لم يعرفوا للانبياء عليهم الصلاة والسلام اقدارهم حول عشرة من الرسل الكرام وجهت اليهم الطعون اكثر من غيرهم بمائزته ما احتسب عن حقوق ذنوب باى منهم *

فانا نجد من زعم وقوع ذنوب من عموم الانبياء لا من نبي معين

وتمسكوا بظواهر بعض النصوص قرآنا وسنة على زعمهم ولكن بفهم هذه النصوص فيها صحيحا يظهر بطلان زعمهم وينقطع دابر افتراءهم ويرى الجميع ^ص الانبياء عليهم الصلاة والسلام نقية مشرقة * من هذه النصوص التي استندوا اليها :

قوله تعالى * ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليجهنن عملك *

أى لقد اوحى اليك لئن اشركت ليجهنن عملك والى من قبلك من الرسل مثله اى لو اشرك احد منهم لجهن عمله ففهموا خطأ من هذا انه يجوز ان يشرك احد من الانبياء *

ولكن المعنى الصحيح الذى يدفع هذا الوهم هو : ان ذلك على صعيد الفرض والمحال لا يصح فرضها او ان الخطاب للرسل والمراد امهم *

ومنها قوله تعالى * وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنىلقى الشيطان فى اغنثته فينسخ الله مالقى الشيطان ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم *

وهذه الاية قد سبق توضيح معناها بما لا يبيح مجالاً لطمع طاعن

فان كل نبي ورسول عندما يقرأ ويحدث قومه يلقى الشيطان الى اولياته شبهها ليجادلوا بها الانبياء والرسل فيما يتلون ويحدثون ولكن الله يبطل هذه الشبهة بالحجج الواضحة الدافعة للباطل او ان كل نبي وكل رسول عندما يتمنى هداية قومه فان الشيطان يلقى اليهم بما يصرفهم عن الهدى ويقتحج حجة فى طريق ايمانهم ولكن الله لا يفتق اثره لوسوس الشيطان فى نفوس بعض عباده ويميز الحق لهم عن الباطل فيهدوا ويضلوا

ومنها قوله تعالى * ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه مقى نصر الله الا ان نصر الله قريب *

فهم يقولون : ان الرسل صلى الله عليهم وسلم قد ضاقت الاعور عليهم واشتد الهلاك بهم ومن آمن معهم حتى استبعدوا نصر الله لهم فتان الله يبين لهم ان نصره لهم بعيدا ولكنهم عندهم ولكنه قريب منهم

" متى نصر الله الا ان نصر الله قريب "

فالرسل اذن تصاروا مع غيرهم من البشر في نفاذ الصبر والضجر عن الشدائد التي تحد ان عدوا نصر الله بعينها منهم فكيف يحدث هذا من الرسل ؟

والمعنى الصحيح : ان الرسل والمؤمنين معهم عندما اشتد الهلاك بهم ولزلوا وزلوا لا شديدا ثموا النصر من الله وطلبوه ولا شيء على من اذا ضاق الحال به واترج من عدوه ازمجا شديدا ان يطلب من ربه كشف الضر عنه واعطاءه النصر بدل لهذا مايمده " الا ان نصر الله قريب "

الذي يدل على اجابة الله مطلبهم عن النصر العاجل فالرسل واثقون من النصر وانه آت ان قريبا ام بعينها لكنهم رحمة بمن آمن معهم واشتد الهلاك بهم يطلبونه قريبا (١)

ويدل لهذا ايضا ماجاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال : قلنا يا رسول الله الاتستصر لنا ؟ الا تدعو الله لنا ؟ فقال : ان ما كان قبلكم كان احداهم يوضع الضمار على مفترق رأسه فيخلص الى قدسه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ثم قال : والله ليهتم الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا اللسه والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون (٢)

فالرسل واثقون من ان ربهم سيتم لهم امرهم ويحلى كلمته ويمكن له دينه ان قريبا ام بعيدا وعندما يشتد الكرب ويظنون الهلاك بالمؤمنين معهم يطلبون النصر القريب ولا مطعن من هذا في حقهم اما ان الرسل تهاؤس من النصر وتظن ان الله اخلفهم ما وعدهم به فهذا هو المستبعد في حق الرسل ولا يصدق العقل وقوعه منهم وقوله تعالى

" حتى اذا استهاؤس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يورد بأسنا عسرن القوم المجرمين (٣)

لا يصح ان يفهم منه على قراءة التخفيف والهناء للمفعول ما توهمه البعض من ان الرسل يشعوا من النصر على مكذبهم وظنوا ايضا ان الله قد اخلف وعدة بالنصر عليهم على عود الضعيرين في " وظنوا " و" انهم " على الرسل لان هذا يقتضى شكهم فيما جاءهم به الوحي وحاشا للرسل هذا وحتى لا يفهم من الآية : ان الرسل ظنوا برسبهم ما هم محصون منه كانت تقرا عائشة رضی الله عنها الآية . بالتشديد ويكون معناها : حتى اذا استهاؤس الرسل من كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان اتباعهم الذين آمنوا قد كذبوهم لطول الهلاك وتأخر النصر عنهم -- جاءهم

نصر الله عند ذلك

روى البخارى بسنده عن عمرو بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : وبعثوا بها عن قول اللسنة تعالى * حتى اذا استياس الرسل * قال : قلت : اكدبوا ام كذبوا (مشددة او مخففة)
 قالت عائشة : كذبوا (بالتشديد) قلت : فقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم فما هو بالظن قالست /
 اجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لها : وظنوا انهم قد كذبوا * قالت : معاذ الله لم تكن الرسل
 تظن ذلك برميها * قلت : فما هذه الاية ؟ قالت : هم اتباع الرسل الذين آمنوا برميهم وعد قومهم
 فظان عليهم الياء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استياس الرسل من كذبهم من قومهم وظنت الرسل
 ان اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك (١)
 فها هي ام المؤمنين رضى الله عنها لما وجدت في قراءة التخفيف والبناء للمفعول احتمال ان تفهم بما لا
 يليق برسول الله تعالى عمدت الي قراءة التشديد وقولها : معاذ الله انكار لان يظن الرسل بهم
 ما لا يليق *

وقد يكون قراءة التخفيف لم تليقها

واما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من انه يرى : ان المعنى : وظنوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله
 من النصر لانهم بشر وتلا قول الله تعالى * وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله
 الا ان نصر الله قريب * وذلك على عود الضميرين في * وظنوا انهم * على الرسل وان كذبوا مبنى
 للمفعول وفاعله الله *

فقد ضعفه البعض كابن الانبارى وتوقف في صحة هذه الرواية عن ابن عباس الزمخشري والبيضاوى وعلى
 صحتها اذ وردت في صحيح البخارى فمن احسن ما قيل في توجيه قول ابن عباس ما ذكره القشيري
 انه هاجم خطر على قلوبهم فسرفوه عنها

واحسن منه ما قاله الحكيم الترمذى : انهم ظنوا تخلفه لتخلف بعض شروطه لانهم اتهموا الوحي (٢)
 وهناك اقوال اخرى في توجيه قول ابن عباس تظهر عليها صحة الضعف لاذالم اذكرها
 ويمكن ان تفهم الاية الكريمة على هذه القراءة على وجوه مقبولة تستقيم وتبرئة ساحة الانبياء عليهم الصلاة
 والسلام ما لا يليق منصبته اليهم *

الاول : ان الرسل لما طال مدة امهال كذبهم ظنوا ان من وعدهم النصر من اتباعهم اخلفوا ما وعدوهم
 به من نصرهم على عدوهم فليس يأس الرسل وظنهم التكذيب معناه : اليأس من نصر الله

وكذب وعد الله وهو بيني على ان الضير في "ظنوا" للرسل وفي "انهم" لاتباعهم وكذبوا حتى
للمفمول وفاقله اتباع الرسل (١)

الثاني : ان اتباع الرسل ظنوا قد لم يروا لحد هم (النصر نتيجة واثق ظاهر بسبب تراخيه عنهم انهم
قد كذبوا فيما اخبروا به قومه من انهم ينصرون عليهم وهو بيني على عود الضير في "ظنوا"
على الاتباع.

الثالث : ان ام الرسل المكذبين لهم ظنوا ان رسلهم كذبتهم في قولهم : انهم ينتصرون عليهم
وهو بيني على عود الضير في "وظنوا" و"انهم" لا مع الدعوة وان فاس كذبوا : الرسل (٢)
الرابع : ظن الذين لم يؤمنوا بالرسل كذبوا بما وعدوا من النصر على اعدائهم وهؤلاء بيني على عود
الضير في "ظنوا" للرسل اليهم وفي "انهم" للرسل (٣)

وحسن عود الضير الى الرسل اليهم ولم يجر لها ذكر فيما سبق لان ذكر الرسل يدل على الرسل
اليهم او ان ذكر الرسل اليهم جرى في قوله فيمن "انهم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبلهم" والظن على هذا بمعنى التوهم والحسبان
واما قراءة التهديد فالتوهم بالقدح في عصاة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والسبق عليها واحد من
اثنتين :

احدهما : ان الظن بمعنى اليقين والمعنى : وايقن الرسل ان الامم الدعوة كذبهم تكذيبا
لا يندر منهم الايمان بعد ذلك

ثانيهما : ان الظن بمعنى الحسبان والتقدير : حتى اذا استؤنس الرسل من ايمان قومهم فظن الرسل
ان الذين آمنوا بهم كذبهم (٣)

ومضى "جاءهم نصرنا فنجى من نفاق" ولا يورد بأسنا عن القوم الجرمين
لما بلغ الحان الى الحد المذكور جاء نصرنا للانبياء والمؤمنين بهم فجاءة فنجى النبي ومن آمن
به ولا يورد هذا بنا عن القوم الكافرين .

فهذه الآية على الوجوه السابقة لا تقتضى فكما عند الانبياء فيما جاءهم به الوحي ولا ظنا ان الله
اخلف وعد لهم بالنصر على اعدائهم

واما الحديث الذي يفيد ان كل البشر قد اذنبوا او قاربوا الذنب الا يحيى بن زكريا الذي رواه
الامام احمد ابن عباس رضى الله عنهما منوعا "بلفظ" ما من احد الا وقد اخطأ اوهم بخطيئته
ليحيى بن زكريا " واخرجه ايضا البيهقي عن ابن عمر مرفوعا
وروى الثعالبي ايضا عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) تميم الرياض ج ٤ ١٢
(٢) شرح على القارئ على الشافعي ج ٤ ١٢

(٣) تفسير ابوالسمود ج ٣ ٩٥
(٤) مفتاح الغيب ج ٥ ١٢٩

" كل من آذى يلقى الله عز وجل بذنبيه فيعذبه أو يرحمه الا يحيى بن زكريا فانه كان سيذا وحسرا
 ونبيا من السالحين :

وذكر هذا الحديث القاضى عياض في الشفا بلفظ " ما من احد الا الم بذنب او كاد الا يحيى بن زكريا
 وصحى " الم " وقع عنه ذلك قليلا وصحى " كاد " قرب منه فهو بمعنى " هم " في الرواية الاخرى
 فيمكن القول انه ضعيف فان الشهاب الخفاجي : وسنده ضعيف فم قال : ومقابته تقوية
 في الجملة (١)

وعلى تسليم ان التقابطة اكسبه قوة حتى صار يحتق به فيجاب عنه باحد لجوابين
 الاول : ان الذنب بالنسبة للانبياء عليهم الصلاة والسلام هو : مخالفة الاولى وسى ذنبا نظيرا
 لعلو مقامهم وسمو منزلتهم عند الله وحسنات الابرار سيئات القومين
 او : العظائر غير الخمبة التي صدرت عنهم سواء او خطأ في التأويل
 الثاني : ان الحديث ذكر ان كل انسان قد كانت منه احدى العاليتين : فعل الذنب او الهم بسبه
 من غير ان يفعله وعلى هذا فالذين فعلوا الذنوب هم من عدا الانبياء والذين همرا ولم يفعلوا
 هم الانبياء ويحصر الهم بانه حديث النفس او كحل الطبع وكل منها لا يطعن به في مقام الانبياء عليهم
 الصلاة والسلام
 يدل على هذا ما ثبت ثبوتنا قاطعا من عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب بالادلة
 العقلية والنقلية

ومـــــــد

فقد تم بتوفيق الله تعالى وتيسير منه سبحانه اعداد هذا البحث على الوجه الذي ارجو ان يرضى به
 عنى ربي واتمنى ان اكون قد اديت به بعض الواجب على الانبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام
 وآمل ان يحوز القبول ويقع موقع الاستحسان لدى اساتذتي الفضلاء وشيوخى الاجلاء خاصة
 ولدى سائر القراء له عامية

ويعلم الله عز وجل وحده مدى ما بذلته من جهد فيه ومقدار ما اعانيته من مشقة حتى جاء على هذا
 النحو وقد ضاعف على الجهد والمشقة انى اعددت من يوقى في مدينة " بورفؤاد " اماما وخطيبا
 على روى البصر وروى النيران ايضا من عدو غادر الهم ولكن كان يهين الامر على وزيرى عزى
 وسودا وينسبى يتابعه انى كنت احسن بقيامى بواجبين مقدمين فى آن واحد : احدهما : نحو
 من حملوا رسالات الله هدية الى اهل الارض والثانى نحو من حملوا السلاح دفاعا عن دين الانبياء
 وعن التراب الغالى والارض الطاهرة واوى واجبا على العرفان بالجميل لاستاذ الكبير الدكتور
 عبد الغنى الراجضى على اشرانه الكريم على هذه الرمان وعلى توجيهاته القيمة لى - سائلا المولى
 سبحانه ان يجزئه عنى احمد الجزاء وان يمتعه بدوام الصحة وطون الهناء .
 والحمد لله رب العالمين وعلى الله وسلا على نبينا وعلى جميع الانبياء والمرسلين . . .

مصادر البحث

سلسل	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
١	جامع البيان في تفسير القرآن	الامام محمد بن جرير الطبري	
٢	الكشاف	ابو محمود بن عمرو الزمخشري	
٣	مفاتيح الغيب	محمد فخر الدين الرازي	
٤	الجامع لاحكام القرآن	محمد بن احمد القطبي	طبعة الشعب
٥	غرائب القرآن ورفائب الفرقان	علاء الدين بن محمد النيسابوري	
٦	انوار التنزيل واسرار التأويل	عبد الله بن عمر البهزاوي	طالحي - الطبعة الاولى
٧	البحر المحييط	محمد بن يوسف الشيرازي	طالحي
٨	السراج المنير	محمد الخطيب الشيرازي	
٩	تفسير القراء العظيم	اسماعيل بن عمر بن كثير	دار احياء الكتب العربية
١٠	اركان العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم	ابو السعود محمد بن العماري	طالحي
١١	احكام القرآن	ابو بكر بن العربي	
١٢	لباب التأويل في معاني التنزيل	علي بن محمد الشهرستاني	طالحي - الطبعة الخيرية بصر
١٣	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	السيوطي	
١٤	الانتماء	احمد بن محمد بن النوير	
١٥	روح المعاني	محمد الالوسي	طالحي - الطبعة الكبرى البيروتية الطبعة ١
١٦	تفسير المنار	السيد محمد رشيد رضا	دار المنار
١٧	محاسن التأويل	محمد جمال الدين القاسمي	
١٨	تفسير النور	محمد نوري الجاوي	طالحي
١٩	موقف القرآن من عصاة الانبياء	الدكتور شاكرو محمد عطية	
٢٠	دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن	عبد النبي عوي الراجحي	طبعة مطبعة الموفقيه
٢١	تفسير التبيين	عبد الله بن احمد النخعي	دار احياء الكتب العربية
٢٢	الاتقان في علم القرآن	جلال الدين السيوطي	طبعة الحلبي
٢٣	بجاءل الفرقان في علم القرآن	الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني	دار احياء الكتب العربية الطبعة ٢
٢٤	الدخل لدراسة القرآن الكريم	الدكتور محمد محمد ابوشهبة	طبعة مطبعة الازهر الطبعة ١
٢٥	البحر المحييط	السيد محمد رشيد رضا	طبعة المؤتمر الاسلامي الطبعة ٦

مراجيع البحث

مسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٢٦	كتب الحديث وعلومه صحیح البخاری	الامام ابو عبد الله البخاری	طبعة المطبعة المشرقية المصرية
٢٧	الفتح البخاری من صحیح البخاری	ابن حجر العسقلانی	طبعة المطبعة الكبرى المصرية المطبعة الاولى
٢٨	صحیح مسلم	مسلم بن الحجاج	طبعة كتاب الشعب
٢٩	شرح النووي علی صحیح مسلم	الامام النووي	طبعة كتاب الشعب
٣٠	الشفاء بتمريف حقوق المصطفى	القاضي عياض	طبعة محمد علي بيبي
٣١	نسيم الرياض شرح شفاء القاضي	عياض احمد شهاب الدين الحفافي	طبعة المطبعة الازهرية المصرية
٣٢	شي الشفاء	الامام علي القاري	طبعة المطبعة الازهرية المصرية
٣٣	اختصار علوم الحديث	الامام الحافظ ابن كثير	طبعة المطبعة الثالثة
٣٤	اليات الحديث شرح اختصار علم	فاهد محمد شاکر	طبعة المطبعة الثالثة
٣٥	الاسلوب الحديث في علوم الحديث	الشيخ ابن السني	طبعة مطبعة شبرا المطبعة الثانية
٣٦	المواهب اللدنية بالمنح المحمدية	الامام القسطلاني	
٣٧	شرح للمواهب اللدنية	عائز قسطلاني	
٣٨	الطبقات الكبرى	ابن سعد	طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية
٣٩	دلائل النبوة	الامام ابو بكر الحسين البيهقي	طبعة المكتبة اسلفية بالمدينة المنورة
٤٠	كتب التوحيد		
٤٠	المواقف	عبد الدين الازجسي	طبعة الثالثة القاهرة
٤١	شي المواقف	السيد الجرجاني	طبعة الثالثة القاهرة
٤٢	المعاني المستقيمة	الامام احمد بن محمد التيمي	طبعة الحلبي
٤٣	شرح الفتاوى على الاستقامة	احمد بن محمود التيمي	طبعة الحلبي
٤٤	الحواشي على شرح الفتاوى	عصمان والمعلم	طبعة الحلبي
٤٥	عصمة الانبياء	فخر الدين الرازي	
٤٦	القدس في الميثاق والاهواء والتحلل	علي بن احمد بن حزم الظاهري	طبعة المطبعة المتعددة المطبعة الاولى
٤٧	تنزية الانبياء	ابو القاسم علي بن الحسين	طبعة المطبعة الحيدرية بالجوف الاشرف
٤٨	شرح الاسول الخمسة	القاضي عبد الجبار بن احمد	طبعة الاولى الحلبي
٤٩	تحفة المريد على جوهرة التوحيد	ابراهيم البيهقوري	طبعة الاولى الحلبي
٥٠	تحفة الاخلاق في عصمة الانبياء	محمد الكابلي	نسخة مخطوطة بمكتبة الازهر
٥١	طوالع الانبياء	عبد الله بن عمر البيهقوري	طبعة المطبعة الخيرية
٥٢	مطالع الانظار على طوالع الانوار	عبد الله بن الاعفاني	طبعة المطبعة الخيرية

مراجيع البحث

ملاحظات	المؤلف	اسم الكتاب	سلسلة
طبعة مكتب القاهرة الطبعة ١٢	الشيخ محمد عبده	رسالة التوحيد	٥٣
مطبعة الارشاد الطبعة الاولى	محمود ابو دقique	مذكرات في التوحيد	٥٤
مطبعة حجازي الطبعة الاولى	عبد الرحيم الجزيري	ادلة اليقين	٥٥
مطبعة الفجالة الجديدة	محمد الحسين الطواغري	التحقيق التام في علم الكلام	٥٦
مطبعة الحضارة الفرقة	السوالمدين يحيى المزي	بذل الجهود في افحام اليهود	٥٧
دار الهلال	الشيخ عبد الرحمن الجزيري	توضيح المقاصد	٥٨
	عبار محمود المقاد	حقائق الاسلام وابطال خصومه	٥٩
	شرح الدواني على المقائد المعظمة الجلال الدين	كتب الأصول	٦٠
	الامام الامدي	الاحكام في اصول الاحكام	٦١
	الكان بن الهمام	التحرير	٦٢
	محمد امين المعروف بامير بان شاه	تيمير التحرير	٦٣
مكتبة الكليات الازهرية	محمد بن يوسف المنوس	عدة اهل التوفيق والتعديد	٦٤
مكتبة الكليات الازهرية	القاضي البيهقلاوي	منهاج الوصول الى علم الوصول	٦٥
مطبعة لجنة البيان العربي	الشيخ طه عبد اللطيف موقفي	مختصر عقوة البيان شرح منهاج الوصول	٦٦
		اصول الفقه	٦٧
		كتب السيرة	
مطبعة الازهرية - الطبعة ٣	العلامة علي بن برهان الدين الحلبي	السيرة العليوية	٦٨
مطبعة العربية الحديثة	الامام عبد السلام هرون	تهذيب سيرة ابن هشام	٦٩
دار الكتاب العربي الطبعة ٥	محمد الوهاب النجار	قصص الانبياء	٧٠
	محمد حسين هيكل	حياة محمد	٧١
		التسوية	٧٢
مجموعة الكتاب المقدس بالقاهرة		انجيل لوقا	٧٣
		كتب اللغة	
		لسان العرب	٧٤
	محمد الدين الفيروز ابادي	القاموس المحيط	٧٥
الطبعة الاميرية الطبعة الثانية	محمد بن امين بكر الرازي	مختار الصحاح	٧٦

فهرس البحث

محلل الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	تمهيد	١٠٤	الباب الثاني : الادلة على صحة الانبياء
٢	المقدمة : المسألة الاولى الفاية من خلق الانسان	١٠٥	الفصل الاول : الادلة العقلية على صحة الانبياء
٨	تصور الحواس والمقو عن تحقيق الفاية من البشر		وهي اخلاقهم
١٠	رسالات الله هي السبيل لهداية البشر	١١٢	آدم عليه السلام
٨	المسألة الثانية	١١١	الفصل الثاني : الادلة النقلية على صحة الانبياء
١٨	تعريف بالنبوة والرسالة	١١٥	اخلاق نوح عليه السلام
٢١	ارسل الرسل وحكمه	١١٧	اخلاق ابراهيم عليه السلام
٢٦	الوحي : تعريفه اقسامه - كيفياته	١٢٤	اخلاق ليج عليه السلام
	امكانه وقوعه	١٢٧	اخلاق يوسف عليه السلام
٢٩	المعجزة	١٣٥	اخلاق موسى عليه السلام
٣٢	الصفات الواجبة للرسل	١٤٠	اخلاق داود سليمان عليهما السلام
٣٧	الباب الاول : العصمة	١٤٥	اخلاق نبيينا عليه السمة والسلام
٣٧	الفصل الاول : معنى العصمة	١٥٤	الباب الثالث
٤١	اقسام العصمة : الفصل الثاني		موقف التوراة والانجيل من عصمة الانبياء
	عصمة الانبياء من الكفر والشرك قبل النبوة	١٥٥	المهد القديم وآدم عليه السلام
٥١	عصمة الانبياء من الكفر والجهل والشك	١٥٦	المهد القديم ونوح عليه السلام
	بعد النبوة	١٥٦	المهد القديم وابراهيم عليه السلام
٦١	الفصل الثالث	١٥٩	لوط عليه السلام في المهد القديم
	عصمة الانبياء من الكذب في التبليغ ودعوى الرسالة	١٦١	موسى وهرون في المهد القديم
٧٤	حفظ الوحي من التأثير بالسحر	١٦٦	داود عليه السلام في المهد القديم
٧٧	الفصل الرابع	١٦٨	سليمان عليه السلام في المهد القديم
	عصمة الانبياء من الذنوب قبل الهجرة	١٧١	عيسى عليه السلام في المهد القديم
٨٤	عصمة الانبياء من الذنوب بعد النبوة	١٧٢	المبشرون والظمن على الانبياء
٩٠	الفصل الخامس	١٧٤	الباب الرابع
	العصمة من الكذب في غير الوحي والتبليغ		دفع شبهات حول الانبياء
١٠٠	عصمة الانبياء من الامراء والميوبي الغفيرة	١٧٤	اجتهاد الانبياء

فهرس البحث

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧٨	الفصل الاول : الشبهات الواردة على آدم	٢٧٧	الشبهة الثانية وردھا
	الشبهة الاولى ودفعھما	٢٨٥	الشبهة الثالثة وردھا
١٩٣	الشبهة الثانية ودفعھما	٢٨٢	الشبهة الرابعة وردھا
٢٥٦	الفصل الثاني : شبهات حون نوح	٢٨٥	الشبهة الخامسة وردھا
	الشبهة الاولى ودفعھما	٢٨٦	الشبهة السادسة وردھا
٢١٧	الشبهة الثانية ودفعھما	٢٨٨	الفصل السابع : ما نسب الى داود ورجحہ
٢١٩	الفصل الثالث : شبهات حون ابراهيم	٣٥٢	قضا داود في حادث الحرث والقسم
٢١٩	الشبهة الاولى وردھا	٣٥٦	الفصل الثامن : الشبهات الواردة على سليمان
٢٢٧	الشبهة الثانية وردھا		الشبهة الاولى وردھا
٢٢٣	الشبهة الثالثة وردھا	٣١٣	الشبهة الثانية وردھا
٢٣٦	الشبهة الرابعة وردھا	٣٢٢	الشبهة الثالثة وردھا
٢٤٥	الشبهة الخامسة وتوجيھها	٣٢٥	الفصل التاسع : يوشع وما طعن به في حقه
٢٤١	الفصل الرابع : شبهات حول لسوط	٣٢٣	الفصل العاشر : شجاعة عود خذ تم الانبياء
	الشبهة الاولى وردھا	٣٢٢	فريضة امتراح الغرانيق
٢٤٤	الشبهة الثانية وردھا	٣٢٥	الرد على فريضة امتراح الغرانيق
٢٤٦	الفصل الخامس : شبهات حون يوسف	٣٤٧	الرسول وضمان آيات من القرآن
	الشبهة الاولى واجابة عليها	٣٥١	الموسى والقول عن الاعشى
٢٤٧	الشبهة الثانية والاجابة عليها	٣٥٥	قبول القداء من اسرى بسدر
٢٥٥	الشبهة الثالثة والاجابة عليها	٣٦٢	الزواج بزينب بنت جحش وما اثير حوله
٢٥٨	الشبهة الرابعة والاجابة عليها	٣٧١	امتناع الرسول عن الباح لارضا زوجاته
٢٦١	الشبهة الخامسة والاجابة عنها	٣٧٦	الاذن ليهن المتخلفين عن تمسك
٢٦٣	الشبهة السادسة والاجابة عنها	٣٧٩	استغفار الرسول من مخالفة الاولى
٢٦٥	الشبهة السابعة والاجابة عنها	٣٨٤	الخاتمة وفيها شبه على عن الانبياء وردھا
٢٦٩	هل اخوة يوسف انبياء ام غير انبياء ؟	٣٨٩	مراجعة البحث
٢٧٤	الفصل السادس : شبهات حون موسى		
	الشبهة الاولى وردھا		